١٩٦٥

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

٢











الدون الهادئ



١٩٦٥
مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

(المجلد الثاني)

ترجمة

علي الشوك . أمجد حسين . غانم حمدون

مراجعة: غائب طعمة فرمان



مكتبة نوبل




اسم المؤلف : ميخائيل شولوخوف
عنوان الكتاب : الدون الهادئ ـ ٢
ترجمة : علي الشوك/أمجد حسين/غانم حمدون
مراجعة : غائب طعمة فرمان
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي/ أبو ظبي
الطبعة الأولى : ١٩٩٨

Author : Mikhail Sholokhov
Title : The Silent Don /2
Translator: A. Al-Shuk/ A.Hussein\ G. Hamdoun
Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation
First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ – ٧٧٧٦٨٦٤ – فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت – لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ – ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة – أبو ظبي
ص .ب : ٢٣٨٠
تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation
U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

الجزء الرابع

١

١٩١٦ . تشرين أول . مساء ، مطر ورياح ، غابات ، خنادق على مشارف مستنقع تظلله أشجار الحور . شبكات من الأسلاك الشائكة في المقدمة . وحل متجمد في الخنادق . صفيحة برج المراقبة الندية تسطع بحديدها الكامد . أضواء هنا وهناك في الحفائر .

في مدخل إحدى حفائر الضباط توقف هنيهة ضابط قصير القامة ، وانزلقت أصابعه المبتلة فوق أزرار معطفه . ثمّ حلها بعجالة ، ونفض الماء عن ياقته ، ومسح حذاءه بكومة من القش المداس فوق الوحل في المدخل ، وعندئذ فقط دفع الباب ، وانحنى ، ثم دخل الحفيرة .

والتمع على وجهه شريط زيتي من الضوء الأصفر ينساب من مصباح كيروسين صغير . فنهض ضابط يرتدي سترة مفتوحة من على سرير خشبي ، ومسّد على شعره الأشيب الأشعث وتساءل متثائباً :

ـ تمطر ؟

فأجابه الزائر :

ـ نعم ، ـ وخلع معطفه ، وعلّقه مع قبعته المبتلة على مسمار عند مدخل الباب . وأضاف :

ـ أنتم في دفء هنا . تدفئون الهواء بأنفسكم .

ـ أشعلنا الموقد قبل قليل . ولكن المشكلة هي أن الماء ينز من القاع . وسوف يكتسحنا المطر ، عليه اللعنة . مارأيك يا بونتشوك ؟

انحنى بونتشوك ، ثم قرفص أمام الموقد وقال وهو يفرك يديه :

ـ ضعوا بعض الألواح على الأرض . إن حفيرتنا جافة مريحة ، حتى ليسعنا أن نسير حفاة الأقدام . أين هو لستنتسكي ؟

ـ نائم .

ـ هل نام طويلاً ؟

ـ لقد عاد من جولة حول مراكز الحراسة ورقد في الحال .

ـ هل هناك بأس في إيقاظه ؟

ـ لابأس ، فسوف نلعب شوطاً من الشطرنج .

ـ ونضا بونتشوك المطر عن حاجبيه الكثين بسبابته ، دون أن يرفع رأسه ، وطفق ينادي بصوت هادىء :

ـ يفغيني نيقولا يفتش!

قال الضابط أشيب الشعر متنهداً : « يبدو أنه مستغرق في النوم » .

ـ ثم أردف بونتشوك منادياً من جديد : « يفغيني نيقولا يفتش! »

فنهض لستنتسكي مستنداً على مرفقه وقال :

ـ حسناً ؟

ـ أتلعب شوطاً من الشطرنج ؟

ـ أنزل يفغيني ساقيه من على السرير وراح يدلك صدره السمين بشدة براحة يده الناعمة البيضاء .

وعند اقتراب الشوط الأول من نهايته ، دخل ضابطان من السرّية الخامسة ، هما الرئيس كالميكوف والملازم تشوبوف . هتف كالميكوف وهو يجتاز العتبة :

ـ عندي خبر لكم! الكتيبة قد تسحب .

فندّت عن الضابط الأشيب الشعر الرئيس ميركولوف ابتسامة شك وقال :

ـ أين سمعت بذلك ؟

ـ ألا تصدقني أيها العم بيوتر ؟

ـ إذا أردت الحقيقة ، لا .

ـ أخبرنا آمر البطارية لتوه هاتفياً . أمّا كيف يدري ؟ بسيط! لم يمضِ على عودته من قيادة الفرقة إلا يوم واحد .

وقال تشوبوف وفي صوته رنّة طرب :

ـ الاستحمام شيء رائع ، ـ وطبطب على ردفيه كمن يفرك جلده بأغصان من شجر البتولا .

فعقب ميركولوف مبتسماً :

ـ لم يبقَ علينا إلا أن نضع المرجل هنا ، فلدينا ماء وافر .

وهمهم كالميكوف وهو ينظر إلى الجدران الخشبية والأرض الموحلة :

ـ مكانكم رطب ، أيها السادة ، رطب جداً .

ـ ذلك إننا إلى جوار المستنقع تماماً .

فتدخل بونتشوك :

ـ احمدوا الرب لوجودكم عند المستنقع تنعمون بالراحة كما لو كنتم في حضن المسيح . في المناطق الأخرى يخوضون المعارك ، أمّا هنا فلا نطلق النار سوى مرة في الاسبوع .

ـ القتال خير من التعفّن هنا في هذا الجحر .

ـ إنهم لا يحتفظون بالقوزاق ليبيدوهم في المعارك . لماذا تحاول أن تبدو ساذجاً أيها المنافق ؟

ـ إذاً ، فيم يحتفظون بنا ، في رأيك ؟

ـ ستلعب الحكومة في اللحظة المناسبة لعبتها القديمة لتصون نفسها على حساب القوزاق .

فلوّح كالميكوف بيده :

ـ لا تتكلم إلا هرطقة .

ـ هرطقة ؟ لماذا ؟

ـ لأنها كذلك .

ـ هذا هراء يا كالميكوف . لا تستطيع أن تنكر الحقيقة .

ـ أي ضرب من الحقيقة...

ـ ماذا ، الجميع يعرفون أنها الحقيقة . فلمَ تتجاهل أنت ؟!

فهتف تشوبوف :

ـ انتبهوا أيها السادة الضباط!

وانحنى على الطريقة المسرحية ، وأشار إلى بونتشوك قائلاً :

ـ سيبدأ الآن نائب الضابط بونتشوك بتفسير أحلام الاشتراكيين الديمقراطيين!

فندّت عن بو نتشوك ابتسامة ساخرة ، وقال وهو يقابل عيني تشوبوف بنظراته الصارمة :

ـ أتراك تحاول تمثيل دور المهرّج ؟ حسناً ، كما تشاء . كلٌّ وسجيته . ولكنني أقول أننا لم نشهد حرباً منذ منتصف السنة الماضية . فمنذ بدأت حرب الخنادق ، وزّعت الكتائب القوزاقية في مناطق منزوية ، وأبقوهم في الحفظ والإيداع إلى أن تحين الفرصة .

فسأله لستنتسكي فيما هو يجمع بيادق الشطرنج :

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ ومن ثم ، حينما يشيع التذمّر في الجبهة ـ وذلك أمر لا مفر منه ، لأن الجنود بدؤوا يسأمون الحرب ، كما يظهر ذلك من تزايد فرارهم من الجيش ـ سوف تستعين الحكومة بالقوزاق لاخماد حركات التمرّد . فهي تمسك بالقوزاق كحجر في يدها . وفي اللحظة المناسبة ستحاول القضاء على بوادر الثورة بذلك الحجر .

فاعترضه لستنتسكي :

ـ ألا ترى أنك تسرح في خيالك ياصاحبي العزيز ؟ إن افتراضاتك مهزوزة نوعاً ما... فقبل كل شيء ، يستحيل التكهّن بسير الحوادث . كيف يتسنّى لك أن تتنبأ بهذه الاضطرابات وما اليها ؟ ولكن لنفترض شيئاً آخر : الحلفاء سيسحقون الألمان وتنتهي الحرب نهاية رائعة ، فأي دور ستنسبه للقوزاق ؟

فارتسمت على فم بونتشوك ابتسامة جافة وقال :

ـ لا يبدو أنها ستنتهي في الوقت الحالي ، ناهيك عن نهاية رائعة .

ـ أطالوها...

وأكّد بونتشوك :

ـ ولن نرى نهايتها ، إن صح التعبير .

ثم سأله كالميكوف :

ـ متى عدت من إجازتك ؟

ـ يوم أمس الأول .

وفغر بونتشوك فاه ، ونفث كرة من الدخان ثم رمى عقب سيكارته .

ـ أين قضيتها ؟

ـ في بتروغراد* .

ـ حسناً ، ما هي أخبار العاصمة ؟ العاصمة تهدر ؟ آه ، يا للشيطان ، إني لأهب أي شيء مقابل أسبوع واحد أقضيه ، على قصره ، في بتروغراد!

فقال بونتشوك وهو يزن كلماته بعناية :

ـ ولكنك لن تجد سوى القليل مما يسرّك . فثمة عوز في الخبز . وفي أحياء العمال يخيّم الجوع ، والتذمّر ، ويتعالى الهياج .

فجال ميركولوف ببصره وقال متسائلاً :

ـ لن نخرج من الحرب سعداء . ماذا ترون أيها السادة ؟

أجاب بونتشوك :

---

* اسم بيتربورغ في أعوام ١٩١٤-١٩٢٤ (لينينغراد حالياً) . المعرب

ـ لقد تمخّضت الحرب الروسية ـ اليابانية عن ثورة ١٩٠٥ ، وسوف تتمخض هذه الحرب عن ثورة جديدة ، وليس ذلك وحسب ، بل وعن حرب أهلية .

فأتى لستنتسكي بحركة غير واضحة كأنه يوشك أن يقاطعه ، ثم نهض وجعل يتخطّى ذهاباً وإياباً وهو بادي التجهّم . وقال بصوت تنمّ نبرته عن غيظ مكتوم :

ـ إنني أستغرب وجود شخص كهذا الرجل بيننا نحن الضباط .

ثم أشار إلى بونتشوك المقوّس الظهر وأضاف :

ـ إنني أستغرب ، لأنني حتى هذا اليوم لم أستطع معرفة موقفه من وطنه ومن الحرب... فذات مرّة كان يتكلّم بصورة غامضة جداً ، ومع هذا فقد كان جليّاً من كلامه أنّه يريد أن تلحق بنا الهزيمة . أتراني على صواب يا بونتشوك ؟

ـ أفضل أن تلحق بنا الهزيمة .

ـ ولكن لماذا ؟ في رأيي ، رغبتك في اندحار وطنك خيانة عظمى بغض النظر عن آرائك السياسية . إنها لا تشرّف أي رجل ذي كرامة .

فتدخّل مير كولوف :

ـ هل تذكر كيف كانت الكتلة البلشفية للحزب الاشتراكي الديمقراطي في مجلس الدوما* تحرّض ضد الحكومة ، بالشكل الذي يساعد على هزيمة البلاد ؟

فسأله لستنتسكي :

ـ هل تشاركهم آراءهم يا بونشوك ؟

ـ لئن قلت أنني إلى جانب اندحارنا فمن الواضح أنني أعني ذلك بالضبط . ومن الخطل بالنسبة لي كعضو في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي أن لا أشارك رفاقي أعضاء الحزب في مجلس الدوما

---

* مجلس النواب الروسي القيصري . المترجمون

آراءهم . ويدهشني جداً يا يفغيني نيقولايفتش أن تكون جاهلاً بالسياسة إلى هذه الدرجة رغم ثقافتك .

ـ أنا قبل كل شيء جندي وهبت حياتي للملكية . إن مجرّد منظر «الرفاق الاشتراكيين» يثير فيّ النفور .

فقال بونتشوك في دخيلة نفسه : «أولاً وقبل كل شيء أنت بليد ، ثم انك حيوان عسكري مغرور» ، ثم كتم ابتسامته .

ـ لا اله إلا الله...

وقال ميركولوف كمن يعتذر :

ـ في الجيش ، يجد المرء نفسه في وضع شاذ . وقد وضعنا أنفسنا جميعاً بمنأى عن السياسة ، لا علاقة لنا بهذا الأمر .

جلس الرئيس كالميكوف وراح يمسّد ذراعيه المتدليين ، وقد تألقت عيناه المغوليتان الصارمتان . واستلقى تشوبوف على سرير ، وراح يحدّق في لوحة مثبتة في الحائط كان قد رسمها ميركولوف . وهي صورة امرأة شبه عارية لها وجه مريم المجدلية ، افتر ثغرها عن ابتسامة ساجية شهوانية وهي تنظر إلى ثدييها العاريين . وقد أزاحت إحدى الحلمتين السمراوين بإصبعين من كفها الأيسر ، وافترق خنصرها إلى الوراء بحذر . وتحت جفنيها نصف المسبلين ظل يلطّفه وهج عينيها الدافىء ، وقد حمل كتف ارتفع قليلاً إلى الأعلى قميصها المنزلق ، وارتمى ظل باهت في المنخفضين تحت الترقوتين . وكان ثمة رقة طبيعية فياضة وصدق لا كلفة فيه في وضعيتها ، وكانت ملامحها ذات جمال غريب جعل تشوبوف يبتسم رغماً عنه ، مأخوذاً بمهارة التخطيط ، وكان يشرد بذهنه عن سياق الحديث كلّياً .

هتف وهو ينتزع عينيه عن الرسم :

ـ جميل!

ولكن ملاحظته جاءت في لحظة غير مناسبة ، ذلك أن بونتشوك كان يقول :

ـ أستطيع أن أؤكد لكم أن القيصرية سوف يقضى عليها .

فخزر لستنتسكي بونتشوك ، ثم التفت إلى تشوبوف ، وقد افترّت شفتاه عن ابتسامة لاذعة ، وهو يلف سيكارة .

وهتف كالميكوف :

ـ بونتشوك! لحظة يا لستنتسكي! اسمع يا بونتشوك! لنفترض أن هذه الحرب ستؤول إلى حرب أهلية . وماذا بعد ذلك ؟ سوف تطيحون بالملكية . ولكن أي نوع من الحكومات تنوون تشكيلها بديلاً ؟

ـ حكومة الطبقة العاملة .

ـ برلماناً تعني ؟

فابتسم بونتشوك :

ـ أكثر من ذلك .

ـ حسناً ، وماذا أيضاً ؟

ـ دكتاتورية العمال .

ـ الآن أدركنا الحقيقة! ولكن المثقفين ، والفلاحين ؟ أي دور سيلعبون ؟

ـ سيتبعنا الفلاحون ، وكذلك جزء من المثقفين العاقلين . أما الآخرون... أما ما سنفعله مع الآخرين... فهكذا!

وبحركة خفيفة برم ورقة بيده ، ثم هزّها في الهواء وقال وهو يخرج كلماته من بين أسنانه :

ـ هذا ما سوف نفعله!

فقال لستنتسكي ساخراً :

ـ إنكم تحلقون عالياً .

فرد عليه بونتشوك قائلاً :

ـ ونحط عالياً .

ـ خير لكم أن تنشروا القش مسبقاً .

فقال كالميكوف :

ـ لماذا بحق الشيطان تطوعت في الجبهة ، وشققت طريقك إلى رتبة ضابط ؟ كيف يتماشى ذلك مع معتقداتك ؟ عجيب! هاك رجلاً ضد الحرب ، ضد تقتيل ، ماذا تسميهم ، إخوانه الطبقيين ، ومع ذلك فهو... ضابط .

وصفق رقبتي جزمته وراح يضحك من صميم قلبه .

وتساءل لستنتسكي :

ـ كم عاملاً ألمانياً أفنيت برشاشك ؟

فأخرج بونتشوك إضمامة كبيرة من الورق من جيب معطفه وجعل يفتش فيها ، وكان واقفاً وظهره إلى لستنتسكي . ثم تقدّم نحو الطاولة ونشر جريدة صفراء من أثر القدم وسوّى تجعداتها بيده الضليعة الكبيرة ، وقال :

ـ كم عاملاً ألمانياً أفنيت ؟ سؤال... يُسأل . لقد تطوعت لأنني كنت سأجند بأية حال من الأحوال . وأحسب أن الخبرة التي تعلمتها هنا في الخندق ستكون ذات نفع فيما بعد... فيما بعد . إصغ إلى هذا .

ثم جعل يقرأ كلمات لينين :

«لنأخذ الجيش العصري . إنه أحد الأمثلة الحسنة للتنظيم . إن هذا التنظيم جيد لأنه مرن ، وقابل في الوقت ذاته على منح ملايين الناس إرادة واحدة . واليوم تعيش هذه الملايين في بيوتها في مختلف أرجاء البلاد ، ولكن ما إن يصدر أمر بالتعبئة ، حتى يتجمعوا في المراكز المعينة . وفيما هم اليوم يرقدون في الخنادق ، وقد يقضون فيها الشهور بطولها ، تراهم غداً يساقون لشن هجوم في وضعية أخرى . وإذ يحققون في يوم ما معجزات وهم بمأمن من الرصاص والقنابل ، تراهم في يوم آخر يحققون المعجزات في قتال مكشوف . وفيما تزرع اليوم قطعاتهم الأمامية الألغام تحت الأرض ، تراهم غداً يتقدمون عشرات الفراسخ وفق إرشادات الطيارين المحلّقين فوق الأرض . وعندما تسعى الملايين وراء هدف ما ، تغذيه إرادة واحدة ، فإنها تغير أشكال علاقاتها الاجتماعية وفعالياتها وتغيّر مواضع وأساليب نشاطاتها ، وتغير أدواتها وأسلحتها بتغير الظروف ووفق متطلبات النضال ـ ذلكم هو التنظيم .

إن الشيء ذاته ، ينطبق على صراع الطبقة العاملة مع البرجوازية . ولكن اليوم لا يوجد وضع ثوري... »

فقاطعه تشوبوف :

ـ ولكن ماذا تعني بـ « الوضع » ؟

فتطلع إليه بونتشوك وكأنه قد أوقظ لتوه ، وجعل يحك جبينه الناتىء ، بعقلة إبهامه ، محاولاً استيعاب السؤال :

ـ قلت : ، ماذا تعني بـ « الوضع » ؟

فقال بونتشوك وقد افتر ثغره عن ابتسامة طفولية ساذجة :

ـ أما معنى الكلمة فأفهمه ، ولكن يصعب عليّ تفسيره...

وكان غريباً أن يند وجهه الكبير العبوس عن هذه البسمة . إذ كانت أشبه بأرنب صغير فضّي مرق عبر حقل خريفي كئيب غسلته الأمطار ، فهو يلعب وينط ويقفز .

ـ الوضع هو الحالة ، هو اجتماع ظروف معينة . هل أنا على صواب ؟

فأتى لستنتسكي بحركة غامضة من رأسه وقال : « واصل قراءتك » .

« ولكن اليوم لا يوجد وضع ثوري ، لأن الظروف التي تحرّك الجماهير أو ترفع من مستوى كفاحها ليست موجودة . أنتم اليوم تعطون ورقة انتخابية ـ خذوها . تعلموا التنظيم كي تستطيعوا أن تستخدموه كسلاح ضد أعدائكم لا كوسيلة للحصول على وظائف برلمانية هانئة لمن يتشبثون بمقاعدهم خشية الذهاب إلى السجن . وغداً ستؤخذ منكم الورقة الانتخابية ، وسوف تعطون بندقية ومدفعاً سريع الاطلاق صنع وفق آخر ما توصّل إليه الفن الهندسي ـ خذوا هذا السلاح الذي أعد للموت والدمار ، ولا تكترثوا بالعاطفيين المتباكين الذين يخافون الحرب ، فهناك في العالم بقايا كثيرة يجب أن يأتي عليها الحديد والنار كيما يتم تحرير الطبقة العاملة ، وإذا ما تنامى الحقد واليأس عند الجماهير وعندما يحل وضع ثوري ، استعدوا لإيجاد تنظيم جديد واستعملوا هذه الأسلحة الصالحة للموت والدمار ضد حكومتكم وبرجوازيتكم... » .

وقوطع بونتشوك بطرق على الباب ودخول رئيس عرفاء السرية الخامسة :

ـ يا صاحب السعادة . ـ والتفت إلى كالميكوف وأردف :

ـ هناك مراسل من قيادة الكتيبة .

فارتدى كالميكوف وتشوبوف معطفيهما وخرجا . وجلس ميركولوف يرسم وهو يصفر ، وواصل لستنتسكي سيره ذهاباً وإياباً في الحفيره ، وهو يعبث بشاربه بأصابعه ، مستغرقاً في تفكير عميق . وبعد قليل خرج بونتشوك مودّعاً هو الآخر وشقّ طريقه خلل وحل الخنادق الزلق ، وقد أمسكت يسراه بطرفي ياقته سويّة ويمناه تشد المعطف إلى الأسفل ، وكانت الريح تعصف خلل الخندق الضيق عابثة بالرفوف ، عازفة مدوية ، وفي ظلام دامس اكتسى وجهه بابتسامة غامضه ، وعندما بلغ حفيرته كان قد تبلل بالمطر ثانية ، وتشبّع برائحة أوراق الحور المتفسخة . كان آمر مفرزة الرشاشات نائماً ، ولمّا يزل وجهه الأسمر ذو الشوارب السوداء يحمل آثار ثلاث ليال قضاها بلا نوم يلعب الورق . فراح بونتشوك يفتش في حقيبته التي احتفظ بها منذ كان جندياً ، وجمع كومة من الأوراق قرب الباب ، ثم أضرم فيها النار ، ووضع علبتي لحم مقدد وبضع حفنات من طلقات المسدس في جيبه ، ثم خرج ثانية . وتسللت الريح من الباب الذي يفتح بين لحظة وأخرى ، فنثرت رماد الأوراق المحترقة ، وأطفأت المصباح المدخّن .

بعد رحيل بونتشوك ظل لستنتسكي يتخطى ذهاباً وإياباً بعض الوقت صامتاً لايرين ، ثم مضى صوب الطاولة . كان ميركولوف لما يزل يرسم محنياً رأسه إلى جانب ، ومن تحت رأس قلمه المبريّ الذي رسم ظلالاً خفيفة كان وجه بونتشوك يبدو محدّقاً من على الورقة المربعة البيضاء ، وهو يكتسي ابتسامته الجافة المعهودة .

فعلق ميركولوف مبعداً عنه يده الممسكة بالرسم وهو يلتفت إلى لستنتسكي :

ـ لديه وجه شخصية قوية!

فسأله يفغيني :

ـ حسناً ، مارأيك ؟

فأجاب ميركولوف وقد فطن إلى دلالة السؤال :

ـ الشيطان يدري! إنه شاب غريب . لقد أفصح الآن عن خبيئته كلياً ، في حين لم أكن أعرف قبل ذلك كيف أستجلي كنه لغزه . إنه ليتمتع بشعبية واسعة بين القوزاق ، ولا سيما بين رماة الرشاشات . هل لاحظت ذلك ؟

فأجابه لستنتسكي بصورة مبهمة بعض الشيء :

ـ نــــ... نعم .

ـ إن رماة الرشاشات بلاشفة عن بكرة أبيهم . لقد أفلح في كسبهم . ما في ذلك شك . وقد دهشتُ لأنه كشف عن أوراقه اليوم . ترى فيم فعل ذلك ؟ والله ، قال هذا الكلام عمداً! فهو يدري أنه ليس بيننا من يشاطره أفكاره ، ولكنه مع هذا أوقع نفسه بلسانه بمثل هذه السهولة ، ليس هو من سريعي التهيج ، ومع ذلك فإنه رجل خطر .

وأبعد مير كولوف عنه صورة بونتشوك ، وطفق ينزع ملابسه وهو ما يزال يفكر في تصرف بونتشوك الغريب . وعلق جوربيه الرطبين فوق الموقد ، وملأ ساعته ، ثم استلقى بعد أن دخن سيكارة . وسرعان ما أخذته سنة من النوم . وجلس لستنتسكي على المقعد الذي أخلاه ميركولوف قبل ربع ساعة ، وعلى الصفحة الأخرى من صورة بونتشوك كتب بخط واسع وهو يحطم رأس قلمه المبريّ :

« يا صاحب السعادة ،

لقد ثبتتْ الآن تماماً الشكوك التي أبلغتها إليكم من قبل . ففي حديث جرى اليوم مع ضابط كتيبتنا « كان حاضراً فيما عداي ، الرئيس كالميكوف والملازم تشوبوف من الفصيل الخامس ، والرئيس ميركولوف من الفصيل الثالث » أفصح نائب الضابط بونتشوك ، لأسباب يجب أن أعترف أنني لا

أدركها تماماً ، عن مهماته التي ينفذها وفق معتقداته السياسية ، وحسب تعليمات حزبه على مايبدو ، وقد كان معه عدد من المنشورات الممنوعة . وتلا علينا ، على سبيل المثال ، اقتباساً من صحيفة «الشيوعي» الممنوعة والتي تطبع في جنيف . يتضح من ذلك أن نائب الضابط بونتشوك يمارس نشاطاً سرياً في كتيبتنا (الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنه التحق بكتيبتنا متطوعاً لهذا السبب) وقد كان رماة الرشاشات أول هدف له . لقد أثبط عزائمهم . وصار نفوذه الخطر على معنوية الكتيبة واضحاً للعيان ، فقد حصلت حالات من التمرد على الأوامر ، كما سبق وأخبرت الشعبة الخاصة بذلك .

وقد عاد فوراً من إجازته (في بتروغراد) حاملاً معه كمية كبيرة من النشرات الهدامة . وهو الآن يثابر من أجل أن يواصل عمله بنشاط مضاعف .

وعلى ضوء ما أوردته آنفاً فقد توصلت إلى ما يأتي : ١ ـ إن جرم نائب الضابط بونتشوك قد ثبت كلياً (وسوف يدعم الضباط الذين حضروا النقاش ، كلامي مقسمين) ؛ ٢ ـ بغية وقف نشاطه الثوري ، لا بد من القاء القبض عليه في الحال وإحالته إلى محكمة الميدان العسكرية ؛ ٣ ـ يجب حل مفرزة رماة الرشاشات في الحال ، فيطرد الخطرون ويرسل الآخرون إلى المؤخرة أو يوزعون على الكتائب الآخرى .

«اسمحوا لي أن أؤكد لكم رغبتي المخلصة في خدمة بلادي والملكية . لقد أرسلت نسخة من هذه الرسالة إلى س . كورب» .

الرئيس يفغيني لستنتسكي

قطاع رقم ٧ ، ٢٠ تشرين الأول ، ١٩١٦

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي أرسل لستنتسكي تقريره بواسطة أحد المراسلين إلى قيادة الفرقة ، وخرج بعد الفطور من الحفيرة . وخلف متراس الخندق الزلق خيم ضباب خفيف فوق المستنقع ، وقد تدلى كالخرق العالقة

بالأسلاك الشائكة . وكانت قاع الخندق تعلوها طبقة من الوحل يبلغ سمكها زهاء البوصة . وكان ثمة مسارب بنية تقطر من فتح المتراس . وكان القوزاق بمعاطفهم المبللة والملطخة بالطين يغلون قدور الشاي على صفيحة مقتطعة من المدافع ، وقد قرفصوا على أعقابهم يدخنون ، وأسندوا بنادقهم إلى جدران الخندق .

وصرخ لستنتسكي بحقد فيما هو يقترب من أول مجموعة من القوزاق الجالسين حول النار الخانقة :

ـ كم مرة أبلغتم بعدم إشعال النار على الصفيحة ؟ ألا تفهمون ، أيها الخنازير ؟

فنهض اثنان منهم كرهاً ، وبقي الآخرون جالسين يدخنون ، وقد التأمت أذيال معاطفهم تحتهم . وأجاب قوزاقي أسمر ملتحٍ تدلى قرط فضّي من أذنه ، فيما هو يلقي بقبضة من الحطب القشاش تحت القدر :

ـ يسرنا أن نستغني عن الصفيحة . ولكن كيف يتسنى لنا أن نشعل النار بدونها ، ياصاحب السعادة ؟ انظر كم من الماء والوحل هنا!

ـ اسحب تلك الصفيحة حالاً!

فتساءل قوزاقي ذو وجه عريض مجدور ، متجهماً دون أن ينظر إلى الضابط :

ـ ماذا ، هل علينا أن نبقى هنا جائعين ؟ أهكذا يكون الأمر ؟

ـ قلت لكم اسحبوا تلك الصفيحة! ـ وركل يفغيني بمقدمة حذائه الحطب القشاش المشتعل من تحت القدر .

فسكب القوزاقي الملتحي ذو القرط الفضي الماء الحار من القدر ودمدم وهو يبتسم بغضب وارتباك :

ـ لقد تناولنا شاينا أيها الأولاد...

وحملق القوزاق بصمت في ظل الرئيس بعد أن ابتعد عنهم . وتقادح الشرر في عيني القوزاقي الملتحي :

ـ أساءنا ، ابن الكلبة!

وأطلق قوزاقي آخر آهة طويلة ثم علق بندقيته على كتفه .

ولحق ميركولوف بلستنتسكي في القطاع الذي يشغله الرعيل الرابع . جاء يلهث بشدة ، وسترته الجديدة المصنوعة من الجلد تخشخش ، وكان نفسه يفوح برائحة التبغ المحلّي . انتحى بيفغيني جانباً وقال على عجل :

ـ هل بلغك الخبر ؟ لقد فرّ بونتشوك الليلة الماضية .

ـ بونتشوك ؟ ما... ذا ؟

ـ فرّ... هل فهمت ؟ لقد أخبرني قائد مفرزة رماة الرشاشات الذي يشاركه حفيرته بأنه لم يعد مذ غادرنا . لابد أنه ذهب في سبيله حالما غادر حفيرتنا . هذا هو الأمر .

وقف لستنتسكي يمسح نظارتيه طويلاً وهو يضيّق عينيه .

فقال ميركولوف وهو يحدق في وجهه مستفهماً :

ـ يبدو أنك مضطرب بعض الشيء ؟

ـ أنا ؟ هل فقدت صوابك ؟ علام أضطرب ؟ لقد فوجئت بالنبأ ليس إلاّ .

٢

في صباح اليوم التالي جاء رئيس العرفاء إلى ملجأ لستنتسكي وقد بدا على محياه قلق وارتباك ، وأخبره بعد كثير من الهمهمة والهأهأة :

ـ يا صاحب السعادة ، لقد وجد القوزاق ، صباح اليوم ، هذه الأوراق في الخنادق . إنه لأمر محرج بعض الشيء... فرأيت من الأفضل أن أرفع الأمر إليك... وإلا فقد نقع في ورطة...

فسأله لستنتسكي وهو ينهض من على سريره :

ـ أية أوراق ؟

فأعطاه رئيس العرفاء بضعة مناشير مدعوكة مطبوعة على ورقة رخيصة

بالآلة الطابعة بأحرف مقروءة واضحة . وقرأ لستنتسكي دفعة واحدة :

ياعمال العالم ، ا تحدوا!

أيها الرفاق الجنود ،

عامان مرا على هذه الحرب اللعينة . عامان مرا والعفن يتآكلكم دفاعاً عن مصالح الآخرين . عامان مرا ودماء عمال وفلاحي جميع البلدان تراق . مئات الألوف من القتلى والجرحى ، مئات الألوف من الأرامل واليتامى ـ تلك هي حصيلة هذه المجزرة . من أجل من تحاربون ؟ عن أية مصالح تدافعون ؟ لقد أرسلت الحكومة القيصرية ملايين الجنود إلى خط النار لكي تستولي على بلاد جديدة ، وتضطهد شعوب تلك البلاد كما يُضطهد فعلاً البولنديون المضطهدون وأبناء القوميات الأخرى .

إن صناعيي العالم لايستطيعون أن يتقاسموا الأسواق التي يصرفون فيها إنتاج معاملهم ومصانعهم بصورة سلمية ، أن يتقاسموا الأرباح ، إنما يفعلون ذلك عن طريق الحروب ، أما أنتم ، معشر القوم الجهلة فتلاقون حتفكم في الصراع من أجل مصالحهم ، وتقتلون الكادحين أمثالكم .

كفى سفكاً لدماء إخوانكم! استيقظوا أيها الكادحون! ليس عدوكم الجندي الألماني أو النمساوي الذي أعموا بصيرته مثلكم ، إنه قيصركم ، والصناعيون والملاكون في بلادكم . أديروا بنادقكم إليهم . تآخوا مع الجنود الألمان والنمساويين . مدوا أيديكم إلى بعضكم البعض عبر الأسلاك الشائكة التي تفصل فيما بينكم كالسوائم . أنتم أخوة في العمل ، ولما تزل آثار الكدح الدامية في أيديكم ، ليس لديكم ما تتقاسمونه . تسقط الأوتوقراطية! تسقط الحرب الاستعمارية! تحيا وحدة الكادحين في العالم أجمع!

قرأ لستنتسكي السطور الأخيرة لاهثاً . وقال في دخيلته وقد استبد به حقد أعمى وانثالت عليه الهواجس :« لقد بدأت الآن! » وأبلغ آمر الكتيبة

بالخبر في الحال بواسطة التلفون ، قائلاً له :

ـ بماذا تأمرون في هذا الخصوص ياصاحب السعادة ؟

ـ اصطحب معك رئيس العرفاء وضباط الرعائل وأجر تفتيشاً واسعاً في الحال . فتش كل واحد . ولا تستثن الضباط . وسوف أسأل قيادة الفرقة اليوم عن موعد سحب الكتيبة . اتصل بي في الحال عندما تعثر على شيء أثناء التفتيش .

ـ أعتقد أن رماة الرشاشات هم الذين قاموا بذلك .

ـ هل ترى ذلك ؟ سآمر القائد في الحال ليقوم بتفتيش القوزاق . مع السلامة!

وجمع لستنتسكي ضباط الرعائل في حفيرته ، وأخبرهم بأمر قائد الكتيبة . فهتف ميركولوف مغتاظاً :

ـ يا للفظاعة! هل يتعين علينا أن يفتّش بعضنا بعضاً ؟

وبادر ملازم شاب قائلاً :

ـ دورك أولاً يا لستنتسكي .

ـ كلا ، سنختار برمي النرد .

ـ بل حسب الحروف الأبجدية .

فقاطعهم لستنتسكي :

ـ دعوا المزاح جانباً أيها السادة . لاشك أن العجوز قد تجاوز الحد ، إن ضباط كتيبتنا هم بمثل إخلاص زوجة يوليوس قيصر . ولم يكن بيننا سوى نائب الضابط بونتشوك ، وقد فرّ . ولكن يجب أن نفتش القوزاق ، فليحضر أحدكم رئيس العرفاء .

ودخل رئيس العرفاء ، وهو قوزاقي كهل يحمل ثلاثة من أوسمة القديس غيورغي . وتنحنح وراح يجيل بصره بين الضباط .

فسأله يفغيني :

ـ من هي العناصر المشبوهه في السرية ؟ من تعتقد أن من الممكن أن يوزع هذه المناشير ؟

فأجاب الرجل بثقة :

ـ لا أحد في سريتنا ، ياصاحب السعادة .

ـ ولكن المناشير وجدت في قطاعنا . هل كان أحد رجال السرايا الأخرى في خنادقنا ؟

ـ كلا ، ياسيدي .

ـ فقال ميركولوف وهو يلوح بيده ويستدير نحو الباب :

ـ سنذهب ونفتش الجميع دون استثناء .

وبدأ التفتيش . كانت وجوه القوزاق تفصح عن كل ألوان الهواجس . فقد كان بعضهم مقطباً من شدة دهشتهم ، ونظر الآخرون بتوجس إلى الضباط ، في حين ضحك الآخرون عندما كان الضباط ينقبون في حاجياتهم البائسة .

وعلق عريف بادي الذكاء :

ـ عم تبحثون ؟ هل نشل شيء ما ؟ ربما رأيناه في مكان ما .

وكاد التفتيش أن لا يسفر عن نتيجة ، لولا أنهم عثروا على نسخة مدعوكة من المنشور في جيب واحد من القوزاق للسرية الأولى ، فسأله ميركولوف وفي عينيه خوف ساخر :

ـ هل قرأته ؟

فابتسم القوزاقي دون أن يرفع عينيه المسبلتين وقال :

ـ التقطته للف السجاير .

فصرخ لستنتسكي بهياج :

ـ علام تكشّر عن أسنانك ؟ ـ وخطا نحو الرجل وقد استحال لونه أزرق . وطرفت أهدابه الذهبية القصيرة بعصبية تحت نظارتيه .

ولاح الجد على وجه القوزاقي ، وتلاشت البسمة وكأن ريحاً قد بددتها . وتكلم الرجل بلهجة عالية أليمة ، غضوب بعض الشيء :

ـ اسمح لي ، يا صاحب السعادة . فأنا لا أكاد أعرف القراءة . لقد

التقطته لأنني لا أملك ورقاً للسكائر . التبغ موجود ، ولكن الورقة انتهت . وقد وجدت هذا ملقى ، ولهذا التقطته .

فبصق لستنتسكي ومضى لسبيله ، وتبعه بقية الضباط .

وفي اليوم التالي سحبت الكتيبة وعسكرت على بعد عشرة فراسخ خلف خط الجبهة . وأوقف اثنان من مفرزة رماة الرشاشات وأحيلا إلى المحكمة العسكرية ، ونقل آخرون إلى الكتائب الاحتياطية ، وأرسل البعض إلى الكتائب الأخرى التابعة للفرقة القوزاقية الثانية . وبعد استراحة دامت بضعة أيام أخذت الكتيبة تمارس حياة منظمة نسبياً . فاغتسل القوزاق ونظفوا أنفسهم جيداً ، بل طفقوا يحلقون ، دون أن يلجؤوا إلى الطريقة التي دأبوا عليها في الخنادق . وهي أن يحرقوا لحاهم بالنار ، وعندما يبدأ اللهب يحرق وجوههم ، يضعون عليها منشفة مبللة ويمسحون الشعر المحترق . وقد سميت هذه الطريقة « كي الخنازير » منذ أن سأل حلاق الجيش أحد زبائنه : « هل أكويك كي الخنازير ، أم بطريقة أخرى ؟ » .

وأخلدت الكتيبة إلى الراحة ، ولاح على القوزاق مرح وانشراح ظاهريان . غير أن لستنتسكي والضباط الآخرين كانوا يعلمون أن هذا المزاج لم يكن سوى نزوة سطحية زائلة ، كيوم صحو في تشرين الثاني . فما إن كانت تسري أية شائعة حول العودة إلى الجبهة حتى تتغير الملامح ، ويبلغ التذمر والتوتر ، والمشاكسة أقصاها . وقد تسرب إليهم السأم والتوتر المميتان فخلفا لديهم حالة من التبلد والتحلل . ولكن لستنتسكي أدرك جيداً كيف يكون المرء فظيعاً عندما يسعى من أجل غاية وقد استبد به مثل هذا الشعور .

ففي عام ١٩١٥ شاهد سرية من الجنود ترسل خمس مرات إلى القتال ، وبالرغم من أنهم تكبدوا خسائر مريعة فقد كانوا يتلقون المرة تلو الأخرى الأوامر لاستئناف الهجوم . وأخيراً انسحبت فلول السرية من القطاع اعتباطاً ومضت شطر المؤخرة . وقد أمرت سرية لستنتسكي بإيقافها ، ولكن عندما

انتشر القوزاق في سلسلة بغية إيقاف الحركة ، أطلق هؤلاء الجنود النار ، ولم يكن قد تبقى منهم سوى ستين شخصاً . وقد لاحظ لستنتسكي الشجاعة اليائسة الطائشة التي أبداها هؤلاء الستون في الذود عن أنفسهم ، عندما أسقط في يدهم ووقعوا تحت طائلة سيوف القوزاق ، وهم يواجهون الموت ، والفناء ، آخذين في الحسبان أن الموت واحد مهما تعددت أسبابه .

وإذ جالت بذهن لستنتسكي ذكرى هذا الحادث المريع ، راح يدرس بلهفة وجوه القوزاق من جديد ، متفكراً فيما إذا كانوا سينقلبون هم أيضاً ، على أعقابهم ، ويتراجعون ، خشية الموت ليس إلا ، وعندما رأى إلى نظراتهم النكدة التعبى أقر في دخيلته أنهم لا ريب فاعلون .

ولقد تغير القوزاق بصورة جذرية منذ الأيام الأولى للحرب . حتى أغانيهم تغيرت وباتت من نمط جديد ، لقد ولدت مع الحرب ، لتعبر عن أسى قاتم .

وكان إذا مر في الأماسي بسقيفة المصنع الفسيحة التي كانت سريته تعسكر فيها ، فما أكثر ما يستمع إلى أغنية حزينة لهفى إلى حد لا يوصف . كانت تغنيها ثلاثة أو أربعة أصوات . وفوق هذه الأصوات العميقة كان يرتفع تينور جميل وهو يتزايد قوةً ويرتعش ويرن بنبرته الصافية والنادرة .

ويقف لستنتسكي ليرهف السمع ، فلشد ما يهزه حزن الأغنية البسيط ، لكأن في قلبه وتراً يتجاوب مع ضرباته المتزايدة ، وكانت نبرة الصوت الخفيضة تجس الوتر ، فترسل فيه ذبذبة أليمة . ويقف لستنتسكي على مبعدة قليلة ، يرنو إلى وهج المساء الخريفي ، ويحس بالدموع تندي عينه .

ولم يسمع لستنتسكي طوال الوقت الذي استراحت فيه الكتيبةكلمات قوية منفعلة لأغنية قوزاقية قديمة سوى مرة واحدة . كان عائداً فيها من نزهته المسائية المعتادة ، وفيما كان ماراً بالسقيفة بلغ سمعه ضحك صخاب وأصوات أنصاف سكارى . فقدر أن عريف الإعاشة الذي أرسل إلى القرية لإحضار الأرزاق ، جاء ببعض العرق المصنوع في البيت وأولم القوزاق . هاهم الآن

يتشاجرون ويصخبون لأمر أو لآخر . وسمع صفيرهم الحاد الوحشي ولحن الأغنية القوي وهو مايزال بعيداً عنهم بعض الشيء .

ثم دوى إلى الأعلى صفير راعش مديد ، وسرعان ما طمسه هدير ما لا يقل عن ثلاثين صوتاً .

ولا بد أن أحد الشبان كان يرقص على الألواح الخشبية ويطلق صفيراً متقطعاً يصم الآذان ، وقد طغى الغناء على إيقاع كعبيه .

وابتسم لستنتسكي رغماً عنه ، وحاول أن يتجاوب بخطوه مع إيقاع الأغنية . « لا أظن أن المشاة يحنون إلى بيوتهم مثل حنين القوزاق » ، ولكن المنطق أكد له أن المشاة لا يختلفون عنهم في شيء . ومع هذا فإن الإقامة الإجبارية في الخنادق كانت أكثر إيلاماً للقوزاق ، لأن طبيعة عملهم في الخدمة عودتهم على الحركة الدائبة . ولكنهم زجوا طوال عامين في ترقب الوقت في محاولات عقيمة من أجل الزحف . وكان الجيش أضعف من أي وقت مضى . إن ما يحتاج إليه هو يد قوية ، ونجاح مدوّ ، وخطوة كبيرة إلى الأمام من شأنها أن تبعث فيه الحركة . ولا شك أن ثمة مراحل في التاريخ ، مراحل من الحرب الطويلة الأمد ، تتخاذل فيها معنوية أكثر الجنود نظاماً وولاءً . وحتى سوفوروف مرّ بالتجربة... بيد أن القوزاق يثبتون ، وحتى لو أصابهم الوهن ، فسيكونون آخر من يفعل ذلك... إنهم أمة صغيرة بحد ذاتها ، هواة حرب بحكم العادة ، وليسوا من رعاع العمال أو الفلاحين .

وكأنما كان المقصود عدم خداعه ، فقد بدأ الصوت المجهد ينشد أغنية ثانية . فتلقفها القوزاق الآخرون ، ومرة أخرى سمع لستنتسكي حنين القوزاق ينصبّ غناءً :

الضابط الشاب يبتهل إلى الله .
والقوزاقي الشاب يرجوه العودة إلى أهله :
« أوه ، أيها الضابط الشاب ،
دعني أذهب إلى أهلي ،

دعني أذهب إلى أهلي ،
إلى أبي ،
إلى أبي وأمي ،
إلى أبي وأمي ،
وإلى زوجتي الفتية » .

* * *

بلغ بونتشوك مدينة تجارية كبيرة تقع في منطقة خط الجبهة ، في مساء اليوم الرابع بعد فراره من الجبهة . كانت الأضواء تسطع من النوافذ . وكان الزمهرير قد كسا البرك بطبقة رقيقة من الجليد ، وبين حين وآخر يسمع خطو السابلة من بعيد . وكان بونتشوك ينصت بانتباه وهو يتلمس طريقه خلال الشوارع الخلفية ، متحاشياً الشوارع العامة المضاءة . وعند دخوله المدينة كاد أن يلتقي دورية ، ولذلك مضى في سبيله بحذر الذئب ، يمشي لصق الأسيجة ، وقد وضع يده اليمنى في جيب معطفه المتسخ إلى درجة لاتصدّق ـ ذلك أنه أمضى النهار دافناً نفسه في كومة من القش .

وكانت ثمة قاعدة عسكرية مرابطة في المدينة ، قد عسكرت هناك عدة وحدات ، ولذلك لم يرفع بونتشوك قبضته عن العقب المدبب لمسدسه الذي كان يحمله في جيب معطفه ، لعلمه أنه معرّض على الدوام لخطر مصادفة دورية .

وفي الطرف الآخر من المدينة أخذ بونتشوك يتخطى جيئة وذهاباً في شارع جانبي مهجور ، ويتفحص المداخل ويدرس معالم كل الدور الحقيرة . وبعد حوالي العشرين دقيقة دنا من بيت صغير وضيع في أحد الأركان ، وعاين من خصاص الصفاقتين ، ثم فتح البوابة بعزم وهو يبتسم مع نفسه . وكانت قد أجابت على طرقته امرأة كهلة تلتفع بشال :

ـ هل يسكن بوريس إيفانوفيتش هنا ؟

ـ نعم ، تفضّل بالدخول .

ـ فدخل بونتشوك إلى المجاز ماراً بها . وصرّ المزلاج خلفه بهدوء .

كان ثمة رجل كهل يرتدي ملابس عسكرية جالساً أمام طاولة في غرفة خفيضة السقف ينيرها مصباح زيتي صغير .

قلص العسكري عينيه ، وهو يمعن النظر في بونتشوك . فنهض وبسط ذراعيه له بسرور مكتوم :

ـ من أين جئت ؟

ـ من الجبهة .

ـ بالله ؟

وتردد بونتشوك ، ثم ابتسم ، وقال برقة وهو يجس بطرف اصبعه النطاق العسكري للرجل :

ـ هل لديك غرفة ؟

ـ أجل ، بكل تأكيد . تعال هنا .

وقاد بونتشوك إلى غرفة أصغر من غرفته ، وقدم له كرسياً في العتمة ، وأسدل الستار على النافذة بعد أن أغلق الباب المؤدي إلى الغرفة الأخرى وقال :

ـ هل انتهيت ؟

ـ نعم .

ـ كيف الأمور هناك ؟

ـ كل شيء جاهز .

ـ جماعة يعتمد عليهم ؟

ـ جداً .

الأفضل أن تخلع عنك أشياءك ، ثم نواصل حديثنا .

أعطني معطفك . وسآتي لك بشيء لتغتسل به .

وبينما كان بونتشوك يغتسل فوق طست نحاسي مخضوضر ، مسد الرجل ذو البزة الرسمية على شعره القصير وراح يتكلم بصوت هادىء مكدود :

ـ إنهم أقوى منا بكثير في الوقت الحالي . ينبغي لقوانا أن تنمو ، ونبسط نفوذنا ، ونعمل دونما توقف موضحين الأسباب الحقيقية للحرب . إن قوانا تنمو والحق يقال . إن كل ما يخسرونه ينتقل إلينا حتماً . فبديهي أن الرجل الراشد أقوى من الصبي ، بيد أنه عندما يشيخ ويترهل جسمه يستطيع الفتى أن يتغلب عليه بسهوله . ولكننا لا نجابه ترهّل الشيخوخة فحسب ، بل الشلل المستشري في الجسم بكامله .

ولما فرغ بونتشوك من الاغتسال ، قال وهو يمسح وجهه بمنشفة خشنة :

ـ قبل أن أترك الجيش ، كشفت النقاب عن معتقداتي للضباط . كان ذلك أدعى إلى الهزل كما ترى... ولكنهم سيهزون رماة الرشاشات بكل تأكيد ، ولعل واحداً أو اثنين من الأولاد سيحالان إلى المحكمة العسكرية ، بيد أنه ليس هناك دليل ، فماذا عساهم أن يقولوا ؟ آمل أن يفرقوهم بين وحدات مختلفة ، فلسوف يكون ذلك في مصلحتنا ، دعهم يبذروا البذرة لنا . إن لنا أصحاباً طيبين بينهم ، أشداء مثل حجر الصوان!

ـ لقد تسلمت رسالة من ستيبان . يطلب فيها من له إلمام بالقضايا العسكرية . ستذهب أنت ، ولكن ماذا عن الأوراق الشخصية ؟ هل ستتدبر أمرها ؟

فسأله بونتشوك : ـ في أية مهمة ؟ ـ ووقف على طرف أصابعه ليعلق المنشفة على المسمار .

ـ تدرب فتياننا ، ـ ابتسم مضيفه وأردف ـ ألا تكبر إطلاقاً ؟

فأجابه بونتشوك :

ـ لا حاجة . ولا سيما بالنسبة لرجل في وضعي . يجب علي أن أكون بحجم السنفه* كيلا يراني أحد .

---

* السنفة : قشر وعاء بعض النباتات كالبازلاء، والفول وغير ذلك .

ولبثا يتحدثان حتى انبلج الصبح في المشرق . وفي اليوم التالي ، ترك بونتشوك المدينة صوب المحطة ، وكانت ملامحه قد تغيرت بحيث لم يعد التعرف عليه يسيراً بفضل الملابس الجديدة والتنكّر ، وقد تزوّد بمجموعة من الوثائق تحمل اسم الجندي نيقولاي أوخفاتوف من كتيبة أورشانسكي رقم ٤٤١ ، الذي سرح من الجيش بعد أن أصيب بجرح في صدره .

٣

كان «الجيش الخاص» يسيطر على المنطقة الواقعة بين فلاديمير - فولينسكي وكوفل . (كان «الجيش الخاص» يحمل في الواقع رقم١٣ ، ولكن حتى الجنرالات ذوي الرتب العالية كانوا يتطيرون من هذا الرقم ، ولهذا سمي بـ«الجيش الخاص») . وفي أواخر أيلول ، عام ١٩١٦ ، أعدت الخطط والموقعة المناسبة للزحف في هذه المنطقة بالقرب من قرية سفينوخي ، ومهد الطريق بعمليات المدفعية .

وقد حشدت قوى كبيرة لا تعد ولا تحصى من المدفعية في هذه المنطقة . وطوال تسعة أيام ظلت مئات الآلاف من القنابل من مختلف العيارات تدك المنطقة التي يحميها خطان من الخنادق الألمانية . وعندما اشتد رمي القنابل منذ اليوم الأول للقصف ، انسحب الألمان من خطهم الأول ، دون أن يتركوا أحداً وراءهم خلا الراصدين . وبعد بضعة أيام تخلوا عن خطهم الثاني وتراجعوا إلى خط ثالث .

وفي اليوم العاشر بدأت وحدات من فيلق رماة البنادق التركستاني بالتقدم . كانوا يطبقون الطريقة الفرنسية في الهجوم على شكل موجات . لقد انطلقت ست عشرة موجة من الخنادق الروسية . كان المد الرمادي للجموع البشرية يتدفق إلى الأمام مدوماً متقلصاً ، يموج حول تلال شاحبة من حطام الأسلاك الشائكة الفظيعة . ومن الجانب الألماني ، خلف جذوع أشجار الحور

المتفحمة وكثبان الرمال المحدودبة ، كان زئير النار المستمر ينطلق مدوياً لهاباً . وبين حين وآخر يسمع هدير مدافع بطارية خلل الطنين ، ثم يغرق كل شيء في موجة عارمة من الضجيج ، ترافقها لعلعة طامسة ، إنما عنيفة ، من نيران الرشاشات الالمانية .

ـ غوغوغو ـ و ـ و ـ... غوك! غاك! بو ـ و ـ و ـ !

ـ ترا ـ ا ـ ا ـ ررا ـ تا ـ تا ـ تا ـ ! ـ اطلقت أصوات الرشاشات الألمانية الرهيبة المجنونة .

وفي منطقة عرضها فرسخ ، جلدت الأرض الرملية الشوهاء بزوابع سود من الانفجارات ، واندفعت الأمواج المغيرة ، مزبدة ، منطلقة من حفائر القنابل ، زاحفة إلى الأمام .

وأسرع فأسرع كانت تتدفق داكنة شظايا القنابل المتفجرة ، وكان المثار الأسود للقنابل المتفجرة يتطاير باستمرار على شكل دفقات ، وتلفح نيران الرشاشات الأرض لفحاً متعاظماً . وكانت الرعائل المغيرة تُحصد حتى قبل أن تبلغ الأسلاك . ولم تصل إلى الموانع سوى الموجات الثلاث الأخيرة من مجموع ست عشرة ، ولم يكادوا يبلغوا الحواجز المقامة من الاسلاك الملفوفة والأعمدة المسفوعة حتى اصطدموا بها وانكفؤوا إلى الوراء زرافات ووحداناً .

لقد أزهقت أرواح ما ينوف على تسعة آلاف نسمة في ذلك اليوم على التربة الرملية الكالحة قرب قرية سفينوخي .

ثم استؤنف الهجوم بعد ساعتين . وتقدمت وحدات من الفرقتين الثانية والثالثة من صنف رماة البنادق التركستاني . وفي الجناح الأيسر اصطفت وحدات من فرقة المشاة الثالثة والخمسين ولواء رماة البنادق السيبيري ٣٠٧ على طول امتداد خنادق المواصلات . ومن الجناح الأيمن تحركت سرايا من فرقة رماة القنابل اليدوية الثالثة .

تسلم آمر الفيلق الثلاثين التابع للجيش الخاص ، الفريق غافريلوف ، أوامر من مقر القيادة تقضي بتحويل فرقتين أخريين إلى منطقة سفينوخا . وفي

المساء سحبت الكتائب التابعة للفرقة الثمانين وهي : تشيمبارسكي ٣٢٠ ، وبوغولما٣١٩ ، وتشيرنويارسك ٣١٨ ، من مواقعها واستعيض عنها بالمشاة اللاتفيين ووحدات جديدة من المتطوعين المحليين . ومع أن العملية جرت في الليل ، فإن إحدى الكتائب كانت قد تحركت بصورة تظاهرية في الليلة الفائتة بالاتجاه المعاكس ، ولم تتسلم الأمر بالرجوع إلا بعد أن قطعت مسافة اثني عشر فرسخاً طوال خط الجبهة . ومن ثم سارت الكتائب في الاتجاه ذاته إنما اتبعت مسالك مختلفة .

وكانت كتيبة تشيرنويارسك الثامنة عشرة بعد الثلاثمائة قد عسكرت في مدينة صغيرة تقع على نهر ستوخود قبل أن يتم نقلها . وفي الصباح ، بعد المسيرة الأولى ، انتشرت الكتيبة في غابة في حفائر مهجورة ، ولبثت هنا أربعة أيام تتلقى دروساً في الهجوم على الطريقة الفرنسية ، التي تقضي بالتقدّم بأنصاف سرايا بدلاً من الأفواج . وطلب من رماة القنابل اليدوية قطع الأسلاك الشائكة بأقصى ما يستطاع من السرعة وقاموا بتمرينات إضافية في رمي القنابل اليدوية من جديد . ثم استأنفوا مسيرتهم ثانية ، وظلوا يسيرون ثلاثة أيام في الغابات ، خلال ممراتها ، في مسالك الأحراش غير الممهدة التي تحمل آثار عجلات المدافع . وكان ثمة ندف من ضباب خفيف تدفعه الرياح ، يحيط بقمم أشجار الصنوبر ، وينساب خلل الفجوات محوماً كالحدأة فوق خضرة المستنقعات الضاربة إلى الزرقة والمتصاعد منها البخار . وكان المطر يتساقط رذاذاً بلا انقطاع ، فتبلل الرجال كلياً وبرموا . وبعد ثلاثة أيام بلغوا منطقة الهجوم غير البعيدة عن قريتي بوريك الكبيرة والصغيرة ، واستراحوا يوماً ، استعداداً لرحلة الموت .

وفي الوقت ذاته كانت سرية قوزاقية خاصة ترافق أركان حرب الفرقة الثمانين تمضي شطر ساحة المعركة القريبة . وكان من بين جنود هذه السرية قوزاق الاحتياط الثالث من قرية تاتارسكي ، وكان الرعيل الثاني مؤلفاً منهم بصورة كلية . وكان بينهم أخوا اليكسي شامل ذي الذراع الواحدة ، مارتين

وبروخور ، ومأمور الماكنة السابق إيفان اليكسييفتش ، وأفونكا أوزيروف الأفلج ، والأتمان السابق مانيتسكوف ، وغافريلا ليخوفيدوف ، الذي كان حياة السرية وروحها ، وكثيرون غيرهم . وكان ليخوفيدوف قوزاقياً ذا مظهر فظ اشتهر بتحمله الضربات التي طالما يتلقاها دونما احتجاج من أمه البالغة السبعين من عمرها وزوجته ، وهي امرأة لا تلين لها قناة رغم أنها لاتتمتع بجمال عظيم .

وفي الصباح الباكر من اليوم الثالث من تشرين الأول دخلت السرية قرية بوريك الصغيرة في الوقت الذي كانت السرية الأولى التابعة لكتيبة تشير نويارسك ٢١٨ على أهبة مغادرتها . كان الجنود يخرجون من الأكواخ المهجورة المتداعية مهرولين الواحد إثر الآخر في الشارع .

وكان ثمة نائب عريف شاب أدكن البشرة واقفاً قرب الفصيل الرئيسي . كان يخرج قطعة حلوى من حافظة الخريطة ويزيل عنها الغلاف وسرعان ما تلطخت زوايا شفتيه الورديتين النضرتين بالشوكولاته . وحينما سار بمحاذاة الطابور أخذ معطفه الملطخ بالطين يتأرجح بين ساقيه مثل إلية الخروف . وتقدم القوزاق من الجانب الأيسر من الشارع . وكان إيفان اليكسييفتش ، مأمور الماكنة ، في الصف الجانبي من صفوف الرعيل الثاني . كان يسير وعيناه مسمرتان إلى الأرض ، محاولاً تجنب البرك . فناداه أحدهم من صفوف المشاة ، فأدار رأسه وجال ببصره بين الجنود .

ـ إيفان الكسييفتش! صديقي القديم...

وتخلف جندي قميء عن فصيله وأخذ يركض ركض البطة ، تجاهه ، ملقياً بندقيته من الخلف على كتفه . غير أن الحمالة انزلقت فراح العقب يحتك بصفيحة طعامه .

ـ ألا تعرفني ؟ أتراك نسيتني بمثل هذه السرعة ؟

وبعد لأي عرف إيفان اليكسييفتش الجندي القميء ، الذي غطت حلقه وذقنه لحية خشنة رمادية بلون الدخان ، إنه الولد .

ـ من أين نبعت ؟

ـ هكذا... أنا في الخدمة...

ـ في أي كتيبة ؟

ـ في هذه الكتيبة ، تشيرنويارسك ٣١٨ . ولم يدر في خلدي أن ألتقي بأحد من أصدقائي القدامى هنا .

وابتسم إيفان اليكسييفتش بسرور ولهفة ، وهو ما يزال يمسك يد الولد الصغيرة القذرة بقبضته الناتئة . وأسرع الولد ليلحق بخطوه السريع ، مشرئباً بنظراته إلى عيني إيفان ، بينما كانت نظرات عينيه الصغيرتين الحانقتين المتقاربتين ندية حنوناً غير متوقعة .

ـ نحن مقبلون على الهجوم .

ـ ونحن كذلك .

ـ حسناً ، كيف تسير معك الأمور يا إيفان الكسييفيتش ؟

ـ ليس ثمة ما يستحق الذكر .

ـ وكذلك بالنسبة لي . فلم أخرج من الخندق منذ عام ١٩١٤ . ولم يكن لدي بيت أو عائلة . ولكن علي أن أقاتل لمصلحة الغير...ولا يعلم الا الله كيف ولماذا...

ــ هل تذكر شتوكمان ؟ لقد كان رجلاً طيباً ، صاحبنا أوسب دافيدوفيتش! لو كان معنا لكشف لنا عن جلية الأمر .

لقد كان رجلاً بحق ، رجلاً عليماً...

وهتف الولد وهو يلوح بقبضته الصغيرة ويجعد وجه الأهلب الصغير بابتسامة :

ـ هل تذكره! إني لأذكره أكثر من أبي نفسه .

إذ لم أكن لأبالي بأبي... أتعلم عن مصيره شيئاً ؟

فتأوه إيفان أليكسييفيتش وقال :

ــ إنه في سيبيريا... أرسلوه للسجن هناك .

فتساءل الولد وهو يتواثب إلى جانب صديقه الطويل تواثب الطائر الصغير ، وقد انتصبت أذنه الثعلبية :

ـ ماذا ؟

ـ هو في السجن . وأغلب ظني أنه في عداد الأموات الآن .

وواصل الولد سيره برهة دون أن ينبس ببنت شفه ، وهو ينظر حيناً إلى الخلف حيث تتجمع سريته ، وحيناً يحدق إلى الأعلى في ذقن إيفان والغمازة المستديرة تحت شفته السفلى تماماً . وقال وهو يخلص يده من يدي إيفان الباردتين :

ـ وداعاً! لا أعتقد أننا سنلتقي مرة ثانية .

ورفع القوزاقي قبعته بيده اليسرى ، وانحنى ، وأحاط كتفي الولد الهزيلين بذراعه ، وقبل أحدهما الآخر بحراره ، وكأنما يفترقان إلى الأبد ، ثم انسحب الولد . وسرعان ما غاص رأسه في صدره ، ولم يظهر سوى أعلى أذنيه الورديتين فوق معطفه الرمادي . وعاد وهو يتعثر بخطاه مطأطئ الهامة .

خرج إيفان أليكسييفتش من الصف ، وجعل ينادي بصوت راعش :

ـ أيها الأخ! ياعزيزي! كنت حانقاً... كنت صلباً ، أليس كذلك! هل تذكر ؟ كنت رجلاً قوياً...إيه ؟

فأدار الولد وجهه المبلل بالدموع الذي شاخ بسببها في الحال ، وضرب بقبضته على صدره الأسمر الهزيل الناتيء من خلال معطفه المفتوح وياقة قميصه الممزقة ، وصاح :

ـ كنت كذلك! كنت شديد البأس! بيد أنهم سحقوني... لقد ساقوا الحصان العجوز إلى الموت!

وهتف بشيء آخر ، بيد أن سرية القوزاق انعطفت إلى شارع جانبي ، ولم يعد إيفان أليكسييفتش يراه .

وسأله بروخور شامل الذي كان يسير خلفه :

ـ كان ذلك الولد ، أليس كذلك ؟

فأجابه إيفان أليكسييفتش باكتئاب وقد ارتعشت شفتاه فيما هو يمد يده إلى حمالة بندقيته .

ـ إنه رجل بحق .

عندما خرج القوزاق من القرية بدأوا يصادفون جرحى ، فرادى وأزواجاً في بادىء الأمر ، فمجاميع ، فحشوداً كاملة .

كانت عدة عربات تزحف ببطء ملأى إلى حد الطفح بمصابين في حالات خطيرة . وكانت الخيل التي تسحب العربات هزيلة هزالاً مريعاً . وكانت ظهورها العجفاء تحمل آثار السياط التي تلفحها باستمرار ، وفي بعض المواضع كانت العظام تلوح خلل الجراح ببقايا الوبر الملتصق بها هنا وهناك . كانت تجر العربات بصعوبة ، وهي تترنح وتنفخ ، وخطومها المزبدة تكاد تلامس الوحل . وبين آونة وأخرى تتوقف إحداها ، فتخفق خاصرتاها الغائرتان في وهن ، ويتدلى رأسها في قنوط . ولكن ضربة السوط كانت تحركها من مكانها ، فتجرجر أقدامها ثانية ، متأرجحة ذات اليمين وذات الشمال . وكان الجرحى متعلقين بالعربات من جميع جهاتها ، يجرجرون أنفسهم طوال الطريق .

سأل آمر السرية جندياً كان يبدو أكثر لطفاً من الآخرين :

ـ من أي كتيبة أنت ؟

ـ من فيلق تركستان ، الفرقة الثالثة .

ـ هل جرحت اليوم ؟

فأشاح الجندي عنه دون أن يجيبه .

وانعطفت السرية القوزاقية عن الطريق ودلفت إلى الغابة القريبة . وكانت سرايا المشاة التابعة لتشرنويارسك ٣١٨ قد تركت القرية ودرجت في أثرها .ومن بعيد ، في السماء الشاحبة العتماء تدلت نقطة رمادية ضاربة إلى الصفرة لمنطاد ألماني .

ـ انظروا ، أيها الأولاد ، ثمة معجزة لكم!

ـ كأنه سجق .

ـ إذا فمن هناك يراقب هذا النغل حركات قطعاتنا .

ـ هل تعتقدون أنه ارتفع إلى هذا العلو لغير ما هدف ؟

ـ واه ، ما أعلاه!

ـ حتى القذيفة لا تبلغه!

ولحقت سرية المشاة الأولى التابعة لتشيرنويارسك بالقوزاق في الغابة . ولبثوا سوية تحت الصنوبر المدرار حتى المساء .

وكان المطر ينفذ إلى ما تحت ياقاتهم ويسيل على ظهورهم ، وقد منعوا من اضرام النار ، وعلى أيه حال كان من المتعذر إشعالها في المطر . وإذا كان الغسق يسدل أستاره اقتيدوا إلى خندق مواصلات يكاد لا يعلو هامة الرجل ، وقد غمرته المياه ، وانبعثت منه رائحة الوحل ومخاريط الصنوبر الندية ورائحة المطر الطرية كالمخمل .

وجلس القوزاق على أعقابهم وقد رفعوا أسافل معاطفهم إلى الأعلى ، وطفقوا يدخنون ويتجاذبون أطراف حديث فاتر كئيب . وتقاسم جنود الرعيل الثاني جعالتهم من التبغ التي تسلموها قبل المسيرة وتجمّعوا سوية حول عريف رعيلهم . وكان هذا جالساً على بكرة أسلاك مهجورة ، يتحدث عن الجنرال كوبيلو فسكي ، الذي قتل يوم الاثنين الأسبق ، حيث كان يخدم في لوائه أيام السلم . ولم يتسن له أن يتم قصته فقد أصدر آمر الرعيل أمراً فهب القوزاق وهم يجرون بشرهٍ من سكائرهم نفساً أخيراً حتى ولو أدى ذلك إلى احتراق أصابعهم . وا قتيدت السرية من الخندق ثانية خلل غابة الصنوبر المعتمة . وواصلوا مسيرتهم محاولين تشجيع بعضهم البعض بحمية . وراح أحدهم يصفر .

ثم بلغوا صفاً طويلاً من الجثث في مسلك صغير . كانت الجثث ممدة كتفاً لكتف ، في أوضاع مختلفة ، معظمها رهيبة ومعيبة . وكان يقف في حراستها جندي متسلح ببندقية وقد تدلى من نطاقه قناع الغاز . وقد هرست

الأرض الرطبة بمئات الأحذية وعجلات العربات . وإذ اقترب القوزاق من الجثث ، بلغتهم رائحة الجيفة المقرفة الثقيلة المنبعثة منها . وأمر القائد السرية بالتوقف ، وذهب مع ضباط الرعيل إلى الجندي ، ووقف يكلمه بعض الوقت . أما القوزاق فقد خرجوا عن الصف وتقدموا نحو الجثث ، رافعين قبعاتهم وهم ينظرون إلى القتلى وقد انتابهم ذلك الشعور الخفي من الرهبة والفضول ، الذي ينتاب كل الأحياء إزاء سر الموت . كانت تلك جثث ضباط ، وقد أحصى القوزاق سبعة وأربعين منهم . كان معظمهم شباناً تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والعشرين ، كما تدل عليهم سيماؤهم . ولم يكن بينهم سوى كهل واحدفي أقصى اليمين ، وقد كان يحمل شارة النقيب . وكان فمه فاغراً ينم في أعماقه عن أصداء مكبوتة لصرخته الأخيرة ، وقد تهدل فوق فمه عذاران أسودان كثان ، وتجهم حاجباه العريضان على وجهه الشاحب الذي علاه شحوب الموتى . وكان بعض الموتى يرتدون سترات جلدية ملطخة بالوحل ، في حين كان الآخرون يرتدون المعاطف ، . وكان اثنان منهم أو ثلاثة حاسري الرأس . أمعن القوزاق النظر في جثة أحد الملازمين ، وقد بدا وسيماً حتى بعد موته . كان مستلقياً على ظهره ، وقد ضم يده اليسرى إلى صدره بشدة ، وانبسطت يمناه إلى الخارج وقد أمسكت مسدساً بقبضة أبدية . ويبدو أن أحداً قد حاول انتزاع السلاح من يده ـ فثمة خدش في معصمه الباهت المتين ـ غير أن الحديد كان قد التحم بيده ، وما كان بالوسع فصلهما .

وكانت قبعته قد انداحت إلى الوراء على شعره الكتاني الأجعد . وكان خده لصيقاً بالأرض وكأنه يداعبها ، وشفتاه البرتقاليتان الضاربتان إلى الزرقة مزمومتين بذهول وكآبة . أما الذي كان على يمينه فقد انكفأ على وجهه ، وتكور معطفه على ظهره وقد تمزقت سيوره الخلفية تكشف عن ساقين قويتين متوترتي العضلات ترتديان سروالاً خاكياً وجزمتين قصيرتين من جلد كروم ، وقد مال الكعبان إلى جهة واحدة . كان بلا قبعة ، وقد فقد قحف جمجمته ،

فلقد طوحت به شظية قذيفة وكان ثمة ماء من آثار المطر وردي اللون يسطع في قحف دماغه الفارغ الذي تؤطره بقايا شعر ندي .

وإلى جواره يرقد ضابط بدون وجه ، قصير مكتنز يرتدي سترة جلدية مفتوحة وقمصلة ممزقة . وكان شدقه الأسفل يستقر بشكل شائه على صدره العاري ، وتحت شعر رأسه التمعت بقايا جبينه الضيقة البيضاء وقد احترق جلدها والتف حتى استحال إلى مايشبه الأنابيب الصغيرة . وبين الجبهة والحنك لم يكن ثمة سوى قطع من العظام وهريس ثخين قرمزي حائل إلى السواد .

وخلف هذه تجمعت بلا عناية أوصال أطراف ، وآثار معطف . وساق مهشمة حيث يكون الرأس . ثم يليه شاب فتي ممتلىء الشفتين ذو وجه بيضوي طفولي . اكتسح صدره وابل من رصاص الرشاش ، وكان معطفه مثقوباً من أربعة مواضع ، وقد لاحت آثارالقطن المحترق خلل الثقوب . وهمهم إيفان اليكسييفتش بأسنانه المصطكة :

-«من... من تراه كان ينادي ساعة احتضاره ؟ أمه ؟» - وابتعد بقوة يتعثر كالأعمى .

عاد القوزاق مسرعين إلى أماكنهم ، وهم يرسمون شارات الصليب ، دون أن يلتفتوا إلى الوراء ، ولاذوا بصمتٍ طويل وهم يتابعون مسيرهم خلال المسالك الضيقة ، متعجلين الابتعاد عن ذكرى ما شاهدوه . وبعد فترة توقفت السرية قرب شبكة كبيرة من الحفائر المهجورة . ودخل الضابط إحدى الحفائر مع رسول رافقهم من كتيبة تشيرنويارسك .

أمسك أفونكا أوزيروف الأفلج بذراع إيفان أليكسييفتش وهمس :

- ذلك الولد... الأخير... أحسب أنّه لم يقبّل فتاة في حياته... ولكنهم قتلوه . هل هذا معقول ؟

فقاطعة زاخار كوروليف :

- ترى أين لاقوا هذا المصير ؟

فقال بورشيف بعد وقفة :

ـ حدث ذلك أثناء الهجوم . أخبرني بذلك الجندي الذي كان بحراسة هذه الجثث .

ووقف الرجال للاستراحة . وخيم الظلام على الغابة . وكانت الريح تسوق الغيوم ، وتمزقها ندفاً فتظهر نجوم تلتمع في البعيد مثل الليلاك .

وأثناء ذلك جمع الآمر الضباط في الحفيرة ، وصرف الرسول ، وفتح الإضمامة على ضوء عقب شمعة ، وقرأ مضمونها :

في فجر الثالث من تشرين الأول استعمل الألمان الغازات الخانقة ضد الفوج الثالث التابع لكتيبة ٢٥٦ واستولوا على الخط الأول من خنادقنا . آمركم بالانتقال الى الخط الثاني من الخنادق ، وبعد الاتصال بالفوج الأول التابع لكتيبة تشيرنويارسك ٣١٨ ، خذوا مواضعكم في الخط واستعدوا لشنّ هجوم مضاد على العدو واكتساحه من الخط الأول في هذه الليلة بالذات . وستكون في جناحكم الأيمن سريتان من الفوج الثاني وفوج من كتيبة فاناغورييسك التابعة لفرقة رماة القنابل اليدوية الثالثة .

وراح الضباط يناقشون الموقف ويدخنون . ثم تحركت السرية .

وفيما كان القوزاق يستريحون قرب الحفائر ، سار الفوج الأول من كتيبة تشيرنويارسك في المقدمة . وبلغوا الجسر القائم فوق نهر ستوخود . وكانت تحرسه خفيرة قوية من رماة الرشاشات لاحدى كتائب رماة القنابل اليدوية . وشرح رئيس العرفاء الموقف لآمر الفوج وانقسم الفوج إلى عدة سرايا بعد عبور الجسر : ذهبت سريتان شطر اليمين ، وواحدة شطر اليسار ، وبقيت الرابعة احتياطاً .

ثم تقدمت السرايا في خط عريض . وكانت أرض الغابة الخفيفة مخددة بالانفجارات . وراح الرجال يطؤون الأرض حذرين ، ويتحسسونها بأقدامهم ، وبين حين وآخر يسقط أحدهم فيهمس ببعض الشتائم . وكان الولد في أقصى ميمنة السرية ، كان السادس من آخر الطابور الطويل .

واجتازه ضابطان يتحدثان بلهجة خافتة . كان صوت آمر السرية الجهير الرخيم يتشكى قائلاً :

ـ لقد انفتح جرحي القديم من جديد . اللعنة على ذلك النتوء . لقد تعثرت به في الظلام ، فانفجر الجرح ولم أعد أقوى على المسير . أخشى أن أضطر إلى الرجوع .

وتوقف الصوت الجهير لحظة ليعود فيسمع ثانية خفوتاً من بعيد : « خذ أنت قيادة نصف السرية الأول . وسيأخذ بوغدانوف النصف الثاني ، أما أنا...فوالله لا أستطيع المضي . سأضطر إلى الرجوع . »

فتصدى له الملازم الثاني بيليكوف بصوته الصادح الأجش :

ـ من المدهش أن جراحك القديمة تعاود الانفتاح في بدء كل معركة!

فرفع آمر السرية صوته قائلاً :

ـ كيف تجرؤ على قول ذلك يا ملازم ثاني!

ـ أوه ، دعك من هذا . بوسعك الذهاب إذا شئت .

وفيما كان الولد يصغي إلى وقع أقدامه وأقدام الآخرين ، تناهت إليه خشخشة الدغل من خلفه فأدرك أن آمر السرية كان قد اندفع إلى المؤخرة . وبعد دقيقة بلغت سمعه همهمة بيليكوف فيما كان يذهب إلى جناح السرية الأيسر مع رئيس العرفاء :

ـ لقد تنسموا رائحة الخطر ، أولئك الخنازير! وكلما استجد القتال ، انتابهم المرض أو هاجت عليهم جروحهم .

أما أنت ، أيها الملازم الغر فينبغي عليك أن تقوم بمهمة القيادة...

يا لهم من أوباش! ليتني أستطيع... ـ ويسمون أنفسهم جنوداً!...

وتوقفت الأصوات فجأة ولم يسمع الولد سوى بقبقة قدميه وصرخة ترن في أذنيه . وهمس شخص فجأة إلى يساره :

ـ ايه! أيها الجار!

ـ ماذا ؟

ـ هل أنت على ما يرام ؟

فقال الولد :

ـ الحمد لله...

وما لبث أن تعثر وراح يتزحلق إلى الخلف في حفرة قنبلة مليئة بالمياه .

وسمع من في يساره يقول :

ـ الدنيا مظلمة ، عليها اللعنة!

وواصلا السير بعض الوقت ، لايرى أحدهما الآخر ، ثم همس بغتة نفس الصوت ذي الفحيح في أذن الولد تماماً :

ـ فلنذهب سوية . وحينذاك لن يكون الأمر مخيفاً...

وواصلا السير في صمت ، وهما يطآن بجزمتيهما المثقلتين بالماء الأرض الزلقة بحذر . وفجأة بزغ قمر أقرن مبقع من وراء السحب ، يقاوم أمواج الضباب كالقارب ، ثم ظهر في سماء صافية ، فصب سيلاً من الضياء الخافت . والتمعت على ضوئه أبر الصنوبر الندية وأومضت ، وبدا وكأن عبير الزهور المخروطية قد زاد شذاه وأنفاس التربة الندية قد ازدادت برودة .

ألقى الولد نظره على جاره ، الذي توقف فجأة وجعل يهز رأسه كما لو كان أصيب بضربة . وتنفس وقال :

ـ انظر!

كان ثمة رجل يقف تحت شجرة صنوبر على بعد ثلاث خطوات منهما ، وقد باعد بين ساقيه .

ـ رجل! ـ كان الولد هو الذي همس بهذه الكلمة ، أو هكذا خيل إليه على الأقل .

وصرخ رفيقه وهو يتناول بندقيته من على كتفه في الحال :

ـ من هناك ؟ من هناك ؟ سوف أطلق النار!

كان الشبح الواقف تحت الصنوبرة لائذاً بصمت لايرين ، وقد تدلى رأسه جانباً كما تتدلى زهرة عباد الشمس على ساقها .

فقال الولد منتفضاً : ـ إنه نائم!

وتقدم إلى الأمام مجبراً نفسه على الضحك ، وسرت القشعريرة في جسمه .

ومضيا شطر الشبح القائم . وشد الولد قامته وجعل يحملق ، ثم وخز زميله الشبح الرمادي الجامد بأخمص بندقيته . وقال مازحاً :

ـ أنت ، يا صبي! أخذتك سنة من النوم ، يا صاحبي ؟ يا خُشاش!

وتوقف ثم صرخ ثم تراجع إلى الوراء : ـ انها جثة!

واصطكت أسنان الولد ، وقفز إلى الوراء ، وتهاوى الشبح كالشجرة حيث كان يقف . وعندما أدارا وجه الجثه إلى الأعلى وتبينا أن الصنوبرة كانت بمثابة ملجأ أخيراً لهذا الجندي المتسمم بالغاز ، وهو من الكتيبة ٢٥٦ ، حين كان يحاول النجاة بلاجدوى من الموت الذي حل في رتيه . فتى طويل عريض المنكبين ، رقد وقد ارتمى رأسه إلى الوراء ، وتلطخ وجهه بالطين عند سقوطه ، وكانت عيناه جاحظتين أحرقهما الغاز ، وبرز لسانه لحيماً منتفخاً من بين أسنانه مثل قطعة من الخشب المصقول الأسود .

همس رفيق الولد وهو يمسك بيده :

ـ تعال ، تعال بربك! دعه يرقد هناك!

وبعد بضع خطوات شهدا جثة أخرى ، ثم أخرى فأخرى . كان الجنود المسممون متكدسين في بعض الأماكن أكداساً ، وقد مات بعضهم وهم جالسون على مؤخراتهم ، وكان آخرون على الأربع ، أشبه بحيوانات ترعى ، وفي مدخل خندق المواصلات المؤدي إلى الخط الثاني من الخنادق رقد رجل ملتئماً مثل الكرة ، وقد دس قبضته المقضومة بين أسنانه من شدة الألم . أسرع الولد ورفيقه ليلحقا بطابورهما ، ولكنهما فقدا أثره في الظلام ، ثم لم يلبثا أن وجدا نفسيهما في المقدمة . وبعد أن تجولا بعض الوقت قفزا في أخدود مظلم لخنادق تتوغل في الظلام .

واقترح رفيق الولدمترددا :

ـ لنفتش الحفائر ، فلعلنا نجد شيئاً نأكله .

ـ حسناً .

ـ اذهب أنت إلى اليمين ، وسأتجه إلى اليسار . سنبحث ريثما يأتي الآخرون .

وأشعل الولد ثقاباً وخطا خلال مدخل أول حفيرة واجهها .

ولكنه انطلق خارجاً من جديد كما لو أن عتلة قذفت به ، فقد كانت في الداخل جثتان متقاطعتان ترقد احداهما فوق الاخرى . فتش ثلاث حفائر دون أن يحظى بنتيجة ، ورفع باباً رابعاً ، وما أن سمع صوتاً رناناً يتحدث بالألمانية قائلاً : Wer ist das?* حتى كاد يتهاوى .

فقفز الولد إلى الوراء في سكون ، وبدنه يرتجف .

وتساءل الألماني وهو يخطو خارج الحفيرة ويصلح وضع معطفه على كتفيه بلا اكتراث :

ـ Das bist du, Otto? Weshalb bist du so spat gekommen?**

فصرخ الولد بخشونة وقد امسك ببندقيته استعداداً .

ـ ارفع يديك! ارفعهما إلى الأعلى! استسلم!

فرفع الألماني يديه ببطء ، وقد صعقه الذهول ، والتفت جانباً ، وثبت نظره في نصل الحربة اللامع المصوب اليه .

وسقط معطفه من على كتفيه ، كاشفاً عن قمصلته العسكرية الرمادية المخضوضرة ، والمتجعدة من تحت ابطيه ، وارتجفت فوق رأسه يداه الكبيرتان وهما يدا عامل كادح ، وارتعشت أصابعه كأنها تلامس أوتاراً غير مرئية . وقف الولد دون أن يغير وضعه ، محدقاً في قامة الألماني الطويلة القوية ، والأزرار المعدنية لقمصلته ، وجزمته الصغيره ، وقبعته التي لا قمة لها والمائلة قليلاًإلى أحد الجانبين . واهتز كأنه قد جرد من معطفه ، وهو يغير

---

* من هذا ؟ ـ بالألمانية في الأصل .

** أهذا أنت يا أوتو ؟ لِمَ تأخرتَ طوال هذا الوقت ؟ ـ بالألمانية في الأصل .

وضعه فجأة ، وند عنه صوت محشرج مقتضب ، لاهو بالسعال ولا هو بالنشيج ، وخطا نحو الالماني . ثم قال بصوت أجوف متكسر :

ـ اهرب! اهرب ، أيها الالماني! لست أضمر لك حقداً! لن أطلق النار!

وأسند بندقيته على جدار الخندق ، ومد يده إلى يد الالماني اليمنى وهو يقف على أطراف أصابعه . فطمأنت حركته الواثقة الرجل الذي أنزل يديه وأصغى بانتباه إلى اللهجة غير المعهودة في صوت الروسي .

وبلا تردد مد الولد له يده الصلبة التي أرهقها العمل الشاق وشد على أصابع الألماني الباردة الرخوة . ثم رفع الكف . وسقط ضوء القمر عليها فأظهر تقرنات الجلد القديمة السمراء .

وقال الولد وهو يرتجف كأنه محموم :

ـ أنا عامل . لماذا أقتلك ؟ أهرب!

ودفع كتف الالماني بيده اليمنى برفق ، وأشار إلى الغابة السوداء وقال :

ـ أهرب ، أيها الأحمق! سيصل رجالنا عما قريب...

وقف الالماني يحدق في يد الولد الممتدة ، وجسده مائل إلى الامام قليلاً ، وأذناه مرهفتان لادراك معنى الكلمات البعيدة عن فهمه . وظل واقفاً على هذا النحو برهة من الوقت ، وقد التقت عيناه بعيني الولد ، ثم ارتعشت شفتاه عن ابتسامة فرحة على حين غرة ، وتراجع خطوة إلى الوراء ومد ذراعيه ، وشد على يدي الولد وهزهما ، وهو يبتسم باضطراب ويحدق في عيني الروسي :

- Du entlässt mich?.. O, jetzt hab ich verstanden! Du bist ein russischer Arbeiter? Sozial-Demokrat, wie ich? So? O! O! Das ist wie im Traum... Mein Bruder, wie kann ich vergessen? Ich finde keine Worte. Nur du bist ein wunderbarer wagender Junge... Ich... *

* ـ هل ستدعني أذهب ؟ أوه ، انني أفهم الآن . . أنت عامل روسي ؟ سوشال ـ ديموكرات مثلي ؟ نعم . . يا له من حلم! كيف أستطيع أن أنسى ، يا أخي ؟ ان الكلمات تخونني . . ولكنك فتى طيب شجاع . . ـ بالالمانية في الأصل .

التقط الولد من غمار السيل الذي يغلي بالكلمات كلمتي « سوشال ديموكرات » المألوفتين :

ـ أجل ، انني سوشال ديموكرات . لقد صدق ظنك . والآن ، اهرب...! وداعاً ، أيها الأخ . هات يدك .

وقفا ينظران في عيني بعضهما ، وكل منهما يفهم الآخر بالبديهة ، البافاري حسن الهندام والجندي الروسي القصير .

ومن الغابة جاءت أصوات الطوابير الروسية المقتربة . وهمس الألماني :

- In den zukünftigen Klassenkämpfen werden wir in denselben Schützengräben sein, nicht wahr, Genosse?*

ثم وثب إلى المتراس وكأنه حيوان رمادي كبير .

وبعد قليل أقبل طابور الجنود الروس ، وفي مقدمتهم فرقة استكشاف تشيكية مع ضابطها . وكادوا جميعاً أن يطلقوا النار على الجندي ، وهو يزحف خارجاً من الحفيرة . فصاح بهلع وهو يضم رغيفاً من الخبز الأسود إلى صدره ، إذ رأى ماسورة بندقية مصوبة اليه :

ـ انني روسي ، الا ترون ؟

وقفز نائب الضابط فوق الخندق بعد أن تبين الولد ، وضربه بخشونه على ظهره بعقب بندقيته :

ـ سأحطمك ، سأجدع لك أنفك! أين كنت ؟

فانتفض الولد وهو يعرج ، وكأن الضربة لم تعط مفعولهاالمقصود منه . فقد أذهل نائب الضابط ، وهو يترنح إلى الأمام إذ أجابه بلهجة سموح على غير عادته :

ـ لقد سبقناكم . لا تكن فظاً بهذا الشكل .

ـ كفاك تسكعاً! تارةً في المؤخرة ، وتارة في المقدمة .

---

* « في الصراع الطبقي المقبل سوف نكون في خندق واحد ، أليس كذلك أيها الرفيق ؟ » ـ بالألمانية في الأصل .

ألا تفهم الأوامر ؟ لست مستجداً ، أليس كذلك ؟
وسأله بعد وقفه :
- هل لديك شيء من التبغ ؟
- انه رطب .
- هات بعض الشيء .

وأولع نائب الضابط سيكارة ومضى إلى مؤخرة الفصيل . وقبل الفجر تماماً التقت فرقة الاستكشاف التشيكية بمركز مراقبة ألماني . فمزق الألمان السكون بوابل من الرصاص . وأطلقوا دفعتين أخريين في فترتين متساويتين . وحلق كشاف قرمزي فوق الخنادق ، فدوت الأصوات ، ولم يعد بريق الكشاف الارجواني يخبو حتى فتحت المدفعية الألمانية نيرانها . وتناهى صوت القنابل المتفجر على مبعدة كبيرة من القوات الروسية ، من مكان ما بجوار نهر ستوخود .

وما أن أطلقت أول رصاصة حتى انبطحت السرية التي كانت تسير وراء التشيكيين بما يقرب من مائة خطوة . كان ضوء الكشاف قد سكب وميضاً أحمر فوق الأرض ، وعلى ضوئه رأى الولد الجنود يزحفون كالنمل بين الأجمات والاشجار ، وما عادوا يحاذرون من الطين ، بل التصقوا به يلتمسون الحماية . وزحف الرجال نحو كل اخدود ، واختفوا وراء كل أكمة صغيرة من التراب ، ودسوا رؤوسهم في كل حفرة صغيرة . ومع ذلك ، فعندما اغرقتهم نار الرشاش المنطلقة من الغابة بضراوة ، كسيل شهر أيار ، أذعنوا ، وزحفوا عائدين ، وقد دفنوا رؤوسهم بين أكتافهم ، وهم ملتصقون بالأرض مثل الزواحف ، يتحركون دون أن يثنوا ذراعاً أو ساقاً ، ويزحفون كالحيات تاركين وراءهم آثاراً في الوحل . وقفز بعضهم على أقدامهم وأخذوا يركضون . ومزقت رصاصات دم - دم واخترقت الغابة لاطمة الزهور المخروطية مفتتة أشجار الصنوبر الى شظايا ممزقة الأرض وهي تفح كالأفاعي .

فقد سبعة عشر رجلاً من نصف السرية الأول التابع لكتيبة تشيرنويارسك

عندما وصلت الخط الثاني من الخنادق للمرة الثانية . وعلى مبعدة قليلة من ذلك كان قوزاق السرية الخاصة محتشدين أيضاً . كانوا قد تقدموا إلى يمين نصف سرية تشيرنويارسك ، وتحركوا بحذر ، وكان بوسعهم أن يباغتوا الالمان ويجتاحوا نقاطهم الأمامية . ولكن عندما فتحت هذه النقاط الأمامية النار على التشيكيين ، استعد الالمان على امتداد القطاع . فأطلقوا النار كيفما اتفق ، وقتلوا قوزاقيين وجرحوا آخر .

فعاد القوزاق بالجريح والقتيلين . وأخذوا يتحدثون فيما هم يصطفون :

ـ يجب دفنهما .

ـ غيرنا سيفعل ذلك .

ـ إن الاحياء أحق بالاهتمام . أما الموتى فليسوا بحاجة إلى شيء .

وفي غضون نصف ساعة هبط أمر آخر من أركان الكتيبة : «بعد التمهيد بالمدفعية ، آمر كتيبة تشير نويارسك وسرية القوزاق الخاصة باستئناف الهجوم على العدو وطرده من خط الخنادق الأول» .

دام التمهيد الخفيف بالمدفعية حتى الظهر . واستراح القوزاق والمشاة في حفائرهم ، بعد أن أقاموا الحراسة . وفي الظهيرة شرعوا يتقدمون . وأعلن هدير المدفعية عن هجوم جديد من القطاع الرئيسي على يسارهم . كان الروس يزحفون على طول الجبهة بكاملها .

تقدم القوزاق في خط متقطع مالبث أن اتصل من اليسار بكتيبة تشيرنويارسك ، ولم تكد تلوح قمم المتاريس حتى أطلق الألمان عاصفة من النار . وهرعت السرية إلى الأمام دونما صياح ، وانبطح رجالها على الأرض ، وأفرغوا بنادقهم وهرولوا من جديد . وعلى بعد خمسين خطوة من خنادق العدو ، استلقوا على الأرض ، ولبثوا . وبدأوا الآن يطلقون النار دون أن يرفعوا رؤوسهم . كان الألمان قد وضعوا شبكة من الأسلاك على طول الخنادق . ورمى أفونكا أوزيروف قنبلتين يدويتين فوقعتا وراء الأسلاك . ولما رفع نفسه ليرمي الأخرى أصابته طلقة في جانبه الأيسر وخرجت أسفل عموده الفقري .

وشاهد ايفان اليكسيفتش الذي كان مستلقياً إلى جانبه ، أوفنكا يخبط برجليه بوهن ، ثم مالبث أن رقد بلا حراك . وقتل بروخور شامل أخو اليكسي ذي الذراع الواحدة ، وكان الأتمان السابق مانتسكوف ثالث القتلى ، وبعد لحظة قتل يفلانتي كالينين ذو الساق المقوسة ، وقد كان راقداً إلى جوار شامل .

في غضون نصف ساعة فقد الرعيل الثاني ثمانية رجال . لقد قتل الرئيس الذي كان يقود السرية ، كما سقط ضابطا الرعيل ، وزحف القوزاق عائدين بعد أن فقدوا قيادتهم . وعندما خرجوا من منطقة النار ، تجمعوا في مكان واحد فوجدوا أنهم فقدوا نصف عددهم . ثم انسحب رجال تشير نويارسك هم الآخرون . أما خسائر الفوج الأول فقد كانت أكبر ، ومع هذا فقد جاء أمر جديد من قيادة الكتيبة :« استأنفوا الهجوم في الحال ، يجب أن تطردوا العدو من خط الخنادق الأول بأي ثمن . وان نجاح العملية بكاملها يتوقف على استعادتنا مواقعنا السابقة » .

وانتشرت السرية في خط دقيق وتقدمت من جديد . وتحت نار الالمان المبيدة انبطحوا على الأرض على بعد مئة خطوة من الخنادق . ومن جديد أخذ عدد الجنود يتضاءل ، ويلتصق الرجال المذعورون بالأرض لا يجرؤون على تحريك رؤوسهم أو رفعها ، وقد تبلدوا رعباً من الموت .

ووشيك المساء جفل جنود نصف السرية الثاني التابع لكتيبة تشير نو يارسك وراحوا يهرولون . وبلغ أسماع القوزاق صوت يصيح « قطع علينا خط الرجعة! » فنهضوا ورجعوا القهقرى متعثرين ، شاقين طريقهم خلال الأجمات ، وكانوا يتساقطون ، ويلقون بأسلحتهم . وسقط إيفان اليكسييفتش تحت صنوبرة اقتلعتها احدى القنابل ، بعد أن بلغ مكاناً أميناً ، وراح يستعيد أنفاسه ، وما لبث أن شاهد غافريلا ليخوفيدوف قادماً نحوه . كان يترنح كالسكران ، وعيناه مسمرتان إلى الأرض ، وكانت إحدى ذراعيه تخبط في الهواء ، في حين بدت الاخرى وكأنها منشغلة بإزاحة خيط عنكبوت غير مرئي عن وجهه . ولم يكن يحمل بندقية ولاسيفاً ، وقد اخضل شعر رأسه البني

الغامق السبط بالعرق والتصق على جبهته . وقفز متعثراً شطر إيفان أليكسييفيتش متدوراً فسحة صغيرة في الغابة . وتوقف وهو ينظر إلى الأرض بحول . كانت ركبتاه ترتجفان وقد انحنتا قليلاً ، ولاح لإيفان أليكسييفتش وكأنه على أهبة الوثوب في الهواء .

ـ هكذا ، اذاً... بدا ايفان أليكسييفتش محاولاً أن يقول شيئاً ، بيد أن قشعريرة ما قد خطفت وجه ليخوفيدوف .

مهلاً! ـ صرخ ليخوفيدوف على حين غرة ، وجلس القرفصاء وهو ينشر أصابعه وينظر حواليه بحذر وأضاف : ـ اسمع ، سأغني لك أغنية . لقد حلق طير الله ولحق ببوم وقال لها :

خبريني ، خبريني ، ياسيدتي البوم ،
من هو أكبر الطيور ، وأحسنها مقاماً ؟
النسر هو القيصر ،
والحدأة مقدم ،
وصقر الفئران رئيس ،
وذوو المناقير الطويلة هم رجال الاورال ،
والحمام هم جنود الحرس ،
والزرازير هم الكالميكيون ،
والعقاعق هم الغجر ،
والشقاريق* هم الحرس الخاص ،
وأمّا البط الرمادي فهم المشاة .

فقال ايفان أليكسييفتش وقد غشيه الشحوب :

ـ اسمعني! ماذا بك يا ليخوفيدوف ؟ هل أنت مريض ؟

---

* الشقاريق : جمع طير الشقرق . المترجمون

فقال ليخوفيدوف وقد استحال وجهه أرجوانياً :

ـ صه!

وعاد إلى أغنيته الغريبه ، وهو يزم شفتيه الزرقاوين فتفتران عن ابتسامة فارغة .

ووثب ايفان أليكسييفتش على قدميه وقال :

ـ هنا ، دعنا نعود الى السرية ، والا فسوف يختطفنا الالمان! ألا تسمعني ؟

فانتزع ليخوفيدوف يده بعيداً ، وراح يغني ، ولعاب حار يسيل من فمه .

ثم غير صوته فجأه ، وطفق يغني غناءً أجش . لم يكن غناء ، بل عواء متعالياً أشبه بعواء الذئب ينبعث من فمه المكشر عن أسنانه . والتمع اللعاب على أسنانه الحادة الطويلة . فحدق ايفان أليكسييفتش مرعوباً في عيني الرجل الشاردتين في جنون ، وفي رأسه ذي الشعر المتلبد وأذنيه الشبيهتين بالشمع ، ذلك الرجل الذي كان صديقه قبل بضع ساعات . وعوى ليخوفيدوف بأغنية قوزاقية قديمة بشيء من المرارة والأسى :

عالياً تقرع طبول المجد ،
وعبر الدانوب يذهب القوزاق ،
قد ألحقوا الهزيمة بأتراك السلطان
وحرروا كل المسيحيين من سطوته .

فهتف ايفان أليكسييفتش وقد رأى مارتن شامل يعرج عن مسافة قصيرة منه .

ـ مارتن! مارتن ، تعال هنا!

فاقترب مارتن متكئاً على بندقيته .

وأشار ايفان أليكسييفتش إلى المجنون بعينه :

ـ أعني في ارجاعه . انظر ماذا حدث ؟ لقد كان ذلك أكثر مما يحتمل . فقد صعد الدم إلى رأسه .

وضمد شامل ساقة الجريحة بكم قميصه الداخلي . ثم أمسك بذراع ليخوفيدوف دون أن ينظر إليه ، وأمسك إيفان أليكسييفتش بالاخرى ومضيا . وما لبث صراخ ليخوفيدوف أن وهن . فتجهم شامل متألماً لذلك وتوسل إليه بالكف عن الصراخ . وقال متضرعاً :

ـ لا تحدث ضجيجاً كهذا! كف ، بحق المسيح . لقد روحت عن نفسك . كف الآن!

ولكن المجنون استمر على غنائه وحاول أن يفلت من القوزاقيين . وكان بين لحظة وأخرى يضغط على صدغيه بيديه ، ويطحن أسنانه ، ويلقي برأسه وقد ارتعش شدقه إلى أحد الجانبين وهو في سورة من الجنون .

٤

كان هناك قتال عنيف على بعد أربعين فرسخاً أسفل نهر الستوخود . فقد استمر هدير المدفعية أسبوعين بلا انقطاع . وفي الليل كانت السماء البنفسجية القصية تمزقها أشعة الكشافات التي تنثر أضواء قزحية ، فتبعث قلقاً مبهماً في هؤلاء الذين كانوا يرقبون عن بعد لهب الحرب وانفجاراتها .

في هذه الأثناء كانت الكتيبة القوزاقية١٢ تحتل قطاعاً ضحلاً مقفراً . وفي النهار كانوا يطلقون النار بين آن وآخر على النمساويين المتحصنين في الخنادق الضحلة قبالتهم . وفي الليل ، ينامون أو يلعبون الورق وقد لاذوا بالمستنقع عن أعين الأعداء . وكان الحراس فقط هم الذين يرقبون انفجارات الضوء البرتقالية الباهتة حيث كان القتال تدور رحاه أسفل النهر .

في إحدى هذه الليالي الشديدة القر الباعثة على الخدر حينما كانت الومضات البعيدة تخفق بوضوح أكثر من المعتاد على صفحة السماء ، غادر غريغوري ميليخوف حفيرته ، واتخذ طريقه في خندق مواصلات إلى الغابة التي تقع خلف الخنادق وكأنها فرشاة رمادية فوق الجمجمة السوداء لهضبة

منخفضة ، وألقى بنفسه على الأرض الرحيبة العبقة ، كان الهواء خانقاً صعب الاحتمال في الحفيرة ، وخيم دخان تبغ بني كبطانية خلقة فوق المنضدة التي كان ثمانية من القوزاق متحلقين حولها يلعبون الورق . في حين كان النسيم في الغابة على قمة الهضبة يهب عليلاً كأن أجنحة طيور عابرة خفية تذروه . وهبت من الحشائش التي قرصها الزمهرير رائحة تبعث على الحزن . وخيم الظلام فوق الغابة التي اجتثتها القنابل ، وكانت نيران نجم الثريا الداخنة تلتهب في السماء ، ورقد الدب الأكبر على أحد أجنحة المجرة كعربة مقلوبة عريشها مرفوع ، وفي الشمال تلألأ النجم القطبي بنور ثابت باهت .

رفع غريغوري بصره يتأمل النجمة ، فوخز ضوؤها الثلجي ، المعتم ، عينيه مما جعل الدمع البارد يطفر من تحت أهدابه .

وانثالت على ذهنه ذكريات الماضي كله حية أمامه . فتذكر الليلة التي ذهب فيها إلى أكسينيا في ياغودنويه . تذكرها بألم حاد ، وظهرت أمامه ملامح وجهها العزيزة والبعيدة في الوقت ذاته غير واضحة المعالم . وازداد وجيب قلبه عندما حاول أن يتذكر ذلك الوجه كما رآه آخر مرة ، وقد شوهه الألم ، وعلامة السوط الزرقاء على خدها . غير أن ذاكرته أصرت على أن تطالعه بوجه آخر ، يميل قليلاً إلى أحد الجانبين ، ويبتسم بنشوة . ومرة أخرى أدارت أكسينيا وجهها بخبث وهيام ، وهي تنظر اليه بعينين سوداوين ناريتين ، وشفتاها القرمزيتان تهمسان بشيء عاطفي يعز وصفه ، ثم حولت عينيها ورأسها ببطء بعيداً عنه ، ورأى الخصلتين المخمليتين على جيدها الأسمر... ولشد ما كان يحب تقبيلهما حينذاك!

وسرت في جسم غريغوري رعدة ، فقد خيل إليه لحظة أنه يستطيع حتى أن يستاف شذى شعر أكسينيا المسكر الجميل ، واتسع منخراه . ولكن لا! إنه شذى الأوراق المتساقطة المثير . وتلاشى طيف وجه أكسينيا وزال . وأغمض عينيه ، ووضع كفه على سطح الأرض الخشن ، ورقد وراح يحدق دون

أن يطرف ، فيما وراء الصنوبر المتكسر ، في النجم القطبي المعلق كفراشة زرقاء في طيران ساكن .

وضببت ذكريات أخرى ملامح أكسينيا . وتذكر الأسابيع التي قضاها في تاتارسكويه مع عائلته بعد انفصاله عن أكسينيا ، وعناق ناتاليا الشره العاتي ، خلال الليالي ، كأنها كانت تحاول التعويض عن تثلجها الخفر السابق ، وأثناء النهار ، عناية عائلته به التي قاربت العبادة ، والتبجيل الذي لاقى به القروبون فارسهم الأول من فرسان القديس غيورغي . وكان غريغوري يلاقي في كل مكان ، حتى في منزله ، نظرات جانبية مندهشة مفعمة بالاحترام . كانوا يحدقون فيه كأنهم لا يستطيعون أن يصدقوا أن هذا هو غريغوري نفسه الذي كان فتى ممراحاً عنيداً . وكان الرجال المتقدمون في السن يتحدثون إليه كند لهم ، ويرفعون قبعاتهم حينما كانوا يصادفونه ، وكانت الفتيات والنسوة يتطلعن باعجاب صريح إلى قامته الجميلة المحدودبة قليلاً والوسام ذي الشريط المخطط المعلق على صدره . ولاحظ مبلغ زهو أبيه به حينما كانا يسيران معاً في طريقهما إلى الكنيسة أو إلى الساحة .

وغمره تدريجياً هذا السم الخبيث من الملق والاحترام والاعجاب ، وأزال من وعيه الحقيقة التي غرسها فيه كارانجا . لقد عاد غريغوري إلى تاتارسكويه رجلاً ، ورجع إلى الجبهة رجلاً آخر . لقد طغت تقاليده القوزاقية ، التي رضعها مع حليب أمه وأخلص لها طوال حياته ، على الحقيقة الانسانية العظمى .

ـ كنت أعلم أنك ستكون قوزاقياً جيداً يا غريغوري ـ هكذا قال له العجوز بانتلاي ، وقد كان ثملاً بعض الشيء ، وهو يمسد لحيته التي يختلط فيها اللون الأسود بالفضي ، حينما كانا يفترقان ، وأضاف : ـ لقد حملتك وأنت في الشهر الثاني عشر من عمرك إلى الفناء ، وأجلستك على جواد حاسر الظهر ، كما هي العادة القوزاقية القديمة الطيبة . هل تذكرين أيتها الوالدة ؟ وأنت ، وأنت أيها الشيطان الصغير ، أمسكت بالجواد من عرفه بيديك الصغيرتين ، فقلت بيني وبين نفسي حينذاك أنك ستغدو قوزاقياً بحق ، وهكذا كنت .

وعاد غريغوري إلى الجبهة قوزاقياً حقاً . ورغم أن ذهنه لم يزل ينفر من سخافة الحرب وعقمها ، فقد ظل أميناً لتقاليده القوزاقية .

وفي أيار ١٩١٥ كانت الكتيبة الالمانية الحديدية الثالثة عشرة قد تقدمت على مرج بهيج الخضرة بالقرب من قرية أولخوفتشيك . وكانت المدافع الرشاشة تتنادى مثل الجنادب . بينما ظل مدفع رشاش ثقيل من السرية الروسية المعسكرة ازاء الجدول يلعلع بقوة . وكانت الكتيبة القوزاقية الثانية عشرة قد تحملت وطأة الهجوم الالماني . وفيما كان غريغوري يركض إلى الامام وهو في خط القوزاق ، التفت إلى الوراء فرأى جرم الشمس المنصهر في سماء الظهيرة ، وشمساً أخرى في الجدول الذي تعلوه شجيرات الصفصاف بزهورها الزغباء الصفراء . ووراء الجدول ، وراء أشجار الحور ، اختبأ ماسكو الجياد القوزاقية ، والى الامام كان الخط الالماني ، والبريق الاصفر المنبعث من نسور الخوذ النحاسية المنقوشة . وتلاعبت الريح بدخان الطلقات الذي يشبه دخان خشب الشيح .

كان غريغوري يطلق ناره على مهله ، وهو يسدد بعناية ، ويصغي بين فترات الاطلاق إلى آمر الرعيل وهو يعلن عن مدى الرمي . وبحذر أزاح يعسوباً استقر على كمه . ثم جاء الهجوم... فضرب غريغوري بأخمص بندقيته ملازماً ألمانياً طويلاً وأطاح به ، وأسر ثلاثة ، وأجبرهم على الجري صوب الجدول باطلاقه النار فوق رؤوسهم .

وفي تموز ١٩١٥ قرب رافا ـ روسكايا ، استعاد مع رعيل قوزاقي بطارية كان النمساويون قد استولوا عليها . وكان اثناء تلك المعركة قد شق طريقه إلى مؤخرة العدو وفتح النار عليهم من مدفع رشاش خفيف ، فأجبر النمساويين المتقدمين على الفرار . ثم ، عندما مروا ببيانيتس أسر ضابطاً بديناً ، وألقاه على قربوس سرجه كما لو كان خروفاً ، وكان يتحسس طوال الطريق الرائحة الكريهة لجسد أسيره السمين الذي ظل يرشح عرقاً ويرتجف هلعاً .

وفيما كان غريغوري يرقد على سفح التل ، تذكر بوجه خاص حادثاً

واحداً كان قد قابل فيه عدوه اللدود ستيبان أستاخوف . كانت الكتيبة الثانية عشرة قد انسحبت من الجبهة وتقهقرت الى بروسيا الشرقية . وكانت الجياد القوزاقية قد وطأت الحقول الالمانية المتسقة ، وأضرم القوزاق النار في بيوت الالمان . وارتفع دخان أحمر طوال الطريق الذي قطعوه ، وقد استحالت الجدران المحترقة والسقوف القرميدية إلى رماد . وبالقرب من بلدة ستوليبين انضمت الكتيبة في هجوم كانت تشنه كتيبة قوزاق الدون السابعة والعشرون . فألقى غريغوري نظرة عابرة لأخيه النحيف ، ولستيبان الحليق ، وقوزاق آخرين من قريته . وفي أثناء المعركة حاقت الهزيمة بالكتيبتين وأحاط بهما الالمان . وحينما كانت السرايا الإثنتا عشرة تلقي بنفسها واحدة بعد الاخرى في الهجوم لتشق طوق العدو ، رأى غريغوري ستيبان يقفز عن الحصان الذي قتل تحته ويدور حوله كالمصروع . فأمسك غريغوري بعنان جواده ، وقد ألهبه عزم مفرح مفاجىء ، وحينما مرقت آخر سرية هذباً تكاد خيلها أن تدوس ستيبان ، اندفع صوبه وهتف :

ـ امسك بركاب سرجي!

فأمسك ستيبان بسير الركاب ، وجرى مسافة نصف فرسخ الى جانب جواد غريغوري ، وهو يتضرع إليه لاهثاً فاغراً فاه : «لا تجر سريعاً ، ليس بمثل هذه السرعة ، من أجل المسيح!» .

وأفلحا في المرور من الثغرة التي فتحت خلال الطوق الالماني .ولم يكن يفصلهما أكثر من مئة متر عن الغابة التي تراجعت اليها سراياهم عندما اخترقت رصاصة ساق ستيبان وانكفأ على رأسه . ونزعت الريح القبعة من رأس غريغوري فانثال شعره على عينيه . ونظر حواليه وهو يرفعه إلى الوراء ، فرأى ستيبان يعرج نحو شجيره ، ويخلع قبعته القوزاقية ، ويجلس ، وبعجالة يفك أزرار سرواله بأشرطته القوزاقية القرمزية . ولكن الالمان جاءوا من وراء التل مسرعين . فأدرك غريغوري أن ستيبان كان يريد الحياة بكل جوارحه ، ولهذا أخذ يخلع سرواله ، فهو يعلم أن الالمان لن يرحموا القوزاق إن ظفروا

بهم . واستدار غريغوري بحصانه مستجيباً لنداء وجدانه وعدا راجعاً صوب الشجيرة ، وقفز والحصان يجري .

ـ اعتلِ حصاني!

ما كان غريغوري لينسى النظرة الصارمة لعيني ستيبان وهو يعينه على الركوب ، ثم جرى بجانبه ، ممسكاً بركاب سرج الحصان الذي كان يتصبب عرقاً . وعلى صفير وابل من الرصاص فوق رأسيهما ، ومن خلفهما انطلق صوت الطلقات مثل انفلاع كؤوس الاكاسيا الناضجة .

وحينما بلغا الغابة هبط ستيبان من فوق السرج ، وقد بدا وجهه أبيض متغضناً من الألم ، وراح يعرج مبتعداً . كان الدم يسيح داخل جزمته اليمنى ، ومع كل خطوة يطفر من كعبه المقطوع سيل دقيق بلون الكرز الاحمر . واستند إلى جزع بلوطة وارفة ، وأومأ إلى غريغوري .

وقال وغريغوري يتقدم منه :

ـ إن جزمتي ملأى بالدم .

ولاذ غريغوري بصمت ، وهو يشيح النظر .

ـ غريشا! حينما قمنا بالهجوم اليوم... أتسمع ، ياغريغوري ؟ـ قال ستيبان وهو يحاول النظر في عينيه . ـ حينما قمنا بالهجوم اليوم اطلقت عليك النار ثلاث مرات من الخلف... ولكن لم يكتب لي أن أقتلك .

والتقت عيونهما . وتألق بؤبؤا ستيبان الثاقبان في محجريهما الغائرين بشكل لا يحتمل . وراح يتكلم وهو لا يكاد يحرك شفتيه :

ـ لقد أنقذت حياتي... شكراً... ولكني لا أستطيع أن أغفر لك ما فعلت بأكسينيا... لا استطيع أن أحمّل نفسي على...لا تجبرني يا غريغوري...

فأجاب غريغوري :

ـ لن أجبرك . وافترقا عدوين كما كانا .

وبعد... في أيار اخترقت الكتيبة مع القطعات الاخرى لجيش بروسيلوف ، الجبهة في لوتسك ، وجالت في مؤخرة العدو تسدد الضربات وتتلقى أمثالها .

وقرب لفوف تولى غريغوري قيادة سريته من تلقاء نفسه وأسر مدفع حصار نمساوي وجنوده . وذات ليلة ، بعد ذلك بما يقرب من الشهر سبح عبر نهر البوغ ليحتل « موضع قدم » في الجانب الآخر . ولقد أخذ حارساً على حين غرة ، فتصارع الالماني البدين المتين وغريغوري وهو نصف عارٍ في الظلام مدة طويلة قبل أن يستطيع غريغوري أن يوثقه .

وابتسم غريغوري لمّا تذكر الواقعة .

ما أكثر الوقائع التي حدثت خلال المعارك القريبة والقديمة!

كان غريغوري يدافع عن شرفه القوزاقي بثبات ، منتهزاً كل فرصة لإظهار بطولات طائشة ، مجازفاً بحياته في مغامرات متهورة ، كان يغير ملابسه ويتوغل في مؤخرة العدو ، ويستولي على مراكزه الامامية دون أن يسفح دماً ، ويشعر أن التوجع على الآخرين الذي كان قد أمضّه في الأيام الاولى من الحرب ولّى إلى الأبد . وأصبح قلبه فظاً غليظاً كمستنقع ملح أيام الجفاف ، وكما لا يمتص المستنقع المالح الماء ، كذلك هو قلب غريغري فإنه لم يكن ليتشرب الرحمة . فلقد عبث بحياته وحياة الآخرين باستخفاف وعدم اكتراث ، وغمر نفسه بالمجد . فنال أربعة أوسمة من طراز القديس غيورغي ، وأربع ميداليات . وفي الاستعراضات الطارئة كان يقف إلى جانب بيرق السرية المفعمة بدخان البارود من معارك لا تحصى . ولكنه أدرك أنه لم يعد يعرف الضحك كما كان في الأيام السالفة ، وأدرك أن عينيه قد غارتا وأن عظام وجنتيه قد برزت بحدة ، وأدرك أنه لو قبل طفلاً فلن يستطيع أن ينظر طويلاً في عينيه البريئتين الصافيتين . وأدرك فداحة الثمن الذي دفعه مقابل أوسمته ومدالياته .

رقد على سفح التل ، وقد طويت أطراف معطفه تحته ، مستنداً على مرفقه الأيسر ، وقد أطلق العنان لذاكرته لتستعيد الماضي ، ومن بين الأفكار المتزاحمة انضفر حادث بعيد يعود إلى أيام طفولته مثل خيط ناعم أزرق ، ولبرهة ركز وعيه عليه بحزن وشغف . ثم ما لبث أن عاد إلى حاضره . وفي

الخنادق النمساوية كان شخص ما يعزف على الماندولين بمهارة . وانسابت الالحان الرقيقة التي حملتها الريح عبر نهر ستوخود ، منتشرة بخفة فوق الأرض التي كثيراً ماغسلتها دماء البشر . وفي السماء توهجت النجوم ، ولكن الظلام كان يزداد عمقاً ، وكان ضباب منتصف الليل مخيماً فوق المستنقع . دخن سيكارتين على التتابع ، وأمر أصابعه بشيء من الاعزاز فوق حمالة بندقيته ، ثم نهض من الأرض المعطاء وعاد إلى الخنادق .

حينما دخل غيوغوري حفيرته وجد الرجال ما يزالون يلعبون الورق ، فألقى بنفسه على فراشه ، وجرب مرة أخرى أن يطوف في مسالك الذكريات التي تقادم عليها الزمن ، إلا أن النوم غشيه حتى قبل أن ينقلب . وفي نومه حلم بالسهب الجاف المترامي ، وبزهرات الخلد الوردية ، وبآثار حوافر الخيل العارية من النعال بين السعتر البنفسجي الأشعث... وكان السهب خالياً يلفه سكون رهيب ، كان يمشي فوق الارض الرملية الصلبة ، ولكنه لم يكن يسمع وقع خطواته ، فأرعبه ذلك... واستيقظ لحظة ورفع رأسه وهو مبعوج الخدين بسبب وضعيته غير المريحة ، يلوك بشفتيه كجواد فاجأه عبير عشب غير مألوف . ثم لفه النوم ثانية ، دون أن تكدره الأحلام .

واستيقظ في النهار التالي وبين جوانحه حنين مبهم يتآكله . وسأله تشوباتي :

ـ لماذا تبدو شكساً اليوم ؟ هل حلمت بأهلك في الليلة السابقة ؟

ـ لقد حزرت . حلمت بالسهب... إن روحي ممزقة شر ممزق... بودي أن أعود إلى أهلي . فلقد ضقت ذرعاً بخدمة القيصر .

فابتسم تشوباتي متلطفاً لقد عاش دائماً في حفيرة واحدة مع غيوغوري ، وأولاه الاحترام الذي يشعر به حيوان قوي تجاه آخر . ولم يقع بينهما أي عراك منذ شجارهما عام ١٩١٤ ، وكان تأثير تشوباتي يبدو واضحاً في طباع غريغوري ونفسيته التي تغيرت . وقد خففت الحرب كثيراً من نظرة تشوباتي . لقد تحول ببطء ولكن بلا حدة ضد الحرب ، وجعل يتكلم كثيراً

عن الجنرالات والالمان القابعين في قصر القيصر . وقد قال ذات مرة مدمدماً :
ـ لا تأمل خيراً من هذه الحرب مادامت القيصرة نفسها تسري في عروقها الدماء الالمانية . ولو وجدت الفرصة سانحة ، لربما باعتنا إلى العدو...

وذات يوم حاول غريغوري أن يشرح له تعاليم كارانجا ، بيد أن تشوباتي لم يكن ليتقبل شيئاً منها .

وقال بابتسامة ماكرة وهو يربت على صلعته :

ـ الأغنية لا بأس بها ، غير أن الصوت مبحوح بعض الشيء . ولطالما يردد ميشاكوشيفوي مثل هذا القول ، هو الآخر ، كديك على حائط . لا جدوى من هذه الثورات ، لاشيء سوى الضرر . أنت تذكر أن ما نحتاجه نحن القوزاق هو قيصر قوي ، واحد مثل نيقولاي نيقولايفيتش * . ليس بيننا وبين الفلاحين شيء مشترك . فلا تصلح الأوزة رفيقة للخنزير . الفلاحون يريدون الاستيلاء على الأرض ، ويريد العمال أجوراً أعلى . ولكن ماذا سيقدمون لنا ؟ الأرض ، وعندنا منها شيء كثير . ماذا عسانا نريد أكثر من ذلك ؟ إن قيصرنا لا نفع فيه ، ولافائدة من إنكار هذه الحقيقة! لقد كان أبوه أقوى منه ، بيد أن هذا سينتظر حتى تدق الثورة الباب كما فعلت في عام ١٩٠٥ ، وحينئذ سنتدحرج إلى الجحيم جميعاً . ولن نربح شيئاً من ذلك ، وإذا أطاحوا بالقيصر ، سددوا ضرباتهم الينا . سيعمدون في البدء إلى إثارة الحزازات القديمة . ثم يبدأون بعد ذلك بانتزاع أراضينا وإعطائها للفلاحين . علينا أن نظل على حذر .

فقطب غريغوري :

ـ إن أفكارك تسير على نمط واحد لا يتغير .

ـ هذا هراء ياولد . فأنت ماتزال غراً ، ولم ترَ الدنيا بعد . ولكن انتظر قليلاً حتى ترى من منا على صواب .

---

* نيقولاي نيقولايفتش (١٨٥٦ ـ ١٩٢٩) كبير الأمراء . عمّ القيصر نيقولاي الثاني (القيصر الروسي الأخير) وقائد القوات الروسية المسلحة في الحرب العالمية الأولى . هرب الى الخارج عام ١٩١٩ ، ثم أصبح بمعونة رانكل وأغلبية الملكيين . أحد المطالبين بالعرش الروسي . توفي في باريس .

وكان النقاش ينتهي عند ذلك عادة ، ويلوذ غريغوري بالصمت ، ويحاول تشوباتي تغيير الحديث إلى موضوع آخر .

في ذلك اليوم تورط غريغوري بحادث مزعج . ففي الظهيرة توقف مطبخ الميدان في الجانب الأقصى من التل كالعادة . وتزاحم القوزاق في خندق المواصلات وهم في طريقهم إلى المطبخ . ذهب ميشا كوشيفوي لتسلم طعام الرعيل الثالث ، وعاد يحمل الأواني المعدنية التي يتصاعد منها البخار على عصا طويلة . ولم يكد يدخل الحفيرة حتى صاح :

ـ هذا مستحيل ، أيها الأخوة! هل نحن كلاب ، أم ماذا ؟

فتساءل تشوباتي :

ـ ما الأمر ؟

فقال كوشيفوي ساخطاً :

ـ إنهم يطعموننا من لحمٍ متعفن ، ـ ووضع الأواني المعدنية على فراش ، وهو يلقي برأسه ذي الشعر الذهبي إلى الوراء ، واقترح وهو ينظر جانباً إلى تشوباتي :

ـ شمّ بنفسك مدى نتانة الحساء!

وانحنى تشوباتي فوق صحنه فاتسع منخراه . وأجفل وقطب وجهه . وتجهّم كوشيفوي هو الآخر ، وارتعش منخراه في محاكاة لاإرادية لتشوباتي ، وأكّد الأخير :

ـ اللحم فاسد .

ودفع الصحن في نفور ، ونظر إلى غريغوري . فنهض غريغوري من على سريره ، وانحنى بأنفه المعقوف فوق الحساء ، ثم انتزع نفسه بعيداً . وبحركة متكاسلة ركل أقرب صحن برجله وألقى به على الأرض . فسأله تشوباتي بتردد :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

فأشار غريغوري إلى السائل الموحل المراق على الأرض وقال :

ـ ألا ترى لماذا ؟ انظر! هل أنت أعمى ؟ ماهذا ؟

ـ اليكم! ديدان! يا أمي العجوز! ولم أرها! ذاك غداء لذيذ لك . ليس هو بحساء كرنب ، بل شعرية . ديدان بدلاً من حواصل الطيور!

كانت ثمة ديدان مسلوقة بيضاء ترقد ملتوية على قطعة لحم أشبه بالقرميدة على الأرض المبقعة بالدسم . وجعل كوشيفوي يعد... وهو يهمس لامر ما :

ـ واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة...

وساد الصمت لحظة . وبصق غريغوري من بين أسنانه . ثم استل كوشيفوي سيفه وقال :

ـ سنلقي القبض على هذا الحساء ونبلغ عنه آمر السرية .

فوافق تشوباتي وهو يفصل الحربة من بندقيته :

ـ نعم الرأي! سوف نأخذ الحساء ، وأنت يا غريغوري ، احم المؤخرة وأعدّ التقرير .

وحمل تشوباتي وكوشيفوي قدر الحساء على حربة ، واستلا سيفهما . وتبعهما غريغوري ، وفيما هم يسيرون خلال الخنادق تجمع صف من القوزاق الفضوليين في موجة رمادية خضراء وتبعوهم .

ـ ماذا هناك ؟

ـ إنذار ؟

ـ لعله شيء يتعلق بالسلم ؟

ـ هه ، سلم! خير لك أن تحظى بشيء تأكله أولاً .

ـ لقد ألقوا القبض على حسائهم . فيه ديدان

وتوقف كوشيفوي خارج حفيرة الضابط . وانحنى غريغوري ودخل« مغارة الثعلب» ، وهو يمسك قبعته بيده اليسرى .

وزجر تشوباتي قوزاقياً كان يدفعه من الخلف :

ـ لا تزحمني!

وبعد لحظة خرج آمر السرية ، وهو يزرر معطفه وينظر بدهشة إلى غريغوري ، الذي كان آخر من خرج من الحفيرة ، وجال الضابط بعينيه في القوزاق المتجمعين :

ـ ما الخبر أيها الأولاد ؟

فتقدم غريغوري نحوه وأجاب :

ـ لقد أحضرنا أسيراً .

ـ أي أسير ؟

فأشار إلى وعاء الحساء عند قدمي تشوباتي وقال :

ـ ذاك... هو الأسير... شمّ ما يقدّم لقوزاقك من طعام .

فارتفع حاجباه بحدة ، ورفّا وانبسطا إلى الجانبين . وتفحص آمر السرية التعابير البادية على وجه غريغوري بانتباه ، ثم نظر مقطباً إلى الوعاء . وصاح ميشا كوشيفوي بعنف :

ـ لقد بدأوا يطعموننا خيلاً ميتة .

ـ لنغير عريف الإعاشة!

ـ أفعى!...

ـ عليه اللعنة!

وتعالت صيحات أخرى :

ـ إنه يحشو بطنه بحساء الكلى... في حين يعج حساؤنا بالديدان!

وانتظر الضابط حتى خفت هدير الأصوات ، ثم قال بتجهم :

ـ كفى! لقد قلتم مافيه الكفاية! سأغير عريف الإعاشة اليوم . وسأعين لجنة للتحقيق في أعماله . إذا لم يكن اللحم صالحاً...

ـ قدمه لمحكمة عسكرية! ـ جاءت الصيحة من الخلف ، وغرق صوت الضابط في عاصفة جديدة من الصيحات .

كان لا بد من تغيير عريف الإعاشة أثناء مسيرة الكتيبة . وبعد أن ألقى القوزاق المتمردون القبض على الحساء وأحضروه أمام آمر السرية بساعات

قليلة ، وصل الأمر بالانسحاب من الجبهة والزحف بمسيرة اضطرارية إلى رومانيا . وفي المساء استبدل القوزاق بقناصة سيبيريين . وما أن حلّ اليوم التالي حتى امتطى رجال الكتيبة خيلهم في قرية رينفيتشي ومضوا إلى سبيلهم .

لقد أرسلت تشكيلات عسكرية فورية لدعم الرومانيين الذين كانوا يعانون الهزيمة تلو الهزيمة . وأدرك القوزاق ذلك في اليوم الأول ، عندما كان ضباط الاسكان الذين أرسلوا في المقدمة مساءً إلى القرية التي كان من المقرر أن تقضي فيها الكتيبة الليلة ، قد عادوا بأنباء تفيد بأنهم لم يجدوا أماكن يأوون إليها . فقد كانت القرية مكتظة بالمشاة ورجال المدفعية الذين كانوا هم الآخرون يزحفون إلى الحدود الرومانية ، لذلك اضطرتْ الكتيبة إلى قطع ثمانية فراسخ أخرى لإيجاد مأوى .

استغرقت المسيرة سبعة عشر يوماً ، وكانت الخيل قد انهكها نقص العلف . ولم يعثروا على طعام في تلك الأرض الخراب الواقعة خلف الجبهة مباشرة ، وكان السكان قد لاذوا بالفرار إلى داخل البلاد أو اختبأوا في الغابات . وكشف أبواب الأكواخ المفتوحة عن جدران كئيبة عارية . ومن حين لآخر كان القوزاق يصادفون قروياً بائساً مذعوراً في شارع مهجور ، ولكنه ما أن يرى الجنود حتى يسارع إلى إخفاء نفسه . وإذ أجهدهم المسير المتواصل ، وتجمدت أوصالهم ، واحتد طبعهم بسبب كل ما كان عليهم هم وعلى جيادهم أن يعانوه ، أخذوا ينزعون سقوف القش من المباني . وفي القرى التي سلمت من النهب ، لم يترددوا في سرقة كل ماعثروا عليه من طعام حقير ، دون أن يردعهم وعيد ضباطهم .

وغير بعيد من الحدود الرومانية أفلح تشوباتي في سرقة شيء من الشعير من مخزن في إحدى القرى الميسورة الحال . فضبطه المالك أثناء الحادث ، غير أنه طرح البيسارابي الكهل المسالم أرضاً ، وحمل الشعير إلى حصانه . فوجده ضابط الرعيل يملأ مخلاة جواده ويربت بأصابع مرتجفة

على خاصرتي الحيوان الغائرتين .

ـ أوريوبين! سلم ذلك الشعير ، أيها الخنزير! هل تريد أن تعدم رمياً بالرصاص ؟

فرمق تشوباتي* الضابط بنظرة جانبية مكظومة وألقى بقبعته على الأرض . ولأول مرة طوال حياته في الكتيبة أطلق صرخة تمزّق الفؤاد :

ـ قدمني إلى محكمة عسكرية! أطلق النار عليّ! اقتلني في الحال ، ولكنني لن اتخلى عن الشعير... هل ينبغي لحصاني أن يموت جوعاً ، ها ؟ لن أسلم الشعير ، ولا حبة واحدة!

وتمسك بعصبية تارة برأسه ، وطوراً بعرف حصانه الذي كان يمضغ الشعير بنهم ، ثم بسيفه...

وقف الضابط دون أن يجيب ، وهو ينظر إلى خاصرتي الحصان البالغتي الهزال ، ويهز رأسه . وأخيراً قال وفي صوته نبرة من الحيرة :

ـ لماذا تعطي حصانك الحبّ وهو ما يزال تعباً ؟

ـ كلا ، لقد استراح الآن ، ـ أجابه تشوباتي بما يقرب من الهمس وهو يلتقط الحبات التي سقطت على الأرض ويعيدها إلى المخلاة .

* * *

وصلت الكتيبة إلى موقعها الجديد في أوائل تشرين الثاني . كانت الرياح تعوي فوق جبال ترانسلفانيا ، وقد تجمع في الوديان ضباب شديد البرودة ، وكانت تنبعث من الغابات التي لفحها الصقيع المبكر رائحة أبر الصنوبر ، وكثيراً ما كانت ترى آثار الحيوانات على الثلج الهش المبكر . وكانت الذئاب والأيائل والماعز ، وقد أرعبتها الحرب ، تهجر كهوفها الموحشة وتتجه إلى داخل البلاد .

---

* تشوباتي هو لقب القوزاقي أوريوبين . المعرب .

وفي السابع من تشرين الأول حاولت الكتيبة أن تقتحم المرتفع رقم ٣٢٠ . وكان النمساويون قد استولوا في الليلة السابقة على الخنادق ، وفي صباح يوم الهجوم استبدلوا بسكسونيين جيء بهم تواً من الجبهة الفرنسية . وتقدم القوزاق مترجلين يتسلقون المرتفعات الصخرية التي تكسوها طبقة رقيقة من الثلج ، فكانت الأحجار الصغيرة تتدحرج إلى أسفل ، وكانوا يثيرون غباراً جليدياً رقيقاً . وابتسم غريغوري ابتسامة بلهاء محتشمة فيما كان يحث خطوه ، وقال محدثاً أوريوبين :

ـ أشعر بشيء من القلق هذا الصباح... كما لو كنت أذهب إلى المعركة للمرة الأولى .

ـ غريب أمرك... ـ أجاب أوريوبين حاملاً بندقيته القديمة وهو يمص الثلج من على شاربيه .

وتقدم القوزاق صعداً بتشكيلة غير منتظمة . لم تطلق أية طلقة . كانت خنادق الأعداء يكتنفها سكون ينذر بالشر .

وخلف المتاريس كان ثمة ملازم سكسوني له وجه أحمر لفحه الطقس وقد انسلخ جلد أنفه يقف منتصباً ويطلق صيحات مرحة :

- Kameraden! Wir haben die Blaumäntel oft genug gedroschen! Da wollen wir's auch diesen einpfeffern, was es heibt mit uns'n Hühnchen zu rupfen! Ausharren! Schiebt noch nicht. *

وحث القوزاق خطوهم . كانت الأرض الحجرية غير المتراصة تتفتت تحت أقدامهم . وكان غريغوري يبتسم باضطراب ، وهو يثني أطراف قلنسوته المائلة . وبدا أنفه المقوس وخداه الغائران وعذاراه الأسودان شيئاً أزرق مصفراً والتمعت عيناه بكلال تحت حاجبيه المعفرين بالثلج مثل كسرتين من فحم الأنثراسيت . تركته الطمأنينة المعتادة . وحاول أن يجنب نفسه هاجس

---

* ـ أيها الأصدقاء! كنا نقتل ذوي المعاطف الزرقاء هؤلاء مرات عديدة! ولنريهم نجوم الضحى مرة أخرى! كونوا صامدين! لا تطلقوا النار قبل صدور الأمر! بالألمانية في الأصل .

الخوف اللعين الذي عاوده على غير انتظار . فقال لأوريوبين وهو يضيق عينيه ويحول نظرته القلقة إلى حوافي الخنادق التي يعلوها الثلج :

ـ إنهم محافظون على هدوئهم . فهم يريدون منا أن نقترب منهم . ولكني خائف ولست أخجل من البوح بذلك . ماذا لو درنا على أعقابنا ـ وهربنا ؟

فسأله تشوباتي مغتاظاً :

ـ فيم نواحك هذا اليوم ؟ الأمر أشبه بلعب الورق . فمتى مافقدت الثقة بنفسك انتهى أمرك . إن وجهك شاحب ياغريشا . فإما أن تكون مريضاً أو... سوف تصاب اليوم . انظر! هل شاهدت ذلك ؟

وكان قد استوى ألماني يرتدي سترة قصيرة وخوذة مدببة فجأة بكامل قامته فوق الخنادق ، ثم مالبث أن اختفى ثانية .

وعلى يسار غريغوري كان قوزاقي أشقر وسيم ما ينفك يلبس ويخلع قفازيه فيما هو يسير . كان يكرر هذه الحركة باستمرار ، ماداً ساقيه ومتكلفاً التنحنح بصوتٍ عالٍ .« أشبه بشخص يسير بمفرده في الليل ويتنحنح ليبعث الثقة في نفسه » ـ قال غريغوري ذلك في سريرته . والى أبعد من ذلك استطاع أن يرى وجنة العريف ماكساييف النمشاء ، يتلوه يميليان غروشيف ، ممسكاً ببندقيته وقد ثبت فيها الحربة في حالة الاستعداد . وتذكر غريغوري أن يميليان كان قد سرق قبل بضعة أيام كيس ذرة من روماني ، واستعمل هذه الحربة في فتح قفل غرفة المخزن .

وكان ميشا كوشيفوي يسير إلى جانب ماكساييف تقريباً . كان يدخن بشدة ويتمخط من حين لآخر ، ويمسح أصابعه بمعطفه .

فقال ماكساييف :

ـ بودي أن أشرب شيئاً .

وقال كوشيفوي متشكياً :

ـ إن جزمتي تؤلمني ، يايميليان .

ولكن غروشيف قاطعه بصرامة :

ـ دعنا من جزمتك . فبعد لحظة سينهال علينا الألمان بوابل من رصاص المدافع الرشاشة .

وناشت أول دفقة من طلقات العدو غريغوري ، فسقط على الأرض وهو يئن . وحاول أن يتناول حافظة الإسعافات الأولية من حقيبتة ، الا أن الدم الحار المتدفق من مرفقه داخل كمه قد هد من قواه . ورقد على الأرض ولاذ برأسه وراء صخرة كبيرة ، ولعق زغب الثلج بلسانه الملتهب ، وتلقف ملهوفاً من شدة العطش الغبار الثلجي الهش بشفتيه المرتجفتين . وأصغى بخوف ورعدة غير اعتياديين ، إلى قعقعة البنادق الحادة الجافة ورعد المدافع المتواصل . ورفع رأسه فرأى قوزاق سريته يهرولون عائدين أسفل المنحدر ، وهم يتزحلقون ويتساقطون ، ويطلقون النار على غير هدى . ولكنه بدافع من خوف غريب لا يوصف استوى على قدميه ، واندفع راكضاً إلى الأسفل شطر سياج غابة الصنوبر المنثلم الذي كانت الكتيبة قد انطلقت منه في هجومها . وأدرك غريغوري غروشيف الذي كان يجرجر خلفه ضابط رعيل جريحاً أسفل المنحدر الحاد ، وكان الضابط يترنح مثل السكران مستنداً إلى كتف غروشيف ، وهو يتفل بقعاً سوداء من الدم . وتدفقت السرية نحو الغابة كالسيول . وعلى المنحدرات الرمادية خلفها رقدت أكوام رمادية صغيرة من الموتى ، وزحف الجرحى إلى أسفل دون مساعدة ، تلفحهم نيران المدافع الرشاشة العنيفة .

وولج غريغوري الغابة متكئاً على ذراع ميشا كوشيفوي . كان الرصاص يتقافز على الأرض المنحدرة ومن ميسرة الالمان كان مدفع رشاش ينثر برداً دقيقاً يرسل رنيناً أشبه بأصوات أحجار تلقي بها يد قوية على سطح جليدي خفيف لنهر متجمد .

وصاح تشوباتي بما يشبه الجذل :

ـ إنهم يسلقوننا سلقاً!

واتكأ على جذع صنوبرة أحمر ، وراح يطلق النار بفتور على الألمان المتدفقين فوق حافة الخنادق .

وصاح كوشيفوي منتزعاً ذراعه من غريغوري :

ـ يجب أن نعلّم الحمقى . الناس خنازير ، بل أسوأ! حين ينزفون كل دمائهم ، يدركون لأي سبب قتلوا!

فتجهم تشوباتي :

ـ فيم تهذي ؟

ـ لو كنت ذكياً لكان بوسعك أن تفهم بنفسك . ولكن ماذا عسى أن يفهم الأحمق ؟ لاشيء يجعله...

فسأله تشوباتي :

ـ هل تذكر قسمك ؟ هل أقسمت أم لا ؟

وجثا كوشيفوي على ركبتيه ، بدلاً من أن يجيب ، وجرف بعض الثلج بيدين مرتعشتين ، وابتلعه بشراهة ، وهو يرتجف ويسعل .

٥

دارت شمس الخريف فوق تاتارسكي عبر سماء حرثتها غيوم رمادية متموجة . وفي الأعالي كان نسيم رقيق يسوق السحب ببطء نحو الغرب ، وفوق القرية ، فوق سهل وادي الدون الحالك الخضرة ، فوق الغابات العارية ، كانت الريح تهب بقوة تحني هامات الصفصاف والحور ، وتعبث بصفحة الدون ، وتطارد أسراباً من الأوراق القرمزية في الشوارع . وفي ساحة درس الحبوب العائدة لخريستونيا نثرت الريح حزمة من قش القمح لم يحسن شدها ، وانتزعت أعلاها ، وأطارت حافتها الخفيفة . واختطفت فجأة حملاً ذهبياً من القش كما لو كان على مذراة ، وحملته إلى الفناء في الخارج ، فتطاير دوامات عبر الشوارع ، ونثرته بأريحية فوق الطريق الخالي ، ثم ألقت بالحزمة المنتثرة آخرالأمر فوق سطح بيت ستيبان أستاخوف . وخرجت زوجة خريستونيا تعدو إلى الباحة دون أن تضع عليها شالها ، ووقفت برهة من

الوقت ترقب الريح التي كانت تصول وتجول في ساحة الدرس ، ثم عادت من حيث أتت .

لقد خلفت سنوات الحرب الثلاث أثاراً بينة على القرية .فإذ حرمت البيوت من أذرع رجالها ، غارت أسقف الحظائر ، وعم الاهمال باحات الدور ، وترك الخراب التدريجي آثاره في كل مكان . ولم يكن لدى زوجة خريستونيا من يعينها سوى ابنها البالغ تسع سنوات من العمر . ولم تكن زوجة أنيكوشكا تصلح لشأن من شؤون الحقل أبداً ، وبسبب وحدتها راحت تولي مظهرها اهتماماً مضاعفاً ، وتزين نفسها ، ولمّا لم يكن عدد القوزاق اليافعين كافياً ، فقد رضيت بصبيان من سن الرابعة عشرة ونحو ذلك . وكانت بوابتها الخشبية التي لطخها أحدهم بالقطران بسخاء ذات مرة ، ماتزال تحمل آثار ذلك مصداقاً لتلك الأقاويل . وكان بيت ستيبان استاخوف قد هجر كلياً ، وغطى صاحبه النوافذ بالألواح ، وتهاوى السقف ونما عليه نبات الأرقطيون ، وتراكم الصدأ على قفل الباب ، وكانت الماشية الضالة تتسكع خلال البوابة المفتوحة ، باحثة عن مأوى يحميها من غائلة الحر والمطر في الفناء الذي غطته الأعشاب والأدغال .

وكاد جدار بيت إيفان توميلين أن يتهاوى على الشارع ، لولاأن عموداً متشعباً كالشوكة قام على اسناده . ويبدو أن القدر كان يأخذ ثأره منه لما هدم من بيوت روسية وألمانية حين كان مصوب مدفع .

كذلك كان الحال في شوارع وأزقة القرية كلها . وفي طرفها الأدنى لم يحتفظ سوى بيت وساحة بانتلاي بروكوفيتش ميليخوف بمظهرها العادي ، وقد بدا كل شيء هناك سالماً ومتسقاً ، على أن واقع الحال لم يكن كذلك . فلقد سقط الديكان الحديديان من سطح مخزن الحبوب ، وقد تآكلهما الزمن ، ومال مخزن الحبوب إلى أحد الجانبين ، وبوسع العين المتفحصة أن تكتشف علامات أخرى للإهمال . إذ لم يكن بإمكان الرجل العجوز أن يتدبر كل شيء . وكان بذاره يقل شيئاً فشيئاً . أما الخسائر الاخرى فهي لا تعد ولا

تحصى . وبقيت عائلة ميليخوف وحدها دون أن تفقد من أفرادها أحداً . فلكي تعوض ناتاليا عن غياب بيوتر وغيوغوري ، أنجبت توأمين في خريف السنة الماضية .

وقد أظهرت براعة كافية في إرضاء كل من بانتلاي وايلينشنا بإنجابها بنتاً وولداً . على أن حمل ناتاليا لم يكن يسيراً ، فقد أمضت أياماً كاملة لم تستطع فيها المشي إلا بمشقة ، بسبب آلام ساقيها الشديدة ، وكانت تترنح مجرجرة قدميها الواحدة وراء الأخرى . ولكنها تحملت الألم برباطة جأش ، فلم ينعكس أبداً على وجهها النحيل الأسمر ، إنما السعيد . ولم تكن إيلينشنا لتفطن إلى آلامها إلا عندما يطفح صدغاها بحبات العرق ساعة يشتد بها الألم ، فتطلب منها أن تستلقي لتستريح .

وذات يوم لطيف من أيام أيلول شعرت ناتاليا بدنو ساعة الوضع ، فتأهبت للخروج من البيت . فسألتها إيلينشنا :

ـ إلى أين تذهبين ؟

ـ إلى المرج . سأسرج البقر .

وسارت مسرعة إلى ماوراء القرية ، وهي تئن وتضع يدها تحت بطنها ، وشقت طريقها إلى أجمة من الشوك البري ، ورقدت . كان الغسق قد أرخى سدوله عندما عادت إلى البيت من الطرق الجانبية ، تحمل توأمين في ستار من الجنفاص .

فصاحت إيليشنا عندما استطاعت أن تنطق بشيء :

ـ يا عزيزتي! أيتها البائسة الصغيرة! ما كل هذا! وأين كنت ؟

فأجابتها ناتاليا الشاحبة الوجه :

ـ لقد شعرت بالخجل ، ولهذا خرجت... لم أكن أحب أن...أمام أبي... إنني نظيفة يا أمي ، وقد غسلتهما . خذيهما .

وهرعت دونيا لإحضار قابلة ، وشغلت داريا نفسها بتبطين غربال بالقماش . فصاحت بها إيلينشنا وهي تضحك وتبكي من الفرح :

ـ داريا ، القي بذلك الغربال جانباً ، هل هما قطتان حتى تريدي وضعهما في غربال ؟ يا إلهي! إنهما اثنان! يا إلهي ، أحدهما ولد! ناتاليا ، عزيزتي... أعدوا لها الفراش!

وحينما سمع بانتلاي أن كنته قد أنجبت توأمين فتح ذراعيه على اتساعهما في دهشة ،ثم بكى جذلاً وجعل يمسد على لحيته . ولغير ما سبب ظاهر صاح في القابلة وهي تقترب :

ـ كلا ، أيتها المهذارة العجوز! ـ ولوح بقبضته أمام أنف العجوز : ـ أنت كاذبة! إن سلالة ميليخوف لن تنقرض بمثل هذه السرعة! لقد أنجبت كنتي قوزاقياً وبنتاً . أنعم بها من كنة! أيها الرب ، ياالهي! كيف يمكنني أن أردّ لها مثل هذا الجميل ؟ » .

وشد ما كان ذلك العام معطاء ، فلقد أنجبت البقرة توأمين ، وفي عيد القديس ميخائيل أنجبت النعاج توائم ، والماعز... وأخذ بانتلاي يعلل ذلك مع نفسه وقد أدهشته المصادفات :

« هذا عام بشائر ، وعطاء أيضاً! فكل شيء ينجب توائم! يالها من محاصيل تدر علينا . بخ! بخ! » .

وظلت ناتاليا ترضع طفليها اثني عشر شهراً . ثم فطمتهما في أيلول ، ولكنها لم تسترد صحتها إلا في نهاية الخريف .

والتمعت أسنانها مثل الحليب في وجهها المضني ، وكانت عيناها اللتان لاحتا واسعتين بصورة غير طبيعية بسبب هزالها ، تتألقان ببريق دافئ . وكرست حياتها كلها للطفلين وأصبحت تهمل نفسها وتقضي كل وقت فراغها معهما ، تغسلهما وتقمطهما ، وتخيط لهما الثياب ، وكثيراً ما كانت ترفعهما من المهد ، وهي جالسة على السرير مدلية احدى ساقيها ، وبحركة من كتفيها تخرج ثدييها الممتلئين الكبيرين وكأنهما شمامتان صفراوان ، وترضعهما كليهما في وقت واحد .

فكانت إيلينشنا تقول وهي تربت على سيقان حفيديها الصغيرة الممتلئة :

ـ لقد امتصا منك مافيه الكفاية . انك تطعمينهما كثيراً جداً .

وكان بانتلاي يتدخل بغيرة فظة :

ـ ارضعيهما! ولا تحتفظي بالحليب! فنحن لا نريده لعمل الزبدة!

وكانت الحياة خلال هذه السنوات تعاني انحساراً بطيئاً كمياه الدون غب الفيضان . كانت الأيام كئيبة مضنية ، تمضي في لغط متواصل ، في عمل ، في أشياء صغيرة ، في أفراح صغيرة وقلق متواصل على أولئك الذين ذهبوا إلى الحرب . وكانت تصل من بيوتر وغريغوري رسائل نادرة في مظاريف متسخة ملطخة بأختام البريد . وقد وقعت رسالة غريغوري الأخيرة بيد شخص آخر ، وكان نصفها مشطوباً بعناية بحبر بنفسجي ، وقد وضعت بالحبر علامة غير مفهومة على هامش الورقة الرمادية . وكان بيوتر يكتب أكثر من غريغوري ، وفي رسائله إلى داريا كان يهددها ويناشدها أن تكف عن عبثها . فقد بلغت سمعه ، على ما يبدو ، شائعات عن حياة زوجته المعيبه . وكان غريغوري يرسل إلى أهله مع خطاباته نقوداً ، رواتبه والمكافآت المالية التي يستلمها مع الأوسمة . وكان يعد بالمجيء إلى البيت خلال فترة إجازته ، غير أنه لم يأتِ . سار الأخوان في طريقين مختلفين كل الاختلاف . فقد أثقلت الحرب بكلكلها على غريغوري ، وزال تورد وجهه مخلفاً يرقاناً أصفر . ولم يكن يتوقع أن يعيش حتى نهاية الحرب .

أما بيوتر فقد ارتقى سلم المناصب بسرعة وسهولة ، وشق طريقه بما يقع موقع الرضى في نفس آمر سريته ، فقد منح وسامين ، وفي خريف عام ١٩١٦عين رئيس عرفاء ، وأخذ يتحدث الآن في رسائله عن سعيه لدخول مدرسة الضباط . وأرسل في الصيف إلى أهله مع انيكوشكا الذي حصل على إجازة خوذة ومعطفاً لضابط الماني ، وصورته الفوتوغرافية . وكان وجهه الذي يطل بخيلاء من الصورة الرمادية يبدو متقدماً في السن ، وشارباه الكتانيان مبرومان إلى الأعلى ، وتحت أنفه الأفطس انفرجت تكشيرته المعهودة بين شفتيه العنيدتين . كانت الحياة تبتسم لبيوتر ، وقد أبهجته الحرب لأنها فتحت

أمامه آفاقاً جديدة . ولولاها لما استطاع ، وهو القوزاقي البسيط ، أن يحلم بمنصب ضابط ، وبحياة أخرى أحلى . ولم يكن ليكدر صفو آمال بيوترسوى جانب واحد من حياته ، فقد كانت الشائعات القبيحة تحوم في القرية حول زوجته . فبعد أن عاد ستيبان أستاخوف إلى الكتيبة من إجازته التي تمتع بها في خريف ١٩١٦ ، تباهى أمام سريته بأكملها ، بالأيام الماتعة التي قضاها مع زوجة بيوتر . ولم يكن بيوتر ليصدق تلك القصص ، فادلهمّ وجهه وابتسم قائلاً :

ـ ان ستيبان كذّاب! إنه يحاول أن يطعن بي بسبب ما فعله غريغوري .

بيد أنه ذات يوم بينما كان ستيبان خارجاً من حفيرته ، أسقط عمداً أو سهواً منديلاً مطرزاً من الدانتيلا . فالتقطه بيوتر ، وقد كان خلفه مباشرة ، وعرف في الحال أنه من عمل زوجته . فشبّت العداوة مرة أخرى بينهما . وجعل بيوتر يتربص به الدوائر ، وحام الموت حول ستيبان . ولو كان بمستطاع بيوتر ، لصرع ستيبان على شاطىء الدفينا وقد ترك على رأسه أثراً من رصاصته .

ولكن حدث بعد وقت قصير أن خرج ستيبان في دورية للاستيلاء على نقطة أمامية ألمانية . ولم يعد بعدها . وقال القوزاق الذين كانوا معه أن أحد الجنود الالمان سمعهم يقطعون الاسلاك الشائكة ، فألقى قنبلة يدوية . واستطاع القوزاق إدراكه وقد أرداه ستيبان على الأرض بقبضته ، بيد أن حارساً مساعداً له أطلق النار ، فسقط ستيبان . وطعن القوزاق الحارس الثاني بالحراب ، وسحبوا الالماني الذي صرعته ضربه ستيبان ، وحاولوا أن يرفعوا ستيبان أيضاً . ولكنه كان ثقيلاً جداً فاضطروا الى تركه .

فأخذ ستيبان يتوسل : «اخواني ، لا تتركوني أموت! أيها الرفاق! لماذا تتركوني ؟ »

ولكن وابلاً من رصاص الرشاش تناثر خلال الأسلاك الشائكة ، فزحف القوزاق مبتعدين ، صاح ستيبان في أعقابهم« أيها الاخوان! » ولكن ماجدوى

ذلك ؟ ينبغي أن تنجو بجلدك قبل الآخرين . وعندما سمع بيوتر بمصير ستيبان شعر بالراحة ، وكأنه لبخ قرحة مؤلمة بالمرهم ، ولكنه عقد العزم على هدر دم داريا عندما يحصل على إجازة . فليس هو مثل ستيبان! انه لن يقبل بذلك! وفكر في قتلها ، ولكنه رفض الفكرة في الحال . « أقتل العاهرة ، وأدمر كل حياتي بسببها ؟ وأتعفن في السجن ، وأفقد كل ما سعيت من أجله ، أفقد كل شيء ؟ » وقرر أن يضربها فقط ، ولكن بشكل يشفيها من كل رغبة في رفع ذيلها ثانية! « ولسوف أقلع عينها ، تلك الأفعى ، حينذاك لن ينظر اليها إنسان ما! » هكذا فكر فيما كان جالساً في الخندق غير بعيد عن شاطىء نهر دفينا الطيني المنحدر .

وانقض الخريف على الاشجار والعشب ، وأحالها صقيع الصباح قاتمة ، وبردت الأرض ، واحلولكت ليالي الخريف واستطالت . وفي الخنادق كان القوزاق يمارسون أعمالهم المرهقة ، ويطلقون النار على الالمان ، ويناقشون رؤساء عرفائهم حول الحصول على ملابس دافئة ، ولم يتيسر لهم طعام كاف ، غير أنه لم يكف أحدهم عن التفكير في أهليهم في الدون بعيداً عن هذه الأرض الغريبة العزوف .

وفي ذلك الخريف عوّضت داريا عن كل حياتها الجائعة المفتقرة إلى زوج . وذات صباح استيقظ بانتلاي بروكوفييفتش قبل بقية أعضاء الأسرة كعادته ، وخرج إلى الفناء . فأمسك برأسه وقد أذهله مارأى . كان مصراعا البوابة قد خلعا ، وألقي بهما في وسط الطريق . كانت هذه إهانة ، عاراً! فأعاد العجوز البوابة في الحال إلى مكانها ، وبعد الفطور استدعى داريا إلى الخارج في المطبخ الصيفي . ولم يدر الآخرون قط ما تحدثا به ، غير أن دونيا شاهدت داريا بعد بضع دقائق تعدو خارجة من المطبخ شعثاء الشعر منتحبة ، وقد تهدلت عصابتها . واذ مرت بدونيا هزت كتفيها وارتعش قوسا حاجبيها في وجهها الغضوب المبلل بالدموع .

وفحت من بين شفتيها المتورمتين :

ـ اصطبر ، أيها الشيطان العجوز! سأرد لك ذلك!

ولاحظت دونيا أن قميصها كان ممزقاً من الخلف ، وقد بدت كدمة زرقاء على كتفيها العاريتين . وجرت صاعدة الدرج ودلفت إلى البيت ، بينما أقبل بانتلاي يعرج من المطبخ الصيفي ويبدو عليه الشر كالشيطان ، وهو يجدل عناناً جلدياً جديداً أثناء سيره . وسمعت دونيا أباها يقول :

ـ كان ينبغي أن أقسو معك أكثر من ذلك ، أيتها الفاجرة ، أيتها العاهرة!

وعاد النظام إلى البيت وسارت داريا بضعة أيام أهدأ من الماء ، وأرخى من الحشيش ، فكانت تأوي إلى الفراش كل ليلة قبل أي شخص ، وتبتسم ببرود لنظرات ناتاليا العطوف ، وهي تهز كتفيها وترفع حاجبيها كمن تقول : « حسناً ، سوف نرى! » وفي اليوم الرابع ، وقع حادث لم يعلم به سوى داريا والعجوز بانتلاي . ومضت داريا بعد ذلك تضحك بانتصار ، فيما ظل العجوز مرتبكاً اسبوعاً بكامله ، وزرياً كقط مذنب . ولم يخبر زوجته بما حدث ، وحتى عند الاعتراف احتفظ بالحادث وبأفكاره الخاطئة سراً عن الأب فيساريون .

وكان هذا ماحدث . كان بانتلاي واثقاً من توبة داريا التامة ، فقال لزوجته إيلينشنا :

ـ لا ترحمي داريا! شددي عليها بالعمل . فلن تخطىء مادامت تعمل ، فهذه المهرة الجميلة العاهرة لا تبالي بشيء الا بنزواتها الليلية .

وأشغل هو بنفسه داريا في تنظيف ساحة درس الحبوب وجمع الحطب في الفناء الخلفي . وساعدها في إخلاء سقيفة التبن . وبعد ذلك في أصيل ذلك اليوم فكّر في نقل ماكنة التذرية من مخزن الحبوب إلى سقيفة التبن ، واستدعى كنته لمساعدته .

وخرجت داريا ومرّت من ساحة درس الحبوب إلى المخزن وهي تصلح عصابتها وتنفض التبن الذي تسلل إلى ماتحت ياقة سترتها . وذهب بانتلاي في المقدمة ، وكان مرتدياً سترة مبطنة بالصوف وسروالاً خلقاً لعمل النهار . كانت الساحة خالية . فدونيا منهمكة في مساعدة أمها في غزل صوف الخريف ، وناتاليا تعدّ العجين لخبز الصباح . وكانت شمس الغروب تسطع فيما وراء

القرية . والناقوس يقرع لصلاة المساء . وتعلقت سحابة صغيرة بلون التوت البري بلاحراك في قبة السماء الصافية ، وهبطت الغربان في عقد سود على الأغصان الرمادية الجرد لأشجار الحور وراء الدون . وفي سكون المساء الأجوف كان كل صوت حاداً ومتميزاً . وجاءت من حظيرة الماشية الرائحة القوية المنبعثة من الروث المتبخر والتبن . وحمل بانتلاي وداريا ماكنة التذرية ذات اللون الأحمر الباهت إلى سقيفة التبن ، ووضعاها في ركن . وجمع بعض التبن المتساقط واستدار ليخرج . فنادت داريا في همسة خفيضة :

ـ أبي!

فعاد إلى آلة التذرية قائلاً وهو لا يشتبه في كنته بشيء معيب :

ـ ما الخبر ؟

وقفت داريا مواجهة اياه وقميصها مفكك الأزرار ، وقد دفعت ذراعيها إلى الوراء لتصلح شعرها . وتساقط شعاع قرمزي من شمس المغيب على رقبتها من خصاص الحائط :

ـ هنا ، يا أبي ، لدي شيء لك... تعال وانظر .

قالت ذلك وهي تميل جانباً وتسترق النظر متلصصة إلى الباب المفتوح عبر كتف العجوز . فتقدّم نحوها . وفجأة القت بذراعيها عليه وطوقت عنقه وشبكت أصابعها ، وخطت إلى الخلف وهي تجره وراءها وتهمس :

ـ هنا ، يا أبي... هنا . فالمكان أكثر طراوة .

فتساءل بانتلاي جافلاً :

ـ ماذا دهاك ؟

وحاول تخليص نفسه من ذراعيها وهو يلوي رأسه من جانب لآخر ، ولكنها سحبت رأسه نحو وجهها بمزيد من القوة ، وهي تتنفس بحرارة في لحيته وتتضاحك وتهمس .

ـ إليكِ عني أيتها العاهرة ؟ ـ وجاهد العجوز وهو يحس ببطن كنته ملتصقاً به تماماً . وراحت تشد عليه أكثر فأكثر ، وارتمت إلى الخلف وجرته إلى

الأسفل ، وهو فوقها .

ـ يا للشيطان! لقد فقدت صوابك! إليك عني! فلهثت داريا :

ـ ألا تريد ؟

وفتحت ذراعيها ، ودفعت العجوز من صدره وقالت :

ـ أو لعلك لا تستطيع ؟ اذاً ، فلا تحاسبني! هل تسمع ؟

وانتصبت على قدميها ، وأصلحت تنورتها بسرعة ، ونفضت التبن عن ظهرها وصاحت في وجه العجوز الغضبان :

ـ لماذا ضربتني ذلك اليوم ؟ هل أنا امرأة عجوز ؟

ألم تكن كذلك عندما كنت فتياً ؟ زوجي! لم اره منذ عام! فماذا عساي أفعل... أضاجع كلباً ؟ ربما كان ذلك أمراً هيناً عليك يا أعرج! هنا ، خذ هذا!

وأتت بحركة معيبة ، ثم اتجهت شطر الباب وحاجباها يتراقصان . وتفحصت ملابسها عند الباب مرة أخرى بمزيد من العناية ، وأزالت الغبار عن سترتها وعصابتها ، وقالت دون أن تنظر إلى الخلف شطر بانتلاي :

ـ لا يمكنني أن أحيا بغير ذلك ، إنني بحاجة إلى قوزاقي ، وان لم تكن بك رغبة... فسأجد بنفسي واحداً ، وعليك أن تغلق أنت فمك!

وذهبت مسرعة إلى باب سقيفة التبن وردفاها يترجرجان ، واختفت دون أن تلقي نظرة إلى الوراء ، بينما ظل بانتلاي بروكوفيتش واقفاً إزاء التذرية ، وهو يلوك لحيته ويجول ببصره كالمخطىء حول سقيفة التبن . «لعلها كانت مصيبة على كل حال ؟ لعله كان من الأفضل أن أخطىء معها ؟» قال ذلك في دخيلته متحيراً وقد أذهله ماحدث .

٦

في تشرين الثاني أطبق الصقيع ، وسقط ثلج مبكر ، وعند المنحنى ، في الطرف الأعلى من القرية تجمد الدون . ومن حين لآخر كان شخص يخاطر

فوق الجليد ذي الزرقة التي تحاكي الحمام ويعبر إلى الجانب الأقصى . وإلى أبعد من ذلك ، لم تكن سوى حافتي النهر مغطاتين بطبقة رقيقة من الجليد ، وكان التيار يجري مدوماً في الوسط ، وتتواثب الأمواج الخضراء بقممها الرمادية . وفي الغديرأسفل «الضفة السوداء» كان السمك القرموط قد مضى عليه زمن مذ غطس في سبات شتائي إلى عمق يبلغ سبعين قدماً . ورقد الشبوط الزئبقي قريباً . وسمك الكراكي وحده يثابر ضد التيار ويندفع عبر الأماكن الضحلة وهو يطارد السمك الصغير . ورقد سمك القرش فوق الحصباء ، وكان الصيادون ينتظرون صقيعاً شديداً كي يصطادوا السمك بالخطاطيف .

في تشرين الثاني تلقت عائلة ميليخوف رسالة من غريغوري ، بعث بها من رومانيا يقول فيها أنه قد جرح في القتال الأول : فقد هشمت رصاصة عظم ذراعه الأيسر ، لهذا اعيد إلى اقليمه ، إلى قرية كامينسكايا ريثما يلتئم الجرح . وحلت مصيبة أخرى بعائلة ميليخوف في أعقاب هذا الخبر : فمنذ ثمانية عشر شهراً وبانتلاي بروكوفيتش بحاجة إلى النقود ، وكان قد اقترض مئة روبل من سيرغي موخوف ، وأعطاه صك رهن كضمان . وفي الصيف استدعي العجوز إلى حانوت موخوف وسئل عما إذا كان في نيته أن يدفع المبلغ أم لا بينما كان صاحب الحانوت يحدّق في لحية بانتلاي بروكوفيتش من خلال نظارته الذهبية . فجالت نظرة بانتلاي بروكوفيتش مشتتة حول الرفوف نصف الفارغة والمناضد اللامعة ، وقال متردداً :

ـ انتظر قليلاً ، أمهلني كي أبحث قليلاً ، وسأردها لك .

بيد أن العجوز لم يستطع «البحث» . فلقد كان المحصول ضئيلاً ولم تكن الماشية تستحق البيع . وفجأة ، وكما يسقط الثلج في حزيران ، جاء مأمور المحكمة إلى مكتب ادارة القرية ، وأرسل في طلب بانتلاي بروكوفيتش وقال له بالحرف الواحد :

ـ ضع مئة روبل .

ورقد كتاب رسمي مطوّل على طاولة مفتش البوليس ولم يكن بوسع

بانتلاي بروكوفيتش سوى أن يصغي فيما كان المفتش يقرأ :

قرار قضائي

بأمر من صاحب الجلالة الامبراطورية ، صدر في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الأول عام ١٩١٦ ، استمعت أنا ، الحاكم المدني للدائرة السابعة لإقليم الدونيتس ، إلى دعوى التاجر سيرغي موخوف المقامة ضد العريف بانتلاي بروكوفيتش ميليخوف حول مئة روبل استحقّت وفق صك الرهن لأمر التاجر موخوف . واستناداً إلى المواد ٨١ ، ١٠٠ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، من القانون قضيت بما هو آت :

على العريف بانتلاي ميليخوف أن يدفع للتاجر سيرغي موخوف المئة روبل المثبتة في صك الرهن الموقع في ٢١ حزيران ١٩١٥ ، مضافاً اليها ثلاثة روبلات عن المصاريف . صدر الحكم غيابياً ، وهو ليس قطعياً .

وبموجب الفقرة الثالثة من المادة ١٥٦ من القانون المدني ، أصبح هذا الأمر ذا مفعول قانوني وسيوضع موضع التنفيذ في الحال .

ان الحاكم المدني للدائرة السابعة لاقليم الدونيتس يأمر بتفويض من صاحب الجلالة الامبراطورية بما يلي :

على جميع الأفراد والمؤسسات ذات العلاقة تنفيذ الحكم الآنف الذكر طبقاً لأحكام القانون . وينبغي أن ينال الضابط المسؤول عن تنفيذ قرار المحكمة العون من لدن جميع السلطات العسكرية والشرطة المحلية عند أداء واجبه .

وعندما سمع بانتلاي بروكوفيتش بالحكم طلب السماح له بالذهاب إلى داره ، واعداً بإحضار النقود في اليوم نفسه .

ولكنه ذهب مباشره إلى دار كورشونوف . والتقى في الساحة بأليكسي شامل ذي الذراع الواحدة فحياه هذا قائلاً :

ـ كيف حالك ياباتنلاي ؟

ـ الحمد لله!

ـ اذاهبٌ بعيداً ؟

ـ إلى أبي زوجة الابن ، في مهمة .

ـ أوه ؟ ستجدهم في مرح . ألا تعرف ؟ سمعت أن ابنهم ميتكا عاد من الجبهة .

ـ هكذا ؟

فأجابه شامل وهو يطرف بعينيه وخده :

ـ هكذا قيل لي .

وأخرج كيس تبغه وأضاف :

ـ هاك نفساً أيها العم ، من ورقي وتبغك .

وأشعل بانتلاي سيكارة ، ولبث يسائل نفسه أيذهب لرؤية كورشونوف أم لا . وأخيراً قرر أن يذهب ، وسار يعرج . فصاح شامل وراءه :

ـ لقد نال ميتكا وساماً هو الآخر . إنه يحاول أن يلحق بولديك . أصبح لدينا في القرية من الأوسمة مثلما في الأشجار من عصافير .

ومضى بانتلاي بروكوفيتش متأنياً حتى طرف القرية ، ثم نظر من نافذة بيت كورشونوف ، وذهب إلى فتحة البوابة . فالتقى بميرون نفسه . كان وجه العجوز الأنمش يشع بهجة .

فسأله كورشونوف وهو يعقد ذراعه بذراع بانتلاي :

ـ أسمعت بفرحتنا ؟

ـ لقد أخبرني أليكسي شامل لتوه وأنا في طريقي إليك . ولكنني جئت لأمر آخر...

ـ لنرجئه! هيا ادخل البيت وقابل الفتى . كنا نشرب بعض الشيء ، نخب فرحتنا . ان زوجتي تحتفظ بقنينة لمثل هذه المناسبة المباركة .

فابتسم بانتلاي بروكوفيتش ورفع منخريه :

ـ لا حاجة بك إلى اخباري . فقد شممت الرائحة من بعيد .

ودفع ميرون الباب ، وتنحى جانباً ليدع بانتلاي يدخل . واجتاز العتبة واستقر نظره في الحال على ميتكا الذي كان يجلس وراء المائدة عند الأيقونة . فصاح الجد غريشاكا والدموع تترقرق في عينيه ، وهو يحتضن كتف ميتكا :

ـ ها هو ، فتانا الجندي!

ـ أهنئك بعودة سعيدة ، أيها القوزاقي!

وأخذ بانتلاي بروكوفيتش يد ميتكا الطويلة في يده وتراجع خطوة إلى الوراء ، وهو يجيل فيه النظر باندهاش . فسأله ميتكا بصوتٍ أجش ، وعلى وجهه ابتسامة :

ـ حسناً ، فيم تحدّق ؟

ـ لا استطيع أن أقاوم النظر ، إنني مندهش للغاية . رأيتك وغريغوري تذهبان في وقت واحد ، وقد كنتما طفلين . والآن حسبك أن تنظر إلى نفسك! قوزاقي أصيل ، وتصلح لكتيبة الأتمان .

ونظرت لوكينشنا إلى ميتكا بعينين مغرورقتين بالدموع ، وهي تحاول في الوقت نفسه أن تصب الفودكا في قدح . وتركتها تسيل من فوق الحافة ، دون أن تلحظ ما تفعل . فصاح بها ميرون :

ـ أنت أيتها الخرقاء! ماذا أنت فاعلة ، تبددين الخمرة الجيدة!

ـ نخب صحتكم ، ونخب صحتك يا ميتكا ، بمناسبة عودتك السعيدة!

وأجال بانتلاي عينيه ببياضهما الحائل إلى الزرقة واحتسى قدح الفودكا الكبير وأهدابه تطرف ، دون أن يتوقف لحظة ليجر نفساً . ومسح شفتيه وعذاريه بيده ببطء ، وثبّت عينيه في قعر القدح ، والقى برأسه إلى الوراء ، وصبّ قطرة يتيمة من الفودكا في فمه المفتوح ، وحينذاك فقط أخذ نفساً وقضم قضمة من خيارة مخللة ، وقد طرفت عيناه بغبطة . وصبّت له لوكينشنا قدحاً آخر ، وسرعان مالعبت برأسه الخمرة وراح ميتكا يراقبه وهو يبتسم . وأخذت عيناه الشبيهتان بعيني القط تضيعان تارة حتى تغدوا شقين أخضرين ، وتتسعان داكنتين تارةً أخرى .

لم يكن هناك شك في أن الفتى قد تغير كثيراً خلال سنوات غيابه . فلم يبق في هذا القوزاقي المفتول العضلات ذي العذارين الأسودين ، أي شيء تقريباً من ذلك الشاب الرشيق الذي كان قد رحل لأداء الخدمة قبل ثلاث سنوات . لقد كبر كثيراً ، واتسعت كتفاه ، ولا ريب أن وزنه لم يكن بأقل من خمسة بودات . وقد ازداد وجهه وصوته خشونة ، وبدا أكبر من سنّه . ولم تبق سوى العينين كما كانتا ، مضطربتين قلقتين كعهدهما . وكانت أمه تغرق في ضوئهما ، وهي تبكي وتضحك ، وتمسّد بيدها المتغضنة شعر ابنها القصير الخشن وجبينه الأبيض الضيق .

قال بانتلاي بروكوفيتش وهو يبتسم ثملاً :

ـ اذاً فقد نلت الوسام ؟

فقطب ميتكا :

ـ ومن من القوزاق لم ينل وساماً الآن ؟ لقد نال كروتشكوف ثلاثة أوسمة لمجرد تردده على مقر القيادة .

فتعجل غريشاكا العجوز التدخل قائلاً :

ـ إنه مزهو . انه يشبهني بالضبط ، ذلك الشيطان . فهو لن يحني هامته للآخرين .

فأجاب بانتلاي بصرامة :

ـ إنهم لا يمنحونهم الأوسمة من أجل ذلك .

ولكن ميرون جره إلى غرفة أخرى ، وأجلسه على صندوق وقال له :

ـ كيف حال ناتاليا والحفيدين ؟ الكل أحياء ومتعافون ؟ حمداً لله! لقد قلت أنك جئت بمهمة ، أليس كذلك ؟ ماهي ؟ تكلم ، وإلا فسوف نشرب ثانية ولن يكون في وسعك الكلام .

فتوسل إليه بانتلاي بلهجة ذليلة ثملة بطيئة :

ـ أعطني نقوداً! بحق الاله! ساعدني ، والا قضت عليّ تلك... مشكلة النقود هذه .

فقاطعه ميرون :

ـ كم ؟

ـ مئة .

ـ مئة ماذا ؟

ـ مئة روبل .

ـ حسناً ، قل هكذا ، اذن .

وراح كورشونوف ينبش في الصندوق ، ثم أخرج منديلاً قذراً ، وحلّ عقدته ، وعدّ عشر ورقات من فئة العشرة روبلات .

ـ شكراً لك يا ميرون غريغورييفتش ، لقد أنقذتنا من البؤس!

ـ كلا ، لا تشكرني . حينما يكون الأمر متعلقاً بلحمنا ودمنا .

قضى ميتكا خمسة أيام في قريته . كان يقضي لياليه مع زوجة انيكوشكا ، وهو يرثي لحاجة المرأة المريرة ، وبالأخص لها ، كزوجة بسيطة ومطيعة . وكان يقضي النهار متجولاً بين أقاربه وأصدقائه . كان يترنح في الطرقات ، لا يرتدي سوى قمصلة خاكية خفيفة فقط ، وقد انداحت قبعته قليلاً إلى الوراء ، مباهياً بقدرته على تحمل البرد . وذات مساء أطل على عائلة ميليخوف ، وحمل معه إلى المطبخ الذي يفيض حرارة شذى الصقيع ورائحة الجندي الحريفة التي لا تنسى ، وجلس يتحدّث عن الحرب ، وأخبار القرية ، ثم ضيّق عينيه الخضراوين وهو ينظر إلى داريا ونهض لينصرف ، فرفت جوارح داريا كلهب شمعة ، عندما أصفقت الباب خلفه ، وزمّت شفتيها ، وكانت على وشك أن ترتدي عصابتها ، غير أن إيلينشنا سألتها :

ـ إلى أين تذهبين يا داريا ؟

ـ أود أن أخرج .

ـ سآتي معك .

وجلس بانتلاي دون أن يرفع رأسه ، كأنما لم يسمع السؤال والرد ، وذهبت داريا شطر الباب مارّة أمامه ، وجفناها منسدلان فوق الوميض الذنبي

في عينيها ، وحماتها تهتز من ثقلها وراءها . كان ميتكا يتنحنح ويعبث بالبوابة بقدميه واستدار على صوت مزلاج الباب ليعود إلى درجات العتبة . فصاحت ايلينشنا بخبث :

ـ أهذا أنت يا ميتكا ؟ لعلك لم تضل طريقك في فنائنا ؟ أحكم سد البوابة خلفك ، وإلاّ فستظل تصفق طوال الليل في هذه الريح .

فأجاب ميتكا بلهجة مغمومة :

ـ كلا ، لم أضلّ طريقي . سأحكم سد البوابة .

وحث سيره عبر الشارع صوب فناء بيت أنيكوشكا .

عاش ميتكا حياة لاهية كالطير ، فاليوم خمر وغداً أمر . ولم يكن اهتمامه بالجندية كبيراً ، فبالرغم من أن لديه قلباً جسوراً لا يفزع فما كان ليترك عاداته اللاهية ويسعى وراء المجد .

كان سجل حياته العسكرية بعيداً عن أن يكون سجلاً حسناً . فقد سيق مرتين إلى محكمة عسكرية ، مرة لاغتصاب امرأة بولندية الأصل روسية الجنسية ، وأخرى بسبب السرقة . وخلال سنوات الحرب الثلاث تلقى عقوبات لا تحصى ، وكادت المحكمة العسكرية ذات مرة أن تحكم عليه في إحدى المناسبات بالإعدام رمياً بالرصاص . ولكنه استطاع بطريقة ما أن يخلّص نفسه ، ورغم أنه كان من أردأ النماذج في الكتيبة ، إلا أن القوزاق أحبوه لطباعه البشوشة الممراحة ، ولأغانيه الفاسقة ، وللطافة معشره وصراحته ، بينما أحبه الضباط لشقاوته . كان ميتكا يجوس الأرض بقدمين خفيفتين أشبه بأقدام الذئب ، والبسمة لا تفارق محياه : كان فيه الكثير من طباع الذئب ، في مشيته ، في النظرة المسبلة لعينيه الخضراوين بالحدقتين الحادتين ، وحتى في الطريقة التي يدير بها رأسه . ولم يكن بمستطاع ميتكا أن يدير رقبته فقد أصيبت بجراح من شظية قذيفة . وكان عليه أن يستدير بكامل جسمه اذا اراد أن ينظر إلى الخلف . كانت العضلات منعقدة بصورة متقاربة على عظامه العريضة . وكان خفيفاً ومقتصداً في حركاته ،

وكانت صحته وقواه تفوح بالغلظة والخشونة كما تفوح أرض سوداء طيبة في وادٍ غب حرثها . كانت الحياة بالنسبة لميتكا بسيطة ومباشرة ، تمتد بعيداً أمامه مثل أخدود الحرث ، وقد سار عليه كالسيد المطلق . وكذلك كانت أفكاره بدائية ومباشرة . فإذا كنت جائعاً تستطيع بل يتحتّم عليك أن تسرق ، حتى من رفاقك ، وكان ميتكا يسرق عندما يجوع . واذا بليت جزمتك فإن أبسط شيء في العالم هو أن تأخذ زوجاً من أسير ألماني . وإذا تلقيت عقاباً فيجب أن تكفّر بشكل ما عن جريمتك ، وكان ميتكا يكفر عن جرائمه ، وذلك بأن يخرج ليعود بحراس ألمان نصف مخنوقين ، وينبري للتطوع في القيام بأخطر المهام . وفي عام ١٩١٥ أسر وكاد أن يقطّع إرباً إرباً ، ولكنه في الليلة ذاتها مزق أظافره في فتح سقف العلية وهرب ، والتقط في طريقه شيئاً من عدة عربة كتذكار . وبمثل هذه الأساليب كان ميتكا يخرج بنتائج طيبة .

في اليوم السادس لبقائه مع أهله رافقه أبوه ميرون إلى محطة ميليروفو ، ووقف هذا يرقبه عندما أخذ صف العربات الخضر يقرقع مبتعداً ، وهو يحفر بسوطه الخبث المنثور عند سكة الحديد دون أن يرفع عينيه المغرورقتين بالدموع . وبكت لوكينشنا على ابنها ، وسعل غريشاكا العجوز وتمخّط بيده ، ثم مسح كفه بذيل قفطانه القذر . وبكت زوجة أنيكوشكا وهي تذكر جسم ميتكا القوي ، وعناقه المحموم ، وتعاني من السيلان الذي أصابها به .

وشابك الزمن الأيام كما تشابك الريح عرف حصان . وقبيل عيد الميلاد بدأ ذوبان ثلج غير متوقع ، وانهمر المطر أياماً بطولها ، وتدفقت المياه من التلال حدر الشعاب الجافة ، واخضوضر الكلأ وألواح الكلس الطحلبية فوق المرتفعات الجرد ، وازبدت حافتا الدون ، واستحال الجليد أزرق باهتاً وانتفش ، وانبعث من الأرض الجرداء ، السوداء شذى حلو يعز عن الوصف . وبقبقت المياه في آثارالعجلات على الطريق العام . وتثاءبت الأخاديد الطينية

وراء القرية عن مزالق جديدة . وحملت الريح الجنوبية رائحة الأعشاب المتعفنة الثقيلة ، وفي الظهيرة تلمع في الأفق ظلال رقراقة زرقاء بلون الحمام ، وكأن الموسم ربيع . وفي القرية تكونت برك رقراقة حول أكوام من الرماد الملقى أمام الأسوار . وذاب الجليد عن الأرض حول حزم الأعشاب في ساحات درس الحبوب ، وكانت رائحة القش الرطب الحلوة تلذع أنوف المارة . وفي النهار تنساب مياه قطرانية على الأفاريز من سقوف القش التي تتدلى منها ذؤابات الجليد ، وكانت العقاعق تثرثر بلا انقطاع على الأسوار ، ويتمشى ثور القرية في فناء ميرون كورشونوف ويبعث خواراً مستبقاً حياة الربيع الرخوة وراح ينطح السور بقرنيه ، ويحك صدره الأملس بمحراث قديم نخره السوس ، ويحفر الجليد الذائب المتفتت .

وانفجر الدون في اليوم التالي لعيد الميلاد . وتدفق الجليد وسط التيار في هدير وزئير هائلين . وارتطمت الطافيات بالضفتين مثل أسماك ضخمة وسنى . وعلى مهب الريح الجنوبية القوية وراء الدون أحنت أشجار الحور هاماتها وراحت ترفرف كأنها تولي الادبار وهي في مكانها لا تريم .

وشيك حلول المساء بدأت الريح ترسل زئيراً فوق التل ، وكانت طيور الزاغ تحوم وتنعق فوق ساحة القرية ، وجرى خنزير خريستونيا قرب فناء ميليخوف وبين فكيه قبضة من الدريس فقرر بانتلاي أن الربيع قد توارى من جديد ، وأن برداً قد يسقط في الغداة . وفي المساء تغير اتجاه الريح إلى الشرق ، وغطى صقيع رقيق البرك التي خربتها مياه الذوبان بطبقة بلورية من الجليد . وفي الصباح كانت الريح تهب من موسكو ، واشتد الزمهرير مرة أخرى . لقد عاد الشتاء من جديد . وفي وسط الدون فقط كانت الطافيات تسبح طبقات بيضاء هائلة ، ودخنت الأرض الجرداء ببخار الصقيع .

وبعد عيد الميلاد بقليل أخبر كاتب القرية بانتلاي في اجتماع أنه رأى غريغوري في كامنسكايا ، وقد طلب منه أن يخبر والديه أنه سيأتي قريباً لزيارتهما .

٧

خبر سيرغي موخوف بيديه الصغيرتين السمراوين المشعرتين كل مفارقات الحياة . فهي تارة تبتسم له ، وتارة تتسلط عليه كما يتسلط حجر على رقبة غريق . لقد عرك الكثير . ومرت على سيرغي بلاتونوفيتش مصاعب جمة خلال حياته . فقبل زمن طويل ، وهو لما يزل يومئذ يدير مخزن الحبوب ، كان قد اشترى حبوباً من القوزاق بسعر التراب ، ثم اضطر بعد ذلك إلى نقل أربعة آلاف بود من الحبوب المحترقة العديمة الجدوى خارج القرية وأغرقها في النهر ، وعاودته ذكرى عام ١٩٠٥ أيضاً ، يوم أفرغ واحد من أهالي القرية طلقات بندقية باتجاهه في ليلة خريفية معتمة . ولكن موخوف جمع من حصيلة خساراته وأرباحه ستين ألف روبل وأودعها في مصرف فولغا ـ كاما ، آخذاً في الحسبان أن أيام القلاقل دانية ، كان يتوقع أياماً سوداً ، وقد صدق ظنه .

ففي كانون الثاني عام ١٩١٧ قال له بالاندا المعلم الذي كان يعالج سكرات الموت البطيء لداء السل بلهجة آسفة :

ـ إن الثورة قاب قوسين منا ، ولكنني أموت بمرض سخيف تافه . إنه لمن المؤسف ياسيرغي بلاتونوفيتش ، من المؤسف حقاً أن لا يحيا المرء ليرى حافظة نقودك تقلب على بطانتها ، وأنت تلوذ بالفرار من عشك الرغيد .

ـ وما الداعي للأسف ؟

ـ وكيف لا ؟ إن من دواعي سروري ، على كل حال ، هو أن أرى الخراب يحل بكل شيء .

فقال له سيرغي بلاتونوفيتش وهو يكتم غيظه :

ـ أخشى أن لا يتحقق أملك ياصاحبي . فلسوف تموت قبل أن يحل ذلك اليوم .

وفي كانون الثاني كانت أصداء أحاديث المدينة عن راسبوتين وعائلة

القيصر ماتزال تدور في قرى الدون . وفي أوائل آذر انقضت أنباء الاطاحة بالحكم المطلق على سيرغي بلاتونوفيتش كالصاعقة .

أما القوزاق فقد استقبلوا الخبر بقلق وترقب . وفي ذلك اليوم تحلق القوزاق شيوخاً وشباناً حول حانوت موخوف المغلق . وكان أتمان القرية الجديد سولداتوف وهو قوزاقي ذو شارب أحمر وعين حولاء ، قد زلزله النبأ ، ولم يكد يسهم في الأحاديث التي كانت تدور بحماس خارج الحانوت ، بل جعل ينظر إلى القوزاق بعين حولاء مضطربة ويهتف بين حين وآخر بلهجة حائرة :

ـ حسناً . لقد وقعنا في حيص بيص! فماذا ترانا فاعلين بعد ذلك ؟

ولما رأى موخوف الحشد خارج الحانوت ، قرر أن يخرج ويتكلم مع الشيوخ ، فارتدى سترته المبطنة بفرو الراكون* وخرج من الباب الأمامي لداره ، متكئاً على عصاه التي نقشت عليها حروف اسمه بفضة رخيصة . وكانت الضوضاء تخيم على الحاشدين .

فسأله ماتفي كاشولين وهو يبتسم بلهفة بدت على أثرها تجمدات صغيرة حول أنفه المدرار :

ـ حسناً ياموخوف ، أنت رجل مثقف ، أخبرنا نحن الجهلة عما سيحدث بعد الآن .

وعندما انحنى موخوف رفع الشيوخ قبعاتهم تجلة ، وتنحوا إلى الخلف ليفسحوا له الطريق ليتوسط الجمع . وابتدرهم قائلاً :

ـ سوف نعيش بلا قيصر...

فجعل الشيوخ يتكلمون كلهم في آن واحد...

ـ ولكن كيف ، بلا قيصر ؟

ـ لقد عاش آباؤنا وأجدادنا تحت ظل القياصرة . والآن لم يعد القيصر ضرورياً .

---

* حيوان لبون يشبه الهر ذو فرو ناعم يكثر وجوده في أميركا الشمالية . المترجمون

ـ لو طاح الرأس ، كفت الأطراف عن الحياة!

ماشكل الحكومة القادمة ؟

ـ أفصح يا سيرغي بلاتونوفيتش! انطق ، فلا داعي للخوف منا .

وعلق أفدييتش مبتسماً :

ـ لعله لايدري هو الآخر .

فنظر سيرغي بلاتونوفيتش إلى نعاله المطاطية ببلادة ، وقال وكأنه يتفل الكلمات بألم :

ـ إن مجلس الدوما هو الذي سيحكم . سوف تكون عندنا جمهورية .

ـ إذا هذا هو ما آل اليه حالنا ، اللعنة عليها! ومضى أفيدييتش يقول :

ـ إني لأذكر الآن كيف كنا نخدم صاحب الجلالة الراحل الاسكندر الثاني...

فقاطعه القوزاقي العجوز بوغاتيريوف الجهم ، بفظاظة :

ـ لقد حكيت لنا ذلك سابقاً! لاتخرج عن الموضوع .

ـ لكأنها نهاية القوزاق ؟

ـ وإذا استمرت الاضرابات ، فلن يمضي وقت طويل حتى يدخل الألمان سانت بطرسبرغ .

ـ لو طبقوا المساواة التي يدعون اليها ، فسيجعلوننا متساوين مع الفلاحين .

ـ يعني ينتزعون منا أرضنا ، ها ؟

فجال سيرغي بلاتونوفيتش ببصره بين وجوه الشيوخ القلقة مفتعلاً ابتسامة وقد اعتراه شعور بالهم والمرارة . وكعادته فرق لحيته الرمادية ، وراح يتكلم دون أن يعلم أحد على من هو غاضب :

ـ هاأنتم ترون الآن ، أيها القوزاق ، إلى أين مضوا بروسيا! إنهم سيساوونكم مع الفلاحين ، ويجردونكم من امتيازاتكم ، وسوف ينبشون مالاقوه من اضطهاد في السابق . إن أياماً سوداً ستحل... والأمر يتوقف على

من تقع بأيديهم الحكومة ، وإلا فنحن مقبلون على كارثة مطبقة .

فهز بوغاتيريوف رأسه ، وحدج موخوف خلال حاجبيه الكثين بنظرة غير واثقة وقال :

ـ إن بقينا أحياء فسنرى! إنك قلق على شؤونك الخاصة يا سيرغي بلاتونوفيتش ، وما أدراك لعل أحوالنا ستتحسن .

فتساءل موخوف مغتاظاً :

ـ كيف ستتحسن أحوالكم ؟

ـ لعل الحكومة الجديدة تضع حداً للحرب . إن ذلك ممكن ، أليس كذلك ؟

فلوح موخوف بيده ودلف إلى بيته بمشية رجل شاخ قبل الأوان ، قلقاً على الأمور المالية ، والطاحونة ، وتجارته المتردية ، ثم تذكر أن يليزافيتا في موسكو الآن وأن فلاديمير على وشك العودة إلى القرية من نوفوتشيركاسك . إن لهفته الفاترة على أولاده لم تشغله عن تفكيره القلق المضطرب . وإذ بلغ سقيفة الباب انتابه شعور بأن الحياة ادلهمت من حوله على حين غرة ، وأخذت تراود روحه وساوس مؤلمة . وأحس بطعم الصدأ في فمه فالتفت إلى حيث الشيوخ ، وبصق عبر الدرابزين . ودلف من الشرفة إلى غرفته .

التقت آنا ايفانوفا بزوجها في غرفة الطعام . وقالت وهي تحدج وجهه بنظراتها اللامبالية الباردة المعهودة :

ـ هل تريد شيئاً تأكله قبل الشاي ؟

فأشاح عنها باشمئزاز قائلاً :

ـ أوه ، كلا! أي مذاق للطعام هنا ؟

أحس بمثل طعم الصدأ في حلقه ، وبثقل وفراغ في رأسه .

ـ لقد وصلت رسالة من ليزا .

ودلفت آنا ايفانوفا تجرجر خطاها إلى غرفة النوم ، مثقلة بواجباتها البيتية تلك هي عادتها منذ اليوم الأول من زواجها ، وجاءت برسالة مفتوحة .

« لاأحسبها الا فتاة طائشة فارغة الرأس » ، ـ فكر سيرغي بلاتونوفيتش في ابنته لأول مرة في حياته ، وقد تجعد أنفه إذ بلغته رائحة العطر المنبعثة من المظروف السميك ، ثم قرأ الرسالة على عجل ، وتوقف قليلاً عند لفظة « مزاج » ، متفكراً فيها ، باحثاً عن معانيها الخفية . وفي خاتمة الرسالة طلبت ليزا بعض المال . وعاود ذهن سيرغي بلاتونوفيتش ذلك الشعور الحاد بالفراغ الذي لا يبارح رأسه وهو يأتي على نهاية الرسالة . وعلى حين غرة أحس برغبة في البكاء الخافت . لقد مثلت أمامه حياته بكل عقمها .

وفكر في نفسه : « إنها غريبة عني ، وأنا غريب عنها . فهي لا تتذكر بنوتها لي إلا عندما تحتاج المال . الفويجرة القذرة ، وعشاقها... ومع هذا فعندما كانت طفلة ، فقد كانت شقراء وعزيزة على قلبي... يالهي! كم تبدلت الأمور! لقد بقيت أحمق حتى شيخوختي . كان يخيل لي أن حياتي سائرة نحو الأفضل ، ولكني في الواقع وحيد كالمعبد المهجور . لقد كسبت مالي بطرق مشبوهة ، ولكن المرء لايستطيع الحصول عليه بوسائل نظيفة ، لقد اعتصرت جيوب الآخرين ، وقترت وهاهي الثورة على الأبواب وغداً قد يطردني خدمي أنفسهم من بيتي فيذهب مالي هباء! وولداي! إن فلاديمير أحمق... وأين هو المغزى في هذه الحياة ؟ عبث كلها ، والله أعلم... » .

وعلى نحو مبهم اقترنت هذه الأفكار بحادثة وقعت في طاحونته . لقد أحدث زبون قوزاقي ضجة لادعائه أنه أبخس الكيل ، فرفض دفع الأجرة . فأخرج الهياج سيرغي بلاتونوفيتش من غرفة الماكنة ليرى ماذا حدث . وعندما سمع القصة ، أمر الوزان أن لايسلمه الطحين . فسحب القوزاقي القميء النحيف كيس الطحين من نهايته ، بينما ظل أحد عمال الطاحونة زافار ، وهو شاب مكتنز له صدر كالبرميل ، يجرجر طرفه الآخر . وحين دفعه القوزاقي رفع زافار ذراعه وهوى على صدغه بلكمة من قبضته القوية . فوقع القوزاقي القميء ، ثم نهض على قدميه مترنحاً وقد بان على صدغه الأيسر أثر الكدمة . وتقدم خطوة من سيرغي بلاتونوفيتش ، وقال وهو ينشج :

ـ خذ طحيني عسى أن تغص به!

ومضى لسبيله وكتفاه ترتعشان .

لم يكن هناك من سبب واضح يجعل سيرغي بلاتونوفيتش يستعيد في ذهنه ذكرى هذا الحادث ومضاعفاته! كيف قصدته زوجة القوزاقي القميء وطالبته بالطحين ، وكيف اعتصرت الدموع من عينيها لتكسب عطف الزبائن الآخرين .

ـ ماهذه المعاملة ، أيها المؤمنون ؟ كيف يحق له أن يتصرف هذا التصرف ؟ أرجع لنا طحيننا!

فقال زافارا ساخراً :

ـ اذهبي إلى سبيلك أيتها العمة ، اذهبي بهدوء وإلا جززت لك شعرك .

وكان مزعجاً وأليماً أن يرى القباني الولد ، وهو واهن ضئيل كالقوزاقي نفسه ، يثب على زافار ليتلقى منه ضربات لارحمة فيها ، مما حدا به أن يترك عمله في الطاحونة نهائياً . لقد مر كل ذلك بذهن موخوف فيما كان يطوي الرسالة ويتطلع إلى الأمام بعينين شاردتين .

وقضى بقية يومه وهو يعاني ألماً وكآبة مريرين .

وكان نومه قلقاً تلك الليلة ، فقد ظل يتقلب تحت وطأة أفكار مشتتة وأحلام غريبة ولم يغرق في النوم إلا بعد منتصف الليل . وعندما سمع في الصباح التالي بأن يفغيني لستنتسكي قد عاد من الجبهة إلى أهله قرر الشخوص إلى ياغودنويه ليقف على حقيقة الوضع ، ويريح فكره من مرارة هواجسه المتعاظمة . فربط يميليان الفرس بالزحافة الصغيرة ، ماصاً غليونه ، وأقل سيده إلى ياغودنويه .

كان قرص الشمس يزداد ألقاً فوق القرية كمشمشة صفراء ، والغيوم تتلاشى من فوقها وتحتها مثل خيوط من الدخان . وكان الهواء الزمهرير القارس مشبعاً برائحة فاكهية عبقة . وكان الجليد في الطريق يتكسر تحت حوافر الفرس ، وتذرو الريح البخار الذي يخرج من منخري الحيوان فيستقر

على عرفها . فأغفى موخوف في مقعده وقد خدره البرد وهو يترنح ويتحكك بمسند الزحافة المفروش بالبساط . ولاح في ساحة القرية جمع من القوزاق متلفعين بفروات سود ، وأسراب من النساء ، متسربلات بمعاطف مبطنة محشوة بفرو القندس .

كان المعلم بالاندا واقفاً وسط الجمع ، ممسكاً بمنديله عند شفتيه الحائلتين إلى الخضرة ، وعلى عروة سترته شريط أحمر . وكان في عينيه اضطرام محموم وهو يتكلم :

ـ ... لقد قضي على الحكم المطلق اللعين . ولن يرسل أبناؤكم بعد الآن ليخمدوا نضال العمال بالسياط . لقد انتهت خدمتكم المخزية لذلك القيصر مصاص الدماء . إن المجلس التأسيسي سيحكم روسيا الحرة الجديدة . لسوف تبنى حياة جديدة ، حياة مشرقة .

وخلفه كانت خليلته تمسك بذيل معطفه وتهمس متضرعة :

ـ حسبك ، ياميتا! ألست تدرك أن ذلك يؤذيك ؟ سوف تبصق دماً ثانية يا ميتا!

كان القوزاق ينصتون إلى بالاندا ويتنحنحون حرجاً ويكتمون ابتساماتهم ، ولكنهم لم يدعوه ينهي كلامه . فلقد قاطعه صوت جهير حنون انطلق من بين الجمهور :

ـ أجل ، إنها ستكون حياة سعيدة ، كما يبدو ، ولكنك لن تعيش لتشهدها ، ياصاحبي المسكين! اذهب إلى البيت الآن ، فالطقس شديد البرودة!

فأنهى بالاندا كلامه بسرعة ، ومضى مهموماً .

بلغ موخوف ياغودنويه ظهراً ، وقاد يميليان الفرس من لجامها إلى المعالف المصنوعة من الصفصاف في الاسطبل ، ورفع السرج عنها ورمى على ظهرها مرشحة بعد أن هبط سيده من الزحافة وأخذ يبحث تحت فروته عن منديل . فالتقى في أسفل الدرجات كلباً كبيراً سلوقياً أبلق معترضاً طريق

الرجل الغريب ، يتثاءب ماداً قائمتيه الطويلتين ، فيما نهضت في أثره بكسل الكلاب الأخرى المستلقية حول الدرجات كأكوام سوداء .

فتراجع سيرغي بلاتونوفيتش إلى الخلف بخوف مرتقياً الدرجات وقد أذهله عددها .

كانت ردهة الانتظار الجيدة الإضاءة تفوح منها رائحة الكلاب والخل . وقد علق على زوج من قرن الأيل موضوع فوق صندوق ، قبعة فراء لضابط قوزاقي ، وقلنسوة عليها شرابة فضية . وبرنس قوزاقي . وعندما وقع بصر سيرغي بلاتونوفيتش عليه ، خيل اليه لحظة أن شبحاً طويلاً أسود أشعث محدودب الكتفين كان متسلطاً عليه . وقدمت امرأة ممتلئة ذات عينين سوداوين من الغرفة المجاورة ، ورمقت موخوف بنظرة متفحصة وهو يخلع معطفه ، وسألته دون أن تغير الملامح الجدية لوجهها الأسمر الجذاب :

ـ جئت في طلب نيكولاي أليكسيينيفتش ؟ سوف أخبره .

لقد وجد سيرغي بلاتونوفيتش صعوبة في معرفة اكسينيا من هيئتها الممتلئة الجميلة هذه . ولكنها عرفته في الحال ، وزمت شفتيها اللتين تحاكيان الكرز بحمرتهما ، وبحركة خفيفة من ذراعها الناعمة العارية شدت قوامها بصورة غير طبيعية . ثم دخلت الصالة دونما استئذان وأوصدت الباب خلفها وبعد دقيقة أو اثنتين خرجت ثانية ، يتبعها لستنتسكي العجوز وقال متلطفاً وهو يبتسم ابتسامة وقوراً :

ـ آه ، السيد التاجر! ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ تفضل بالدخول... ووقف جانباً ودعا ضيفه إلى الصالة باشارة من يده وانحنى سيرغي بلاتونوفيتش بالطريقة التي اتقنها منذ زمن طويل في أداء التحية لمن هم أعلى منه مرتبة اجتماعية ، ودخل . فتقدم نحوه يفغيني لستنتيسكي ليستقبله مخاوصاً عينيه من وراء عويناته .

ـ إنني مسرور ياعزيزي سيرغي بلاتونوفيتش! كيف حالك ؟ أحق أن الكبر نال منك ؟

ـ لا ، والله ، يايفغيني نيقولا ييفتش! أنا لا أزال أتوقع أن أعيش بعدك . ولكن كيف أنت ؟ أسالم معافى ؟ وأخذ يفغيني موخوف بذراعه وقد افترت شفته عن ابتسامة كشفت عن التلبيسات الذهبية لأسنانه ، وسار به نحو كرسي . وجلسا أمام طاولة صغيرة يتبادلان المزاح ويبحثان في وجه كل منهما عن إمارات التغير التي طرأت عليهما منذ لقائهما الأخير . وطلب لستنتسكي العجوز من أكسينيا أن تحضر الشاي ، ثم تقدم ووقف إزاء موخوف والغليون المقوس بين أسنانه ويده الهزيلة مستندة إلى الطاولة ، وقال :

ـ كيف تجري الأمور معك في القرية ؟ هل سمعت بـ... الأخبار السارة ؟

فصعد موخوف نظره إلى طيات في عنق وذقن الجنرال المحلوقة بعناية ، وتنهد قائلاً :

ـ كيف يفوت المرء سماع ذلك ؟

فسحب الجنرال العجوز نفساً عميقاً من غليونه وارتعشت جوزة عنقه ، وقال :

ـ إلى أي مصير أسود آلت الأمور! لقد تنبأت بذلك منذ اليوم الأول من الحرب . حسناً... لقد كتب على الملكية أن تزول . تذكرت في هذه اللحظة ميرز كوفسكي . هل تذكر يايفغيني ؟ روايته «بطرس الأول وأليكسي» . لقد قال ولي العرش أليكسي لأبيه بعد أن عذب :« ستتحمل ذريتك مغبة إهراق دمي... » .

وأردف موخوف بانفعال :

ـ ليست لدينا أية معلومات حقيقية عماحدث .

وتململ في كرسيه وأشعل لفافة ، ومضى يقول :

ـ لم نر جريدة منذ أسبوع . وعندما سمعت بأن يفغيني نيكولاييفتش عاد إلى أهله في إجازة ، قررت الشخوص إليه لأقف على حقيقة ماحدث وماذا ينتظرنا بعد ذلك .

وتلاشت البسمة من وجه يفغيني الحليق تدريجياً ، وأجاب :

ـ أحداث مريعة... فلقد تفكك الجنود تماماً . إنهم لايريدون المضي في القتال ، لقد تعبوا منه . ولم يكن لدينا هذا العام جنود بمعنى الكلمة ، والحق يقال . لقد أصبحوا زمراً إجرامية ، وحوشاً لارادع لها . أما أبي... فليس بوسعه أن يستوعب ذلك . لايستطيع أن يدرك إلى أية درجة بلغت فوضى الجيش... فالجنود يتخلون عن مواقعهم اعتباطاً ، ويقتلون ضباطهم ، ويسلبون ويفتكون بالمدنيين... إن عصيان الأوامر العسكرية بات اليوم من الحوادث اليومية .

ونفث لستنتسكي العجوز غمامة من دخان التبغ ، وقال :

ـ السمكة تجيف من رأسها .

وقطب يفغيني حاجبيه وارتعش أحد جفنيه باضطراب وقال :

ـ أنا لاأقول ذلك ، لاأقول... فالجيفة تدب في الجيش من أسفل ، لقد أفسده البلاشفة . وحتى الفرق القوزاقية ولا سيما تلك التي على تماس شديد بالمشاة ، لايعتمد عليها من الناحية المعنوية ، ثمة ملل فظيع وحنين جارف يدفعانهم للعودة إلى أهليهم... وهناك البلاشفة...

وانفجر موخوف ، غير قادر أن يسيطر على نفسه أكثر من ذلك :

ـ ماذا يريدون ؟

فقال لستنتسكي ضاحكاً :

ـ أوه... يريدون... ذلك أسوأ من جراثيم الكوليرا . أسوأ من ناحية سهولة الالتصاق والتغلغل في لب الجنود . أعني أفكارهم بالطبع . وليس هناك من محجر صحي يعزل المرء عنها . ولاشك أن هناك رجالاً أذكياء جداً وموهوبين بين البلاشفة . لقد تهيأ لي أن ألتقي ببعضهم ولكن قسماً منم مهووسون ، لا أكثر .

ثم أضاف بلهجة مفاجئة بادية الغضب :

ـ ولكن الأغلبية الساحقة لاتمكن السيطرة عليها ، حيوانات لاأخلاق لها . لاتعنيهم روح التعاليم البلشفية ، بل السعي وراء السلب والخلاص من

الجبهة ليس إلا . إن دافعهم الرئيسي هو أن يمسكوا بزمام السلطة بأيديهم ، ويضعوا حداً للحرب «الاستعمارية» ، كما يسمونها ، بأي شرط كان ، ولو بصلح منفرد ، ومن ثم يسلمون الأراضي إلى الفلاحين ، والمعامل إلى العمال . بالطبع إن هذا حلم طوبائي بقدر ماهو سخيف ، ولكنهم بمثل هذه الأساليب البدائية أفلحوا في كسب الجنود .

كان لستنتسكي يكبح جماح غضبه ويلوي مبسم سيكارته العاجي بأصابعه أثناء كلامه . وكان موخوف يصغي اليه ، وقد انحنى بكامل جسمه للأمام كمن يريد الوثوب من كرسيه .

ثم تمشى لستنتسكي العجوز ذهاباً وإياباً في الصالة ، متخطياً بجزمته السوداء اللبادية ، يلوك بعذاريه الأشيبين المائلين إلى الخضرة .

ومضى يفغيني يقول كيف أنه اضطر إلى الهرب من كتيبته حتى قبل أن تندلع الثورة خوفاً من انتقام القوزاق ، وروى سير الأحداث التي شهدها في بطرسبورغ . ولاذا بالصمت بعض الوقت . وبعد ذلك سأل لستنتسكي العجوز فجأة وهو ينظر إلى أنف موخوف :

ـ حسناً ، هل تشتري المهر الأشهب الذي ضربت عنه صفحاً في الخريف ؟

فقطب موخوف معبساً ولوح بيده بحركة قانطة وقال :

ـ كيف تستطيع الكلام عن مثل هذه الأمور في مثل هذا الظرف يانيكولاي أليكسييفتش ؟

وفي هذه الأثناء كان يميليان سائق موخوف يدفئ نفسه ويشرب الشاي في جناح للخدم ، ويمسح خديه الشبيهين بالشوندر بمنديل أحمر ، ويروي أخبار القرية وكانت أكسينيا واقفة وصدرها إزاء السرير ذي الخشب المحفور ، وقد التفعت بشال من الوبر .

وقالت متسائلة :

ـ أحسب أن بيتنا قد تهدم الآن ؟

فأجاب يميليان متمهلاً :

ـ كلا ، لماذا يتهدم ؟

ـ وجيراننا ، آل ميلخوف ، كيف حالهم ؟

ـ إنهم بخير .

ـ ألم يعد بيوتر إلى أهله في إجازة ؟

ـ لم أسمع بذلك ؟

ـ وغريغوري ؟

ـ غريغوري عاد إلى أهله بعد عيد رأس السنة . وقد أنجبت له زوجته توأمين في العام الماضي . غريغوري... عاد... بسبب جرحه .

ـ جرح ؟

ـ نعم ، في ذراعه ، لقد ملأت الجروح جسمه في كل مكان مثل كلب غب معركة . ولست أدري فيما إذا نال مزيداً من النياشين أو الجروح .

فسألته أكسينيا :

ـ وكيف يبدو الآن... . أعني غريشا ؟

وسعلت لتخفي نشيجاً جافاً ، وحاولت أن تجعل صوتها المرتعش طبيعياً .

ـ كما كان ، بأنفه المقوس وسحنته السمراء ، تركي ابن تركي كما تعرفين .

ـ لست أعني ذلك... ولكن هل يبدو أكبر سناً ؟ هل شاخ ؟

ـ وكيف لي أن أعرف ؟ ربما شاخ قليلاً . لقد أنجبت زوجته توأمين . لذا فلايمكن أن يكون قد شاخ كثيراً .

وقالت أكسينيا وهي ترتجف :

ـ ماأبرد هذا البيت!

ثم خرجت .

وصب يميليان قدحه الثامن من الشاي وعاينها وهي تذهب وزنخر قائلاً :

قملة نتنة سامة ليس لها مثيل . لم يمض وقت طويل يوم كانت تتسكع بالقرية بصندل الفلاحات ، وهاهي اليوم تبدو أشبه بسيدة . «ماأبرد هذا البيت!» ياه ، أنت أيتها السيدة السافلة لقد ولدت أمك قحبة ، أجل! أنا لا أحتمل مثلها من النساء . لو كنت كذلك لأطرت صوابهن...! «ماأبرد هذا البيت!» الحية الرقطاء! ياه!

لقد بلغ استياؤه إلى حد أنه لم يستطع الفراغ من احتساء قدحه الثامن من الشاي ، فنهض ورسم إشارة الصليب ، ثم خرج وهو ينظر بغطرسة حواليه وينثر تراب الأرض المشمعة بجزمته عن عمد وكان طوال طريق العودة عابساً كسيده . وانصب جام غضبه على الفرس ، فجعل يلفح فخذيها الخلفيين بنهاية السوط بصورة معيبة ، ويمطرها بألوان السباب . وخلافاً لعادته ، لم يبادل سيده كلمة واحدة . وكذلك خلد سيرغي بلاتونوفيتش إلى صمت راعب .

٨

كان اللواء الأول من إحدى فرق المشاة الاحتياطية في الجهة الجنوبية الغربية ، وكتيبة قوزاق الدون السابعة والعشرون الملحقة به قد سحبا من الجبهة قبل اندلاع ثورة شباط ، بغية ارسالهما إلى بتروغراد لاخماد حركات العصيان التي انفجرت هناك . ونقل اللواء إلى المؤخرة ، وقد جهز بمعدات شتائية جديدة ، وأطعم جيداً ليوم واحد ، ثم سفّر بالقطار على جناح السرعة . ولكن الحوادث كانت تجرى أسرع من الكتائب المتجهة إلى مينسك ، وعشية يوم الرحيل كانت الشائعات المتواترة تفيد أن الامبراطور وقع تعهداً بتنازله عن العرش في مقر القائد العام للقوات المسلحة .

وأوعز للواء بالعودة في منتصف الطريق . وفي محطة رازغون أمرت كتيبة القوزاق السابعة والعشرون بالنزول من القطار . كانت الخطوط قد سدت بقطر أخرى ، وكان ثمة جنود يتسكعون على الرصيف . تزين معاطفهم شرائط

حمر ، وعلى أكتافهم بنادق جديدة حسنة الصنع من النمط الروسي ولكنها مصنوعة في انكلترا وكان كثير منهم ينظرون بقلق ووجل إلى القوزاق الذين اصطفوا في سرايا .

وكان النهار الماطر يدنو من نهايته ، والماء ينساب من سقوف بناية المحطة . وكانت البرك المغطاة ببقع نفطية والمنتشرة على طول الطريق تعكس ظلال فروة السماء الرمادية . وكانت القاطرات أثناء مناوراتها تبعث هديراً خفيضاً متهدجاً . وخلف مخزن البضائع قابلت كتيبة الخيالة آمر اللواء . كان البخار يتصاعد من سيقان الأفراس المبتلة حتى حجولها . وكانت الغربان قابعة دونما وجل وراء الطابور ، تنقر وتنكت كتل الروث البرتقالية اللون .

اتجه آمر اللواء ممتطياً فرساً أدهم يصحبه آمر الكتيبة ، نحو القوزاق ، ثم أوقف حصانه ، وراح يحدق النظر في السرايا ، ثم ألقى خطاباً وهو يتلكأ ويتلعثم في غمرة انتقائه للكلمات :

ـ أيها القوزاق! لقد... ها... سقط عرش الامبراطور نيكولاي الثاني بإرادة الشعب . وانتقلت الحكومة إلى أيدي اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما . لذا يجب على الجيش ، وأنتم من الجيش ، أن يتلقى... ها... هذه الأخبار بهدوء... أن واجب القوزاق هو أن يدافعوا عن وطنهم من الهجمات و... ها... كما يقال... من الأعداء والأجانب وسوف ننأى بأنفسنا عن العصيان الذي حصل الآن ، ونتركه للمدنيين ليختاروا الأسلوب الذي على ضوئه يتم تشكيل حكومة جديدة . يجب أن نقف بعيداً عن ذلك! لأن الحرب والسياسة بالنسبة للجيش... ها... لا يلتقيان . وعندما تهتز... ها... الأسس ، يجب أن نكون بصلابة... ـ وهنا تلكأ آمر اللواء العجوز الضيق الأفق الذي لم يألف القاء الخطب ، لينتقي كلمات مناسبة ، وحاجباه تتحركان في عجز مؤلم على وجهه الدهني ، فيما كانت الفرقة تنتظر بفارغ الصبر ـ ها... بصلابة الفولاذ . إن من واجبكم العسكري القوزاقي أن تطيعوا ضباطكم .وسوف نقاتل العدو بنفس البسالة السابقة ، بينما هناك في المؤخرة « وأتى بحركة غامضة إلى الخلف » نترك لمجلس

الدوما أن يقرر مستقبل البلاد . وعندما ننتهي من الحرب سوف نسهم في الحياة الداخلية للبلاد ، ولكننا في الوقت الحاضر... يجب أن لا ، ولا يمكن أن نخون الجيش... يجب أن لا تدخل السياسة إلى الجيش .

وبقي القوزاق بضعة أيام في المحطة ، يقدمون الولاء للحكومة المؤقتة ، ويحضرون الاجتماعات ، ويختلطون في كثير من الأحيان مع رجال من نفس ديرتهم ، ولكنهم ظلوا مبتعدين عن الجنود الذين تعج بهم المحطة . وكانوا يتناقشون فيما بينهم حول الخطب التي يستمعون اليها في الاجتماعات ، ويمحصون بحذر الكلمات التي يرتابون فيها ، حتى يتوصلوا جميعهم بهذه الطريقة أو تلك إلى النتيجة التالية ، وهي أنه لو توفرت حرية الآن ، لكان معنى ذلك نهاية الحرب ، وبات من الصعب على الضباط أن يكافحوا هذا الاعتقاد ، وأن يتمسكوا بالادعاء القائل أن روسيا ملزمة على مواصلة القتال حتى النهاية .

لقد تركت الحيرة التي شاعت في القيادة العليا للجيش بعد الانقلاب ، أثراً خطيراً على المراتب الدنيا ، وبدا لقيادة الفرقة وكأنها نسيت كلياً أن اللواء جانح عن السكة في منتصف طريق بتروغراد ، لقد أكل الجنود جراية الأيام الثمانية التي زودوا بها ، ثم انتشروا في القرى المجاورة ، وظهرت المشروبات الروحية للبيع بشكل غريب ، وبات منظر الجنود والضباط السكارى مألوفاً .

وتجمع القوزاق في عرباتهم متحللين من أداء واجباتهم اليومية ، ينتظرون الرحيل إلى الدون... وكانت الشائعة حول تسريح وجبة الاحتياط الثانية قوية . وأهملوا العناية بخيلهم ، وكانوا يقضون سحابة النهار في ساحات الأسواق يتجرون بالبطانيات الألمانية ، والحراب ، والمناشير والأجربة من الجلد والتبغ والمعاطف التي جاؤوا بها من الخنادق .

وعندما بلغ الكتيبة أمر يدعوها بالعودة إلى الجبهة قوبل ذلك بتبرم مكشوف . أما السرية الثانية فقد رفضت الذهاب بصورة قاطعة ، ورفض

القوزاق شد القاطرة بالشاحنات . ولكن آمر الكتيبة هدد بتجريدهم من السلاح ، فكفوا عن الهياج رويداً رويداً ، وبينما كان الركب يسير ببطء نحو الجبهة ، كان النقاش يجرى بحدة في كل عربة .

ـ ماذا تسمون هذا أيها الأخوان ؟ حرية ؟ لقد نلتم حريتكم ، ولكن حينما يكون الأمر متعلقاً بالحرب فإن عليكم أن تهرقوا دماءكم ثانية!

ـ إنه الاضطهاد القديم يعود بكل مافيه مرة أخرى!

ـ ترى لماذا تخلصنا من القيصر اذاً ؟

ـ الحال الآن كما كانت أيام القيصر تماماً!

ـ السروال القديم نفسه ، سوى أن الأزرار من الخلف .

ـ حق ما تقول .

ـ ترى كم سيطول هذا بنا ؟

ـ هذه هي السنة الثالثة وليس معنا سوى بنادقنا نضاجعها .

وفي أحد مفارق السكك الحديد تدفق القوزاق من العربات وكأنهم كانوا على اتفاق سابق ، وعقدوا اجتماعاً غير آبهين بوعود الآمر ووعيده . وبذل القومندان ومدير المحطة العجوز جهودهما الباطلة . وركضا ذهاباً وإياباً من بين الصفوف الرمادية المرصوصة من القوزاق وهما يتوسلان اليهم بالعودة إلى عرباتهم بغية اخلاء الخط . وأصغى القوزاق بانتباه كبير للكلمتين اللتين القاهما عريف ، والجندي مانجولوف القصير والمكتنز من القوزاق . وقد لاقى الأخير صعوبة في ايجاد متنفس لمشاعره الغضبى :

ـ أيها القوزاق! لا يمكن أن تجري الأمور على هذه الحال! لقد أفسدوا كل شيء من جديد! وهم يريدون أن يستغفلونا! فإذا كانت هناك ثورة ، وإذا كان الشعب كله قد أعطي حريته ، فعليهم أن يوقفوا الحرب ، لأن الشعب والقوزاق لا يريدون الحرب! فهل أنا على صواب ؟

ـ أنت على صواب!

ـ لقد سئمناها!

ـ لم تعد سراويلنا تثبت فوق أردافنا! كيف يمكننا المضي إلى الحرب ؟

ـ فلتسقط الحرب! ولنعد إلى ديارنا .

ـ افصلوا القاطرة! هيا ، يا أولاد!

وصاح مانجولوف باذلاً جهده ليعلو صوته فوق آلاف الحناجر :

ـ أيها القوزاق! انتظروا لحظة! أيها القوزاق! أيها الاخوة! أنتم أيها الشياطين! عليكم اللعنة!... تمهلوا! أيها الاخوة! اصطبروا ولا تمسوا القاطرة . لسنا في حاجة اليها وإنما هنا لأجل أن نضع حداً لهذه المهزلة . ليرينا صاحب السعادة آمر الكتيبة الكتاب ، لنرى فيما إذا كانوا حقاً يريدوننا في الجبهة ، أم أنها ليست سوى واحدة من حيلهم الصغيرة .

ولم يركب القوزاق العربات الا بعد أن تلا آمر الكتيبة الذي كانت شفتاه ترتعشان ، وكاد يفقد زمام نفسه ، بصوت عالٍ البرقية الواردة من قيادة الفرقة التي تأمر الكتيبة بالذهاب إلى الجبهة .

وكان ستة من تاتارسكي في عربة واحدة وهم من الكتيبة السابعة والعشرين : بيوتر ميليخوف ، ونيكولاي كوشيفوي « وهو عم ميشا » ، وأنيكوشكا ، وفيدوت بودو فسكوف ، وميركولوف« وهو قوزاقي يشبه الغجر ، ذو لحية مجعدة سوداء وعينين وهاجتين بلون البندق » ، ومكسيم غرييازنوف ، وهو قوزاقي مرح متحلل عرف قبل الحرب في مناطق الدون كسارق خيل لا يهاب أحداً .

وكانت ريح هوجاء تنفذ خلال العربة ، والخيل واقفة أمام معالف صنعت على عجل ، وعلى ظهورها المراشح ، وكانت ثمة حطبة رطبة ترسل دخاناً فوق تلة من التراب المتجمد في قاع العربة . ويجري الدخان الحريف باتجاه خصاص الباب .

والقوزاق جلسوا على سروجهم متحلقين حول النار ، يجففون لفافات أرجلهم . وكان بودفسكوف يدفىء قدميه العاريتين المعروقتين بالنار ، وقد شعت ابتسامة هانئة من زاوية وجهه الكالميكي الناتىء .

وكان غريازنوف يخيط نعل حذائه المفتوق حتى نهايته تقريباً بخيط مشمع . وبصوت جعله الدخان أجش قال دون أن يوجه كلامه إلى أحد :

عندما كنت صبياً كنت أتسلق فوق الموقد أيام الشتاء ، وكانت جدتي « عمرها أكثر من مائة عام في ذلك الحين » تفلّي رأسي بأصابعها بحثاً عن القمل ، وتقول لي : « يا صغيري مكسيم ، ياحبيبي! في سالف الأيام لم تكن حياة الناس مثلها اليوم ، كانوا يحيون حياة مرفهة حياة طبيعية ، ولم تكن لديهم هموم . ولكنك يا طفلي الصغير ستعيش لترى زماناً تغطي فيه الأسلاك كل الأرض . وتطير في الهواء طيور لها أنوف من حديد وتنقر الناس كما ينقر الغراب الأسحم البطيخة الحمراء .

وسيحل بالناس الجوع والطاعون وسيثور الأخ على أخيه ، والابن على أبيه وسيبقى من البشر ما يبقى من العشب بعد الحريق .

وتوقف غريازنوف لحظة ، ثم أردف : « حسناً ، لقد حصل كل ما حدثني به . فلقد اخترعوا التلغراف ، وتلك هي الأسلاك . والطيور الحديدية هي الطائرة . وسوف تحل مجاعة ، أجل . ولم يزرع أهلي سوى نصف أرضهم خلال هذه السنين ، وكذلك هي الحال في كل مكان . ولم يبق في القرى الا الشيوخ والصغار وإن أجدب الموسم مرة عمّت المجاعة »

وعقب بيوتر ميليخوف متسائلاً وهو يضع شيئاً من الحطب في النار :

ـ ولكن ثورة الأخ على أخيه... حكاية بعيدة نسبياً ، أليس كذلك ؟

ـــ انتظر قليلاً ، وسترى الناس يقبلون على ذلك أيضاً! وتدخل بودوفيسكوف قائلاً :

ـ وإذا لم يكن هناك من قائد ، فسوف تحل الفوضى ويحارب الأخ أخاه .

ـ ربما كان علينا أن نقضي عليهم ، أولئك الشياطين .

فقال كوشيفوي ضاحكاً :

ـ لنفرغ من الألمان أولاً .

ـ لا بأس . سنقاتل فترة أخرى .

وتغضن وجه أنيكوشكا الأمرد عن سيماء ينم عن رعب مصطنع ، وهتف :

ـ وإلى متى نبقى نحارب بحق قيصرتنا ذات الساقين المشعرتين ؟

وقال كوشيفوي يقلده :

ـ إلى أن تنمو لك لحية يا خصي .

وانفجر القوم ضاحكين ، واضطرب حال أنيكوشكا . ولكنّ غريازنوف انفجر من بينهم دون أن يتوقعه أحد :

ـ كلا ، حسبنا مانلناه! لقد نلنا كفايتنا! فهانحن هنا الآن في أسوأ حال ، والبؤس يلفنا ، والقمل يأكلنا ، وأهلونا في ديارهم يهلكون ، فلو جرحت أحدهم لما سالت منهم قطرة دم .

فتساءل بيوتر بلهجة لاذعة ، وهو يلوك عذاريه :

ـ ولماذا تجأر ؟

فأجاب ميركولوف نيابة عن غريازنوف مخفياً ابتسامته تحت لحيته المجعدة :

ـ هل لا تدري لماذا ؟ ألا تدري ماذا يحتاج القوزاقي ، وإلى مايتوق ؟... أنت تعرف القضية ، فقد يسوق الراعي القطيع أحياناً إلى المرعى ، وإذا كانت الشمس قد جففت الندى من العشب فالماشية على خير حال ، ولكن ما أن تتوسط الشمس السماء ، حتى يبدأ ذباب الدواب يطن ويعض . وتلك هي الحال هنا ، ـ والتفت ليواجه بيوتر ، وأردف وهو ينظر إلى القوزاق بعينيه الماكرتين ـ والآن ، أيها السيد رئيس العرفاء ، لقد بدأت الماشية تجأر وترفس . ولاشك أنك تعرف ذلك! لاحاجة بك إلى التكبر! لقد سقت الثيران بنفسك... أنت تعرف كيف يحصل ذلك . فإذ يرمي أحد العجول بذيله فوق ظهره ويروح يطارد ، لايلبث القطيع أن يجري في أثره ويهرع الراعي ليوقفه ، ولكنه يتدفق كالفيضان ، مثلما تدفقنا على الألمان طوفاناً قرب نيزفينسكايا . وحسبك أن تحاول إيقافهم عند حدهم! » .

ـ ومامعنى كل ذلك ؟

ولم يجب ميركولوف في الحال . إنما لف خصلة من لحيته حول اصبعه وجرها بشدة ، ثم قال بجد ودون أية ابتسامة :

ـ لقد مضى أكثر من عامين ونحن نحارب... ذلك صحيح ، أليس كذلك ؟ وها قد مضت ثلاث سنوات تقريباً مذ ساقونا إلى الخنادق ، لأي غرض ، لماذا ؟ لا أحد يعرف . وهذا هو ماحدا بي إلى القول أن أمثال غريازنوف أو ميليخوف سيهربون من الجبهة إن عاجلاً أو آجلاً ، ثم تتبعهم الكتيبة ، وبعد الكتيبة ، الجيش... لقد نلنا الكفاية .

ـ إذاً ذلك ما تريد أن تتوصل اليه!

ـ أجل ، ذلك! فما أنا بالأعمى ، إنني أرى أن كل شيء معلق بشعرة وما أن يهتف أحدهم «شوه!» حتى يتساقط كل شيء أوصالاً كما يتهاوى معطف متهرئ عن الكتفين .

فقال له بودفيسكوف :

ـ على مهلك . تذكر أن بيوتر رئيس عرفاء .

فانفجر بيوتر :

أنا لم أسبب أية متاعب لأي من رفاقي .

ـ حسناً ، لا تغضب . فأنا أمزح لاغير . فبدا على بودفيسكوف الحرج ، ولوى أصابع قدمه العارية العريضة ، ثم نهض ومضى صوب الخيل .

وكان جمع من القوزاق من القرى الأخرى يتكلمون بصوت خفيض في ركن من العربة حيث بالات الدريس المضغوط .

ثم انطلقوا يغنون في الحال وبدأ عليموف ، وهو قوزاقي من تشير ، بأغنية مرحة ، غير أن أحدهم قد صفعه على ظهره وجأر بصوت أجش :

ـ دعك عن هذا!

ودعاهم كوشيفوي إلى النار . وراحوا يطعمون اللهب بقطع من الخشب اقتطعت من سياج المحطة ، والتمع وهج أغنية في دفء النار :

إن جواد الحرب لينتظر ، وهو محمل للمعركة .
عند باب الكنيسة حيث يصلي سيده .
وغزيرة هي الدموع التي تذرفها الأم والحفيد
والزوجة الفتية الجميلة .
ولكن عندما يسير القوزاقي إلى الأمام
في عدته الحربية
تمسك زوجته بركاب السرج
ويمسك ابن أخته بالرمح...

ومن العربة المجاورة انفجر آكورديون متحشرج منشج عن رقصة قوزاقية . وراحت جزمات الجنود تدق على القاع الخشبي بلا رحمة ولعلع صوت أجش بهذه الكلمات :

ياللحياة الملأى بالهموم
فنير القيصيرية ثقيل لايطاق
يحز رقاب القوزاق الأخيار
فلا يستطيع أحد أن يجر نفساً من الهواء .
لقد خاطب بوغاتشوف* أهالي الدون :
« يامعشر الفقراء اتبعوني
هيا ، ياقوزاق ، يا أتمانات القوزاق... »

وضج صوت آخر بإزاء الأول بلعلعة عالية الدرجة :

خدمنا القيصر بكل إخلاص

* يميليان بوغاتشوف : كان قائدا للقوزاق والفلاحين ضد القيصر في حرب الفلاحين ١٧٧٢ ـ ١٧٧٥ . المترجمون

وهانحن نتوق إلى زوجاتنا في بيوتنا
ولم نعد نتوق إلى الصبايا
ولكننا وجدنا للقيصر...*

وتوقف القوزاق عن الغناء وراحوا ينصتون إلى الدوي الصخاب الذي أخذ يتصاعد من العربة المجاورة ويطرفون بعيونهم ويكشرون عن أسنانهم معجبين . ولم يستطع بيوتر ميليخوف السيطرة على نفسه فانفجر ضاحكاً :

ـ ياللشياطين!

والتمعت عينا ميركيلوف البنيتان المتألقتان بوميض أصفر ، ووثب على قدميه ، والتقط الإيقاع وطفق ينقر بسرعة بطرف جزمته ثم ضرب الأرض بقدمه على حين غرة ، وانهمك في رقصة سريعة وثابة ، يقعي ويشمر بساقيه ويدور حول نفسه . ومضى ، كل يقوم بدوره ، مشيعاً الدفء في بدنه بهذه الحركات . وكان صوت الأكورديون قد تلاشى منذ فترة طويلة في العربة المجاورة ، وانطلقت أصوات مبحوحة تتقاذف السباب المقذع . ولكن القوزاق استمروا في رقصهم الذي أرعب الخيل ، ولم يتوقفوا إلا عندما قام أنيكوشكا المنفعل المضطرب بقذفة مذهلة وقع بعدها على النار ، فرفعوه وهم يضحكون ، وعلى ضوء عقب شمعة أخذوا يفحصون سرواله الجديد الذي احترق كلياً من القفا ، وذيل سترته المبطنة المشعوطة .

ونصحه ميركولوف مشفقاً :

ـ اخلعه!

ـ هل أنت مخبول أيها الغجري ؟ ماذا سأرتدي ؟

وراح ميركولوف ينقب في خرج سرجه . فسحب قميص امرأة داخلياً طويلاً من الكتان . ثم أشعلوا النار ثانية . وأمسك ميركولوف بالقميص من

---

* حذفت في الاصل ، ولكن كلمة ـ بنايا ـ تكمل القافية وهو المقصود ـ المترجمون

حمالتيه الرفيعتين عند الكتف وقال وهو يغص بالضحك :

ـ أوه ، أوه! لقد سرقته من حبل غسيل في إحدى المحطات ، ظناً مني بأنه ينفع لفافاً للرجلين . ولكنني لم أشأ أن أمزقه . بوسعك أن تأخذه!

واضطر أنيكوشكا إلى ارتداء القميص وهو يسب ويلعن ، فتعالت لقهقهات صخابة بشكل جعل الرؤوس تتراءى من أبواب الشاحنات الأخرى وصيحات الغبطة تهتف في الظلام :

ـ ماذا لديكم أيها الحصن ؟

ـ علام جئيركم ؟

ـ لماذا تقهقهون ؟

ـ هل وجدتم شيئاً ظريفاً ، أيها الأغبياء ؟

وفي المحطة التالية استدعوا لاعب الأكورديون ، وهرع القوزاق من لشاحنات الأخرى ، وقد حطموا المعالف ودفعوا الخيل إلى الجدار . وراح أنيكوشكا يرقص بقميصه الأبيض ، الذي لابد وأنه كان يعود إلى امرأة كبيرة الجرم لأنه كان طويلاً جداً عليه ، ويدور في حلقة صغيرة حتى سقط من الإعياء وصيحات وقهقهات القوزاق تؤجج انفعاله .

ولكن النجوم فوق بيلوروسيا المضرجة بالدماء كانت تنتحب حزينة . والظلام القاتم قد انتشر بسرعة في رحاب الليلة المتثائبة . هبت الريح خفيفة فوق الأرض ، مشبعة برائحة الأوراق المتساقطة المرة ، وبالطين الندي ، وثلوج آذار .

٩

وفي غضون أربع وعشرين ساعة أصبحت الكتيبة مرة أخرى قريبة من الجبهة . وتوقف قطار النقل عند مفرق للسكك الحديد . وأصدر رؤساء العرفاء الأوامر بالنزول من القطار . واقتيدت الخيل بسرعة عبر ألواح خشبية إلى

الأرض وأسرجت ، وانهمك القوزاق يروحون ويغدون باحثين عن حوائجهم المنسية ، وألقيت حزم متآكلة من القش فوق الرمل الندي .

ونادى مراسل من قيادة الكتيبة بيوتر ميليخوف وهو ماض في طريقه :

ـ يريدك الآمر في المحطة .

فأصلح بيوتر من وضع السير على معطفه ومضى متمهلاً شطر المحطة وقال لأنيكوشكا الذي كان يتمشى قرب الخيل :

ـ اعتني بحصاني يا أنيكوشكا .

وتبعه أنيكوشكا ببصره وهو صامت ، وقد بدا عليه القلق ممتزجاً بأمارات السأم الاعتيادية التي ترتسم على وجهه العابس .

وبينما كان بيوتر يمضي في طريقه وينظر إلى جزمته الملطخة بالوحل ويتساءل لماذا أرسل في طلبه آمر الكتيبة ، لفت نظره رهط صغير تجمع في نهاية المحطة عند صهريج الماء الدافئ . واتجه شطرهم وأخذ يصغي إلى حديثهم . كان حوالي عشرين جندياً محيطين بقوزاقي طويل ذي شعر أحمر في وقفة مرتبكة مرتعبة وقد أعطى ظهره للصهريج . وحملق بيوتر في وجهه الملتحي ، وفي الرقم ٥٢ على شريطي العريف الأزرقين وتأكد له أنه سبق أن رأى الرجل في مكان ما .

وانبرى أحد جنود المشاة المتطوعين وهو ذو وجه ذكي أنمش ، يسأله بخبث :

ـ كيف دبرتها مع أنك عريف أيضاً ؟

فتساءل بيوتر بفضول وقد أمسك بكتف رجل يقف أمامه :

ـ ماالأمر ؟

فالتفت الجندي نحوه وأجاب بغير اهتمام :

ـ لقد أمسكوا بهارب من الخدمة... واحد من جماعتك القوزاق .

وحاول بيوتر أن يتذكرأين رأى القوزاقي الأصهب الحاجبين والشاربين . ولم يجب الأسير على أسئلة المتطوع الملحاحة ، بل ظل يجرع ماء دافئاً من

كوز نحاسي صنع من غلاف قنبلة مدفع ، ويمضع خبز جودار يابساً مبللاً بالماء . كانت عيناه الواسعتان الجاحظتان تضيقان عندما يمضغ ويزدرد اللقمة ، ويرتعش حاجباه كلما نظر حواليه . وقف إلى جانبه جندي كهل بدين يحرسه ببندقية مشرعة الحربة . وانتهى القوزاقي من شرابه ، وألقى بنظره المتعب على الجنود الذين يتفحصونه بلا تكلف . وعلى حين غفلة تصلبت عيناه الطفوليتان الزرقاوان ، وبلع ريقه بسرعة ولحس شفتيه وصرخ بصوت نافر عميق أجش :

ـ هل أنا حيوان ؟ الا تدعون رجلاً يأكل ، أيها الخنازير ؟ اللعنة عليكم ، لم تروا رجلاً من قبل ؟

فانفجر الجنود في هدير من الضحك ، بيد أنه ما أن سمع بيوتر الكلمات الأولى ، كما يحدث غالباً ، حتى تذكر اسم الرجل ، وكيف اشترى هو وأبوه منه ثوراً عمره ثلاث سنوات في معرض يلانسكايا السنوى قبل الحرب . وهتف وهو يشق طريقه بين الجمع :

ـ فومين! ياكوف!

فوضع الرجل الكوز على الصهريج بحركة بلهاء مرتبكة ، وحدج بيوتر بعينين مرتبكتين باسمتين ، وأجاب وهو يمضغ :

ـ أنا لا أعرفك يا أخ .

ـ أنت من روبيبيجين ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، وأنت من يلانسكايا ، هه ؟

ـ كلا ، من فييشنسكايا . ولكني أعرفك جيداً . لقد بعت لي ولأبي ثوراً في السوق قبل خمس سنوات .

وحاول فومين الذي لم تزايله بسمته الطفولية المرتبكة أن يتذكر . ولكنه قال بأسف ظاهر :

ـ كلا ، لقد نسيت ذلك . لا أستطيع أن أتذكرك .

ـ كنت في الكتيبة الثانية والخمسين ؟

ـ نعم .

ـ هل هربت ؟ كيف استطعت ، أيها الأخ ؟

وخلع فومين قبعته الفرو ، وراح يبحث في كيس مهترئ . ثم انحنى ووضع قبعته ببطء تحت إبطه ، وقصّ ورقة من إحدى زواياها ، وبعد ذلك حدج بيوتر بنظرة صارمة تتألق بلزوجة .وقال بفظاظة :

ـ لم أعد أطيق المزيد ، يا أخي .

وتنحنح بيوتر وقد وخزته نظرة الرجل وجعل يعض عذاريه الأصفرين . وتنهد الحارس ورفع بندقيته وقال :

ـ حسناً ، انته من كلامك وإلا فستصيبني المتاعب بسببك . تعال أيها العم .

ودفع فومين الكوز في الحال في خرجه ، وودع بيوتر بنظرة من عينين مشيحتين ومضى يخط أرجله مثل الدب برفقة حارسه صوب دائرة قومندان المحطة .

ووجد بيوتر آمر الكتيبة مع آمر السريتين منكبين فوق طاولة كانت يوماً ما مقصفاً من الدرجة الأولى . فقطب العقيد عينين مغضبتين تعبتين وقال :

ـ لقد تركتنا ننتظر يا ميليخوف .

ثم اصغى بيوتر إلى التعليمات التي تقضي بأن تكون سريته تحت تصرف هيئة أركان الفرقة ، وأن من الضروري جداً أن يراقب القوزاق جيداً ، ويخبر آمر السرية بأي تبدل ملحوظ يطرأ على موقفهم . فحدج بيوتر في وجه العقيد دون أن يطرف له جفن وأصغى بانتباه ، بيد أن عيني فومين المتألقتين اللزجتين ، وعبارته الهادئة «لم أعد أطيق المزيد ، يا أخي» لم تبرح ذاكرته .

وغادر صالة المحطة الدافئة وعاد إلى سريته ، كانت عربات الفوج من الدرجة الثانية واقفة هنا ، في المحطة . حينما تقدم من شاحنته شاهد رهطاً من القوزاق متجمعين حول حداد السرية . فنسي في الحال فومين ومحادثته ،

وحث خطاه آملاً أن يحدث الحداد ليصنع نعلاً جديداً لحصانه ، ومثلت أمام ناظريه المتاعب والهموم اليومية الصغيرة . ولكنها سرعان ما تلاشت . فقد قدمت امرأة من خلف الشاحنة ترتدي شالاً أبيض من وبر المعز وكان لباسها يختلف عن لباس النساء الأخريات في هذه المنطقة . فلفتت هيئتها الغريبة نظر بيوتر وكأنها مألوفة عنده . والتفتت المرأة بوجهها في الحال نحوه ، وحثت خطاها باتجاهه ، كانت ثمة حركة مترنحة خفيفة في كتفيها وجسدها الأهيف اليافع . وبالرغم من أنها لم تكن قريبة بحيث يسهل تمييز تقاطيعها ، فقد عرف بيوتر أنها زوجته من مشيتها التي تتميز بحركة الردفين الخفيفة . فأحس بدغدغة مريحة تنفذ إلى قلبه . كان فرحه عظيماً لأنه غير متوقع . ومضى ليقابلها متعمداً التمهل في خطواته كي لا يخاله الآخرون مسروراً على نحو كبير بهذه المناسبة . وعانق داريا بوقار ، وقبلها القبلات الثلاث التقليدية ، وأراد أن يسألهاعن شيء ما . ولكن اضطرابه الداخلي العميق طفح إلى الخارج ، فارتعشت شفتاه ، وافتقد صوته . على أنه شرق أخيراً :

ـ لم أكن أتوقعك...

وصفقت داريا بيديها وقالت :

ـ يا عزيزي! كم تبدلت! تكاد تبدو غريباً! لقد جئت لزيارتك ، كما ترى . لم يكن الأهل ليسمحوا لي بالمجيء .

ولكني قلت لا بد لي من الذهاب لأرى حبيبي .

نطقت بهذه الكلمات متهدجة ، والتصقت بزوجها وأخذت تتملاه بعينين نديتين ، وراحت ثلة القوزاق المتحلقة حول الشاحنات تحملق فيهما ، وتجأر وتغمز :

ـ هاقد تمت سعادة بيوتر!

ـ ذئبتي العجوز لن تأتي لزيارتي!

ـ لابد أنها قد حظيت بعشرة رجال في غيابك .

ـ لعله يشفق بنا ، نحن المساكين ، ويعير زوجته إلى السرية ذات ليلة .

ـ هيا بنا يا فتيتي ، فلست أتحمل النظر اليهما!

ونسي بيوتر في تلك اللحظة أنه عقد العزم على معاقبة زوجته بلا رحمة ، فراح يداعبها أمام الناس وخبط قوسي حاجبيها من شدة فرحه باصبعه الضخم الملطخ بآثار التبغ ، ونسيت داريا هي الأخرى أنها قبل ليلتين فقط نامت في شاحنة مع جراح بيطري من الفرسان كان في طريقه من خاركوف ليلحق بكتيبته .

لقد كان لدى الجراح شاربان أسودان كثان بشكل عجيب .

ولكن ذلك كان قبل ليلتين ، أما الآن فقد عانقت زوجها بدموع الفرح الخالص وهي تنظر اليه بعينين صافيتين وفيتين .

١٠

عندما عاد يفغيني لستنسكي من اجازته لم يتصل بكتيبته القديمة التي اضطر إلى الهرب منها بصورة غير مشرفة قبل ثورة شباط ، ولكنه ذهب مباشرة إلى قيادة الفرقة . فدبّر رئيس الأركان ، وهو جنرال شاب من نبلاء قوزاق الدون المعروفين ، عن طيب خاطر ، نقله إلى كتيبة قوزاق الدون الرابعة عشرة .

وأخبر لستنسكي بعد أن أخذه إلى غرفة خاصة :

ـ أنا أدري أنك ستجد صعوبة في العمل في محيطك السابق أيها الرئيس . فالقوزاق يضمرون لك العداء ، واسمك مقيت عندهم ، فمن الحكمة والحالة هذه أن تلتحق بالكتيبة الرابعة عشرة ، أن الضباط هناك إناس طيبون جداً ، كما أن القوزاق هناك ممن يعتمد عليهم ، فهم أكثر استكانة . ومعظمهم من القصبات الجنوبية ، ستجد الحال أخف وطأة . أو لست ابن الجنرال لستنسكي ؟

وتوقف رئيس هيئة الأركان ثم استأنف كلامه بعد أن رد لستنسكي بالايجاب .

ـ أما من جهتي ، فأستطيع أن أقول لك أننا نعتز بالضباط من أمثالك . فالنفاق منتشر حتى بين صفوف الضباط هذه الأيام . واختتم رئيس هيئة الأركان حديثه بمرارة : ـ وليس هناك أسهل من أن يغير المرء عقيدته ، أو حتى أن يخدم عقيدتين في وقت معاً .

وسر لستنسكي بالنقل ، وسافر في اليوم نفسه إلى دفينسك حيث معسكر الكتيبة الرابعة عشر ، وقدم نفسه لآمر الكتيبة بيقادوروف ، وسرته صحة كلمات رئيس الأركان : فأكثرية الضباط ملكيين ، أما القوزاق ، وجلهم من المؤمنين القدامى ، فلم تكن لديهم نزعات ثورية . لقد أقسموا يمين الولاء للحكومة المؤقتة على مضض كبير منهم ، دون أن يفهموا أو يرغبوا في فهم الحوادث الملتهبة التي تمور من حولهم . وانتخب المداهنون والمسالمون من القوزاق إلى لجان الكتائب والسرايا . فتنفس لستنسكي الصعداء لوضعه الجديد .

ولم يصادف سوى ضابطين كانا يعملان معه سابقاً في كتيبة الحرس وقد أبقيا نفسيهما بمعزل عن الحوادث ، أما الباقون فقد كانوا متحدين متجانسين على نحو خارق ، ويتكلمون جهاراً حول اعادة الملكية .

وكانت الكتيبة قد عسكرت في دفينسك نحو شهرين ، وغدت وحدة عسكرية متراصة الصفوف ، حسنة التدريب ، قد نالت قسطها من الراحة . وكانت السرايا في السابق قد ألحقت بفرق المشاة وجابت مناطق الجبهة من ريغا حتى دفينسك ، بيد أن يداً حريصة جمعتها سوية في نيسان ، وباتت الكتيبة الآن على أهبة الاستعداد لكل طارئ . وتحت رقابة الضباط الدقيقة ، كان القوزاق يمضون أيامهم بالتدريب ، ويطعمون جيادهم جيداً ، ويحيون حياة بليدة زاهدة ، بعيدة عن كل المؤثرات الخارجية . ولم تتردد بينهم سوى بضع شائعات غامضة عن الهدف الحقيقي لكتيبتهم ، أما الضباط فقد كانوا

يتكلمون جهاراً عن نواياهم ، تقودهم أيد تقاة ، نحو إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء في مستقبل ليس ببعيد .

وكانت الجبهة على مقربة منهم ، وعلى مبعدة قريبة شطر الغرب كانت الجيوش تلهث في حمى مميتة ، حيث كان ثمة نقص في المؤن والعتاد . وكانت أيد لاتحصى ترتفع مطالبة بكلمة « السلام » السحرية ، وكان موقف الجيش مبهماً تجاه رئيس حكومة الجمهورية المؤقتة كيرنسكي ، وقد تكبد خسائر فادحة في هجوم حزيران نتيجة لنداءات كيرنسكي الهستيرية الملحاحة .

وماجت صفوف الجيش بغضب بلغ أشده وراح يفور كالماء المتدفق في النبع.. أما في دفينسك فقد كان القوزاق يعيشون بسلام وهدوء ، وقد أتى النسيان على المآسي التي تجرعوها في جبهة القتال . وأما الضباط فقد كانوا يعقدون اجتماعاتهم باستمرار ويحيون حياة رافهة ، ويتحدثون عن مستقبل روسيا بحماس .

هكذا كان الحال حتى أوائل تموز . وفي اليوم الثالث منه صدر أمر بالتقدم دون التفريط بأية لحظة . فتحركت الكتيبة نحو بتروغراد . وفي اليوم السابع كانت حوافر خيل القوزاق تقعقع فوق شوارع العاصمة المرصوفة .

وأقامت الكتيبة بمنازل في حي نيفسكي ، وقد خصصت لسرية لستنسكي عمارة تجارية شاغرة . وكان مدبرو ثورة الردة ينتظرون القوزاق بلهفة ونفاد صبر ، وكانت عناية سلطات المدينة بتنظيم المساكن المعدة لهم شاهداً بليغاً على ذلك . كانت الجدران تلمع بالدهان الحديث ، وتسطع الأرضية النظيفة ، وتنبعث رائحة خشب الصنوبر من الأسرة الجديدة ، وكان المقام في الطابق السفلي الوضيء مريحاً إلى حد ما . وتفحص لستنسكي المساكن بعناية والتقطيبة بادية عليه من تحت نظارتيه وانتهى إلى أنه ليس بالوسع الحصول على مكان أفضل منه . وإذ أحس بالارتياح لما رأى ، استدار نحو الباب المؤدي الى الباحة برفقة ممثل الادارة المحلية القصير الحسن

الهندام الذي أنيطت به مهمة استقبال القوزاق .

ولكن حادثاً مزعجاً قد حصل هنا . فبينما كان يمسك أكرة الباب ، رأى صورة ، محفورة على الجدار بآلة حادة ، لرأس كلب ومكنسة* . ولا شك أن بعض العمال الذين أصلحوا العمارة يعرفون دلالة هذه الصورة . فتساءل لستنسكي مقطباً حاجبه :

ـ ماهذا ؟

فشهق ممثل الادارة المحلية عندما نظر إلى الرسم بعينيه الحادتين الشبيهتين بعيني الفأر . وهجم الدم إلى رأسه حتى لاحت ياقة قميصه الصلبة وردية .

ـ أستميحك العذر أيها الرئيس ، أن يدا أثيمة...

ـ أرجو أن يكون هذا الشعار قد رسم دون علمك .

ـ طبعاً ، وإلا فماذا تعتقد ؟ وهل يمكن أن يكون إلا ذلك ؟ إنها دسيسة بلشفية ، دبّرها أحد السفلة . وسوف آمر في الحال بطلاء الجدار ثانية . ياللشيطان! لشد مايؤسفني أن يحدث هذا الشيء ، صدقني ، إنني أشعر بالخجل حينما أرى الناس يصلون الى هذه الدرجة من الدناءة .

وانتاب لستنسكي شعور صادق بالأسف لهذا المواطن القلق خائر النفس . وقال بهدوء بعد أن خفف من نظرته الباردة القاسية :

ـ إن الفنان الذي رسم هذه الصورة لم يصب الهدف . ذلك أن القوزاق لايعرفون تاريخ روسيا بشكل كاف ، ولكن هذا لا يعني أننا ينبغي أن نشجع مثل هذا الموقف منا...

وحاول الممثل أن يكشط الصورة بأظفره المصقول ، فانتشر الغبار الأبيض عندما اشرأب مستوياً على أصابع قدميه ليبلغ الصورة ، فتلطخ معطفه الانكليزي

---

* كانت صورة الكلب والمكنسة تلصق بسروج أوبريشنيكي قائد قوات ايفان الرهيب المسلحة السيئة الصيت التي عرفت بوحشيتها ، كرمز يفيد أن هذه القوات ستنشب أنيابها في أعداء القيصر وتكنسهم . المترجمون

الفاخر . وكان لستنسكي يلمع نظارتيه ويبتسم ، ولكن شعوراً مريراً كان يتآكله في الداخل .

«هكذا إذاً يستقبلوننا ، ذلك هو الوجه الآخر من المدالية . ولكن هل تنظر الينا روسيا بأجمعها نظرتها إلى أوبريشنيكي ؟» .

قال ذلك في دخيلته فيما كان يعبر الباحة شطر الاسطبل ، ويصغي دونما التفات إلى ثرثرة ممثل الادارة المحلية ، الذي كان يتبعه في عجلة .

كانت أشعة الشمس تسقط مائلة على بئر الباحة العريضة العميقة . واشرأب الناس في نوافذهم يراقبون جمع القوزاق في الأسفل . وتجمع القوزاق وهم يقفون أو يجلسون القرفصاء في فيء الجدران بعد أن قادوا جيادهم إلى الاسطبل .

وسألهم لستنسكي :

ـ لِمَ لاتذهبون إلى أماكنكم ياأولاد ؟

ـ لم يزل الوقت مبكراً لذلك ، أيها الرئيس .

ـ سرعان ماسنشبع منها .

ـ سنذهب عندما نسوق الخيل إلى الاسطبل .

وبعد أن فتش لستنسكي المستودع المخصص للاسطبل ، استدار نحو ممثل الادارة المحلية وقال بلهجة صارمة محاولاً استعادة خصومته السابقة معه :

ـ توصل إلى اتفاق مع المسؤولين عن مثل هذه الأمور وتدبر الأمر . فاننا بحاجة إلى باب آخر لهذا الاسطبل . إن ثلاثة أبواب لمئة وعشرين حصاناً ليست كافية . فإذا ما تلقينا إنذاراً فسوف يستغرق منا نصف ساعة لإخراج الجياد . ولاأدري كيف أن هذا لم يؤخذ بالحسبان من قبل . لابد أن أخبر آمر الكتيبة بذلك .

وبعد أن تلقى لستنسكي تأكيداً بأن بابين وليس باباً واحداً سوف يقامان حالاً ، شكر الممثل باقتضاب على ماتحمل من مشقة ، وعين

مراسلين ، وارتقى السلم إلى الغرفات المعدة وقتياً لضباط فرقة المشاة .

ثم ارتقى السلم الخلفي ، وهو يفك أزرار بزته ويمسح العرق من تحت مقدمة قبعته ، وقد سره ماشعر به من رطوبة الغرفة المريحة . ولم يكن في مأوى الضباط خلا الرئيس أتارشجيكوف . فسأله لستنسكي :

ـ أين الآخرون ؟

ورمى بنفسه على فراش عسكري ومد ساقيه بكلال دون أن ينزع جزمته المتربة .

ـ لقد ذهبوا ليشاهدوا بتروغراد .

ـ ولم لم تذهب أنت ؟

ـ أوه ، لست أعتقد أن مشاهدة المدينة حال الوصول أمر يستحق العناء ، كنت أقرأ عما حدث هنا قبل بضعة أيام . أنه لأمر ماتع!

واستلقى لستنسكي صامتاً لايرين ، وقد أحس برطوبة العرق الباردة تدغدغ جلده اذ هي تأخذ بالبرود . لقد هدت الرحلة من قواه ، ولم يجد في نفسه الرغبة لينهض ويستحم .

ولكنه نهض أخيراً مقاوماً كسله ، ونادى مراسله . فخلع ثيابه واستحم استحماماً كاملاً ، وهو يزنخر جذلاً ، ويمسح رقبته اللحمية التي لفحتها الشمس ، بمنشفة وبرية .

وقال ناصحاً أتارشجيكوف :

ـ اغتسل يافانيا ، فالاستحمام يأتي بالمعجزات... حسناً ، ماذا في الصحف ؟

ـ أجل ، ربما اغتسلت . لابأس به ، كما تقول ؟

ماذا في الصحف ؟ وصف لتظاهرات البلاشفة ، واجراءات الحكومة ، اقرأها!

كان الاستحمام قد انعش لستنتسكي ، وعندما هم بتناول الصحيفة دعي لمقابلة آمر الكتيبة . فنهض من سريره دونما حماس وارتدى قمصلة نظيفة

انّما مدعوكة ، وتمنطق بسيفه وخرج إلى شارع نيفسكي .

اجتاز الشارع ، واستدار الى الوراء لينظر الى العمارة التي تقيم فيها السرية . لم يكن منظرها من الخارج ليختلف عن الأخريات ، فهي عمارة من خمس طبقات واجهتها من حجر خشن رمادي اللون ، تقع بين صف من العمارات الأخرى المماثلة . وسار في الشارع وهو يشعل لفافة . كان ثمة زحام شديد يطفح بقبعات رجالية من القش ، قبعات أخرى من شتى الأصناف ، وقبعات نسائية بسيطة ولكنها أنيقة . وبين آونة وأخرى تظهر القبعة الديمقراطية الخضراء لواحد من العسكريين غارقة في طوفان الألوان .

وكان النسيم المنعش العليل يهب من البحر ، فتصدّه العمارات فينتشر أنفاساً واهنة والغيوم تمخر إلى الجنوب في السماء البنفسجية الحائلة إلى زرقة بلون الفولاذ ، وقد كانت كتلها الحليبية البيضاء مسننة الأطراف حادتها . وكان ثمة احتباس هواء يخيم على المدينة حاملاً تباشير الغيث . وقد خالط الهواء رائحة الاسفلت الدافئ ، ودخان البترول ، والبحر القريب ، وشميم العطور الخفيف ، وكل ما تعبق به المدن الكبرى من روائح .

ولاحظ لستنتسكي وهو يمشي وئيداً في الشارع ويدخن ، نظرات الاحترام التي يطالعه بها السابلة . وكان في بادئ الأمر قد أحس بالحرج بسبب قمصلته المدعوكة وقبعته المتسخة ، ولكنه أيقن أن رجلاً قادماً من الجبهة لا ينبغي أن يشعر بالخجل من مظهره ، ولا سيما إذا كان قد بارح القطار لتوه .

وعكست مظلات الحوانيت والمقاهي على الرصيف ظلالاً زيتونية صفراء متثائبة . وكانت الريح تنفخ المظلات الحائلة اللون وتعبث بها ، فتتراقص الظلال وتزوغ من أرجل السابلة .

وقد كان شارع نيفسكي مزدحماً بالناس رغم أن الوقت كان ظهراً . ولكن لستنتسكي ، وقد غدا خلال الحرب لا يألف المدن ، راح يعب بسرور وارتياح ضجيج الأصوات يخالطها الضحك وأبواق السيارات ، ونداءات باعة

لصحف . وإذ ألف هذا الزحام من الناس المتنعمين ، حسني الهندام وهو يشعر بأنه أحد منهم ، لم يسعه إلا أن يقول في ذات نفسه :« كم أنتم هانئون ، كم أنتم سعداء مرحون الآن! كلكم : يامعشر التجار والصيارفة ، والموظفين ،والملاكين ، وذوي الدم الأزرق!

ولكن كيف كان شعوركم قبل ثلاثة أيام فقط ، عندما تدفق الغوغاء والجند في تيار منصهر في هذا الشارع بالذات ؟ انني والحق يقال سعيد بكم ، وغير سعيد . ولست أعرف كيف أبتهج لرفاهكم... »

وجرب أن يحلل مشاعره المختلطة ، ويوجد سبباً لذلك ، فلم يصعب عليه أن يدرك أنه كان يفكر ويشعر بمثل هذا لأن القتال وكل ما مر به قد نأى به عن مثل هذا الحشد من الرجال والنساء الناعمين براحة البال .

وتساءل مع نفسه عندما التقت عيناه بعيني شاب متورد الخدين ممتلئ الجسم :« مابال هذا مثلاً ؟ لمَ لا يكون في الجبهة ؟ أحسب أنه ابن لصاحب معمل أو تاجر ميسور الحال ، فتخلص من الخدمة العسكرية ، يا للسافل! أتراه يقوم بواجبه على الجبهة الداخلية ؟ ماذا يهمه من الوطن مادام « يعمل في المؤخرة » ويعيش من خيرات الأرض ، ويحب أن يحظى بنسائه في راحة بال . »

ثم تساءل : « ولكنك في أي جانب على كل حال ؟ » وأجاب باسماً : « لماذا ، أنا بالطبع مع هؤلاء ، فثمة شيء مني فيهم وأنا نفسي واحد منهم . وكل ماهو حسن وسيء في طبقتي يوجد إلى هذا الحد أو ذاك فيّ ، وربما كان جسمي أكثر نحافة بقليل من ذلك الخنزير اللحيم ، وربما كنت أعي الأمور بدقة أكثر منه ، وهذا هو سر إخلاصي وذهابي إلى الجبهة بدلاً من « العمل في المؤخرة » . وربما لهذا السبب رميت بنفسي على الثلج في هذا الشتاء في موغيليف وبكيت مثل الأطفال عندما رأيت الامبراطور المخلوع يترك مقر القيادة ، عندما رأيت شفتيه الباهتتين وقد ألقى بيده العاجزة بشكل لا يوصف على طية معطفة... أنا صادق في عدم تقبّلي

للثورة . أنا لا أستطيع تقبّلها . إن قلبي وعقلي يرفضانها . وسوف أكرس حياتي للماضي ،

سأكرسها دونما تلكؤ ، أو بعبارة أخرى كالجندي... ولكن هل يوجد الكثير ممن يفعلون الشيء ذاته ؟ » .

واعتراه الشحوب عندما تذكر بجلاء مثير ذات أصيل ساطع متأخر في شباط ، بيت الحاكم في موغيليف ، وأحد سياجات الحديد المزركشة بالصقيع ، والأرض المكسوة بالثلج ، ووهج أشعة الشمس الوردية ، عندما كانت تغيب وراء غلالة من الضباب... وفي الجانب الآخر من الدنيبر كانت السماء لازوردية ، قرمزية ، ذهبية متألقة... وكان كل شيء في الأفق أثيرياً لدرجة تبعث الألم في نفوس الناظرين ، وكان قد تجمع قرب البوابة حشد صغير من مقر القيادة العامة والمدنيين وظهرت سيارة ليموزين وكان بالوسع أن يرى ، خلال النافذة ، البارون فريدريك والقيصر متكئ في مقعده إلى الخلف ، كان وجه القيصر رمادياً تخالطه ظلال بنفسجية ، وقد ارتدى القبعة السوداء المصنوعة من فراء الضأن التي يستعملها الحرس القوزاق ، وقد انداحت فوق جبهته الشاحبة .

كاد لستنسكي أن يجتاز الحشد الذي كان يرسل نظرات الدهشة وراءه ، ولكنه رأى يد القيصر تخفض من طرف قبعته السوداء عندما رد على التحية ، وسمع ثرثرة السيارة ، ولاحظ الصمت المهيمن الذي ودع الحشد به امبراطورهم الأخير .

وارتقى ببطء سلم البيت الذي تقطنه هيئة أركان الكتيبة .

كانت وجنتاه ماتزالان ترتعشان وعيناه حمراوين منتفختين مغرورقتين بالدموع . ودخّن في صالة الطابق الثاني لفافتين على التوالي ، ثم مسح نظارتيه ، وارتقى السلم شطر الطابق الثالث حيث تقيم القيادة ، قافزاً درجتين في آن واحد .

نشر آمر اللواء خريطة بتروغراد أمامه ، وأشار إلى منطقة الدوائر

حكومية التي ينبغي لفصيل لستنسكي أن يحرسها .

وشخصت العمارات واحدة واحدة ، وأخبره بأدق التفاصيل حول تنظيم وقت وتوزيع الأدوار على الحرس . وختم كلامه قائلاً :

ـ في قصر الشتاء ، كيرنسكي...

فدمدم لستنسكي بعنف وقد بدا عليه شحوب موات :

ـ ولا كلمة عن كيرنسكي!

ـ يجب أن تسيطر على نفسك يا يفغيني لستنسكي .

ـ أرجوك أيها العقيد...

ـ ولكن ياعزيزي...

ـ أرجوك!

ـ أعصابك...

وسأله لستنسكي وهو يجر أنفاسه بمشقة :

ـ هل علي أن أرسل دوريتنا باتجاه مصانع بوتيلوف في الحال ؟

وعضّ العقيد على شفتيه ، وابتسم ، وهز كتفيه مجيباً :

ـ في الحال! ويجب أن يقودهم آمر الرعيل .

فاستدار لستنسكي وخرج ، وقد سحقته ذكرى كل ما جابهه ، وحديثه مع العقيد . ورأى في الخارج عند الباب الرئيسي تماماً دورية من كتيبة قوزاق الدون الرابعة ، وقد تدلت من شكيمة جواد الضابط أزهار ذابلة يابسة ، وافتر ثغر الرجل ذي الشاربين الكتانيين عما يشبه الابتسامة .

وهتف سيد كهل منفعل وهو ينزل من الرصيف ويرفع قبعته :

مرحى لمنقذي وطننا!

فحياه الضابط مجاملة ، وخبّت الدورية ماضية في طريقها . ونظر لستنسكي إلى وجه المدني المتحمس ، الرطب الشفتين الذي حيا القوزاق وإلى ربطته الزاهية المشدودة بعناية ، وقطب جبينه ، ومضى مسترخي الكتفين شطر الممر المؤدي إلى مسكن سريته .

١١

لقي تعيين الجنرال كورنيلوف قائداً للقوات المسلحة لجبهة الجنوب الغربي تأييداً حاراً من لدن ضباط كتيبة القوزاق الرابعة عشرة ، وطفقوا يتحدثون عنه بإكبار واحترام كرجل حديدي الطبع . وقادر بلاشك على انقاذ البلاد من الفوضى التي أغرقتها فيها الحكومة المؤقتة .

وكان لستنسكي قد رحب بهذا التعيين بصورة خاصة . وعن طريق ضباط السرية الذين كانوا دونه بالرتبة ، والقوزاق الذين يركن اليهم حاول أن يتبين وقع هذا التعيين في نفوس المراتب الدنيا ، ولكن ماحصل عليه من معلومات لم يدخل إلى نفسه سروراً كثيراً . ذلك أن القوزاق كانوا بين صامت أو مجيب بفتور :

ـ لا تعني شيئاً بالنسبة لنا .

ـ من يدري من أي شاكلة هو ؟

ـ إذا حاول تحقيق السلام ، فلاشك أنه...

ـ لن نحصل على أي شيء من ترقيته هذه .

وخلال بضعة أيام دارت شائعات عنود بين الضباط الذين كانوا يخالطون أوساطاً أوسع من السكان المدنيين والعسكريين الذين يتوقف عليها مصير الجيش وضمان استمرار الحرب ، وقيل أن كيرنسكي كان يخشى كورنيلوف ، وربما حاول استبداله بجنرال أكثر طاعة وذكرت أسماء الجنرالات المشهورة في الأوساط العسكرية .

ومن ثم فإن مرسوم الحكومة في ١٩ تمور القاضي بتعيين كورنيلوف قائداً أعلى ، جاء مفاجأة كبيرة . وبعد هذا مباشرة أخبرهم الرئيس أتارشجيكوف وهو ذو معارف كثيرين في اللجنة العليا لتحالف الضباط مستشهداً بمصادر موثوق بها ، بأن كورنيلوف أصر في تقريره للحكومة المؤقتة على اتخاذ الإجراءات الضرورية التالية :

تأسيس محاكم عسكرية في جميع أنحاء البلاد ، تشمل صلاحياتها القوات المسلحة في المؤخرة والسكان المدنيين ، مع صلاحيات اصدار عقوبة الاعدام ، وإعادة صلاحيات الضباط إلى كبار الضباط ، والحد من فعاليات لجان الجنود ، وغير ذلك ، وفي مساء اليوم ذاته ، ناقش لستنسكي ضباط الكتيبة الآخرين وطرح عليهم هذا السؤال بصورة مباشرة وحادة : إلى أي جانب هم ؟

وقال وهو يكبح انفعاله :

ـ أيها السادة! نحن نعيش كعائلة واحدة ، ويعرف بعضنا البعض جيداً ، ومع هذا فما يزال هناك عدد من المسائل الهامة لم يبت فيها بعد . والآن وقد بات الصدام المكشوف بين القيادة العليا والحكومة وشيكا ، يجب أن نحسم مسألة أي من الجانبين نقف معه ، فلنتكلم كرفاق.لانخفي شيئاً عن بعضنا .

كان أول من أجاب على دعوته الرئيس أتارشجيكوف :

ـ أنا مستعد لإراقة دمي ودماء الآخرين أيضاً من أجل الجنرال كورنيلوف . فهو رجل في منتهى الاخلاص ، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يجعل روسيا تقف على قدميها . انظروا إلى مافعله حتى الآن بالجيش ، فبفضله أطلقت أيدي القواد إلى حد ما ، بينما كان وضع الجيش قبل ذلك في دوامة من لجان متواصلة ، وجمعيات ، وفرار من الخدمة ، وهل هناك من داع للنقاش حول ذلك ؟ إن كل رجل محترم سيؤيد كورنيلوف!

لقد تكلم بحرارة ، وعندما فرغ من كلامه جال ببصره في جمع الضباط ، ونقر سيكارته على علبته متحدياً ، كان لأتارشجيكوف ساقان نحيلتان بصورة غير اعتيادية ، وصدر ، وكتفان عريضان بما لا يتفق ونحافة ساقيه ، وعلى الجفن الأسفل لعينه اليمنى ثمة شامة بنية كبيرة . وهي تحول دون أن ينطبق الجفن الأعلى تماماً ، وكان هذا يوحي لأول وهلة بأن عينيه كانتا تنمان على الدوام عن سخرية مترقبة مستهينة بالآخرين ،

ـ لئن كان علينا أن نختار بين البلاشفة ، وكيرنسكي ، وكورنيلوف ، فلاشك أننا مع كورنيلوف .

ـ من الصعب معرفة مايريده كورنيلوف : هل هو إعادة النظام ، أم إعادة شيء آخر...

ـ ليس هذا بجواب على السؤال الهام! مم تخشون ، اعادة الملكية ؟

ـ أنا لاأخشى ذلك ، بل على العكس .

ـ حسناً ، إذا ، عم تتجادلون .

ـ أيها السادة!

كان المتكلم الأخير دولغوف الذي رفع حديثاً من رئيس عرفاء إلى نائب ضابط لخدماته الممتازة . ومضى يتكلم بلهجة قوية راسخة :

ـ فيم الخصام حولها ؟ فلننقلها صراحة أننا نحن القوزاق يجب أن نتشبث بالجنرال كورنيلوف كما يتشبث الطفل بأذيال أمه . لنقل هذا بكل صراحة وبلا مراوغة . أما إذا أعرضنا عنه ، فسوف ينتهي أمرنا ، إن روسيا ستجرفنا كما يجرف الروث . الموقف واضح حيثما يذهب ، نذهب نحن .

فقال أتارشجيكوف ، وهو يربت على ظهر دولغوف بلطف :

ـ ذلكم هو بالضبط! وسمر عينيه الضاحكتين على لستنسكي الذي كان يبتسم ويسوي طيات بنطاله بقلق ، ورفع صوته قائلاً :

ـ والآن أيها السادة! هل نحن مع كورنيلوف ، أم لا ؟

ـ ماذا ، بالطبع نحن معه .

ـ لقد حلّ دولغوف العقدة العويصة بضربة واحدة .

ـ كل الضباط معه!

ـ نحن ، عزيزنا لافرغيورغيفيتش ، القوزاقي والبطل ، المجد له!

وشرب الضباط شايهم . وهم يضحكون ويقرعون الأقداح .

وزال الجو المترتر الذي خيم عليهم ، ودار الحديث عن حوادث الأيام القليلة الماضية .

قال دولغوف متحيراً :

ـ كلنا وراء القائد العام ، ولكن القوزاق مبلبلو الأفكار بعض الشيء .

فتساءل لستنسكي :

ـ من أية ناحية هم « مبلبلو الأفكار » ؟

ـ ماذا ، إنهم شاردو الفكر ، وهذا هو كل مافي الأمر . فالخنازير يريدون أن يعودوا الى بيوتهم لزوجاتهم . لقد سئموا حياتهم الشاقة .

وصرح الملازم تشيرنوقوتوف ضارباً الطاولة بقبضته :

ـ إن من صلب عملنا أن نجر القوزاق وراءنا . وهذا هو واجبنا نحن الضباط ولذلك بالذات نرتدي كتافياتنا .

ـ يجب أن يوضح للقوزاق بأناة أي جانب ينبغي أن يختاروا .

ونقر لستنسكي القدح بملعقته ، وقال على مهل حين نال انتباههم .

ـ أرجو أن تتذكروا أيها السادة أن عملكم في هذه اللحظة ينحصر في ايضاح الأمور الراهنة على حقيقتها للقوزاق ، كما يقول أتارشجيكوف . يجب أن نبعد القوزاق عن تأثير اللجان . وهذا يتطلب تبدلاً في طباعنا ، تبدلاً لايقل عما ترتب على معظمنا أن يعانوه منذ انتفاضة شباط إن لم يكن أكبر . ففي السابق ، في ١٩١٦ مثلاً ، كنت أستطيع أن أجد قوزاقياً وأجازف بتلقي رصاصة منه في ظهري في المعركة التالية . ولكن وجب علينا أن نعاملهم غير هذه المعاملة منذ ثورة شباط ، لأنني إذ ضربت أحد الحمقى قتلني البقية في الحال هنا في الخنادق ، دون أن ينتظروا فرصة مناسبة ، أما الآن فقد تغير الوضع من جديد ، يجب علينا الآن ، ـ وأكد لستنسكي على الكلمة ، ـ أن نتآخى مع القوزاق ، لأن كل شيء يتوقف على ذلك . ـ وأردف مؤكداً : هل تعرفون ماذا يحدث الآن في الكتيبتين الأولى والرابعة ؟

ـ شيء مريع!

ـ تماماً ، وذلك لأن ضباطهم استمروا على وضع الحواجز القديمة بينهم وبين القوزاق ، فوقع القوزاق نتيجة لذلك تحت تأثير البلاشفة ، كلهم تقريباً ، وأصبح ٩٠ بالمئة منهم بلاشفة . وليس من شك بعد هذا أننا لن نقوى على

تجنب العواقب الوخيمة المقبلة . وقد كان الثالث والخامس من تموز* انذاراً قاسياً لكل من لا يعي... أما أن نحارب مع كورنيلوف ضد قوات الديموقراطية الثورية ، أو أن البلاشفة سيقومون بثورة أخرى بعد أن اكتنزوا قواهم ووسعوا نفوذهم ، انهم يأخذون نفساً الآن ، ويعززون قواهم ، أما نحن فماضون في وضعنا المتراخي ، كيف يمكن أن تدع الأمور تأخذ هذا المجرى ؟ إننا بحاجة إلى قوزاق مخلصين في الانتفاضة المقبلة .

ـ إننا بدون القوزاق لاأكثر من صفر على اليسار ـ قال دولغوف متنهداً .

ـ هذا صحيح يا لستنسكي .

ـ صحيح جدا!

ـ إن روسيا على حافة القبر...

ـ هل تعتقدون أننا لاندرك ذلك ؟ نعم ، ندركه ، ولكننا في زمن نعجز فيه عن فعل أي شيء .

إن المرسوم رقم ١** «وأكوبنايا برافدا»*** يبذران بذورهما . وصاح أتارشجيكوف :

ـ ولهذا فنحن نمتع أبصارنا بالنظر إلى البراعم بدلاً من أن نسحقها تحت أقدامنا أو نضرم النار فيها!

ـ كلا ، لانمتع بها أبصارنا ، إنما نحن عاجزون ليس إلا!

ـ كذب ، أيها الضابط! إننا مقصرون!

ـ ليس كذلك!

ـ برهن اذا!

ـ هدوءاً ، أيها السادة!

---

* تظاهرات جماهيرية مسلحة قام بها العمال والجنود والبحارة في بتروغراد ضد الحكومة المؤقتة . المترجمون

** المرسوم رقم ١ (في آذار ١٩١٧) الصادر تحت ضغط جماهير الشعب الثوريين عن اللجنة التنفيذية لسوفييت بتروغراد أوجد تنظيمات انتخابية بين الجيش . أخذت على عاتقها مراقبة أعمال ضباط روسيا القيصرية .

*** «أوكوبنايا برافدا» (حقيقة الخنادق) جريدة يومية بلشفية أسست عام ١٩١٧ .

ـ لقد دمرت الجريدة «برافدا» ، ولكن كيرنسكي يستيقظ بعد فوات الأوان...

ـ ما هذا... أنحن في السوق ؟ لن نتوصل إلى نتيجة بهذا الشكل!

وشيئاً فشيئاً خفت الصخب ، ورجاهم أحد آمري السرايا الذي كان يصغي إلى لستنسكي بانتباه كبير ، وقال بهدوء :

ـ اقترح أن نفسح المجال للرئيس لستنسكي لينتهي من حديثه .

ـ استمر .

وواصل لستنسكي كلامه وهو يدلك ركبتيه النحيلتين بيديه :

ـ أقول عندما يحين الكفاح... أعني الحرب الأهلية ـ وقد بدأت الآن أدرك أنها آتية لاريب . ـ سنحتاج قوزاقاً يركن إليهم . لذا يجب أن نكافح من أجل أن نصرفهم عن اللجان التي تجنح بهم نحو البلاشفة . وتلك ضرورة حيوية! وينبغي أن تتذكروا أنه إذا حدثت اضطرابات جديدة سيطلق قوزاق الكتيبتين الأولى والرابعة النار على ضباطهم...

ـ هذا صحيح ، فلن يحجموا عن ذلك .

ـ ... ومن تجربتهم ، المرة كل المرارة ، يجب أن نستفيد ينبغي شنق نصف قوزاق الكتيبتين الأولى والرابعة ، فانهم لم يعودوا قوزاقاً والحق يقال ، ربما ترتب علينا أن نتخلص منهم جميعاً... يجب أن ينظف الحقل من الأعشاب السامة! ويجب أن نجنب قوزاقنا من الأخطاء التي قد يدفعون ثمنها في المستقبل .

وبعد لستنسكي انبرى أحد آمري السرايا ، وهو ضابط كهل خدم في الكتيبة تسعة أعوام وقد جرح أربع مرات في الحرب ، وراح يتكلم عن صعوبة الخدمة في الكتائب القوزاقية قبل الحرب .

فقد استبقى الضباط القوزاق في المؤخرة ، محرومين من مسرات الحياة ، وكانت ترقيتهم تجري بطيئة ، وكانت رتبة العقيد بالنسبة لمعظم الضباط النظاميين أعلى ما يستطيعون الطموح اليه ، وهذا كان في رأيه سبب الفتور في

موقف القواد القوزاق أيام الاطاحة بالقيصر . ومع هذا فمن الضروري بمكان تأييد كورنيلوف بأي ثمن ، وتعزيز الصلة الوثيقة به عن طريق مجلس تحالف الجيوش القوزاقية والهيئة العليا لتحالف الضباط ، وأنهى كلامه قائلاً :

ـ فليكن كورنيلوف دكتاتوراً! إن في ذلك انقاذاً للقوزاق .

وربما سيكون وضعنا معه أفضل من عهد القيصر .

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير ، وخيم الليل على المدينة بغلالة بيضاء من السحاب ، وخلف النافذة كان الطرف المستدق الداكن لبرج مبنى وزارة البحرية يشع وسط فيض أصفر من الضياء .

ظل الضباط يتحدثون حتى مطلع الفجر . وتقرر أن تلقى محاضرات على القوزاق ثلاث مرات في الأسبوع تتناول مواضيع سياسية . وأن يشغل ضباط الرعائل الجنود يومياً بالألعاب الرياضية والقراءة ، بغية ملء أوقات الفراغ وإبعاد القوزاق عن جو السياسة الذي يشيع روح التذمر . وأنشدوا قبل أن ينفرقوا : «الدون يقظ وهائج ، الدون المسيحي الهادئ» . وفرغوا من سماورهم العاشر فيما كانت الأنخاب تقترح بدعابة وسط قرع الكؤوس . وقبل النهاية قال أتارشجيكوف بعد تفاهم مهموس مع دولغوف :

ـ والآن ، كحلاوة ، دعونا نستضيفكم حسب التقاليد بالأغنية القوزاقية القديمة . هدوءاً ، رجاء! وقد يكون من الأفضل أن نفتح النافذة ، فالجو ثقيل هنا .

واجتمع صوتان ، صوت دولغوف ذو النبرة الغليظة الخشنة وصوت أتارشجيكوف الصادح على غير عادته ، وكانا في البداية مترددين ، غير أنهما صدحا أخيراً بأغنية فائقة الجمال :

... ولكنه شموخ ، دوننا الهادئ ،

أبونا الدون ،

لم يطأطئ مرة لكافر ، ولم يستشر موسكو كيف تكون الحياة .

أما الأتراك ، فقد استقبلهم بحد السيوف

على مر العصور ،
وعاما تلو عام كانت أمنا ، سهوب الدون تحارب
العدى بسيول متلاطمة
وتذود عن العذراء البتول وتصون حمى الديار
ذلك من أجل حرية الدون الشموخ...

كان أتارشجيكوف جالساً وقد عقد أصابعه على ركبتيه ، يغني دون توقف وكان وجهه صارماً على غير عادته ، وقد لاحظ لستنتسكي دمعة لامعة تسيل على خده عند نهاية الأغنية .

وبعد أن خرج ضباط السرايا الآمرون ، جلس أتارشجيكوف على سرير لستنسكي ، وهمس وهو يعبث بحمالة بنطلونه حائلة الزرقة على صدره العريض :

ـ هل تدري ، يايفغيني... أنا موله بالدون إلى حد الجنون ، وبنمط الحياة القوزاقية العريقة ، العريقة جداً ، أنا أحب قومي القوزاق ، والنساء القوزاقيات ، أحبهم جميعاً! أحس بحاجة إلى البكاء عندما أشم شيح السهوب... وعندما تتفتح أزهار عباد الشمس ، وعندما يعبق الهواء بشذى الكروم المغسولة بالمطر ، أحب ذلك بكل جوارحي... أنت تفهم... ولكنني أتساءل : ألسنا نضلل هؤلاء القوزاق بكل هذا ؟ أهذا هو السبيل الذي نريد أن يسلكوه ؟

فسأله لستنسكي بحذر :

ـ ماذا تقصد ؟

ولاحت رقبة أتارشجيكوف التي لفحتها الشمس ، ناعمة فتية وبريئة ازاء ياقته البيضاء . وتدلى جفنه الأزرق بشكل غريب على شامته السمراء وتوهجت عينه نصف المغمضة بلزوجة في الظلام .

ـ إني أتساءل فيما إذا كان هذا خيراً للقوزاق ؟

ـ وإذا لم يكن كذلك ، فما هو الأفضل ؟

ـ لست أدري... ولكنهم لماذا ينصرفون عنا من تلقاء أنفسهم ؟ يبدو أن الثورة قد قسمتنا إلى خراف وماعز ، وكأن مصالحنا قد تميزت .

وشرع لستنسكي يقول بعناية :

ـ ألا ترى ؟ أن ثمة فرقاً في ادراك الحوادث . ان لدينا ثقافة عالية ، ونستطيع أن نقدر الموقف بدقة ، ولكن كل شيء بالنسبة لهم بدائي وبسيط ، ويحشو البلاشفة رؤوسهم باستمرار بأن الحرب يجب أن تنتهي ، أو تتحول بالأحرى إلى حرب أهلية .

ويحرضون القوزاق علينا . ولما كان القوزاق تعبين ، ولما كانت فيهم نزعة حيوانية ، وليس لديهم مالدينا منه ، من ذلك الادراك العميق لواجبهم ومسؤوليتهم نحو أرض أجدادهم ، فمن البديهي أن يصبحوا تربة خصبة لهذه المعتقدات ، وعلى كل حال ، ماذا تعني حقاً أرض الأجداد بالنسبة للقوزاق ؟ إنها في أحسن الأحوال فكرة مجردة . وهم يقولون لأنفسهم إن « منطقة الدون بعيدة عن الجبهة ، ولن يبلغها الألمان » . تلك هي المسألة بجوهرها . يجب أن نشرح لهم العواقب التي تنجم عن تحويل الحرب إلى حرب أهلية .

وشعر يفغيني أثناء كلامه ، بأن كلماته لم تصب مرماها ، وأن أتارشجيكوف بدأ ينكمش على نفسه كالمحار في صدفته . وهذا ماحدث . فعندما انتهى ، دمدم الرجل بشيء غير مسموع ، ثم ظل جالساً وقتاً طويلاً لايحير كلاماً ، وعبثاً حاول لستنسكي أن يتبين مجرى الأفكار التي كانت تراوده . وقال في نفسه نادماً : « كان ينبغي أن أدعه يفصح عن خبيئته حتى النهاية... » .

وتمنى له أتارشجيكوف ليلة سعيدة ، ومضى إلى سريره دونما كلمة أخرى . لقد نشد باخلاص أن يتبادل الآراء ، ورفع طرفاً من ستار الأسرار ، ذلك الستار الأسود الذي يحجب به الانسان نفسه عن الآخرين ثم أسدله ثانية .

واستلقى لستنسكي وأخذ يدخن بعض الوقت ، مضطرباً حانقاً لأنه لم

يستطع الوصول إلى السر الذي كان يقلق صديقه . وفيما كان يحدق بشدة في الظلمة المخملية الرمادية ، تذكر أكسينيا فجأة وأيام اجازته التي ملأتها سعادة . وأحس بالنعاس وقد أسكره تحول مجرى أفكاره ونتف الذكريات العارضة لعلاقاته مع النساء اللواتي عاشرهن في حياته في شتى المناسبات .

١٢

كان في سرية لستنسكي قوزاقي ، يدعي ايفان لاغوتين ، وهو أول من انتخب للجنة العسكرية الثورية للكتيبة . وحتى وصول الكتيبة إلى بتروغراد لم يظهر عليه مايميزه بأي شكل من الأشكال ، إلا أنه في نهاية تموز أخبر ضابط الرعيل ، يفغيني أن لاغوتين كان قد اعتاد حضور الشعبة العسكرية لمندوبي شغيلة وجنود سوفييت بتروغراد ، وكان كثيراً مايرى يتكلم مع القوزاق الآخرين في الرعيل وقد ترك تأثيراً سيئاً فيهم . فقد وقع حادثان من رفض القيام بمهمة الحراسة والدورية ، وعزاهما ضابط الرعيل لتأثير لاغوتين .

فرأى لستنسكي أن عليه أن يعرف المزيد عن الرجل ، ويقف على حقيقة تفكيره . وقد يكون من العبث والتسرع استجواب القوزاقي مباشرة ، لذلك آثر التريث . وسرعان ماسنحت المناسبة لذلك . فبعد بضع ليال أنيطت برعيل لاغوتين مهمة الدورية في الشوارع المحيطة بمصنع بوتيلوف ، أخبر لستنتسكي ضابط الرعيل بأنه سيتعهد مسؤوليتها هذه المرة . وأمر مراسله بإعداد حصانه الأدهم .

كان له حصانان ، «تحوطا» ، كما كان يقول . وارتدى بدلته بمساعدة جندي ، وذهب إلى الباحة .

كان الرعيل قد امتطى الخيل . ولبث ينتظر فقاده إلى الخارج ، ومضوا في سبيلهم وقد اجتازوا عدة شوارع خلال العتمة الضبابية .

وتلكأ لستنتسكي عن عمد إلى الخلف ، ونادى لاغوتين . فاستدار

الرجل بفرسه ومضى نحو الرئيس وهو يحدجه بنظرة مستفهمة .

سأله لستنتسكي :

ـ حسناً ، ماهي آخر أنباء اللجنة ؟

ـ لا شيء يذكر الآن .

ـ من أين أنت يالاغوتين ؟

ـ من محافظة بوكانوفسكي .

ـ والقرية ؟

ـ متياكين .

وصار جواداهما يسيران سوية . وأخذ لستنتسكي على ضوء مصابيح الشارع يتفحص وجه القوزاقي الملتحي . وبانت خصلة ناعمة من شعره من تحت القبعة ، ونمت لحية على هيئة مقشة على ذقنه المكتنز ، وقبعت عيناه الذكيتان بله الماكرتين بعيداً تحت حاجبيه المقوسين .

«اعتيادي جداً في مظهره الخارجي ، بسيط ، ولكن أي شيء هو قلبه ؟ لعله يمقتني كما يمقت كل مايقترن بالنظام المباد...» .

قال لستنتسكي ذلك في سريرته . ولسبب ما استبدت به الرغبة فجأة لمعرفة ماضي لاغوتين .

ـ هل أنت متزوج ؟

ـ نعم ، لي زوجة وطفلان .

ـ ومزرعة ؟

فأجاب لاغوتين بلهجة هازئة تنم عن رثاء :

ـ مزرعة ؟ نحن نعيش من اليد إلى الفم ، وحياتنا كدح وكفاح .

وتوقف لحظة ، ثم أضاف بلهجة صارمة .

ـ أرضنا رملية .

كان لستنتسكي قد مر راكباً ذات مرة خلال بوكانوفسكي . فعادت ذاكرته بجلاء إلى ذلك المكان المنعزل البعيد تحده من الجنوب مروج مستوية

لارجاء فيها ، ويطوقه نهر الخوبر المعرج المتقلب . وتذكر السديم الأخضر للأشجار المثمرة التي كان يشاهدها من رابية تبعد عشرين فرسخاً ، وقد تجللها برج الكنيسة الأبيض المهترئ .

وتحسر لاغوتين قائلاً :

ـ أجل ، إن تربتنا رملية جداً .

ـ أحسب أنك تود العودة إلى أهلك .

ـ بالطبع ياسيدي . لاشك أنني أحب العودة حالما أستطيع . لقد تحملنا الكثير خلال هذه الحرب .

ـ أخشى أنك لن تعود في القريب ياولدي .

ـ أعتقد أننا سنعود .

ـ ولكن الحرب لما تنته .

فأجاب القوزاقي باصرار :

ـ سوف تنتهي قريباً . وسوف نعود إلى أهلينا وشيكاً .

ـ سنحارب بعضنا أولاً . ألا ترى ذلك ؟

وأجاب لاغوتين بعد لحظة دون أن يرفع عينه عن قربوس سرجه :

ـ من ترانا سنحارب إذاً ؟

ـ هناك الكثيرون ممن نحاربهم... ربما البلاشفة . وصمت لاغوتين ثانية وكأنها أغفى على وقع حوافر الخيل الرتيبة والراقصة . ثم أجاب متمهلاً :

ـ ليس لدينا خصام معهم .

ـ لكن ماذا عن الأرض ؟

هناك أرض كافية للجميع .

ـ هل تعرف ماذا يبغي البلاشفة ؟

ـ لقد سمعت بعض الشيء...

حسناً إذاً ، ماذا علينا أن نفعل إذا ماهاجمنا البلاشفة ليستولوا على أرضنا ويستعبدوا القوزاق ؟ لقد كنت تقاتل الألمان دفاعاً عن روسيا ، أليس كذلك ؟

ـ الألمان يختلفون .

ـ والبلاشفة ؟

فقال لاغوتين :

ـ حسناً ، يا سيدي ، ولاشك أنه قرر شيئاً فرفع عينيه وحاول أن يظفر بعيني لستنتسكي ، ثم أضاف : لن يأخذ البلاشفة ما أملك من قطعة أرض . فليس لدي سوى حصة واحدة . وليست بهم حاجة اليها... ولكن... . أرجو أن لا تزعل ، أليس كذلك... ؟ فوالدك مثلاً ، يملك عشرة آلاف دسياتين...

ـ ليس عشرة بل أربعة...

ـ حسناً ، فلتكن أربعة . إنها ليست قطعة صغيرة ، أليس كذلك ؟ وماهو وجه الحق في ذلك ؟ وهناك عدد مثل أبيك في جميع أنحاء روسيا . والآن حكّم نفسك يا سيدي ، ماذا على كل فم أن ينال ؟ أنت تريد أن تأكل وكل إنسان آخر أيضاً . لعلك تعرف قصة الغجري الذي ظن أنه إذا لم يطعم مهرته فسوف تتعود على الاستغناء عن الطعام . حسناً ، لقد اعتادت على ذلك تسعة أيام ، ولكنها في اليوم العاشر ماتت... وفي عهد القيصر كانت الأمور لاتجري على مايرام . وكان الفقراء في وضع لايحسدون عليه . لقد أعطوا أباك أربعة آلاف نصيبه من الكعكة ، ولكنه لايستطيع أن يأكل طعام رجلين منا نحن بسطاء الناس . مسكين هو الشعب . إن البلاشفة هم في الطريق السوي ، وأنت تتكلم عن القتال...

كان لستنتسكي يصغي اليه بانفعال يحاول أن يخفيه . وعند النهاية أدرك أنه عاجز عن رد حجته بحجة ذات وزن . وأدرك أن منطق القوزاقي البسيط ، البسيط للغاية ، قد شد على خناقه . ولكن لستنتسكي ارتبك واغتاظ ليقينه الراسخ العميق بخطئه :

ـ ما أنت على أي حال ، بلشفي ؟

فأجاب لاغوتين هازئاً :

ـ التسمية لا تقدم ولا تؤخر... فليست المسألة مسألة اسم ، بل الحق .

أن مايريد الناس هو الحقيقة ، ، ولكنها كانت دائماً تدفن ويهال عليها التراب . ثم يقولون إنها جثة هامدة منذ أمد طويل .

ـ إذا ، هكذا حشا البلاشفة دماغك . ولم تضيّع وقتك في صحبتهم سدى .

ـ آه ، أيها الرئيس ، إن الحياة نفسها هي التي علمتنا نحن الصابرين أما البلاشفة فهم يشعلون الفتيلة ليس إلا .

فقاطعه لستنتسكي :

ـ اترك هذه الحكايات ، لامكان هنا للمزاح! ثم أردف بغضب شديد :

ـ أجبني! كنت تتكلم قبل لحظة عن أرض والدي وعن أراضي الملاكين بصورة عامة ، ولكن تلك ملكية خاصة . إذا كان لديك قميصان ولم يكن لدي حتى واحد ، فيتعين حسب منطقك أن أنتزع واحداً منك ؟

ولم يستطع يفغيني رؤية وجه القوزاقي ، ولكنه قدّر من نبرة صوته أنه كان يبتسم .

ـ سأتنازل عن قميصي الزائد من تلقاء نفسي . وفي الجبهة لم أعط قميصاً زائداً فحسب ، بل وآخر قميص كان عليّ ، ثم لبست معطفي على جلدي العاري . ولكني لم أسمع برجل تنازل عن أرضه .

ورفع لستنتسكي صوته :

ـ ماذا دهاك ، هل بك جوع للأرض ؟ أليس لديك ما يكفيك الآن ؟

وراح لاغوتين يلهث غاضباً ، وقال وهو يكاد يصيح :

ـ أتظن أنني أفكر في نفسي فقط ؟ لقد كنا في بولندا... كيف يعيش الناس هناك ؟ أشاهدت ذلك أم لا ؟ وكيف يعيش الفلاحون حولنا في الدون ؟ لقد شاهدت ذلك ؟ وحسب ذلك أن يجعل دم المرء يفور! هل تظن أنني لا أرثي لحالهم ؟ ربما نزفت قلبي من أجل البولنديين ، مفكراً في مزق الأرض المرة التي يضطرون إلى أن يعتاشوا عليها .

وكان يفغيني على وشك أن يأتي بجواب لاذع ، بيد أنه فوجىء بصرخة« امسكوا به! » جاءت من جهة العمارات الرمادية المضاءة في مصنع

بوتيلوف . وتبعتها قعقعة حوافر وصوت اطلاقة . ففرقع لستنتسكي بسوطه وعدا بفرسه .

لقد عاد هو ولاغوتين جنباً إلى جنب فألفيا الرعيل قد توقف وتجمع في مفترق الطرق . كان هناك عدة قوزاق يقعقعون بسيوفهم مترجلين عن خيولهم ، وفي وسط الحلقة رجل يقاوم .

وهجم لستنتسكي ، دافعاً حصانه وسط الحشد ، وصاح :

ـ ماذا حدث ؟

ـ كان هذا النغل يرمي الحجارة .

ـ ضرب واحداً منّا وهرب .

ـ أضربه يا أرجانوف!

ـ يا وغد!... تريد أن تقتل واحداً منّا ؟...

كان عريف الرعيل أرجانوف مائلاً من سرجه وممسكاً برجل قميء يرتدي قميصاً روسياً أسود ، من ياقته ، بينما كان ثلاثة قوزاق مترجلين قد أوثقوا يديه خلف ظهره .

فصاح لستنتسكي بالرجل وهو مستشيط الغضب :

ـ من أنت ؟

ورفع الأسير رأسه بوجهه الشاحب ، ولكن شفتيه بقيتا مزمومتين على بعضهما بشدة . وأعاد يفغيني سؤاله :

ـ من أنت ؟ كنت ترمي الحجر ، أنت يا حثالة الناس! لن تتكلم ، ها ؟ أرجانوف...

وقفز أرجانوف من سرجه ، وأطلق ياقة الأسير من يده ، ولطمه على وجهه ، ثم أوعز لستنتسكي وهو يستدير بفرسه :

ـ أضربوه!

فألقى ثلاثة أو أربعة من القوزاق المترجلين بالرجل الموثوق على الأرض ولوّحوا بسياطهم . فقذف لاغوتين بنفسه من السرج وهرول نحو

لستنتسكي . وطوق ركبة لستنتسكي بأصابعه المرتجفة وصاح :

ـ أيها الرئيس... ماذا أنت فاعل ؟ أيها الرئيس! لا يمكن أن تفعل ذلك! إنه رجل... ماذا أنت فاعل ؟

ولكن يفغيني حث جواده دون أن يجيب . وهرع لاغوتين إلى القوزاق ، وطوق أرجانوف من خصره وحاول أن يجره بعيداً .

غير أن العريف قاوم مدمدماً :

ـ دعك عن هذا! دعك! هل عليه أن يرمي الحجارة ونقف مكتوفي الأيدي ؟ اتركني! خير لك أن تتركني!

وانحنى أحد القوزاق بعد أن سحب البندقية من كتفه ، وضرب جسد الرجل الناعم بأخمصها . وانسلت صرخة وحشية خفيضة عبر الطريق . وأعقبها صمت لبضع ثوان ، ثم ارتفع الصوت ثانية ، ولكنه فتي ومختنق يختلج بالألم هذه المرة ويدمدم بعد كل ضربة بعبارات مقتضبة يزخر بها :

ـ خنازير! أعداء... الثورة! أضربوا! أو... وه! وتوالت الضربات بقسوة .

فهرول لاغوتين إلى لستنتسكي ، وتشبث بركبته وراح يخمش السرج بأظافره ، ويقول متهدجاً :

ـ دعه يذهب!

ـ ابتعد!

ـ أيها الرئيس... لستنتسكي! ألا تسمعني... ؟ سوف تسأل عن ذلك!

ـ أبصق عليك! ـ فح لستنتسكي همساً واتجه حصانه إلى لاغوتين .

والتفت لاغوتين وهرول نحو القوزاق الواقفين بعيداً عن الجمع المحيط بالرجل ، وصرخ :

ـ اخواني! أنا عضو في اللجنة الثورية... آمركم بإنقاذ ذلك الرجل من الموت...! سوف تكونون مسؤولين عن ذلك! لقد ولى الماضي الآن!

وأطار الحقد الأعمى صواب لستنتسكي . فضرب حصانه بسوطه بين أذنيه وغدا نحو لاغوتين ، وسدد مسدده الأسود المدهون جيداً بوجه القوزاقي ، وزأر :

ـ صه ، أيها الخائن! بلشفي! سأطلق عليك النار! ولكنه سيطر على نفسه بصعوبة ، ورفع اصبعه عن الزناد ، واستدار بحصانه على ساقيه الخلفيتين ومضى .

وبعد بضع دقائق مضى في أثره القوزاق الثلاثة .

وسحب أرجانوف ولابين الأسير بين فرسيهما ، وكان ثوب الرجل المبلل بالدم ملتصقاً بجسمه ، وراح يترنح واهناً وقدماه تجرجران فوق البلاط ، فيما كان القوزاقيان يسندانه تحت ابطيهما . وتدلى رأسه المدمى مسترخيا بين كتفيه المرتفعين ، وقد كاد أن يهرس وجهه . وعدا القوزاقي الثالث مسافة ما . ورأى في زاوية شارع سائق عربة ، فخبّ نحوه واقفاً في ركابه . وضرب جزمته بسوطه معبراً للرجل عن أمر مقتضب ، وباستجابة ذليلة هرع سائق العربة نحو القوزاقيين ووقف في منتصف الشارع .

وفي الصباح التالي استيقظ لستنسكي وهو يشعربأنه اقترف في الأمس خطأً عظيماً يصعب إصلاحه . وعض شفتيه وقطب جبينه عندما تذكر مشهد الليلة الماضية ، وكل ما جرى بينه وبين لاغوتين . وعندما كان يرتدي ملابسه رأى أنه من الأفضل أن يترك لاغوتين لحاله في الوقت الحاضر ، ليتجنب تدهور علاقته مع لجنة الكتيبة . وأن من سداد الرأي أن ينتظر حتى ينسى الحادثة قوزاق الرعيل الآخرون ، ليزيحه بعد ذلك بهدوء .

« إذاً هكذا يكون التآخي مع القوزاق » ، ـ قال ذلك في سريرته بسخرية مريرة ولم يستطع أن ينفض عنه أثر الحادث المزعج أياماً عديدة .

وذات يوم مشمس جميل من أيام آب الباكرة ذهب لستنسكي وأتارشيجيكوف إلى المدينة . ومنذ حديثهما الذي أعقب اجتماع الضباط لم يحدث بينهما ما يزيل الشك الذي شاب علاقتهما .

فقد كتم أتارشيجيكوف آراءه ، وكلما حاول لستنسكي أن يستدرجه إلى الحديث ، تسربل بالستار المحكم الذي يرتديه معظم الناس عادة في الحفاظ على ملامحهم الأصيلة من عيون الآخرين .

وكان يلوح للستنسكي دائماً أن الناس في معاملاتهم مع زملائهم يخفون تحت نظرهم الخارجي الملامح الأخرى التي لا يكشفون عنها مطلقاً في بعض الأحيان . وكان يعتقد جازماً بأنه متى ما أزيح هذا القناع الخارجي ، ظهرت للعيان حقيقة الانسان العارية الحقة غير المزيفة . وكانت تحدوه على الدوام رغبة جامحة لمعرفة ماذا يكمن وراء هذه الواجهات ، الخشنة ، العنود ، الجريئة ، المتكبرة ، البشوش الفرحة ، التي يحتمي وراءها الناس . وهو الآن عندما يفكر في أتارشيجيكوف ، لا يسعه إلا أن يستنتج أن أتار شيجيكوف في كفاحه لإيجاد مخر ج للخصومات التي قسمت مختلف قطاعات البلاد ، كان يسعى لربط القوزاق بمطامح البلاشفة . وهذا الافتراض أدى به إلى أن يوقف محاولاته في أن يوطّد صداقته مع أتار شيجيكوف .

كانا يتجولان في شارع نيفسكي ، ويتبادلان ملاحظات عرضية . واقترح لستنتسكي مشيراً بعينه إلى أحد المطاعم :

ـ فلنذهب ونتناول بعض الطعام .

ووافق الآخر قائلاً :

ـ لا بأس!

ودخلا المطعم وظلا واقفين ينظران حواليهما حائرين . كانت جميع الموائد محجوزة . فهم أتار شيجيكوف بالخروج ، بيد أن سيداً أنيقاً بديناً كان جالساً مع سيدتين تتفرسان في الضابطين بإمعان ، نهض من مائدته قرب النافذة وتقدم نحوهما وهو يرفع قبعته بلطف .

ـ أرجو المعذرة هل تتفضلان بأخذ مائدتنا ؟ إننا على أهبة الخروج .

وابتسم ، فكشف عن نقص في أسنانه ، وأشار اليهما بالمرور ، وقال :

ـ أنا مسرور لتقديم خدمة للضباط . أنتم فخر الوطن .

ونهضت السيدتان اللتان كانت جالستين أمام المائدة . إحداهما ، طويلة وسمراء ، كانت تصفف شعرها ، والأخرى ، أصغر بقليل ، كانت تعبث بمظلتها ، وشكر الضابطان السيد على صنيعه وتقدما نحو النافذة .

وخلال الستار المسدل كانت أشعة الشمس الحارة تنغرز في غطاء المائدة وكأنها إبر صفراء . وطغت رائحة الطبيخ على شذى الورد الرقيق الموضوع على المائدة . وطلب لستنتسكي شربة الشوندر المثلجة ، وجلس متفكراً يعبث بغصن من الرشاد الأصفر الفاتح ، تناوله من المزهرية . ومسح أتارشيجيكوف العرق من جبهته بمنديله . وكانت عيناه التعبتان الواهنتان تطرفان باستمرار ، وتنظران إلى أشعة الشمس التي تتراقص على ساق المائدة المجاورة . ولم يكادا يفرغان من وجبتهما حتى دخل المطعم ضابطان يتكلمان بصوت مرتفع . وبينما كان الأول يبحث عن مائدة خالية أدار وجهه الذي لفحته الشمس بإتجاه لستنتسكي ، فالتمعت عيناه السوداوان من الفرح ، وهتف :

ـ ماذا ، إنه لستنتسكي!

وتقدمَ نحوه بخطوات واثقة غير مترددة ، وقد التمعت أسنانه البيضاء بياض الثلج تحت شاربيه السوداوين .

وفي الحال عرف لستنتسكي الرئيس كالميكوف ورفيقه تشوبوف . فتصافحا بحرارة . وقال يغفيني بعد أن قدمهما لأتارشيجيكوف :

ـ أية صدفة جاءت بكما إلى هنا ؟

فأجاب كالميكوف وهو يفتل شاربيه متطلعاً إلى ماحوله :

ـ كنا في مهمة سوف أخبرك بعدئذ . ولكن قبل ذلك أخبرنا عن نفسك . كيف وجدت الحياة في الكتيبة الرابعة عشرة ؟

...وتركوا المطعم سوية ، وتخلف لستنتسكي وكالميكوف وراء الآخرين ، وعاجا في أول منعطف طريق وبعد نصف ساعة مضيا سوية نحو مكان هادىء في المدينة ، وهما يتكلمان بصوت إلى الهمس أقرب ويأخذان حذرهما .

قال كالميكوف ليفغيني :

ـ لقد استبقي فيلقنا الثالث احتياطاً في الجبهة الرومانية . وقبل حوالي

عشرة أيام تلقيت أمراً من آمر الكتيبة ، بتسليم سريتي لضابط آخر ، والذهاب مع تشوبوف لنضع أنفسنا تحت إمرة قيادة الفرقة . حسناً! ذهبنا إلى قيادة الفرقة . وهناك أعلمنا سراً أن علينا أن نقدم أنفسنا إلى الجنرال غريموف . فذهبنا إلى مقر قيادة الجيش . ونظر إلى كريموف ، وحسب المعلومات التي توفرت لديه عن نوع الضابطين المرسلين إليه ، قال لي بصراحة : « إن الحكومة بأيدي رجال يسيرون بالبلاد عن عمد نحو الهاوية . إن الفئة التي على رأس الحكومة يجب أن تستبدل . ومن المحتمل أن تعزل الحكومة المؤقتة وتقام محلها الدكتاتورية العسكرية » وذكر كورنيلوف كمرشح منتظر ، ثم طلب مني أن أذهب إلى بتروغراد ، لأضع نفسي تحت تصرف اللجنة المركزية لتحالف الضباط . وقد تجمع الآن في المدينة بضع مئات من الضباط الذين يركن إليهم . وتستطيع أن تحزر أي دور سنلعب . كما أن اللجنة المركزية لتحالف الضباط على اتصال وثيق بمجلسنا ، مجلس تحالف القوات القوزاقية ، وتوزع كتائب صدامية على ملتقى الخطوط وفي الفرق » .

ـ وماذا سيترتب وراء ذلك ؟ ماذا تعتقد ؟

ـ غريب أمرك!... ولكن هل تريد أن تقول أنك ، أنت الذي تعيش هنا ، تجهل الوضع ؟ لا شك أنه سيحصل انقلاب ، وسيستولي كورنيلوف على الحكم . إن الجيش برمته معه ،ونحن نعتقد أن هناك قوتين متعادلتين : البلاشفة وكورنيلوف . أما كيرنسكي فهو بين رحى الطاحونة . وسوف يسحقه هذا أوذاك . دعه ينم في مخدع القيصرة .. صمت كالميكوف برهة ثم قال وهو يعابث شرابة سيفه : ـ انه خليفة لساعة واحدة . وبالطبع نحن الضباط كالبيادق على رقعة الشطرنج ، لانعرف إلى أين سيحركنا اللاعب . فأنا مثلا ، لا أفهم كل ما يحدث في مقر القيادة . ولكني اعرف ان بين الجنرالات : كورنيلوف ، لوكومسكي ، رومانوفسكي ، كريموف ، دينكين ، كاليدين ، تفاهماً سرياً .

وسأله لستنتسكي وهو يحث خطاه :

ـ ولكن الجيش... ؟ هل سيتبع الجيش بكامله كورنيلوف ؟

ـ الجنود لن يفعلوا ذلك بالطبع . ولكن علينا أن نقودهم .

ـ هل تدري ، أن كيرنسكي يحاول أن يعزل قائد القوات المسلحة تحت ضغط اليسار ؟

ـ لن يجرؤ . فغداً سيركع على ركبتيه . لقد عبرت اللجنة المركزية لتحالف الضباط عن رأيها بصورة نهائية حول هذه المسألة .

وقال لستنتسكي وهو يبتسم :

ـ أمس استقبل وفداً من مجلس تحالف القوات القوزاقية . وأخبروه أن القوزاق لا يمكن أن يفكروا مجرد تفكير في عزل كورنيلوف . وهل تدري بماذا أجابهم ؟ قال : « إنها اشاعة ليس إلا... وليس لدى الحكومة المؤقتة أي ميل لاتخاذ خطوات من هذا القبيل » ، ـ محاولاً تطمين الجمهور وفي الوقت نفسه يهش مثل المومس إلى مندوبي السوفييت .

وأخرج كالميكوف من جيبه مفكرة ضباط وقرأ البرقية بصوت عالٍ :

ـ إن مؤتمر الرجال الاجتماعيين ، يرحب بك ، أيها القائد الأعلى للجيش الروسي . ويعلن المؤتمر أنه يعتبر أي محاولة من شأنها أن تقوّض من سلطتك في الجيش وفي روسيا عملاً اجرامياً ، وهو يضم صوته إلى الضباط ، وفرسان القديس غيورغي ، والقوزاق . وفي ساعة الامتحان الرهيبة هذه يشخص كل المتنورين الروس اليك بأبصارهم بأمل وايمان . فليكن الله في عونك في تحملك المسؤولية العظمى لاعادة بناء جيش جبار وانقاذ روسيا! ـ التوقيع ، « رودزيانكو » . هل يكفيك هذا ؟ ان ابعاد كورنيلوف لن يكون ذا موضوع...ولكن هل شاهدته عندما وصل إلى المدينة أمس ؟

ـ لم أعد من تسارسكويه سيلو الآ ليلة أمس .

وابتسم كالكيكوف فافتر عن صف من أسنان ولثة وردية سليمة . وتغضنت عيناه الحادتان وتجعّد جفناهما جعدات صغيرة في الزاويتين :

ـ كان منظراً كلاسيكياً! فقد كان حرسه سرية التركمانيين . وكان في

كل سيارة رشاش . وكانوا جميعاً راكبين صوب قصر الشتاء ، حيث كان كيرنسكي . انه لانذار لالبس فيه! هاـ ها ـ ها!... كان ينبغي أن ترى وجوه أولئك التركمانيين بقبعاتهم الطويلة من الفرو! إن منظرهم لجميل!

وعاد الضابطان إلى مركز المدينة ، ثم ودّعا بعضهما . وقال كالميكوف وهو يصافحه :

ـ يجب ألا نبتعد عن بعضنا يا يفغيني . فنحن مقبلون على أوقات عصيبة! ثبت قدمك على الأرض والا فسوف تضيع .

وبعد ان افترق عنه لستنتسكي صاح كالميكوف في أثره :

ـ أوه ، نسيت أن أخبرك ، هل تذكر ميركولوف ؟ صاحبنا الفنان ؟

ـ نعم ؟

ـ لقد قتل في أيار .

ـ مستحيل!

ـ كان مجرد حادثة . لا يمكنك أن ترى ميتة أسخف منها . لقد انفجرت قنبلة يدوية في يدي كشاف ونسفت ذراعي الرجل من مرفقيه . وكل ما عثرنا عليه من ميركولوف الذي كان واقفاً إلى جانبه هو جزء من أحشائه ومنظار ميدان . لقد ابتعد عنه الموت ثلاث سنوات...

وهتف بشيء آخر ، غير أن الريح أثارت الغبار الرمادي فلم تبلغ مسمع لستنتسكي غير مقاطع شاردة . ولوح يفغيني بيده وحث خطاه ، وهو يلتفت بين الحين والآخر إلى الوراء .

١٣

في السادس من آب ، تسلم الجنرال لوكومسكي رئيس هيئة أركان القيادة العليا أمراً بواسطة الجنرال رومانوفسكي الجنرال الأول لهيئة أركان الحرب ، يقضي بتحشيد فيلق الخيالة الثالث والفرقة القوزاقية الملحقة به ، في منطقة

نيفل ـ نوفيه سوكو لنيكي ـ فيليكييه لوكي . وتساءل لوكومسكي مندهشاً :

ـ لماذا نرسلهم إلى تلك المنطقة بالذات ؟ لقد استبقيت هذه الوحدات احتياطاً في الجبهة الرومانية .

ـ لست أدري أيها الجنرال . لقد بلّغت الأمر تماماً كما تسلمته من قائد القوات المسلحة .

ـ متى تسلمته ؟

ـ أمس . استدعاني قائد القوات المسلحة إلى غرفته وأمرني بتوجيه هذا الأمر اليك هذا الصباح .

وتوقف رومانوفسكي الذي يتخطى قرب النافذة ، أمام خارطة استراتيجية كبيرة لأوربا الوسطى شغلت نصف أحد جدران غرفة لوكومسكي ، وتفحصها بانتباه مفرط والتفت قائلاً :

ـ لمَ لا تسأله ؟ انه في غرفته الآن .

والتقط لوكومسكي الورقة ، ودفع كرسيه إلى الوراء ومشى نحو الباب بخطوات راسخة يتميز بها كل عسكري بدين كبير السن .

وقرب الباب عندما أفسح المجال لرومانوفسكي قال مواصلاً سلسلة تفكيره على ما يظهر :

ـ أجل ، صحيح .

وخرج للتو من غرفة كورنيلوف عقيد مديد القامة طويل الساقين لم يعرفه لوكومسكي . وتراجع إلى الخلف باحترام ليفسح المجال للوكومسكي وواصل سيره شطر الممر وهو يعرج بشكل واضح ، ويرتعش كتفاه بشكل مضحك ومخيف بتأثير صدمة القنابل كما يبدو .

كان كورنيلوف منحنياً بعض الشيء إلى الأمام فوق منضدته ، ويداه ممتدتان إلى الخارج ، ويتكلم إلى ضابط كهل أمامه :

ـ... لا يمكن الاأن نتوقعها . هل تفهمني ؟ أرجو أن تخبرني عن وصولك إلى بسكوف . والآن يمكنك أن تخرج .

وانتظر كورنيلوف حتى سد الباب خلف الضابط ، وجلس بخفة ونشاط ، وسحب كرسياً للوكومسكي ، وسأله :

ـ هل أعطاك رومانوفسكي تعليماتي حول نقل فيلق الخيالة الثالث ؟

ـ نعم ، لقد جئت لأتحدث معك بشأنها . لماذا اخترت تلك المنطقة لتحشيد الفيلق ؟

وتفحص لوكومسكي وجه كورنيلوف الأسمر باهتمام . كان غامضاً وهادئاً مثل وجوه الآسيويين ، وكانت الخطوط التي يتميز بها وجهه تحدد الوجنتين من الأنف إلى الفم الغليظ المغطّى قليلاً بشاربين متدليين . ولم تلطف من قسمات وجهه القاسية سوى خصلة من الشعر تدلت بشكل صبياني فوق جبينه .

واحتوى كورنيلوف ذقنه براحة يده العجفاء الصغيرة ، وطرف بعينيه المنغوليتين المتألقتين ، وقال وقد لمس لوكومسكي بيده من ركبته :

ـ لا أريد أن أحشد الخيالة بشكل خاص خلف الجبهة الشمالية ، بل أريد أن أجعلها في منطقة يمكن نقلها منها بسهولة إلى الجبهة الشمالية أو الغربية . وفي رأيي أن المنطقة التي اخترتها تلبي هذه الحاجة وغيرها تلبية تامة . هل ترى غير ذلك ؟ ماذا ؟

وأتى لوكومسكي بحركة غامضة من كتفيه :

ـ ليس هناك ما يدعوك للقلق على الجبهة الغربية . من الأفضل تحشيد الخيالة في منطقة بسكوف .

وردد كورنيلوف :

ـ بسكوف ؟

وانحنى إلى الأمام ، وقطب وجهه فتقلصت شفته السفلى الشاحبة النحيفة ، وهز رأسه وأضاف :

ـ كلا ، ان منطقة بسكوف لا تصلح .

ووضع لوكومسكي يديه على ذراعي كرسيه بحركة شيخ تنم عن تعب ، وقال وهو يختار الكلمات بعناية :

ـ سوف أصدر الأوامر الضرورية في الحال يا لافرغيورغيفتش ، ولكن لديّ شعوراً بأنك أخفيت شيئاً لم تذكره...ان المنطقة التي اخترتها صالحة جداً لتحشيد الخيالة عند ضرورة نقلها إلى بتروغراد أو موسكو ، غير أن الجبهة الشمالية لا تصلح لمثل هذا التحشيد لأن نقل الخيالة سيكون أمراًصعباً جداً . ولكنك اذا ما وزعت قواك بهذه الطريقة ، فقد أخفيت شيئاً لم تفصح به ، فاني ألتمس منك امّا أن ترسلني إلى الجبهة أو تخبرني بكل ما في ذهنك . فلا يستطيع رئيس أركان حرب أن يحافظ على مركزه دون أن يتمتع بكامل الثقة من لدن رئيسه .

كان كورنيلوف قد أحنى رأسه وهو يصغي بانتباه ، وخطفت عيناه الحادتان تورداً خفيفاً ينم عن الانفعال الذي انفجر مثل الطفح في وجه لوكومسكي الهادئ في العادة . ثم تأمل بضع لحظات وأجاب :

ـ أنت على حق . فهناك اعتبارات معينه لم أبحثها معك بعد... أرجوك أن تصدر الأوامر بنقل الخيالةكما أوصيت واستدع في الحال قائدها الجنرال كريموف إلى مقر القيادة . وسوف نبحث الموضوع أنا وأنت بالتفصيل عند عودتي من بتروغراد . صدقني يا الكسندرسيرغييفتش ، لست أرغب في إخفاء شيء عنك .

وشد كورنيلوف على الكلمة الأخيرة « عنك » والتفت فجأة على صوت طرقة استئذان .

ـ ادخل .

ودخل الغرفة فونفيزين مساعد قوميسارية هيئة الأركان العامة ، ومعه جنرال ربعة ذو شعر كتاني . فنهض لوكومسكي وفي طريقه إلى الخارج سمع كورنيلوف يجيب على سؤال فونفيزين بحدة :

ـ ليس لديّ وقت لإعادة النظر في قضية الجنرال ملر... ماذا... ؟نعم ، أنا راحل...

وعندما عاد لوكومسكي إلى غرفته وقف طويلاً أمام النافذة . وراح

يمشط لحيته الشهباء بأصابعه وينظر ، وهو شارد ، إلى الريح تعابث قمم أشجار الكستناء وتتماوج خلل الحشائش المتمايلة التي تألقت بضوء الشمس .

وبعد ساعة تسلم فيلق الخيالة الثالث أمراً من القائد الأعلى لرئاسة أركان الحرب بالاستعداد للانتقال . وفي اليوم نفسه أرسلت برقية شفرية إلى الجنرال كريموف ، الذي رفض بطلب من كورنيلوف تعيينه قائداً للجيش الحادي عشر ، تدعوه للشخوص في الحال إلى مقر القيادة العليا .

وفي التاسع من آب سافر كورنيلوف في قطار خاص إلى بتروغراد ، تحرسه سرية من التركمانيين .

وترددت الشائعات في اليوم التالي في مقر القيادة حول إعفاء القائد الأعلى من منصبه أو حتى اعتقاله ، غير أن كورنيلوف عاد إلى موغيليف في صبيحة اليوم الحادي عشر .

ولدى وصوله استدعى لوكومسكي في الحال . وقرأ البرقيات والبلاغات ، وعدل بعناية ردن كمه الناصع البياض الذي يحيط بأناقة برسغه الزيتوني وتحسس ياقته ، ففضحت حركاته السريعة انفعاله غير المألوف . وقال بهدوء :

ـ نستطيع الآن استئناف حديثنا المنقطع . ولابأس في أن نعود إلى ذكر الاعتبارات التي دفعتني إلى نقل الفيلق الثالث باتجاه بتروغراد والتي لم نناقشها حى الآن . أنت تذكر أنه في الثالث من آب ، عندما كنت في بتروغراد في اجتماع مجلس الوزراء حذرني كيرنسكي وسافنكوف بأن لا أتناول أية مسألة من مسائل الدفاع الهامة لأنه ، كما يقولان ، يوجد أشخاص لا يركن اليهم بين الوزراء . وعندما أقدم ، أنا القائد الأعلى للقوات المسلحة ، تقريراً للحكومة ، لا أستطيع الكلام عن الخطط العسكرية لأنه لا يوجد ضمان بأن ما أقوله لن يصبح معروفاً في غضون بضعة أيام لدى القيادة العليا الالمانية! فهل هذه حكومة ؟ وهل يسعني ، بعد ذلك ، الاعتقاد بأن حكومة كهذه قادرة على انقاذ الوطن ؟

وسار كورنيلوف شطر الباب بخطوات سريعة ثابتة ، وأدار المفتاح في المزلاج ، وجعل يتمشى ذهاباً وإياباً أمام منضدته ويقول :

ـ انها لحقيقة مرّة ومؤلمة أن تحكم هذه البلاد حشرات كهذه! ارادة ضعيفة ، وشخصية مفتقدة ، وعجز في الذكاء ، وتردد ، وحتى خيانة ، تلك هي المقومات التي تميز أعمال هذه «الحكومة» اذا جاز تسميتها بذلك . وبالتعاطف المستمر لأشخاص مثل تشيرنوف* وغيره ، سيزيح البلاشفة كيرنسكي... ذلك هو ، يا الكسندر سير غييفتش وضع روسيا . على أني أروم انقاذ بلادنا من الانتفاضات المقبلة إيماناً بالمبادىء التي نتمسك بها كلانا . وغرضي الرئيسي من نقل فيلق الخيالة الثالث هو أن نتمكن من استقدامه ، في حالة انطلاق البلاشفة ، إلى بتروغراد في نهاية آب لنصفّي الحساب هناك بصورة نهائية مع خونة الوطن . وسوف أعهد بالقيادة المباشرة لهذه العملية للجنرال كريموف ، وأنا واثق أنه إذا ما تطلب الأمر ، فلن يتردد في شنق أي مندوب عن سوفييتات الجنود والعمال . أما الحكومة المؤقتة... فسوف نرى ما نفعله بشأنها . انني لا أبقي شيئاً لنفسي... علينا إنقاذ روسيا ، بأي ثمن!

وتوقف كورنيلوف أمام لوكومسكي وسأله فجأة :

ـ هل تشاركني رأيي ، وهو أن اجراءات كهذه هي وحدها الكفيلة بضمان مستقبل البلاد والجيش ؟ وهل ستقف إلى جانبي حتى النهاية ؟

ونهض لوكومسكي وصافح يد كورنيلوف الحارة العجفاء بثبات وعاطفة عميقة :

ـ إني أشاركك الرأي تماماً! وأنا معك حتى النهاية . يجب أن نتبصر بالموضوع ، ونزن كل شيء ، ومن ثم نضرب ضربتنا . فاعهد لي بهذه المهمة يالافر جيورغيفتش .

---

* زعيم حزب الاشتراكيين ـ الثوريين . المعرب

- لقد أعددت أنا الخطة العامة . وسوف يوضح التفاصيل العقيد ليبيديف روجينكو . أنت مغمور بالأعمال ، يا الكسندر سيرغييفتش . صدقني ، سوف يتوفر الوقت الكافي لمناقشة كل شيء واجراء التعديلات الضرورية عند الحاجة .

وخلال الأيام القليلة التالية مارست هيئة أركان القيادة نشاطاً محموماً . كان ضباط لفحت وجوههم الشمس وعلا الغبار بدلاتهم الخاكية يتوافدون كل يوم من مختلف وحدات خط الجبهة على دار الحاكم في موغيليف ليقدموا خدماتهم ، وممثلون عن تحالف الضباط وتحالف القوزاق ببزات عسكرية مهيبة ، ورسل قادمون من جهة كاليدين الذي عين أتماناً لجيش قوزاق الدون .

وتوافد مدنيون من مختلف الفئات ، أشخاص يريدون مخلصين مساعدة كورنيلوف . وثمة نسور تشم من بعيد رائحة الدماء المسفوكة وتتطلع إلى الأيدي القوية التي سيقيض لها فتح شرايين البلاد ، توافدت على موغيليف طمعاً بالفريسة . وعرف رجال أمثال زافويكو وعلاء الدين بعلاقتهما الوثيقة بالقائد الأعلى . وتهامس الناس في مقر القيادة العامة وفي مقر قيادة جيش قوزاق الدون بأن كورنيلوف كان يثق بجماعته كثيراً ، وقد وقع تحت تأثير عناصر مغامرة ، وفي الوقت نفسه كانت الفكرة السائدة بين دوائر واسعة من الضباط أن كورنيلوف هو رمز وراية البعث الروسية القديمة التي انهارت في شباط ١٩١٧ . وتحت هذه الراية تدفق من جميع الأطراف دعاة العهد القديم المتحمسون .

وفي الثالث عشر من آب توجه كورنيلوف إلى موسكو لحضور مؤتمر الدولة .

كان نهاراً حاراً تظلله بعض الغيوم . والسماء تسطع بزرقة حائلة تشبه لون الالمنيوم . وعالياً فوق سمت الرأس تدلت غيمة عاصفة كأنها الجزء يؤطرها الليلك . وفي الحقول ، وعلى القطار الذي يقعقع فوق السكة ، والغابات

التي زينها التآكل ، وفوق غابة أشجار البتولا الزاهية وفوق التربة التي اكتست بألوان الخريف المبكر الحزينة ، الشبيهة بحزن الأرملة ، تساقطت مزن خفيفة مائلة تعكس ألوان قوس قزح .

وكان القطار يترك ذيلاً من الدخان خلفه في المسافات البعيدة . وكان جنرال قصير ببزته الخاكية وعلى صدره وسام القديس غيورغي يقف عند النافذة المفتوحة . وقد أخرج رأسه من النافذة وأغمض عينيه المنغوليتين الفاحمتين نصف إغماضة ، فرطبت قطرات المطر الندية وجهه المعرض للشمس باستمرار وشاربيه السوداوين المتهدلين ، وعبثت الريح بخصلة شعره التي تدلت بشكل صبياني فوق جبهته .

١٤

قدم الكابتن لستنتسكي إلى موسكو قبل وصول كورنيلوف بيوم ، ومعه وثائق هامة أودعه إياها مجلس تحالف القوات القوزاقية في بتروغراد . وعندما سلم الحقيبة إلى قيادة كتيبة القوزاق المرابطة في موسكو علم أن من المنتظر أن يصل كورنيلوف في اليوم التالي .

وفي ظهر اليوم التالي كان لستنتسكي في المحطة لاستقبال القائد العام للقوات المسلحة . لقد تجمّع حشد كبير من الناس ، معظمهم عسكريون ، في غرفات الانتظار والمقاصف . واصطف حرس الشرف الذي جيء به من الأكاديمية العسكرية على رصيف المحطة ، واصطف فوج الدائيات النسائية الموسكوفي في الخارج .

ووصل قطار كورنيلوف حوالي الساعة الثالثة .

فران على الجمهور صمت مهيب . ودوى صوت جوقة موسيقية فطغى على وقع الأقدام . وهاج الجمهور ، وهجم بجنون إلى الرصيف ، جارفاً لستنتسكي معه . وحين شقَ طريقه خارج هذه الموجة رأى صفين من

التركمانيين يقفان أمام عربة القائد العام للقوات المسلحة . فعكس جانب العربة الساطع الطلاء اللون الأحمر الزاهي لخلعهم الطويلة . وشاهد لستنتسكي كورنيلوف يترجل من القطار بصحبة عدد من الضباط ، ويفتش حرس الشرف ، ويقابل وفوداً من تحالف فرسان القديس غيورغي وتحالف ضباط الجيش والبحرية ، ومجلس تحالف القوات القوزاقية .

ومن بين الذين قدموا إلى رئيس أركان الجيش عرف لستنتسكي أتمان الدون كاليدين والجنرال زايونتشكوفسكي ، وقدم الضباط المحيطون بكورنيلوف المستقبلين الآخرين :

- كسلاكوف ، وكيل وزير المواصلات .
- رودنيف محافظ مدينة موسكو .
- الامير تروبتسكوي رئيس المستشارين للشؤون الخارجية في مقر القيادة
- عضو المجلس الاستشاري موسين - بوشكين .
- الملحق العسكري الفرنسي العقيد كايو .
- الأمير غولتسين .

ثم همست الأصوات الخاضعة باحترام « الأمير مانسيريف... »

وعندما اقترب كورنيلوف أمطر بالورود ترميها نساء أنيقات اللباس واقفات في نهاية الرصيف . وعلقت زهرة قرنفل بشريط سترته .

وقد نفضها بيده بحركة محرجة مرتبكة . وطفق ضابط كهل ملتح من الأورال ، يتلو التحيات متلعثماً باسم كتائب القوزاق الاثنتي عشرة ، ولكن لستنتسكي لم يسمع ما قاله ، لأن الحشد دفعه إلى الجدار وكاد أن ينكسر مقبض سيفه . وبعد الكلمة التي ألقاها عضو مجلس الدولة روديتشف ، تحرك كورنيلوف ، بعد أن أخلى الطريق له ضباط متلازمو الأيدي . ولكن الجمهور اكتسحهم بعيداً . وامتدت عشرات الأيدي إلى كورنيلوف . وحومت حوله امرأة بدينة شعثاء وحاولت أن تضغط شفتيها بكمه . وفي مدخل المحطة رفع

كورنيلوف من كتفيه وحمل إلى الخارج وسط موجة من الهتاف . وبدفعة قوية من الكتف أفلح لستنتسكي في إزاحة كهل ، وأمسك بإحدى ساقي كورنيلوف ، ووضعها على كتفه . وتحرّك إلى الأمام قليلاً وهو يلهث من شدة الانفعال والجهد الذي يبذله لتثبيت قدميه دون أن يشعر بالثقل ، وقد أصمّه هدير المتجمعين ودوي الجوقة الموسيقية . وفي مدخل المحطة سوّى بدلته بسرعة بعد أن تجعدت تحت حزامه في الجلبة . وهبطوا الدرجات ومضوا إلى الساحة كان الجمهور في المقدمة ، ثم مراتب الجنود بملابسهم الخضر ، ثم سرية خيّالة قوزاقية . ووضع لستنتسكي يده فوق قمة قبعته ، وطرف بعينيه المغرورقتين بالدموع وحاول أن يسيطر على اضطراب شفتيه . وبعد ذلك علقت في ذاكرته صورة مضطربة من ضربات آلات التصوير ، وجنون المتجمهرين ، ومسيرة طلاب الكلية العسكرية المهيبة ، وجرم الجنرال كورنيلوف الصغير الممشوق بعينيه الزائغتين الفاحمتي السواد ووجهه المنغولي وهو يستعرض المسيرة .

* * *

وفي اليوم التالي عاد لستنتسكي إلى بتروغراد . وتسلق سريره العالي في مقصورته ، واستلقى فوق معطفه وجعل يدخن ويفكّر في كورنيلوف :

«لقد هرب من العدو مخاطراً بحياته ، لكأنه أدرك أن البلاد بأمس الحاجة إليه . وأي وجه! كأنه منحوت من الصخر ، ولا ينم عن شيء زائد أو طبيعي...وخلقه كذلك . كل شيء يجب أن يكون واضحاً بالنسبة له ، محسوباً بجميع تفاصيله . وعندما يحين الوقت فسوف يقودنا . ياللغرابة ، فأنا لا أعرفه .

أهو ملكي ؟ ملكي دستوري... ليتنا كنّا جميعاً واثقين من أنفسنا مثله» .

وفي الوقت ذاته تقريباً ، خلال فترة استراحة جلسة مؤتمر ولاية موسكو ، كان جنرالان ، أحدهما قصير ذو وجه منغولي ، والآخر بدين علا

رأسه المربع شعر كثيف قصير ، يتخطيان ذهاباً واياباً في ممرات المسرح الكبير* ، ويتحدثان بهدوء .

ـ هل يضمن هذا البند من التصريح إلغاء اللجان في الجيش ؟

ـ نعم .

ـ إن الجبهة الموحدة والتضامن التام لاغنى عنهما اطلاقاً . وما لم تنفذ الاجراءات التي أشرت اليها فلن يكون ثمة خلاص . فالجيش لاقدرة له على القتال . ان جيشاً كهذا لا يمكن أن يحقق النصر ، بل انه لن يستطيع الوقوف بوجه أي هجوم ذي شأن . فقد أشاعت الدعاية البلشفية التحلل بين الفرق . وهنا ، في المؤخرة ؟ ألست ترى كيف يقاوم العمال كل محاولة لتنفيذ الاجراءات التي تكبح من جماحهم ؟ اضرابات وتظاهرات! إن على أعضاء المؤتمر أن يذهبوا مشياً على الأقدام... فيا لها من فضيحة! ان عسكرة المؤخرة ، واقامة نظام قمعي شديد ، واستئصال البلاشفة بلا رحمة ، تلك هي مهامنا الآنية . فهل أستطيع الاعتماد على مساندتك في المستقبل ، أيها الجنرال كاليدين ؟

ـ انني معك بصورة مطلقة .

ـ كنت واثقاً من ذلك . شكراً . أنت ترى كيف تكتفي الحكومة بأنصاف الحلول والعبارات الرنانة ، عندما نكون بحاجة إلى اجراءات حازمة شديدة . فهم يتكلمون عن الضرب على أولئك الذين حاولوا ، مثل ثوار أيام تموز ، تهديد سلطة الشعب ، يتكلمون عن ضربهم بالنار والحديد . أما نحن الجنود فقد اعتدنا على العمل أولاً ثم الكلام بعد ذلك . بينما هم يفعلون العكس . حسنا... سوف يأتي الزمن الذي يذوقون فيه ثمار أنصاف حلولهم . ولكني لا أرغب أن أشاطر في هذه اللعبة غير المشرّفة . سأبقى نصيراً للكفاح المكشوف . أنا لست مراوغاً .

---

* مسرح بولشوي في موسكو . المترجمون

وتوقف كورنيلوف ، وسوّى أحد أزرار بدلة كاليدين ، وقال وهو يتهته بانفعال :

ـ لقد أبعدوا فوهة البندقية ، ولكنهم الآن يخافون ديمقراطيتهم الثورية ويطلبون مني نقل القوات التي يركن اليها قرب العاصمة ، بالرغم من أنهم في الوقت نفسه يخشون من اتخاذ أية إجراءات حقيقية بأنفسهم . خطوة إلى الأمام ، خطوة إلى الوراء... اننا لن نستطيع كسب تنازلات من الحكومة الا بالتوحيد الكامل لقواتنا وبالضغط المعنوي القوي . والا... فسوف نرى . ولن أتردد في ترك الجبهة مفتوحة . فليردهم الالمان إلى صوابهم!

ـ لقد بحثت المسألة مع الجنرال دوتوف ، ان لك كل السند من القوزاق . وما علينا سوى الاتفاق على تدابير أخرى .

ـ سوف أكون بانتظارك والآخرين في غرفتي بعد الدورة . كيف هو الوضع في الدون ؟

وغطس كاليدين ذقنه المربع الحليق الصقيل في صدره ، وأجاب وهو ينظر إلى الأرض ساهماً وشفتاه تحت شاربيه الكثين ترتجفان :

ـ لم تعد لدي ثقتي السابقة بالقوزاق . ومن الصعب التكهن بالوضع في هذه اللحظة . إن المساومة ضرورية ، ولا بد أن يذعن القوزاق بعض الشيء إلى الغرباء* ليضمنوا مساندتهم من جديد . وقد اخذنا بعض الخطوات في هذا الاتجاه ، ولكني لا استطيع ضمان نجاحها . وأخشى أن اصطراع المصالح بين القوزاق والغرباء قد يؤدي إلى انفجار . الأرض... جميع أفكارهم تتركز حول ذلك في الوقت الحاضر .

ـ يجب أن تكون لديك فرق قوزاقية يعتمد عليها على أهبة الاستعداد لحمايتك . وعندما أعود إلى مقر القيادة وأتحدّث إلى الجنرال لوكومسكي سوف نجد وسيلة ما لارسال عدد من الكتائب من الجبهة إلى الدون .

---

* أطلق هذا الاسم على من هم ليسوا بقوزاق ولكنهم يعيشون في مناطق متاخمة للقوزاق .

ـ اذا استطعت فسوف تجعلني كثير الامتنان لك .

ـ حسناً اذاً ، سنبحث هذا المساء مسألة تعاوننا في المستقبل . انني أعتقد اعتقاداً جازماً بالنجاح الكامل في تنفيذ خطتنا . ولكن الحظ غانية لعوب ، أيها الجنرال ، فاذا ادارت اليّ ظهرها برغم كل شيء ، فهل أطمئن إلى أنك ستأويني في الدون ؟

وابتسم كاليدين لأول مرة خلال الحديث ، وقال :

ـ لن آويك فحسب ، بل أذود عنك . ان القوزاق مشهورون بإكرامهم الضيف .

وبعد ساعة أعلن كاليدين ، أتمان قوزاق الدون ، في اجتماع يخيم عليه صمت مهيب بيان الكتائب القوزاقية الاثنتي عشرة التاريخي . ومثل خيط العنكبوت الأسود ، خيّم خطر مؤامرة كبرى على الدون ، والكوبان ، والتيريك ، والأورال ، والأوسورى ، في جميع أنحاء أراضي القوزاق من أقصاها إلى أقصاها ، ومن قرية لأخرى .

١٥

على مبعدة فرسخ من خرائب قرية صغيرة أتت عليها نيران المدفعية أثناء هجوم حزيران ، يمتد منعرج خنادق مريع عبر احدى الغابات . وكان القطاع المحاذي للغابة تحرسه سرية خاصة من خيّالة القوزاق .

ويمتد خلفهم ، وراء أجمة أشجار الحور والبتولا الصغيرة ، مستنقع فحم طيني صدىء ، بدأ تنقيبه قبل الحرب ، وتتألق زاهية ثمار التوت البري القرمزية من شجيرات أزهار الكلب . والى اليمين ، خلف نتوء بارز في الغابة ، يمتد طريق مرصوف بالحصباء حفرته القنابل ، وهو بقايا مسالك لم تنل منها الحرب بعد . وفي أطراف الغابة نما أيك ناعس عليه آثار الرصاص ، وجذوع متفحمة تكومت باهمال . ويرى من هنا طين المتاريس البني الفاتح ، وتمتد

الخنادق كالتجاعيد عبر الحقول المكشوفة المترامية الأبعاد . وخلف ذلك ، كان المستنقع بخرائب مناجم الفحم القديمة ، والطريق الخرب شاهدين بليغين على الحياة والعمل المهجور ، وفي نهاية الغابة لاحت الأرض صورة كئيبة مريرة للعيان .

وذات يوم ذهب ايفان أليكسييفتش الميكانيكي السابق في طاحونة موخوف إلى البلدة المجاورة حيث تقيم عربات نقل معدات السرّية ، ولم يعد حتى المساء الباكر . وتوجه إلى حفيرته فاصطدم بزاخار كوروليوف . وكان زاخار يركض تقريباً ويلوح بذراعيه بلا هدف ويحتك سيفه بالأكياس الرملية . فتنحّى إيفان اليكسييفتش جانباً ليدعه يمر ، ولكن زاخار أمسك به من أحد أزرار قمصلته ، وهمس في أذنه وهو يحملق بعينيه المصابتين باليرقان .

ـ هل سمعت ؟ المشاة الذين عن يميننا راحلون . لعلهم يتركون الجبهة مفتوحة ؟

فتدلت لحية زاخار السوداء كالحديد بشكل مضطرب ، ونمّت عيناه عن حنين عارم .

ـ ماذا تعني بـ « يتركون الجبهة مفتوحة » ؟

ـ انهم راحلون ، ولست أدري لماذا .

ـ ربما استبدلوا بغيرهم . فلنذهب إلى ضابط الرعيل ونسأله .

واستدار زاخار ، وذهب إلى حفيرة ضابط الرعيل ، وهو يتعثر وينزلق على الأرض اللزجة .

بيد أن السرية استبدلت بعد ساعة بالمشاة ، وسارت باتجاه المدينة ، وفي الصباح التالي امتطوا صهوات جيادهم ومضوا إلى المؤخرة في مسيرة اضطرارية .

كان ثمة مطر خفيف يتساقط ، وكانت أشجار البتولا تنحني بكآبة . وولج الطريق غابة ، وكان مشبعاً بشذى الرطوبة ورائحة الأوراق المتساقطة البالية ، وأخذت الخيل تزنخر وتحث خطاها . وكانت أوراد الحب الصافي

تتدلى عناقيدها ذات الحبات الوردية ، والتيجان المزبدة للبرسيم الأبيض تشع ببياض عجيب .

ونثرت الريح قطرات مطر كبيرة تساقطت من الاشجار على الفرسان . فتلطخت معاطفهم وقبعاتهم ببقع سود مبللة كما لو رشت باطلاقات . وطفا دخان التبغ وانساب فوق الصفوف .

ـ انهم يأخذون بخناقنا ويقذفون بنا من مكان إلى آخر .

ـ ألم تنالوا الكفاية من الخنادق ؟

ـ ولكن إلى أين تراهم ذاهبين بنا ؟

ـ إلى موقع جديد ،كما أحسب .

ـ لا يبدو ذلك .

ـ هيّا يا أولادي ، فلندخّن وننس همومنا .

ـ اني احمل همومي في حقائب سرجي .

ـ هل نستطيع انشاد أغنية ، أيها الرئيس ؟

ـ هل قال نعم ؟... ابدأ يا أرخيب!

كان القوزاق من الجبهة إلى ديارهم عائدين ،

وعلى اكتافهم كتافيات

وعلى صدورهم ميداليات...

وطفت الأصوات المخضلة الرطبة واهنة فوق الغابة ثم تلاشت . واستوى زاخاركوروليوف ، الذي كان راكباً في صف ايفان الكسييفتش ، قائماً على ركابه وهتف :

ـ أنتم أيها الناعبون! أهكذا يكون الانشاد ؟ انكم لا تصلحون الا للكدية في أبواب الكنائس!

ـ أنشد أنت اذاً .

ـ رقبته قصيرة جداً ، لا تكاد تخرج صوتاً .

ـ تخاف ها ؟

وقبض كوروليوف يده على لحيته المقمّلة السوداء وأغمض عينيه لحظة ، ثم لوّح بعِنانه وشجاعة ، وانطلق ينشد أغنية حماسية .

وكأن السرية قد استيقظت عند سماع المقطع الأول ، فتلقفت النغم بحماس ، وعلا هدير الأغنية في الغابة الندية .

واجتازوا المستنقع حتى نهايته يغنون ، فرحين بخلاصهم من « مقبرة الذئاب » كما كانوا يسمّون الخنادق . وفي مساء اليوم نفسه استقلّوا قطاراً مضى بهم نحو بسكوف . ولم يعرفوا إلا في وقت متأخر أن السرية قد نقلت مع بقية قطاعات فيلق الخيالة الثالث ، إلى بتروغراد للقضاء على التمردات التي اندلعت ثمة . وخفت الكلام في العربات ، وخيّم صمت كئيب . ولكن أحدهم وهو بورشوف طويل القامة أعرب عن شعورهم العام قائلاً :

ـ من المقلاة...

وفي أول موقف ذهب ايفان الكسييفتش ، الذي أصبح منذ آذار الرئيس الدائم للجنة السرية ، ذهب إلى آمر السرية وقال له :

ـ ان القوزاق قلقون أيها الرئيس .

وحدّق في النونة الغائرة في ذقن ايفان ، وأجاب وهو يبتسم :

ـ أنا قلق أيضاً يا صديقي .

ـ إلى أين يمضون بنا ؟

ـ إلى بتروغراد!

ـ للقضاء على الانتفاضات ؟

ـ حسناً ، لا أحسبك تظن أننا ذاهبون لمساعدة المتمردين ، أليس كذلك ؟

ـ لا هذا ولا ذاك .

ـ وكالعادة ، فهم لا يستفسرون عن آرائنا .

ـ ولكن القوزاق...

وقاطعه الضابط غاضباً :

ـ ماذا عن القوزاق ؟ أنا أعرف شخصياً ماذا يفكّر القوزاق . هل تعتقد أن

هذه المهمة تعجبني ؟ خذ هذه واقرأها على مسامع السرية . وفي اللحظة التالية سوف أتكلم إلى القوزاق .

وسلمه الآمر برقية مطوية ، وجعل يأكل لحم بقر مشحم من علبة وقد عبّرت تقطيبته عن نفور واضح من مذاقه .

وعاد ايفان اليكسييفتش إلى عربته حاملاً البرقية بحذر في يده ، وكأنها جمرة ملتهبة :« أدع القوزاق من العربات الأخرى » .

وبدأ القطار يتحرّك ، بيد أن عدداً من القوزاق قفزوا إلى عربة ايفان حتى بلغ عددهم حوالي الثلاثين .

قال لهم ايفان :

ـ لقد أعطاني الآمر برقية لأتلوها عليكم .

ـ فلنصغ إلى ماتقوله!

ـ اقرأ ، لا تثرثر!

ـ عن السلم ؟

ـ هدوءاً!

ووسط صمت موات قرأ عالياً بيان القائد العام كورنيلوف . ثم تلقفت الأيدي المبتلة بالعرق البرقية ومررتها على الجميع :

أنا ، القائد العام للقوات المسلحة كورنيلوف ، أعلن أمام الأمة برمتها بأن واجبي العسكري ، وولائي كمواطن لروسيا الحرة ، وحبّي العظيم للبلد قد دفعني في هذه اللحظات الحاسمة التي تقرر مصير أرض الجدود إلى رفض تنفيذ قرارات الحكومة المؤقتة ، ومن ثم احتفاظنا بالقيادة العليا للجيش والأسطول . واذ يساندني في هذا الموقف قواد جميع الجبهات ، أعلن للشعب الروسي أجمع بأنني أفضّل الموت على تنحيتي من مركزي .

ان الابن البار للشعب الروسي سيظل أبداً مستعداً للموت وهو يؤدي واجبه ويضحّي بحياته من أجل أرض أجداده .

وفي هذه اللحظات الرهيبة حقاً من حياة أرض أجدادنا ، حيث ، يكاد الطريق إلى مشارف عاصمتينا* أن يكون مفتوحاً أمام تقدّم عدونا المنتصر ، تنسى الحكومة المؤقتة قضية استقلال البلاد الرئيسية ، وتخيف الشعب بثورة ردّة وهمية ، تغذيها هي بعجزها عن الحكم وضعفها وترددها .

انني لست أرفض الدفاع عن الحريات العظمى لشعبي ولمستقبله العظيم ، وأنا ابنه البار الذي وهب حياته في خدمته . بيد أن هذا المستقبل يقع اليوم بين أيدي عديمي الإراده . إن عدواً وقحاً يعشش في صفوفنا وكأنه في بيته ، ويجلب الدمار عن طريق الرشوة والخيانة ، لا لقضية الحرية فحسب ، بل لكيان الشعب الروسي بالذات . تيقظ أيها الشعب الروسي ، وانظر إلى الهاوية السحيقة التي ينحدر اليها وطننا .

وتجنباً لما يحل من اضطرابات ، وحقناً للدم الروسي ، وبغض النظر عن التهم المتبادلة وكل ما جرى لي من اهانة ومذلة على يدهم ، أتوجه إلى الحكومة المؤقتة وأقول :«تعالوا اليّ في مقر القيادة ، حيث تصان حريتكم وسلامتكم بكلمة الشرف التي أتعهد بها ، لتعملوا معي على ايجاد وتنظيم خطة للدفاع الوطني من شأنها أن تصون الحرية وتقود الأمة الروسية نحو المستقبل العظيم الجدير بشعب حر وجبار .

الجنرال كورنيلوف

وفي المحطة التالية توقف القطار بعض الوقت . وتجمع القوزاق خارج شاحناتهم وأخذوا يتحدثون عن برقية كورنيلوف وأخرى من كيرنسكي تلاها آمر السرية ، تتهم كورنيلوف بالخيانة ومعاداة الثورة . وناقش القوزاق الموقف في حيرة ، وسرت البلبلة بين صفوف الضباط أيضاً .

قال مارتن شامل شاكياً :

. لقد اختلط عليّ الأمر تماماً . لا يعلم الا الشيطان أيهما المخطىء .

---

* المقصود هنا بتروغراد وموسكو . المترجمون

ـ كلاهما يريد الانقضاض على صاحبه ، أما نحن فعلينا أن نتحمّل العواقب .

ـ كلاهما يريد أن يكون في السلطة .

ـ السادة يتعاركون ، والقوزاق يتراجفون .

ـ والدوامة تدور... مصيبة!

وتقدّم رهط من القوزاق نحو ايفان اليكسييفتش وقالوا له :

ـ اذهب إلى الآمر واسأله عما يجب أن نفعل .

وذهبوا جميعاً إلى آمر السرية ، فوجدوا الضباط مجتمعين في شاحنته . ودخل ايفان اليكسييفتش :

ـ أيها الرئيس ، يتساءل القوزاق ما ينبغي أن يفعلوا .

ـ سأخرج اليكم بعد دقيقة .

ولبثت السرية بكاملها تنتظر عند الشاحنة الأخيرة ، ثم التحق الآمر بالمتجمهرين وشق طريقه إلى وسطهم ، ورفع يده قائلاً :

ـ نحن لا نخضع لكيرنسكي بل إلى القائد العام ورؤسائنا المباشرين . أليس هذا صحيحاً ؟ ومن ثم فعلينا أن ننفذ دون نقاش أوامر قائدنا الأعلى ونواصل المضي إلى بتروغراد . ومهما يكن الأمر فلسوف نكتشف الخبر اليقين حينما نصل محطة دنو ، حيث سنلتقي بقائد فرقة الدون الأعلى . ولهذا أطلب منكم ألا يستبد بكم القلق ، فهذا هو شأن زماننا الذي نحيا فيه .

ومضى الآمر يتكلم طويلاً عن واجب الجندي ، والوطنية ، والثورة ، محاولاً تهدئة القوزاق ، ويراوغ في الإجابه على أسئلتهم . وقد تحقق له ما أراد . وبينما كان يتكلم إلى القوزاق شدت قاطرة بالقطار(ولم يعلم القوزاق أن ضابطين من سريتهم قد عجلا في رحيلهم بتهديد مدير المحطة بالمسدسات) وتفرق الرجال إلى شاحناتهم .

ووصل القطار العسكري محطة دنو بعد يوم . وفي المساء توقف ثانية ريثما يمر قطار آخر يقل كتيبتي الأوسوري والداغستان .

وجر قطار القوزاق إلى خط جانبي . وتناهت اليهم أصوات غليظة ، وأنين أنغام المزمار وألحان غير مألوفة من شاحنة الداغستانيين وهي تجرجر عجلاتها بعيداً ، وكان يسطع هنا وهناك ضياء في العتمة الخالية .

وفي منتصف الليل تحرك القطار ثانية ، وكانت الماكنة الصغيرة قد وقفت طويلاً عند مضخة الماء والشرارات تتساقط من مشعلها ، وقد مال السائق بجسمه خارج غرفته يدخن سيكاره ، كمن ينتظر شيئاً . وأخرج قوزاقي رأسه في أقرب شاحنة وهتف :

ـ هيا يا ايفان تحرّك والا فسنطلق النار!

فبصق السائق سيكارته ، وحدق فيها اذ هوت خلال العتمة ، ثم تنحنح وقال :

ـ لا تستطيع أن تطلق النار على كل انسان ، ـ ثم ابتعد عن النافذة .

وبعد بضع دقائق تحركت القاطرة بشكل مفاجىء فأحدثت رجّة في المعدات وارتفعت قعقعة حوافر الخيل وهي تحاول أن تحافظ على الموازنة داخل الشاحنات . وانسل القطار حذو مضخة الماء وبضع نوافذ مضاءة وأشجار البتولا القاتمة . وأطعم القوزاق خيلهم وناموا أو جلسوا عند الأبواب المواربة ، يدخنون ويتطلعون إلى السماء ويفكرون .

واستلقى ايفان اليكسييفتش بجانب كوروليوف ينظر خلال خصاص الباب إلى النجوم العابرة . ظل طوال اليوم السابق يفكر في الموقف ، فتوصل إلى قرار راسخ يقضي بمنع السرية من الاستمرار في المضي شطر بتروغراد بكل مالديه من قوة . وفيما هو راقد ، راح يفكّر بأفضل طريقه يقنع بها القوزاق برأيه .

وكان قد أدرك حتى قبل بيان كورنيلوف أن طريق القوزاق هو غير الطريق الذي رسمه القائد العام ، ومع هذا فقد أنبأته سليقته بأنه ليس من صالحهم أيضاً أن يدافعوا عن كيرنسكي . ومضى يقلب المسألة في ذهنه المرة تلو المرة ، فعقد العزم على أن يحول دون وصول السرية إلى بتروغراد ، فاذا

كان لا بد من صدام مع جبهة ما ، فيجب أن يكون ذلك مع كورنيلوف ، ولكن ليس لصالح كيرنسكي ، ولا لصالح حكومته ، بل لمن ينبغي أن يأتي بعده ، وكان على ثقة كبيرة بأن الحكومة الحقة التي يريدها لن تأتي الا بعد زوال كيرنسكي ، لقد كان أثناء الصيف في القطاع العسكري للجنة الحزب التنفيذية في بتروغراد ، التي أرسلته اليها السرية للمشورة حول خصام حصل مع آمر السرية . وهناك شاهد عمل اللجنة ، وتكلم مع عدد من الرفاق البلاشفة ، وقال في نفسه : «دع هذا الهيكل العظمي يتجلبب بلحم عمالنا ، فتحصل من ثم على حكومة! وحتى لو مت يا ايفان ، فعليك أن تتشبث بذلك ، تتشبث به كما يتعلق طفل بصدر أمه!»

وإذ كان مستلقياً على جلّ حصانه ، راح يفكّر مرة بعد مرة وقلبه مفعم بعاطفة حارةغير مألوفة تجاه الرجل الذي كان أول من وجد بهدى قيادته طريقه الجديد الشاق . وبينما كان يفكر فيما ينبغي أن يقوله للقوزاق في الغداة ، تذكّر ما قاله شتوكمان عن القوزاق وأعاده مع نفسه بقناعة : «إن القوزاق محافظون حتى العظم ، ولا تنس أنك عندما تحاول إقناع واحد منهم حول حقيقة الأفكار البلشفية ، يجب أن تتصرف بحذر ، وروية ، وتكيّف نفسك وفقاً لمتطلبات الموقف . ففي البداية سيزدرونك مثلما ازدريتني أنت وميشا كوشيفوي ، ولكن لا تدع ذلك يقلقك . اعمل بدأب وعناد ، فالنجاح حليفنا في النهاية» .

وقدر لايفان أنه سيواجه من القوزاق بعض المعارضة اذا ما حاول اقناعهم بعدم الانضواء تحت لواء كورنيلوف ، ولكنه عندما بدأ يتكلّم في الصباح مع زملائه في الشاحنة ، ويقترح عليهم بأن يطالبوا بعودتهم إلى الجبهة لا أن يذهبوا إلى بتروغراد ليحاربوا اخوانهم ، وافقه القوزاق عن طيب خاطر وكانوا على أتم الاستعداد لرفض مواصلة الرحيل ، كان زاخار كوروليوف وقوزاقي يدعى توريلين أقرب إلى ايفان في وجه نظرهما ، فأمضيا نهارهما يتنقلان من شاحنة إلى اخرى ، ويتحدثان إلى الآخرين . وقرب المساء . بينما كان القطار

يمر ببطء خلال محطة صغيرة ، قفز نائب عريف من الرعيل الثالث إلى شاحنة ايفان ، وهتف بوجهه بانفعال :

ـ سوف تترك السرية القطار في أول موقف . أي رئيس لجنة أنت إن كنت تجهل ما يريده القوزاق ؟ نحن لن نمضي أبعد من هذا! ان الضباط يضعون الانشوطة حول رقابنا ، وأنت أشبه بأطرش في زفّة . ألأجل هذا انتخبناك ؟ لماذا تضحك ؟

ـ فأجابه ايفان باسماً :

ـ كان يجب أن تقول ذلك منذ زمن بعيد .

وفي موقف كان أول من قفز من الشاحنة ، وذهب إلى مدير المحطة يصحبه توريلين .

ـ لا ترسل قطارناخطوة أخرى . سوف نترك القطار هنا .

فتساءل الرجل مذهولاً :

ـ ماذا ؟ لدي تعليمات تقضي بإرسالكم...

فقاطعه توريلين بغلظه :

ـ اخرس!

ثم ذهبا إلى لجنة المحطة وأوضحا الموقف للرئيس ، وهو تلغرافي ذو شعر أرجواني وجرم متين . وبعد بضع دقائق حوّل سائق القاطرة القطار إلى خط جانبي عن طيب خاطر .

وهرع القوزاق لوضع الالواح الخشبية بين الشاحنات والرصيف وأخرجوا جيادهم . ووقف ايفان إلى جانب القاطرة يمسح العرق من وجهه الضاحك ، وقد باعد بين ساقيه . فجاء آمر السرية مهرولاً نحوه :

ـ ماذا أنت فاعل ؟ أنت تدري أن ذلك...

فقاطعه ايفان :

ـ أدري ، ولكن هدىء أعصابك أنت ، أيها الرئيس .

وأردف بوضوح وقد شحب وجهه :

ـ لقد أشبعتنا صياحاً ، يافتى . أما الآن فسنقوم نحن باصدار الأوامر .

ـ إن القائد العام ، كورنيلوف ،...

تأتأ الضابط بذلك ، وقد استحال لونه أزرق . بيد أن ايفان راح يحدّق بقوة في جزمته المنغرسة في رمل الخط الحديد ، ونصح الرئيس وهو يلوح بيده بارتياح :

ـ علق قائدك العام حول رقبتك بدلاً من الصليب ، أمّا نحن فلسنا بحاجة اليه .

واستدار الضابط على عقبيه وهرول إلى عربته .

وبعد ساعة مضت السرية خبباً تاركة المحطة باتجاه الجنوب الغربي وليس في صحبتهم ضابط واحد ولكنهم ساروا على أتم نظام .

وكان ايفان اليكسييفتش في مقدمة الرعيل الأول مع رماة الرشاشات ، يقودهم بمعية توريلين الربعة مساعداً له .

وتلمسوا طريقم بصعوبة مسترشدين بالخارطة التي غنموها من القائد ، وبلغوا قرية غوريلويه لقضاء الليلة . وفي اجتماع عام قرروا أن يعودوا إلى الجبهة ، ويحاربوا كل من يعترض سبيلهم .

وقيد القوزاق الخيل وعينوا الحرس ، ثم استلقوا بانتظار الفجر ، ولم يوقدوا ناراً وكان واضحاً أن معظمهم كان منقبض النفس ، وقد استلقوا دون أن يتبادلوا أحاديثهم ودعاباتهم المألوفة ، كاتمين ما يدور بخلدهم عن بعضهم البعض .

قال ايفان في نفسه جاداً وهو ينكمش تحت معطفه :« ماذا لو غيروا رأيهم وعادوا لإعلان خضوعهم ؟ » وتقدّم نحوه توريلين وكأن الخاطرة قد تناهت اليه .

ـ هل أنت نائم يا ايفان ؟

ـ لم أنم بعد .

وقرفص توريلين بجانبه وهمس وهو يشعل سيكاره :

ـ ان القوزاق قلقون... لقد فعلوا فعلتهم وبدأوا الآن يتخوفون . لقد زججنا أنفسنا في ورطة . مارأيك ؟

فأجابه ايفان بهدوء :

ـ سوف نرى . أنت لست خائفاً ، أليس كذلك ؟

فحك توريلين رأسه وابتسم ابتسامة شوهاء :

ـ انني خائف والحق يقال . في البداية لم أكن كذلك ، ولكني الآن خائف بعض الشيء .

ـ لا أظنك قوي المراس ، أليس كذلك ؟

ـ أن لديهم سطوة كبيرة ، ياايفان .

ولم يحر كلاهما جواباً . وانطفأت أنوار القرية . ومن مكان ما من مستنقع الصفصاف علا صوت ذكر بط ، فهمهم توريلين قائلاً : ـ ينادي انثاه ،ـ وعاد إلى صمته ثانيه .

أسدل الليل سكونه المهيب على المروج . واخضل الحشيش بالندى . وهب نسيم يحمل إلى انوف القوزاق روائح مختلطة تنبعث من حشائش المستنقع والنباتات العفنية ، والتربة الموحلة والأعشاب المبتلة بالندى . وبين آونة وأخرى يجلجل قيد أحد الخيل ، أو يسمع زخير أو زنخرة كلما استلقى حيوان ، ويعود الصمت الناعس ثانية ، ثم يتناهى نداء ذكر البط الوحشي من بعيد ، وجواب انثاه من مسافة أقرب . وحفيف خاطف لأجنحة غير منظورة يخترق الظلمات . ليل ، سكون ، رطوبة المرج الضبابية ، ومن الغرب في النظير* تصاعدت غمامة كبيرة بلون البنفسج القاتم . وفي السمت ، فوق أراضي بسكوف العريقة ، ترتسم المجرة درباً نارياً فسيحاً أشبه بتذكار خالد .

وفي الفجر انطلقت السرية ثانية . ومرت خلال قرية غوريلويه تتبعها ببطء أحداق النساء والأطفال الذين يسوقون الماشية إلى المرعى . وارتقت

---

* النظير ـ نقطة في القبة الزرقاء للسماء، على خط عمودي من المراقب وهي تقابل السمت . المترجمون

مرتفعاً صبغته أشعة الفجر بلون القرميد الأحمر . والتفت توريلين صدفة إلى الوراء ، فنخس ركاب ايفان بقدمه وقال :

ـ انظر إلى الوراء! هناك رجال يتعقبوننا على الجياد .

فتطلع ايفان إلى الوراء صوب القرية ، ورأى ثلاثة فرسان يهذبون بجيادهم وسط غيمة من الغبار الوردي المتطاير . فهتف آمراً :

ـ سرية ، قف!

وبمثل ماعرف القوزاق به من سرعة ، صفّوا أنفسهم في مربع رمادي اللون ، وعندما بلغ الفرسان مسافة تربو على نصف فرسخ خفضوا سرعتهم وأخذوا يسيرون خبباً . وأخرج أحدهم ، وهو ضابط قوزاقي ، منديلاً أبيض ولوّح به فوق رأسه . فحدّق القوزاق بأبصارهم في الفرسان المتقدمين . كان الضابط القوزاقي يرتدي قمصلة خاكية وهو يتقدم فارسين آخريين يرتديان ملابس شركسية .

وعدا نحوهم ايفان بفرسه وسألهم :

ـ ماذا تبتغون منّا ؟

فقال له الضابط وهو يؤدي التحية :

ـ جئنا لنتفاوض . من تولى أمرة السرية ؟

ـ أنا .

فقال الضابط وهو يشير بعينيه إلى الشركسيين :

ـ أنا مفوض من لدن فرقة قوزاق الدون الأعلى ، وهذان الضابطان هما ممثلان عن الفرقة المحلية .

وسحب عنان فرسه وهو يمسد رقبة حصانه المتصبب عرقاً وأردف قائلاً :

ـ اذا كنت راغباً في الشروع بمناقشة الموضوع ، فأصدر أمراً للسرية بالترجل . فعلي أن أبلغكم بالتعليمات الشفهية الصادرة من قائد الفرقة اللواء غريكوف .

وترجل القوزاق ، والممثلون كذلك . وشقّوا طريقهم إلى وسط الحشد . فأفسحت السرية لهم المكان وشكّلوا حلقة صغيرة . وتكلم الضابط القوزاقي أولاً :

- ايها القوزاق! لقد جئنا لكي نقنعكم بأن تعيدوا النظر فيما تفعلون وتتجنبوا العواقب الوخيمة لعملكم . فقد تناهى إلى علم قيادة الفرقة أمس أنكم استجبتم لتحريضات اجرامية قام بها البعض ، وتركتم شاحناتكم اعتباطاً ، فأرسلنا اليوم لننصحكم بالعودة حالاً إلى المحطة . لقد احتل جنود الفرقة المحلية وقوات الخيالة الأخرى بتروغراد أمس ، وقد تسلمنا برقية بهذا الشأن اليوم . ودخل حرسنا الأمامي المدينة ، واحتل الأبنية الحكومية ، والمصارف ، ودائرة التلغراف ، ومراكز التلفون وجميع النقاط الحساسة . وقد هربت الحكومة المؤقتة وقضي عليها . فتبينوا أيها القوزاق! إن لم تخضعوا إلى أوامر قائد الفرقة ، فسوف ترسل قوات مسلحة ضدكم . وسوف يعتبر تصرفكم خيانة ، وتمرداً على التزاماتكم العسكرية . وليس من سبيل إلى حقن الدماء الا باستسلامكم دون قيد أو شرط .

وعندما كان الممثلون الضباط قد اقتربوا منهم ، أدرك ايفان اليكسيفيتش أنه ليس من الممكن تجنب الدخول في نقاش معهم ، لأن ذلك لن يعطي سوى نتائج معاكسة لما يريد . وفكّر برهة من الوقت ثم أمر السرية بالترجل وغمز بعينه لتوريلين واقترب شيئاً فشيئاً من الضباط . ووقف القوزاق وهم منكسرو الخاطر مكتئبو الوجوه ، ينصتون بانتباه إلى كلمات الضابط ، وقد أخذ بعضهم يتهامس فيما بينهم . زاخار كوروليوف بلحيته السوداء الطافية على صدره مثل الحديد المنصهر ، كان يبتسم مذهولاً ، وبورشجيف يعبث بسوطه ويخاوص النظر ، ونائب العريف بشنيشنيكوف الذي اقترح ترك القطار في أول مكان ، ظل يحدّق إلى الأمام في الضابط فاغراً فاه ، ومارتن شامل يحكّ وجنتيه بكفّه القذرة ، ومن ورائه يبدو وجه قوزاقي آخر مصفر ، وكراسنيكوف ، وهو حامل رشاش ، مقطباً كمن يتوقع شيئاً ، وتوريلين يلهث

بنفسه ، وأوبنيزوف الأنمش يدفع قبعته إلى مؤخرة رأسه ويحرك رقبته كثور ينوء تحت نير . ووقف جنود الرعيل الثاني بكاملهم دون أن يرفعوا رؤوسهم ، كأنهم يؤدون الصلاة ، ولم يحر الجميع كلاماً ، بل ظلت الأنفاس اللافحة تسمع من الحشد المتراصف . كانت الوجوه تختلج بمخاوف ساورت نفوسهم جميعاً .

وأدرك ايفان أن القوزاق كانوا على وشك الاذعان . ولن تمضي بضع دقائق أخرى حتى يستطيع هذا الضابط ذو اللسان اللبق أن يستميلهم إلى جانبه ، ينبغي أن ينقشع الانطباع الذي تركه في نفوسهم بأي ثمن . ورفع ايفان يده ، وأجال النظر في الجميع بعينين متسعتين يخالطهما بياض غريب ، وهتف :

ـ ايها الاخوان! مهلاً!

والتفت إلى الضابط وسأله :

ـ هل جئت بالبرقية معك ؟

ـ فسأله الرئيس مندهشاً :

ـ أية برقية ؟

ـ البرقية التي تقول ان بتروغراد قد تم احتلالها .

ـ البرقية... بالطبع لا . ماذا تبتغي من البرقية ؟

ـ آه! اذا فهو لا يحتفظ بالبرقية!

وتنفست السرية بكاملها الصعداء . ورفع الكثير من القوزاق رؤوسهم ، وتشبثت عيونهم بإيفان وكلهم رجاء . فهتف بازدراء وثقة رافعاً صوته الأجش مستأثراً بانتباههم :

ـ تقول انها ليست معك ، ثم تريد منّا أن نصدقك على ذلك ؟ كلا ، لا تستطيع خداعنا!

وهدرت السرية بلهجة واحدة :

ـ إنها خدعة!

ووضع الضابط يده على صدره علامة الاقناع ، وقال :

ـ لم ترسل البرقية اليّ شخصياً ، أيها القوزاق!

ولكنهم لم يصغوا اليه . فشعر ايفان بأنه استعاد ثقة السرية وكسب مشاعرهم من جديد ، وقال بصوت حازم وكأنه يقطع الزجاج بالماس :

ـ وحتى لو كانت عندك ، فان سبيلنا هو غير سبيلكم .

نحن لا نريد أن نحارب قومنا! ولن نسير ضد الشعب . كلا! لم نعد حمقى . ولن نذهب لنقيم حكومة من الجنرالات . هذا كل مافي الأمر!

وهتف القوزاق باستحسان :«لقد أعطاهم إياها!» «هذا صحيح يا ايفان!» «اطردهم!» «في بتروغراد توجد ثلاثة أفواج قوزاقية لكنهم لا يريدون أن يحاربوا الشعب!» «ليغربوا عن وجوهنا!» .

ونظر ايفان إلى المبعوثين . كان الضابط القوزاقي ينتظر بصبر فارغ وقد زمّ شفتيه بقوة ، والى خلفه يقف الآخران كتفاً لكتف .

كان أحدهما ، وهو شاب من الأنغش ، معقود الذراعين ، وقد تألقت عيناه اللوزيتان المائلتان ، أمّا الآخر ، فهو كهل أشيب الشعر أوسيتاني . كانت يده حاطة بارتخاء على مقبض سيفه ، وكان يجول ببصره بين القوزاق قلقاً ساخراً . وكان ايفان على وشك أن ينهي النقاش ، غير أن الضابط القوزاقي استبقه بعد أن تهامس مع الأنغشي ، وصرخ بصوت جهير :

ـ ياقوزاق الدون! هل تسمحون لممثل الفرقة المحلية بالكلام ؟

وتقدّم الأنغشي إلى الامام بجزمته الخالية من المهاميز دون أن ينتظر الاذن بالكلام ، وهو يعبث بعصبية بحزامه الرفيع المرصّع بالفضّة :

ـ أيها الأخوة القوزاق! علام هذه الضجة ؟ أنتم لا تريدون الجنرال كورنيلوف ؟ هل تريدون حرباً ؟ حسناً . لسوف نحاربكم . نحن لسنا خائفين! لسنا خائفين اطلاقاً! سوف نمحقكم اليوم . فثمة كتيبتان من ورائنا! ها!

كان قد بدأ كلامه بهدوء مصطنع ، ولكنه عندما مضى في حديثه أخذ

يصب كلماته بانفعال زائد ، واختلطت عبارات من لغته الأصلية بكلمات روسية ، ركيكة ، وأردف :

ـ ذاك هو القوزاقي الذي يفسدكم! انه بلشفي ، وأنتم تتبعونه! هكذا! ألست على صواب ؟ ألقوا القبض عليه! جردوه من السلاح!

وأشار بتحد إلى ايفان ، وجال بعينه في دائرة المجتمعين ، ملوحاً بيديه دون هدف ، وقد ارتج جسمه انفعالاً واحمر وجهه المكفهر . أمّا زميله فقد حافظ على هدوء ثلجي ، وراح الضابط القوزاقي يعبث بشرابة سيفه ، وخيم الصمت ثانية على القوزاق ، وعاودهم القلق والارتباك . وحملق ايفان في الضابط الأنغشي ، في أسنانه التي تلتمع مثل أسنان الحيوان ، وفي خيط رمادي من العرق ينحدر على صدغه الأيسر ، وآلمه أنه ترك الموقف ينزلق في حين كان بمقدوره أن يحسم النقاش بكلمة واحدة ويواصل مسيرته على رأس القوزاق ، بيد أن توريلين أنقذ الموقف . فقد وثب إلى وسط الحلقة ملوحاً بيديه بانفعال ، وهدر وهو يشق قميصه :

ـ أيتها الأفاعي الزاحفة! يا أبالسة...! يا خنازير...! يتملقونكم مثل الزانيات ، وأنتم ترهفون اليهم آذانكم! لسوف يسوقكم الضباط حيث يشاؤون . ماذا أنتم فاعلون ؟ ماذا أنتم فاعلون ؟ يجب الاجهاز عليهم ، وأنتم واقفون تنصتون إليهم! اقطعوا رؤوسهم ، اهدروا دماءهم! انهم يقومون بتطويقنا الآن فيما أنتم تجعجعون . وسوف يحصدوننا بالرشاشات! ولن يطول بكم الاجتماع اذا ما بدأت تلعلع! إنهم يرمون بالجزة على عيونكم حتى يصل جنودهم . ها ، وتسمون أنفسكم بعد ذلك قوزاقاً! ما أنتم الا جمع من النسوان!

وهدر ايفان بصوت رهيب : « الى الجياد! » .

فانفجرت صرخته مثل القنبلة بين الحشد . واطلق القوزاق صوب جيادهم . ولم تمض دقيقة حتى انتظمت السرية ثانية رعائل .

وصرخ الرئيس :« مهلاً! أيها القوزاق! » .

فسحب ايفان بندقيته على كتفه ، ووضع اصبعه بثبات على زنادها ، وهتف :

ـ لقد انتهى الكلام! واذا كان علينا أن نتكلم معك الآن فبهذه اللغة!

ولوح ببندقيتة بما يفيد ذلك .

وتحرّك ركبهم رحيلاً في أثر رعيل ، والتفتوا إلى الخلف ، فرأوا المبعوثين يمتطون جيادهم ويتذاكرون فيما بينهم . كان الأنغشي يناقش بشدة ، ويرفع يده بين الآونة والأخرى ، ويلوح كم قميصه الحريري ناصعاً كالثلج ، وعندما التفت ايفان للمرة الأخيرة لمح هذا الشريط الحريري البراق . وفجأة لاح أمام ناظريه صدر الدون الذي لفحته الرياح ، وأمواجه الخضر المزبدة ، وجناح أبيض لنورس ينساب فوق رؤوس الأمواج .

١٦

في التاسع والعشرين من آب علم كورنيلوف من البرقيات التي تلقاها من كريموف بأن محاولة إسقاط الحكومة بواسطة القوات المسلحة قد باءت بالفشل .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر قدم إلى مقر القيادة ضابط مراسل يحمل رسائل من كريموف . وبعد أن تحدث معه كورنيلوف وقتاً طويلاً ، استدعى الجنرال رومافسكي . وقال وهو يدعك ورقة بعصبية :

ـ انهيار مطبق! لقد خسرت ورقتنا . فلن يستطيع كريموف أن يأتي بقواته إلى بتروغراد في الوقت المطلوب وستضيع علينا الفرصة . إن الشيء الذي بدا سهل التحقيق اعترضته آلاف العراقيل... الفشل المحتم . انظر إلى حركة القطارات العسكرية!

ونشر خاطرة تشير إلى تقدم فيلق الخيالة الذي يقوده كريموف والفرقة القوقازية نحو بتروغراد ، ومرقت عبر وجهه المتعب اختلاجة سريعة ، وأردف :

ـ انهم عمال السكك الأوغاد الذين يضعون أمامنا العراقيل في كل خطوة . وقد فاتهم أننا متى نجحنا لسوف أعلق واحداً من كل عشرة منهم على الفور . اقرأ تقرير كريموف .

وبينما طفق رومانوفسكي يقرأ التقرير ، ممسداً وجهه المنتفخ بيد ضخمة ، جعل كورنيلوف يحرر بسرعة :

نوفوتشيركاسك
الى اتمان قوزاق الدون
اليكسي ماكسيموفيتش كاليدين

لقد تناهى إلى علمي فحوى برقيتك إلى الحكومة المؤقتة . إن القوزاق الأماجد قد نفد صبرهم في صراعهم العقيم مع الأرذال والخونة . ، وهم إذ يرون البلاد قد شارفت على دمار محقق ، فقد باتوا على أهبة الاستعداد وسلاحهم بأيديهم للدفاع عن حياة وحرية أرض الأجداد التي نمت واتسعت بعرقهم ودمائهم . سوف نقلل من اتصالاتنا لفترة ما . أرجو منك أن تنسق أعمالك معي ، كما تملي عليك وطنيتك وشرفك القوزاقيان ، ٦٥٨ . ١٩١٧/٨/٢٩ .

الجنرال كورنيلوف

وانتهى من الكتابة وطلب من رومانوفسكي ارسال البرقية في الحال .

ـ هل تريد مني أن أرسل إلى الأمير باغراتيون برقية ثانية توصية بمواصلة الرحلة في مسيرة عسكرية .

ـ نعم ، أرسل .

وتوقف رومانوفسكي لحظة ، ثم قال بلهجة المتأمل :

ـ ليس هناك داع في رأيي للتشاؤم . أنت مخطئ في استباقك الحوادث...

كان كورنيلوف قد مد يده ليخطف فراشه حومت حول رأسه .

وراحت أصابعه تنقبض وتنفتح . وبدا وجهه متوتراً بعض الشيء وقد نم

عن ترقب . واندفعت الفراشة إلى النافذة بعد أن اربكتها حركة الهواء من حولها ، ولكن كورنيلوف استطاع أن يمسك بها ، ثم رمى بنفسه على كرسيه إلى الوراء وتنفس الصعداء .

وكان رومانوفسكي ينتظر الإجابة على ملاحظته ، بيد أن كورنيلوف استجاب له بابتسامة قاتمة شاردة .

ـ لقد رأيت حلماً في الليلة الماضية . حلمت أنني قائد لواء في إحدى فرق حملة البنادق ، أقود هجوماً في الكربات . وقد توقفت هيئة أركاننا عند مزرعة على الطريق ، وتقدم نحونا أوكراني حسن الهندام ، جاء ليحيينا ، وقدم لي لبناً لأشربه ، وقال لي بألمانية لاشائبة فيها وهو ينزع قبعته البيضاء المصنوعة من اللباد :

«اشرب أيها الجنرال! إن لهذا اللبن خصائص صحية رائعة»

ولاح لي في حلمي أنني شربت اللبن ولم أشعر بالدهشة عندما وجدت الأوكراني يربت بلا تكلف على كتفي ، ثم مضينا نحو الجبال ولم تعد تبدو مثل جبال الكربات ، ولكن في مكان ما في أفغانستان ، عبر ممر أشبه بطريق الماعز... نعم ، هو ذاك . طريق الماعز ، وكانت الحصباء والصخور البنية تنهار من تحت أقدامنا ، وفي الأسفل ، وفي قرار الأخدود شاهدنا منظراً طبيعياً من مناظر الجنوب الرائعة يتألق بأشعة الشمس الفضية...» .

وهبت نسمة خلل النافذة المفتوحة وعبثت بأوراق مكتبه . وحومت نظرة كورنيلوف الضبابية الغامضة في مكان ما وراء الدنيبر ، فوق المرتفعات القائمة والمروج ذات الخضرة النحاسية .

وشاركه رومانوفسكي النظر ، ثم جر آهة واهنة وأدار عينيه إلى صفحة الدنيبر الزجاجية الهادئة التي تشبه المايكا ، وإلى الحقول الضبابية التي كساها الخريف الماكر غلالة خلابة ناعمة .

١٧

توزعت مختلف قطع الجيش التي أرسلها كورنيلوف لاحتلال بتروغراد على شبكة واسعة من ثمانية خطوط حديدية صوب الشمال الغربي ، وضجت جميع المحطات الرئيسية وحتى المواقف الثانوية والخطوط الجانبية بالقطر العسكرية البطيئة . ولم تعد الكتائب تخضع للنفوذ الأدبي للقيادة العليا ، كما فقدت السرايا المبعثرة الصلة مع بعضها ، وازدادت البلبلة بتغير التعليمات أثناء السير ، والأوامر غير المتناسقة ، مما غذى القلق والتوتر المتفشيين بين الجنود .

كانت قوات كورنيلوف تتحرك ببطء نحو بتروغراد مواجهة مقاومة عنيدة من عمال السكك ومتخطية الصعوبات تلو الصعوبات .

وفي الشاحنات الحمر الصغيرة ، تجمع قوزاق جياع من جميع مناطق القوزاق ورجال القبائل القوقازية التي تشكل الفرقة المحلية ، إلى جانب جيادهم الجائعة أيضاً ، وكانت القطر تقف ساعات بطولها في المحطات بانتظار الإرسال . ، فينطلق الرجال من الشاحنات ويتدفقون إلى غرف الانتظار أو يتجمعون فوق الخطوط الحديدية ويأتون على كل ماخلفته القطر السابقة ، ويسلبون السكان خلسة ، وينهبون مخازن الطعام .

خطوط سراويل القوزاق الصفر والحمر ، وقمصلات الجنود الخيالة الأنيقة وسترات الجبليين الطويلة الضيقة عند الخصر... حلل زاهية الألوان لم يسبق لتلك الربوع الشمالية المتواضعة أن رأت مثلها .

وسوية مع الكتائب الأخرى التي تشكل فرقة قوزاق الدون الأولى ، مضت الكتيبة التي كان يخدم فيها يفغيني لستنتسكي سابقاً ، إلى بتروغراد على خط ريفيل ـ فيزنبورغ نارفا الحديدي .

وقد وصلت نارفا سريتان من الفرقة الخامسة بعد ظهر الثامن والعشرين من آب . وعلم الآمر أن مواصلة السفر مستحيلة تلك الليلة لأن الخطوط وراء

نارفا قد دمرت . فأرسلت ثلة من راصفي العوارض إلى الموضع ، وإذا ما استطاعت تصليح الخط في وقت مبكر فسوف يرسل القطار في الصباح الباكر . وكان القائد مضطراً إلى تقبل ذلك الحل . وارتقى عربته وهو يلعن ، وأخبر بقية الضباط بالنبأ ، ثم جلس يشرب الشاي .

كانت السماء ملبدة بالغيوم ، والريح تهب قاسية عنيفة من الخليج الفنلندي . وعلى الخطوط الحديدية والشاحنات تجمع القوزاق يتحدثون بأصوات خافتة ، بينما كانت الخيول تضرب الأرض الخشبية بحوافرها منفعلة مضطربة بصفارات القاطرات . وفي مؤخرة القطار انطلق صوت قوزاقي فتي يغني ، لا أحد يدري لمن كان يشكو همومه في العتمة :

وداعاً ياشوارع المدينة والحواضر
وداعاً ياقريتي العزيزة
وداعاً ياحبيبتي الصغيرة الفاتنة
وداعاً ياوردتي اللازوردية .
وذات مرة استلقيت من الغسق حتى الفجر
على ذراع حبيبتي الجميلة
ولكني اليوم من الغسق حتى الفجر
أقف وفي يدي بندقية

وظهر رجل من وراء بناية المخزن الرمادية . ثم وقف ، وراح يصغي إلى الأغنية ، ويتطلع إلى الطريق الذي تتلمع على صفحته هنا وهناك بقع من الضوء الأصفر ، ويمم بثقة صوب الشاحنات .

وكان لخطواته صدى مجوف في مسامع النائمين ، ولكنه تلاشى عندما سار في الممر الرملي بين خطوط السكك . ومر حول الشاحنة الأخيرة ، فتوقف القوزاقي الواقف عند بابها عن الغناء وناداه صائحاً :

ـ من ذاك ؟

فأجابه الرجل مكرهاً دونما أن يتوقف :

ـ من تتوقع ؟

ـ وعمّ تبحث في الليل ؟ سنسلخ جلودكم ياشذاذ الآفاق! واستمر الرجل في مشيه حتى بلغ منتصف القطار ، ومد رأسه في باب شاحنة ، وسأل :

ـ أية سرية أنتم ؟

فقال أحدهم هازلاً في الظلام :

ـ نحن سجناء!

ـ كلا ، أنا أقول جاداً .

السرية الثانية .

ـ وأين الرعيل الرابع ؟

ـ الشاحنة السادسة من الأمام .

ـ كان ثلاثة قوزاق أحدهم مقرفص والآخران واقفان ، يدخنون عند باب الشاحنة السادسة . حدقوا بصمت في الرجل المتقدم نحوهم .

ـ مرحباً ، أيها القوزاق!

فأجاب واحد منهم وهو يحملق في وجه القادم الجديد :

ـ مرحباً .

ـ هل نيكيتا دوغين على قيد الحياة ؟ هل هو هنا ؟ فأجابه الرجل المقرفص :

ـ إنه أنا

واستوى على قدميه ، وداس سيجارته بعقب حذائه ، وأردف :

ـ ولكني لاأعرفك . من أنت ؟ ومن أين ؟

ومد وجهه الملتحي إلى الأمام ليتفحص الغريب الذي يرتدي معطفاً وقبعة عسكرية مدعوكة . فهتف فجأة في استغراب :

ـ ايليا! بونتشوك! من أين نبعت بحق الشيطان ، ياولدي العجوز ؟

وشد على يد بونتشوك المشعرة بيده الخشنة ، وانحنى عليه وقال بشيء من الهدوء :

ـ هؤلاء أصحابنا لا تخش شيئاً . كيف أتيت إلى هنا ؟ قل لي ، عليك لعنة الشيطان!

وصافح بونتشوك القوزاقيين الآخرين وأجاب بصوت غليظ مجهد ، كأنه صوت حديد لا جرس له :

ـ جئت من بتروغراد ، وكنت أبحث عنك في كل مكان . إن ثمة مهمات أمامنا . وعلينا أن نتحدث في الأمر . لقد سرني أن أجدك حياً أيها الأخ .

وابتسم ، فالتمعت أسنانه ناصعة في وجهه الأشهب العريض ذي الحاجبين الكبيرين ، وتألقت عيناه عن سرور مكتوم .

وتساءل القوزاقي الملتحي مستغرباً :

ـ تريد أن تحدثنا إذاً ، ولاتترفع عنا ، وأنت ضابط ؟ شكراً ياولدي ايليا ، بارك الله فيك ، فنحن لم نذق طعم المعاملة الطيبة . ـ كانت في صوته نبرة تنم عن مزاج ممراح . فأجابه بونتشوك بلهجة ودية مماثلة :

ـ حسبك مزاحاً الآن! لقد نمت لك لحية تصل إلى حزامك ومازلت تعبث!

ـ بوسعي أن أحلق لحيتي في الحال ، ولكن قل لي ماذا يجري في بتروغراد . هل بدأت الانتفاضات ؟

واقترح بونتشوك :

ـ فلنذهب إلى الداخل .

وارتقيا إلى الشاحنة ، ونخس دوغين أحدهم بقدمه ، وهمس :

ـ انهضوا ، يا أولاد! لقد وصل ضيف نافع اسرعوا!

تحركوا .

فتململ القوزاق ونهضوا . وامتدت يدان ضخمتان تنبعث منهما رائحة التبغ وعرق الخيل ، إلى وجه بونتشوك تتحسسانه باهتمام في الظلام ، وصاحا صاحبهما :

ـ بونتشوك ؟

ـ صحيح . وهل أنت تشيكوماسوف ؟

ـ نعم ، انني مسرور بلقائك أيها الصديق . هل أذهب وأحضر أولاد الرعيل الثالث ؟

ـ فكرة معقولة .

وجاء الرعيل الثالث كله تقريباً ، ماعدا اثنين لبثا مع الخيل . وتقدّم القوزاق نحو بونتشوك ومدوا اليه أيديهم القوية الخشنة ، منحنين عليه ، متفحصين وجهه الكبير والحزين بعض الشيء على ضوء الفانوس . وكانت ثمة نبرة رفاقية دافئة متماثلة في تحياتهم جميعاً .

وضجت الشاحنة بالرجال وأصبح الجو خانقاً . وتراقصت بقع الضياء على الجدران المصفحة ، وترنحت الظلال المشوهة وانتشرت ، وشع الفانوس بنور زيتي خلل الدخان .

وأعدوا له مقعداً قبالة الفانوس ، وتجمعوا حوله ، وقد قرفص القريبون منه على أعقاب أقدامهم ، ووقف الآخرون في حلقة مكتظة وتنحنح دوغين ، وقال :

ـ لقد تسلمنا رسالتك قبل أيام يا ايليا ، ولكننا كنّا نرغب في رؤياك واستشارتك فيما ينبغي أن نفعله ، إنهم يرسلوننا إلى بتروغراد .

ـ انها على هذه الشاكلة يا ايليا .

قال ذلك قوزاقي واقف قرب الباب . وقد تدلى قرط من شحمة أذنه المتغضنة ، وهو الشخص الذي أهانه لستنتسكي ذات مرة بمنعه من غلي الماء على الصاج ، وأردف :

ـ لقد جاءنا شتى المحرضين وحاولوا أن يقنعونا بعدم المضي إلى بتروغراد ، يطلبون منّا إن لا نحارب بعضنا وما إلى ذلك . وكنّا نصغي اليهم ، ولكننا لا نثق بهم كثيراً ، فهم ليسوا من قومنا . فقد يضعوننا في مأزق خطر دون أن ندرك ذلك . وإذا ما رفضنا الذهاب إلى بتروغراد فسوف يرسل كورنيلوف فرقته القوقازية ضدنا ، مما سيؤدي إلى إراقة الدماء أيضاً . ولكنّك قوزاقي مثلنا ، ونحن نثق بك أكثر من غيرك ، ونحن ممتنون لك لأنك كتبت

لنا وأرسلت الينا صحفاً... وفي الواقع ، كان الورق يعوزنا للف السجاير .

فقاطعه آخر مغضباً :

ـ بماذا تهرف يا ذا الرأس المتحجر ؟ أنت لا تجيد القراءة ، ومع ذلك تتكلم عنها . ولكننا لسنا جميعاً مثلك . لكأنما استعملنا الجرائد للسجاير فقط!

ـ كنا نقرأها من ألفها حتى يائها يا ايليا .

ـ يا لك من شيطان كذوب!

ـ « يعوزنا للف السجاير » يا له من أسلوب ظريف!

وحاول القوزاقي ذو القرط أن يستدرك ، وقال :

ـ كلا ، لم أعن ذلك أيها الأولاد . طبيعي أنا نقرأها أولاً...

ـ هل قرأتها أنت ؟

ـ لم يتسن لي أن أتعلم القراءة . ولكن ما أعنيه هو أننا نقرأها سوية ، ثم نستعملها للسجاير...

وابتسم بونتشوك ابتسامة مقتضبة وهو يحدق في القوزاق ووجد صعوبة في الكلام وهو جالس ، فنهض ، وأدار ظهره للفانوس وراح يتكلم بهدوء وهمة .

ـ ليس لديكم ماتفعلونه في بتروغراد . ولم تحصل هناك أية انتفاضة ولكن هل تعرفون لماذا يرسلونكم إلى هناك ؟ كي تطيحوا بالحكومة المؤقتة ومن يقودكم ؟ الجنرال القيصري كورنيلوف . وماذا يبتغي بعد أن يزيح كرنسكي ؟ أن يأخذ مكانه . استمعوا أيها القوزاق! إنهم يريدون أن يزيحوا النير الخشبي عن رقابكم ؟ ليضعوا آخر حديدياً مكانه! يجب أن تختاروا أهون الشرين . أليس كذلك ؟ فكروا في ذلك مع أنفسكم : ففي أيام القيصر كانوا يلطمون وجوهكم ويستخدمونكم في الحرب . وفي أيام كيرنسكي ماانفكوا يريدون منكم أن تحاربوا ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يلوحوا بقبضاتهم أمام وجوهكم . ولكنكم ستجدون وضعاً مغايراً بعد زوال كيرنسكي ، عندما يتولى

البلاشفة زمام السلطة فالبلاشفة لا يريدون الحرب ومتى ما جاؤوا إلى الحكم حل السلام في الحال . أنا لست إلى جانب كيرنسكي فليأخذه الشيطان ، فإنهم كما يقال مُسحوا بمسحة واحدة!

وابتسم ، ثم مسح العرق عن جبينه بيده ، وواصل :

ـ ولكني أهيب بكم أن لا تريقوا دم العمال . وإذا استولى كورنيلوف على السلطة فسوف تخوض روسيا بدماء العمال حتى الركبة ، وسوف يكون من الصعب انتزاع السلطة من يده وإيداعها إلى الكادحين .

وظهر قوزاقي قصير يشبه بونتشوك في بدانته من الصفوف الخلفية وقال :

ـ انتظر لحظة يا ايليا .

وتنحنح الرجل وفرك يديه الطويلتين اللتين تشبهان جذور بلوطة قديمة غسلها المطر ، ونظر إلى بونتشوك بعينين ضاحكتين بمثل خضرة الأوراق اليانعة ولزوجتها وأضاف متسائلاً :

ـ لقد ذكرت شيئاً عن النير . ترى ما شكل النير الذي سيضعه البلاشفة على رقابنا ؟

ـ ماذا ، هل ستضعون أنتم أنفسكم نيراً على رقابكم ؟

ـ ماذا تعني ب« تضعون نيراً على رقابنا » ؟

ـ حسناً ، من سيأتي إلى الحكم في عهد البلاشفة ، أنت إذا انتخبوك ، أو دوغين أو هذا الولد الكبير ، سوف تكون حكومة منتخبة ، حكومة السوفييت فهمت ؟

ـ ولكن من سيكون على رأسها ؟

ـ ذاك الذي ينتخب . وإذا اختاروك فسوف تكون أنت على رأسها .

ـ هل هذا صحيح أم أنك تمزح يا ايليا ؟

وضحك القوزاق وجعلوا يتكلمون جميعهم في آن واحد وحتى الحارس الذي أنيطت به حراسة الباب ترك مكانه لحظة ليشاركهم .

ـ ولكن ماذا سيفعلون بالأرض ؟

ـ ألن يأخذوها منا ؟

ـ هل سينهون الحرب ؟ ربما كان مجرد كلام لنقترع لهم ؟

ـ قل لنا الحقيقة . نحن في ظلام هنا .

ـ لا يستطيع المرء أن يصدق الغرباء . وثمة أقاويل كثيرة تحوم حولنا...

ـ أمس جاء بحار ينتحب على كيرنسكي ، فلطمناه على رأسه وطردناه من الشاحنة . فصرخ الأحمق في وجوهنا قائلاً : « إيه ياأعداء الثورة! » .

ـ نحن لا نعرف ماذا تعني كلماتهم الطويلة .

وتلفت بونتشوك يمنة ويسرة متفحصاً القوزاق بعينيه ، وانتظر حتى هدؤوا . لقد زال شعوره الأول من عدم الثقة بنجاحه في مسعاه ، وتيقن أنه مهما حدث فسوف يتوقف القطار في نارفا لأنه يعرف أمزجة القوزاق . فعندما تطوع في اليوم السابق أمام لجنة الحزب لمنطقة بتروغراد لعمل الدعاية بين مفارز فرقة الدون الأعلى التي كانت تقترب من بتروغراد ، كان واثقاً من النجاح ، ولكنه عندما وصل نارفا ساورته الشكوك . كان يدرك أن عليه أن يتحدث إلى القوزاق باللغة التي يفهمونها ، وكان يخشى أنه قد لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، لأنه مذ غادر الجبهة منذ تسعة أشهر لم يختلط بغير العمال ، واستوعب في الحال وبصورة تامة عاداتهم وأساليبهم في الكلام . كان يحس وهو يتحدث اليهم أن كلمة واحدة تكفي للتعبير عن مقصده ، ولكن الأمر ليس كذلك هنا مع أبناء القوزاق ، فهو بحاجة إلى لغة كاد أن ينساها ، لغة الأرض السوداء ، وبحاجة إلى مرونة تحاكي مرونة السحلية وإلى حجة إقناع قوية . فلم يكن إذكاء اللهيب كافياً ، فهنا ينبغي أن تبقى النار تصطلي لتأتي على الخوف المزمن من الجهر بالتمرد ، وتهدم أسوار الجهل ، وتزرع الشعور في نفوس القوزاق بأنهم على صواب ، وتقودهم إلى الأمام .

ولكنه في بادئ كلامه مع القوزاق أحس بتلكؤ وتصنع في صوته ، كما لو كان هو نفسه يصغي إلى كلماته الباهتة وهاله مالمسه من ضعف في حجته ،

وأخذ يعذب نفسه ويعصر ذهنه عله يتفتق عن كلمات كبيرة ، كلمات ذات وزن يمكن أن تقتحم الحواجز وتقنع الآخرين . ولكن شفتيه لم تتمخضا إلا عن كلمات فارغة أشبه بفقاعات الصابون ، بينمت كانت تصطخب في ذهنه أفكار شاردة عقيمة ، وكان العرق يتصبب منه بشدة ، كان يتنفس بصعوبة ، ومضى يحدث نفسه «لقد ائتمنت على هذه المهمة الكبيرة ، وها أنا ذا أحطمها بنفسي . لا أستطيع رصف الكلمات... ماذا دهاني ؟ كان بوسع رجل آخر أن يتكلم أحسن مني ألف مرة . أوه إلى الجحيم ، يا لي من أبله!» .

وانتشله القوزاقي الذي سأله عن النير ، من عيه ذاك ، فهيأ الكلام الذي أعقب إجابته فرصة ليلم شتات فكره وأحس بدفق غير اعتيادي من القوة والغنى في اختيار كلمات ماضية واضحة بتارة . وتشجع ، وكتم انفعاله خلف مظهر ينم عن هدوء ، وإذ انهالت عليه الأسئلة عنيفة ثقيلة ، راح يدير النقاش كفارس ذلل حصاناً جامحاً .

ـ أخبرنا لماذا كان المجلس التأسيسي سيئاً ؟

وانهمر وابل الأسئلة : «لينينكم ، ألم يرسله الألمان إلى هنا ، أليس كذلك ؟...» . «كلا» . «إذاً من أين جئتم به ؟» . «هل جئت يابونتشوك من تلقاء نفسك أم أنهم أرسلوك .» . «لمن سيعطون أرض القوزاق ؟» . «ولماذا كانت الحياة تعيسة تحت ظل القيصر ؟» . «أوليس المناشفة مع الشعب كذلك ؟» . «لدينا مجلس عسكري خاص بنا وحكومة شعبية . ترى ما حاجتنا للسوفيات ؟» .

لقد عالج الأسئة واحداً فواحداً . وانفض الاجتماع الصغير بعد منتصف الليل ، بعد أن تقرر دعوة السريتين لاجتماع عام في الصباح . وقضى بونتشوك الليلة في الشاحنة ، وأبدى تشيكاماسوف استعداده ليشاركه بطانياته . وعندما رسم القوزاقي علامة الصليب ، واضطجع ، نبه بونتشوك قائلاً :

ـ يبدو أنه لا يهمك المكان الذي تنام فيه... ولكن أرجو أن تعذرنا ، فقد

صرنا طعاماً للقمل . فلا تتكدر إذا ما لسعك . لقد سئمنا وضعنا حتى تركناه ينمو فيغدو بحجم بيض البط...

وتوقف لحظة ، ثم سأل بونتشوك بصوت خفيض :

ـ إلى أي قوم ينتسب لينين يا بونتشوك ؟ أعني أين ولد ، وأين ترعرع ؟

ـ لينين ؟ انه روسي .

ـ كلا ؟ .

ـ بالتأكيد ، روسي .

فقال تشيكا ماسوف بلهجة متعالية :

ـ كلا ، أيها الأخ ، أنت مخطىء في هذا! يبدو أنك لا تعرف عنه الكثير . هل تعرف من هو ؟ انه من دمنا . من قوزاق الدون ، وقد ولد في منطقة سالسكي ، قصبة فيليكوكنا جيسكايا... هل تفهم ؟ ويقال أنه كان مدفعياً في الجيش . ووجهه يليق بذلك : فهو يشبه القوزاق الجنوبيين ـ بعظام وجنتيه الكبيرة وعينيه .

ـ أين سمعت ذلك ؟

ـ سمعت القوزاق يتحدثون في ذلك مراراً فيما بينهم .

ـ كلا ، يا تشيكاماسوف . إنه روسي ، وقد ولد في مقاطعة سمبرسك* .

ـ لا أصدقك ، للسبب البسيط التالي . خذ بوغاتشوف ، ألم يكن قوزاقياً ؟ وستنكا رازين ؟ ويرماك تيموفييفيتش ؟ تلك هي المسألة! ليس هناك رجل قاد الناس الفقراء ضد القيصر إلا وكان قوزاقياً . وتقول أنت عنه أنه من مقاطعة سمبرسك . إنني أخجل عند سماع مثل هذا الكلام ، يا ايليا...

وتساءل بونتشوك وهو يبتسم :

---

* المدينة أوليانوفسك حالياً . المعرب

ـ إذاً ، فهم يقولون إنه قوزاقي ؟

ـ نعم ، وهو قوزاقي بالفعل ، سوى أنه لايقول ذلك الآن . وحالما أرى وجهه سأتيقن من ذلك .

وأشعل تشيكاماسوف سيجارة ونفث دخان تبغ خام حريف في وجه بونتشوك . وتنحنح متفكراً :

ـ لاشك أنه شيء مدهش ، وقد تشاجرنا حتى كدنا نتضارب من أجل ذلك . ولكن كما ترى ، لو كان لينين قوزاقياً مثلنا ، وأحد رجال المدفعية ، فمن أين جاءته المعرفة ؟ حسناً ، يقال أن الألمان قد أسروه في بداية الحرب ، فتعلم كل ذلك هناك ، ولكنهم تخوفوا عندما حرض عمالهم على الثورة وكسب مثقفيهم «انقشع عنا ، ياذا الرأس الكبير! » هكذا قال له الألمان . «انقشع إلى شعبك ، بحق المسيح ، فأنت تسبب لنا من المتاعب ما لم يكون بمقدورنا ايقافها » . وهكذا أرسلوه إلى روسيا لأنهم كانوا يخشون أن يحمل عمالهم على الثورة . آها! إنه لشديد المراس ، أيها الأخ!

نطق تشيكاماسوف الكلمات الأخيرة مباهياً ، وضحك جذلاً في الظلام وأضاف :

ـ لم يسبق لك أن رأيته أليس كذلك ؟ كلا ؟ شيء مؤسف . يقال أن له رأساً ضخماً ، وسعل وزفر من منخريه لولباً رمادياً من الدخان وأردف :

ـ ينبغي أن تلد الأمهات المزيد من أمثاله . سوف يطيح بأكثر من قيصر! كلا ، يا ايليا ، لا تحاول أن تناقشني . لينين قوزاقي . ولماذا تريد أن تشكك في ذلك ؟ إن رجالاً كأولاء لم تتمخض عنهم مقاطعة سمبرسك .

لبث بونتشوك صامتاً ، والبسمة على محياه . وقد طال به الوقت دون أن ينام . فقد زحف القمل عليه ، ناشراً حكة حادة موجعة تحت قميصة . وتثاءب تشيكاماسوف وشرع يحك جنبه ، وقد طرد عنه النعاس صهيل حصان هائج . فظل يتقلب على جنبيه ولما أدرك والغيظ مستبد به أنه يقظ كل اليقظة ، جعل يفكر في اجتماع الغد . وحاول أن يتصور أي شكل ستتخذ مقاومة الضباط

وابتسم متجهماً . «لعلهم سيهربون إذا ما قاومهم القوزاق بصورة إجماعية ، ولكن من يدري . أيحسن بي أن أتكلم مع لجنة الحامية من باب الاحتياط» . ولأمر ما تذكر حادثة وقعت في هجوم ١٩١٥ ، وكما لو سره أن تجد طريقها إلى ذاكرته ثانية ، شرع ذهنه يستجمع بالحاف شتات الذكرى : الوجوه والهيئة البشعة لجنود قتلى من روس وألمان ، نتف من كلام ، وآثار مشاهد الطبيعة أتى عليها الزمن وحال لونها ، وخواطر لم تجد من يعبر عنها ، وأصداء خافتة لقذف المدافع ولعلعة الرشاشات المعهودة وثرثرة أحزمتها ، وصداح الأنغام الجميلة حتى الألم ، ومعالم باهتة لفم امرأة أحبها ذات مرة ، ومرة أخرى آثار الحرب : الموتى ، الأكمات الواطئة حيث يدفن الجنود سوية...

وجلس وقال ، أولعله فكر في نفسه... «سأظل أحمل هذه الذكريات حتى الممات ، وكذلك سيحملها كل الذين عاشوا أيامها . لقد شوهت حياتنا كلها ، وحلت عليها اللعنة! تباً لهم...! تباً لهم! حتى الموت لايكفي لغسل جرائمهم» .

ثم تذكر لوشا الفتاة التي لها من العمر اثنتا عشرة سنة ، وهي ابنة صديق له كان عامل تعدين قتل في الحرب . كانا يعملان معاً في تولا . فذات مساء بينما كان يسير في أحد الشوارع وجد الفتاة ـ وهي طفلة نحيلة خرقاء ـ جالسة على مصطبة ، تدخن سيجارة وقد مدت ساقيها بوقاحة إلى الأمام . وكان وجهها ذليلاً ، وعيناها كليلتين ، وشفتاها المطليتان اللتان تخفيان مرارة في زاويتهما كانتا ناضجتين قبل الأوان . «ألا تعرفني أيها العم ؟» ـ قالت ذلك بصوت أجش وبابتسامة المحترفات ، ونهضت . ثم أجهشت ببكاء يائس كالأطفال ، حانية رأسها لاصقة إياه بساعد بونتشوك .

فصر على أسنانه وأنّ ، وكاد أن يختنق من الحقد الذي ملأ قلبه . وكان يدلك صدره الأشعر طويلاً ، وشفتاه ترتجفان وجلس يغلي صدره ، كأنما كان الحقد يغلي فيه مثل الحمم الساخنة ، يثقل عليه نفسه ويسبب له ألماً وخازاً تحت قلبه .

ولم يعاوده النوم إلا قبيل الصباح . وفي الفجر ذهب إلى لجنة عمال السكك وقد بدا أصفر مرهقاً أكثر من ذي قبل ، وأقنعهم بعدم إرسال القطار الذي يقل الجنود القوزاق إلى نارفا ، ثم بحث عن لجنة الحامية ليضمن مساندتها .

وعاد إلى القطار في الساعة الثامنة وهو يحس بجميع خلجاته برودة الصباح وقد عراه شعور غامض بالفرح لنجاحه المحتمل في مسعاه ، ولأشعة الشمس المتساقطة على سقف المخزن الصدئ ، ولصوت امرأة رقيق موسيقي . وكانت زخة ثرة من المطر قد تساقطت في الهزيع الأخير من الليل ، وكانت أرض الخطوط الحديدية الرطبة وقد خددتها آثار مسارب صغيرة ، وانبعثت منها رائحة ندية ولم تزل حفر قطرات المطر على سطحها ، وكأنها آثار جدري .

وفيما هو يدور حول الشاحنات اتجه نحوه ضابط يرتدي معطفاً وجزمة ملطخة بالطين . وتوقف كالميكوف وقد شع من عينيه السوداوين المائلتين برود ظاهر .

ـ النائب الضابط بونتشوك ؟ الا تزال مطلق السراح ؟ أعذرني فلن أقدم لك يدي...

وزم شفتيه بقوة وحشر يديه في جيبه . فأجاب بونتشوك هازئاً :

ـ لقد تعجلت بالكلام ، فلم يكن لديّ ميل لأن أمدّ لك يدي .

ـ ماذا تفعل هنا ؟ تنجو بجلدك ؟ أم...جئت من بتروغراد ؟ أنت لست مبعوثاً من الصديق كيرنسكي ؟

ـ أهذا استجواب ؟ .

انه محض فضول مشروع عن مصير هارب كان يوماً زميلاً .فهزّ بونتشوك كتفيه ، وقال مبتسماً :

ـ أستطيع أن أؤكد لك ، أنني لم آت مبعوثاً من كيرنسكي .

وتطلع كالميكوف إلى قامة بونتشوك المحدودبة بعض الشيء بنظرة رثاء وازدراء ، وقال :

ـ ولكنكم متحدون بالتأكيد كالأحبة الآن أمام الخطر . وعلى كل حال ، من وما أنت ؟ لا شارات على كتفيك ، وترتدي معطف جنود ، تاجر سياسة جوّال ؟ هل أنا مصيب فيما أقول ؟

واستدار على عقبيه ومضى دون أن ينتظر الجواب .

ووجد بونتشوك دوغين ينتظره في الشاحنة .

ـ أين كنت ؟ لقد بدأ الاجتماع .

ـ ماذا ؟ هل بدأ ؟

ـ نعم . لقد عاد هذا الصباح آمر سريتنا كالميكوف من بتروغراد ، ودعا القوزاق للاجتماع . وقد ذهب قبل لحظة ليتحدث إليهم .

ولبث بونتشوك بضع دقائق ليعرف متى أرسل كالميكوف إلى بتروغراد... فأخبره دوغين بأنه كان غائباً منذ شهر .

«أحد أعداء الثورة ، ارسله كورنيلوف إلى بتروغراد بحجة دراسة فن القصف ، ولا بد أنه من أتباعه المخلصين» ـ قال ذلك في نفسه فيما كان يسير مع دوغين نحو الاجتماع .

وخلف الحانوت كانت حلقة خاكية كثيفة من قمصلات القوزاق ومعاطفهم . وفي الوسط وقف كالميكوف على برميل مقلوب وقد أحاط به عدد من الضباط ، يصيح بعزم وقوة :

ـ ... نسير نحو نتيجة مظفرة . وهم يثقون بنا ، وسوف نكون عند حسن ظنهم ، وها أنذا أتلو عليكم برقية من الجنرال كورنيلوف .

وبسرعة لا مبرر لها أخرج ورقة مدعوكة من جيب قمصلته وهمس في اذن قومندان القطار .

وجاء بونتشوك ودوغين واختلطا بالقوزاق . وشرع كالميكوف يقرأ بطريقة تعبيرية لا تخلو من حماس :

ـ أعزائي القوزاق ، أيها الاصدقاء! أليس على جماجم أسلافكم ترامت رقعة الأمة الروسية ، وأصبحت روسيا أمة عظيمة بفضل بسالتكم الجبارة ،

ومآثركم المجيدة ، وتضحياتكم وبطولاتكم ؟ أنتم يا أبناء الدون الهادئ الأحرار ، ومحاربي الكوبان نهرنا الجميل ، ويا أبناء التيريك الثائر ، ويا نسور الأورال ، وأورنبرغ ، واستراخان ، وسميريتشنك ، وسهوب سيبيريا وجبالها . وعبير البيكال القصية ، والآمور والأوسوري ، لقد رفعتم على الدوام شرف ومجد راياتكم ، ان الأرض الروسية مليئة بالاساطير والأعمال البطولية لآبائكم وأجدادكم . وقد دنت الساعة لتهرعوا إلى انقاذ تربة وطنكم .

انني أتهم الحكومة المؤقتة بالتذبذب ، وعدم الأهلية وعدم القابلية على الحكم ، وبالسماح للألمان بالسيطرة على شؤون البلاد الداخلية ، كما حدث في حادث انفجار قازان ، حيث أصاب الخراب حوالي مليون قنبلة و ١٢,٠٠٠ مدفع رشاش . كما أنني أتهم أعضاء معيّنين في الحكومة بالخيانة ، وبوسعي البرهنة على ذلك . فعندما حضرت اجتماعاً وزارياً في قصر الشتاء* في الثالث من آب ، أخبرني رئيس الوزراء كيرنسكي وسافنكوف بألا أفصح عن كل ما اريد لوجود أناس غير مخلصين بين أعضاء الحكومة . واضح اذا أن حكومة كهذه تقود البلاد إلى الدمار ، وأن حكومة كهذه لا يمكن أن تكون موضع ثقة ، ومن مثل هذه الحكومة لايمكن أن تنتظر روسيا الشقية الخلاص... . ولهذا السبب ، عندما طلبت الحكومة المؤقتة مني ، استرضاء للأعداء ، أن أستقيل من منصب القائد العام للقوات المسلحة ، رأيت أنا ، القوزاقي المخلص لشرفه وضميره ، أن أرفض هذا الطلب ، مؤثراً الموت في ساح المعركة على العار وخيانة الوطن الأم . أيها القوزاق ، يا فرسان الأرض الروسية! قطعتم على أنفسكم وعداً أن تهبّوا معي للدفاع عن الوطن الأم عندما أجد ضرورة لذلك ؟ ان تلك الساعة قد دقّت . ذلك أن أرض الأجداد على شفا الهاوية! ولن أرضخ لأوامر الحكومة المؤقتة ، ولأجل أن أنقذ روسيا الحرة ، سوف أقاوم الحكومة ومستشاريها عديمي

---

* قصر القياصرة الروس في بتربورغ (لينينغراد حالياً) .

الشعور بالمسؤولية الذين يبيعون البلاد . صونوا أيها القوزاق الشرف والعزّة ، وبرهنوا على بطولة شعبكم التي لا ضريب لها ، لتنقذوا الوطن والحرية التي حققتها الثورة ، أطيعوني ونفذوا أوامري! اتبعوني! ٢٨آب ١٩١٧ . القائد العام للقوات المسلحة

الجنرال كورنيلوف

وتريث كاليميكوف وهو يطوي الورقة ، ثم هتف :

ـ ان عملاء البلاشفة وكيرنسكي يعيقون حركة قطعاتنا على الخطوط الحديدية . لقد تسلمنا تعليمات من قائد القوات المسلحة تقضي بالذهاب إلى بتروغراد على ظهور الجياد متى ما أصبح من الصعوبة بمكان السفر عن طريق السكك الحديد . وسوف نبدأ رحلتنا اليوم . استعدوا لمغادرة القطار .

واندفع بونتشوك إلى وسط الحلقة وهو يشق طريقه بصعوبة خلل الحشد ، ورفع صوته جهيراً دون أن يقترب من جمع الضباط :

ـ أيها الرفاق القوزاق! لقد أرسلني اليكم عمال وجنود بتروغراد . ان ضباطكم يقودونكم لمحاربة اخوانكم ، لقهر الثورة . فاذا أردتم أن تهاجموا الشعب ، واذا اردتم أن تعيدوا الملكية ، فاتبعوهم! ولكن عمال وجنود بتروغراد ينتظرون منكم ان لا تفعلوا فعلة قابيل . وهم يبعثون اليكم تحياتهم الاخوية الحارة ، ويأملون أن يجدوا فيكم حلفاء لا أعداء...

ولم يسمح له بالاستمرار . صخب لغط يعز عن الوصف ، وكادت عاصفة الهتافات أن تطيح بكاليميكوف من على البرميل .

ولكنه خطا نحو بونتشوك ، ثم تراجع بضع خطوت واستدار نحو القوزاق :

ـ أيها القوزاق! لقد فر نائب الضابط بونتشوك من الجبهة في العام الماضي ، وأنتم تعرفون ذلك . فهل يسعنا أن نصغي إلى هذا الجبان الخائن ؟

وطغى على صوته جئير العقيد سوكين ، آمر السرية السادسة :

ـ القوا القبض على هذا الوغد! كنّا نريق دماءنا بينما كان يختبئ في المؤخرة! القوا عليه القبض!

ـ انتظر لحظة أنت والقاؤك القبض!

ـ دعوه يتكلم!

ـ لا تكمّ فم غيرك! ليقل هو رأيه!

ـ القوا القبض عليه!

ـ نحن لا نريد هاربين من الجيش!

ـ هيا ، يا بونتشوك! تكلّم!

ـ فليسقطوا!

ـ أعطهم درساً يا بونتشوك ، أعطهم درساً! أصبحت شجى في حلوقهم!

وارتفعت جوقة من الأصوات المتضاربة بين القوزاق . واعتلى البرميل قوزاقي حاسر الرأس مديد القامة ، وهو عضو في لجنة الكتيبة الثورية .

وبكلمات نارية طلب من القوزاق ألا يطيعوا أوامر الجنرال كورنيلوف ، خائن الثورة ، وتكلم عن النتائج الوخيمة لمحاربة الشعب . وفي خاتمة حديثه التفت إلى بونتشوك ، وصاح :

ـ وأنت أيها الرفيق ، لا تظن أننا نزدريك كما يفعل الضباط . نحن مسرورون لرؤيتك ، ونحترم فيك ممثلاً للشعب ، ولأنك لم تبصق على القوزاق عندما كنت ضابطاً ، بل كنت معهم كالأخ . ولم نسمع منك كلمة فظة مطلقاً ، ولا تعتقد أننا ، نحن الجهلة ، لا نقدّر المعاملة الطيبة . فحتى القطيع يفهم الكلمة الطيبة ، فكيف بنا نحن بني البشر . اننا نرحب بك ، ونرجو منك أن تخبر عمال بتروغراد أننا لن نرفع يداً ضدهم .

وعلا هدير من هتافات مثل قرع الطبول . ارتفع عالياً ، ثم خفت ببطء ، وتلاشى .

وقفز كالميكوف ثانية إلى البرميل ، وراح يترنّح بقوامه الوسيم نحو القوزاق ويشمّر بيديه . وجعل يتكلّم وهو شاحب يلهث عن مجد وشرف

الدون ، وعن رسالة القوزاق التاريخية ، وعن الدم الذي أراقوه ضباطاً وجنوداً .

وأعقب كالميكوف قوزاقي له شعر حائل اللون . ولكن صياح الجمهور طغى على تهجّمه المحموم على بونتشوك ، وسحبوه من على البرميل . وفي الحال قفز تشكا ماسوف . ونعق وهو يلوح بكلتا يديه إلى الأسفل كمن يحطب جذعاً :

ـ لن نذهب! لن نترك القطار! يقول كالميكوف ان القوزاق وعدوا بمساعدة كورنيلوف ، ولكن من طلب منّا هذا الشيء ؟ اننا لم نعد كورنيلوف بشيء! ان ضباط تحالف القوزاق هم الذين اعطوا الوعود . لقد هز الجنرال كريموف ذيله ، اذا فليساعده هو .

وتواثب الخطباء واحداً بعد الآخر على البرميل . وكان بونتشوك واقفاً محني الرأس ، يعلو الاصفرار المرضي وجنتيه والدماء تضج في عروق وجهه ورقبته . كان الجو مكهرباً . كان محض تسرع طفيف كفيلاً بأن يتمخض عن اراقة دماء . ولكن جنود الحراسة جاؤوا دفعة واحدة ، فترك الضباط القوزاق الاجتماع .

وبعد نصف ساعة هرع دوغين مهرولاً إلى بونتشوك :

ـ ماذا نفعل يا ايليا ؟ ان كالميكوف يعد شيئاً ما . لقد أفرغوا المدافع الرشاشة ، وأوفدوا رسولاً على ظهر جواد إلى مكان ما .

ـ هيا! اجمع عشرين قوزاقياً أو ما اليهم . اسرع!

وازاء عربة الضباط كان كالميكوف وثلاثة ضباط أخرين يحملون الخيل مدافع رشاشة . فتقدم نحوهم بونتشوك بخطى سريعة ، ونظر إلى القوزاق خلفه ، ومدّ يده إلى جيب معطفه ، وسحب مسدساً جديداً معتنى بتنظيفه من النوع الذي يحمله الضباط ، وصاح :

ـ كالميكوف ، أنت رهن الاعتقال! ارفع يديك...

ووثب كالميكوف بعيداً عن الحصان ، وانحنى ليسحب مسدسه من بيته . الا أن طلقة مرقت فوق رأسه ، وكرر بونتشوك بصوت ثقيل ينذر بالسوء :

ـ ارفع يديك!

وارتفع زناد مسدسه ببطء إلى وضعية نصب نصفي . فراقبه كالميكوف بعينين ضيقتين ، ورفع يديه ببطء مرتعش الأصابع .

وسلم الضباط أسلحتهم مرغمين .

وتساءل نائب ضابط شاب من حملة الرشاشات باحترام :

ـ هل يجب أن نسلّم سيوفنا ؟

ـ نعم .

وأنزل القوزاق الحمولة عن الخيل وجاءوا بالرشاشات إلى داخل الشاحنة .

وقال بونتشوك لدوغين :

ـ ضع على هؤلاء حراسة . أما أنت يا تشكاماسوف ، فألق القبض على الضباط الآخرين وآت بهم إلى هنا ، وسآخذ أنا ودوغين كالميكوف إلى لجنة الحامية الثورية . أيها الكابتن كالميكوف ، أخط إلى الأمام رجاء!

ـ عمل بارع... بارع! ـ قال أحد الضباط بنبرة اعجاب ، وهو يقفز إلى الشاحنة ويرى إلى بونتشوك ودوغين وكالميكوف وهم يسيرون .

ـ ايها السادة! ياللعار ، أيها السادة! لقدتصرفنا مثل الأطفال! فلم يفكّر أحد في اطلاق النار على ذلك النذل! كان ينبغي أن نلقنه درساً عندما رفع مسدسه بوجه كالميكوف ، فينتهي كل شيء .

قال ذلك العقيد سوكين وهو ينظر إلى بقية الضباط ساخطاً ، ثم راح يبحث عن سيكارة في علبته بأصابع مرتجفة .

وألمح ضابط شاب من حملة الرشاشات معتذراً :

ـ كان هناك منهم رعيل بأكمله ، بوسعهم إبادتنا .

وأشعل الضباط السكاير بصمت ، وراحوا يتبادلون النظرات بين آنٍ وآخر . لقد أذهلتهم السرعة التي تصرف بها بونتشوك .

ولبضع خطوات مشى كالميكوف دونما كلام ، ولكنّه كان يعض ذؤابة شاربه السوداء . والتهبت وجنته اليسرى البارزة العظم وكأنها قد صفعت وكان المارة يتوقفون ويحدّقون دهشين ويتهامسون مع بعضهم . وكانت سماء ذلك المساء غائمة فوق المدينة . ورقدت أوراق البتولا التي جردها آب المارق مثل سبيكة حمراء على صفحة الطرق . وكانت الغربان تحوم حول قبة الكنيسة الخضراء . وخلف المحطة ، خلف الحقول المعتمة ، هبط المساء بارداً ، ولم تزل تُرى صوب الجنوب غيوم بيضاء ـ رمادية ، ممزقة ، تندفع من نارفا إلى بسكوف ولوغا . وعبر الحدود غير المنظورة ، زحف الليل بظلاله .

وعند المحطة استدار كالميكوف وبصق في وجه بونتشوك ، وقال :

ـ نذل...

وزاغ بونتشوك عن البصاق ، ورفع حاجبيه . واستحثته أصابعه ليمسك المسدس . ولكنه كبح جماح نفسه وأمر الضابط باقتضاب أن يواصل المشي .

واستأنف كالميكوف السير وهو يصب لعناته ويرسل سيلاً من السباب . ويتوقف بين حينٍ وآخر ثم يلتفت نحو بونتشوك ويصرخ :

ـ أنت خائن! وسوف تدفع ثمن ذلك!

وكان بونتشوك يستحثه مراراً وتكراراً قائلاً :

ـ هيا! رجاء...

ويقف كالميكوف مرة أخرى ويكوّر قبضتيه ، ويهدر مثل الحصان الجامح . ثم اقتربا من صهريج الماء . وصرخ كالميكوف وهو يطحن بأسنانه :

ـ لستم حزباً ، بل عصابة من حثالة المجتمع . من هم قادتكم ؟ هيئة الأركان الالمانية! بلاشفة... ها ها! هجناء! ان حزبكم يمكن أن يُشترى مثلما تشترى العاهرات . أوغاد! أوغاد ينبغي إبادتهم...! لقد خنتم أرض الآباء! لو كان بمقدوري لعلقتكم على شجرة واحدة... . ولكن الوقت سيحين . لم يبع

لينينكم روسيا بثلاثين ماركاً المانياً ، بل أخذ مليوناً كاملاً ، لا أقل... وأخفى نفسه... يا له من مجرم!

وهتف بونتشوك في الحال وهو يلهث بكلماته :

ـ قف عند الحائط!

فبدا الاضطراب على دوغين :

ـ ايليا! بونتشوك! انتظر لحظة! ماذا أنت فاعل ؟ قف!

ولاح وجه بونتشوك أزرق شوهه الغيظ ، ووثب على كالميكوف وصفعه بقوة على صدغه . وداس على القبعة التي طارت من على رأس الضابط ، وسحب الأسير نحو جدار صهريج الماء الآجري القاتم .

ـ قف!

وهدر كالميكوف وهو يقاومه :

ـ ماذا ستفعل... ؟ أنت... لن تجرؤ... هل تجرؤ على ضربي!

وعندما التصق ظهره بالحائط ، استقام ، وأدرك كل شيء في الحال .

ـ إذاً ، فسوف تقتلني!

وخطا خطوة إلى الأمام ، وفتح أزرار معطفه بخفّة .

ـ ارمِ ، ياابن الخنزير! ارمِ...! وانظر كيف يموت الضباط الروس...! أنا أقف بوجه الموت...

وأصابته الطلقة في فمه ، وتردد صدى الإطلاقة حول صهريج الماء وخمش كالميكوف رأسه بيده اليسرى ، وترنّح ، ثم سقط . وقوّس ظهره ، وبصق أسناناً ملوثة بالدم على صدره ، ولعق شفتيه بلسانه ، ولم يكد يلمس ظهره الأرض الندية حتى أطلق عليه بونتشوك ثانية . فتشنجت أوصال كالميكوف وارتعشت ، وانحنى على جنبه ، ثم سقط رأسه على صدره كالطير الوسنان ، وشهق .

ابتعد بونتشوف . فلحق به دوغين .

ـ ايليا... لماذا أطلقت عليه النار يا بونتشوك ؟

فامسك بونتشوك بكتفيه ، وسمّر عينيه بعيني القوزاقي ، وقال بلهجة رقيقة هادئة بشكل غريب :

ـ إمّا نحن أو هم! وليس هناك طريق وسط . الدم بالدم . فهمت ؟ ان أشخاصاً مثل كالميكوف ينبغي أن يزاحوا ، يسحقوا كالأفاعي . كما يجب أن يرمى أولئك الذين يتوجعون عليهم .

أفهمت ؟ علام تتوجع ؟ اجمع شتات نفسك! كن صلباً! ولو كنّا بيد كالميكوف القذرة ، لكان قد رمانا دون أن يرفع السيكارة من فمه ، وأنت... . انّما أنت طفل لا يعرف غير البكاء!

بيد أن دوغين هزّ رأسه واصطكت أسنانه ، وفقدت قدماه ، في جزمتهما المتسخة ، حاسة الاتجاه .

وسارا في الشارع المهجور دونما كلام . والتفت بونتشوك إلى الوراء . كانت الغيوم الداكنة السائرة صوب الشرق تزيد واطئة في السماء ، ومن خلال فجوة بين السحاب أطل القمر شاحباً مغسولاً بالمطر كأنه عين محولة خضراء ، وفي زاوية وقف جندي وامرأة على كتفيها شال أبيض ملتصقين مع بعضهما . كان الجندي يعانق المرأة ويسحبها اليه ، ويسرّ لها بشيء . ولكنها دفعته من صدره بيديها وابتعدت برأسها عنه وهمهمت بنبرة مختنقة :« لا أصدّقك! لا أصدقك! » ثم انطلقت من شفتيها ضحكة فتية ناعمة .

١٨

في الحادي والثلاثين من آب أطلق الجنرال كريموف الرصاص على نفسه حين استدعاه كيرنسكي إلى بتروغراد .

ثم أخذ ممثلو وحدات جيش كريموف وقوادها يتوافدون على قصر الشتاء ليعلنوا ولاءهم . وأحنى الرجال الذين كانوا إلى وقت قريب ماضين للانتفاض على الحكومة المؤقتة هاماتهم ومسحوا أذيالهم أمام كيرنسكي ، مؤكدين له

ولاءهم التام . وكان جيش كريموف يعالج سكرات الموت بعد أن تحطمت معنوياته . وكانت بعض القطعات ماتزال تزحف على بتروغراد بفعل الاستمرارية ليس الا ، ولكن لم يبق للحركة أي هدف بعد ، لأن تمرّد كورنيلوف كان في رمقه الأخير ، وقد همد أوار الانفجار الرجعي ، وأصبح حاكم البلاد الوقتي ـ والحق أنه لم يعد لين الملمس ـ يتبختر كنابليون ، ويتكلم في اجتماعات الحكومة عن « اشاعة الاستقرار السياسي في جميع أنحاء روسيا » .

وقبل انتحار كريموف بيوم عيّن الجنرال أليكسييف قائداً للقوات المسلحة . ولكن أليكسييف الذي يعرف كيف يحسب للأمور حسابها ، رفض في البدء رفضاً باتاً المنصب الذي عيّن له ، ادراكاً منه لطبيعة مركزه المواربة ، غير أنه وافق بعد ذلك بدافع وحيد ، هو رغبته في تخفيف عقوبة كورنيلوف والذين اشتركوا معه بشكل من الأشكال في تنظيم عصيانه المعادي للحكومة . واتصل اليكسييف بكورنيلوف اتصالاً هاتفياً مباشراً في مقرّه ، ليطمئن من موقف القائد السابق إزاء تعيينه ووصوله الوشيك . وقد استطالت المفاوضات متقطعة بين حينٍ وآخر ، حتى ساعة متأخرة من الليل .

وفي اليوم نفسه عقد كورنيلوف مؤتمراً لضباط أركانه ومساعديه . فكانت الأكثرية إلى جانب مواصلة الحركة .

والتفت كورنيلوف إلى لوكومسكي الذي ظل صامتاً خلال النقاش :

ـ هل ستدلي برأيك يا ألكسندر سيرغييفتش ؟

فأوضح لوكومسكي بعبارات متحفظة ولكنها جازمة ، أنه ضد استمرار الكفاح من أجل السلطة . فقاطعة كورنيلوف بحدّة :

ـ الاستسلام اذاً ؟

فهز لوكومسكي كتفيه ، وقال :

ـ ان الظروف تفصح عن نفسها .

واستمر النقاش نصف ساعة أخرى . كان كورنيلوف خلال ذلك صامتاً وهو يبذل جهداً جهيداً للسيطرة على نفسه . ثم فضّ الاجتماع واستدعى

لوكومسكي بعد ساعة . وقال له :

ـ أنت على حق يا ألكسندر سيرغييفتش .

وطق أصابعه وقال بلهجة مهمومة وهو ينظر جانباً بعين مدلهمّة كليلة :

ـ ان الاستمرار في المقاومة ضرب من الجنون والاجرام .

وجلس ينقر على المنضدة بأصابعه وبدا وكأنه يصغي إلى شيء ما ـ ربّما إلى أفكاره الشاردة كالفئران ـ وتساءل :

ـ متى يصل أليكسييف ؟

ـ غداً .

وفي اليوم الأول من أيلول وصل أليكسييف إلى مقر القيادة .

وفي مساء اليوم نفسه اعتقل كورنيلوف ، ولوكومسكي ، ورومانوفسكي حسب تعليمات الحكومة المؤقتة .

وقبل أن يرسل القادة المعتقلون الى فندق متروبول ، ليوضعوا تحت الحراسة هناك ، أجرى ألكسييف مقابلة شخصية مع كورنيلوف دامت عشرين دقيقة . ثم غادر الغرفة ، هو يهتز من أعماقه ، ويكاد لا يسيطر على نفسه . وعندما حاول رومانوفسكي أن يواجه كورنيلوف اعترضته زوجة الأخير قائلة :

ـ آسفة ، فلقد طلب منّي ألا أسمح لأي انسان بالدخول مطلقاً .

فألقى رومانوفسكي إلى وجهها نظرة خاطفة وعاد على عقبيه ، يطرف بانفعال بعينيه .

وفي اليوم التالي في بيرديتشيف ألقي القبض على القائد العام للجبهة الجنوبية الغربية الجنرال دينكين ، مع الجنرالات ماركوف ، وفانوفسكي ، وأرديلي .

وهكذا في بيخوفو ، في ثانوية البنات النبيلات ، انتهى تمرّد كورنيلوف نهاية غير مظفرة ، كما شاء لها التاريخ . ولكنها تمخضت عن تمرد جديد ، ذلك أن البوادر الأولى لخطط الحرب الأهلية القادمة والهجوم الموسّع على الثورة كانت قد أعدّت في الواقع في « أيام كورنيلوف » .

١٩

في صباح يوم باكر من أيام أكتوبر الأخيرة تسلم الرئيس لستنتسكي تعليمات من آمر الكتيبة تقضي بأن يمضي بسريته مشياً على الأقدام إلى ساحة قصر الشتاء . فأصدر الأوامر اللازمة لرئيس العرفاء ، وارتدى ملابسه على عجل . واستيقظ الضباط الآخرون وهم يتثاءبون ويلعنون ويسألون :

ـ ما سبب ذلك ؟

ـ البلاشفة!...

ـ ايها السادة! من أخذ خراطيشي ؟

ـ إلى أين ننطلق ؟

ـ هل تسمعون ؟ يطلقون النار!

ـ من يطلق النار ، عليك اللعنة! هذه هلوسة ، لا غير!

وذهبوا إلى الباحة . ثم انتظمت السرّية في هيئة رعائل . وقادهم لستنتسكي في مسيرة سريعة إلى الشارع . كان شارع نيفسكي مهجوراً . وكانت تتناهى إلى الاسماع اطلاقات من بعيد بين الحين والآخر . وكانت سيارة مسلحة تدور حول ساحة قصر الشتاء ، وكان طلاب الكلية العسكرية في الحراسة . وخيّم على الشوارع صمت صحراوي . وعند أبواب القصر التقى القوزاق بمفرزة من طلاب الكلية العسكرية وضباط السرّية القوزاقية الرابعة . وانتحى أحدهم ، وهو آمر السرية ، بلستنتسكي جانباً وقال له :

ـ هل جئت بكامل أفراد السرية معك ؟

ـ نعم ، ولِمَ ؟

ـ لقد رفضت السرايا الثانية والخامسة والسادسة المجيء ، ولكننا جئنا بمفرزة الرشاشات معنا . كيف حال قوزاقك ؟

فأتى لستنتسكي بحركة مقتضبة من يده وقال :

ـ لا يركن إليهم! ولكن ماذا عن الكتيبتين الأولى والرابعة ؟

ـ ليستا هنا . لن تأتيا . أنت تدري أن من المتوقع أن يقوم البلاشفة بهجوم اليوم . الشيطان يدري ماذا ينتظرنا .

وتأوه باكتئاب وأضاف :

ـ ليتني كنت الآن في الدون بعيداً عن كل هذا...

وقاد لستنتسكي سريته إلى باحة القصر . وكوّم القوزاق أسلحتهم وأخذوا يتجولون في الساحة الفسيحة ، في حين تجمّع الضباط في أحد الأركان يدخنون ويتحدثون .

وبعد ساعة وصلت كتيبة من طلاب الكلية العسكرية وفوج النساء . وأخذ طلاب الكلية العسكرية مواقعهم مع رشاشاتهم في ممر القصر . واحتشدت النساء في الباحة . وتجمّع القوزاق حولهن وجعلوا يطلقون نكات نابية ، وصفع عريف احدى النساء على ظهرها وقال :

ـ انك تصلحين لانجاب الأطفال ، يا خالة ، وليس للتدخل في شؤون الرجال .

فردّت عليه «الخالة» الصدوف بصوت عميق :

ـ احبل أنت بالأطفال!

فقال توكوفنوف وهو من المؤمنين القدامى ، وذو كلف بالجنس اللطيف ، ممازحاً النساء المجندات :

ـ ايه يا بنات ، ما لكنّ وهذا .

ـ هنّ بحاجة إلى سلخ جلودهن ، العاهرات!

ـ ما أروعهن من جنود!

ـ لماذا لا يبقين في بيوتهن ، يعملن شيئاً أفضل من هذا ؟

ـ هن من الأمام يماثلن الجنود ، أمّا من الخلف فهنّ أشبه بقديس ، أو بشيء آخر لا يعلمه الا الشيطان ، يثرن فيك الرغبة لبصاق!

ـ أنت أيتها المغوارة! هزي عجزك قليلاً وإلا هززته لك!

وقهقه القوزاق عالياً . ولكن أمزجتهم المرحة تبخرت عند اقتراب

الظهيرة . وتوزعت النساء فصائل ، وحُصّنت الأبواب بجذوع كبيرة من خشب الصنوبر . وكانت تقودهن امرأة ضخمة ذات جرم رجولي ، تحمل ميدالية القديس غيورغي على معطفها الذي يناسبها . وأخذت السيارة المسلحة تدور حول الساحة أكثر من ذي قبل ، ونقل تلامذة الكلية العسكرية صناديق ملأى بالخراطيش وأحزمة الرشاشات .

ـ حسناً ، أيها الفتية ، لقد زُجّ بنا في المعمعان .

ـ الجو يوحي بالقتال .

ـ علام جاؤوا بك إلى هنا إذاً ؟ لتنشب ظفرك بالنساء ؟

وتجمع حول لاغوتين رهط من الرجال من منطقته يتحدثون عن شيء ما . واختفى الضباط ، ولم يبق في الباحة غير القوزاق والنساء . وكان ثمة عدد من الرشاشات المهجورة قائماً عند البوابات . وقد التمعت دروعها الندية .

وبدأت السماء ترِدّ عند الغروب . وشرع القوزاق يتذمرون لأنهم تركوا بلا طعام .

ـ أين لستنتسكي ؟

ـ انه في القصر ولن يدعنا طلاب الكلية العسكرية ندخل إلى هناك .

ـ يحسن بنا أن نرسل أحدهم ليأتي بمطبخ الميدان .

وأرسل رجلان . وقد نصحهما لاغوتين قائلاً :

ـ لا تأخذا بندقيتيكما خشية أن ينتزعوهما منكما .

وانتظر القوزاق بضع ساعات أخر ، دون أن يبدو أثر لمطبخ الميدان ولا الرسولين . واتضح فيما بعد أن المطبخ قد أعاده على أعقابه جنود كتيبة أخرى . وعندما حلّ الغسق استلقى فوج النساء المتجمّع أمام الأبواب ، في خط طويل خلف الجذوع ، ورحن يطلقن النار عبر الساحة . ولم يسهم القوزاق في هذا ، بل جلسوا يدخنون وقد اشتد بهم السأم . وأخيراً جمع لاغوتين السرية أمام الحائط ، وخاطب الجمع وهو يراقب نوافذ القصر متوجساً :

ـ اليكم حقيقة الموقف ، أيها القوزاق! لا معنى لبقائنا هنا . يجب أن نذهب وإلا فسوف نكابد خسارة بلا مبرر . سوف ينسفون القصر ، وأين سيكون مصيرنا بعد ذلك ؟ لقد اختفى الضباط عن الأنظار... وهل يتحتّم علينا أن نبقى هنا لنموت ؟ لنعد إلى أهلينا . علام نحك ظهورنا بهذا الحائط ؟ وأمّا بشأن الحكومة المؤقتة... . فأي خير حققته لنا ؟ ما رأيكم أيها القوزاق ؟

ـ اذا خرجنا من الباحة فسوف يرمينا البلاشفة برشاشاتهم .

ـ سوف يريقون دماءنا .

ـ لماذا يريقون دماءنا ؟

ـ فكر في ذلك بنفسك .

ـ كلا ، فلنبق هنا حتى النهاية .

ـ نحن هنا كالخراف تنتظر القصّاب في الحظيرة .

ـ افعلوا ما تشاءون ، أمّا رعيلنا فإنه سوف يخرج .

ـ ونحن ذاهبون أيضاً!

ـ ارسلوا رجالاً إلى البلاشفة . ليتركونا وشأننا ونتركهم وشأنهم .

وجاء قوزاق السريتين الأولى والرابعة وانضموا إلى الاجتماع ،

وبعد فترة وجيزة من النقاش خرج من الباب ثلاثة قوزاق ، واحد من كل سرية . ثم عادوا بعد فترة وبرفقتهم ثلاثة بحارة . ووثب البحارة فوق متراس الجذوع وحثوا الخطو عبر الباحة . ثم التحقوا بالقوزاق فرحّبوا بهم . واندفع أحدهم وسط الحشد ، وهو بحار شاب وسيم له عذاران أسودان ، وقد كان معطفه مفتوحاً وقبعته منداحة إلى الوراء

ـ أيها الرفاق القوزاق! لقد جئنا ، نحن ممثلي الاسطول البلطيقي الثوري ، لنعرض عليكم مغادرة قصر الشتاء . فيم تدافعون عن حكومة برجوازية عدوة لكم ؟ فليدافع عنهم أبناؤهم البرجوازيون ، طلاب الكلية العسكرية! لم يأت جندي واحد ليدافع عن الحكومة المؤقتة ، وقد انضم إلى صفوفنا اخوتكم من

الكتيبتين الأولى والرابعة . ليقف كل من يريد الذهاب معنا ، إلى اليسار .

وتقدم عريف من السرية الأولى إلى الأمام وقال :

ـ انتظر لحظة . أيها الأخ! سوف نذهب عن طيب خاطر ، ولكن ماذا لو بدأ البلاشفة بإطلاق النار علينا ؟

ـ أيها الرفاق! باسم لجنة بتروغراد العسكرية الثورية نعدكم بأنكم ستغادرون المكان بأمان تام . ولن يمس أحد بسوء .

وتقدّم بحار أخر بدين مجدور الوجه ووقف مع رفيقه ذي العذارين السوداوين . وتفحص القوزاق وهو يحرك ببطء رقبته الغليظة ، التي تشبه رقبة الثور ، ثم ضرب قميصه المنتفخ المزرر باحكام بقبضة كفه وقال :

ـ سوف نذهب نحن معكم! لا لزوم لوساوسكم يا أولاد ، فلسنا أعداءكم ، وليس شغيلة بتروغراد أعداء لكم . ان أعداءكم هم أولئك...

وأشار بإبهامه صوب القصر وكشّر بابتسامة عن أسنان متراصة حادة . وانتابت القوزاق موجة تردد . واقترب عدد من أفراد الفوج النسائي ووقفن ينصتن هنيهة ، ثم عدن إلى البوابات ، فهتف في أثرهن قوزاقي ملتح :

ـ أنتن أيتها النسوة ، ألا تأتين معنا ؟

وقال لاغوتين بثبات :

ـ احملوا بنادقكم وتحركوا .

فتناول القوزاق أسلحتهم واصطفوا . وسأل أحد حاملي الرشاشات البحار ذا العذارين الأسودين :

ـ هل نأخذ الرشاشات معنا ؟

ـ نعم ، لا تتركوها لطلاب الكلية العسكرية .

وفي اللحظة التي كان القوزاق على وشك مغادرة الساحة ، ظهر ضباطهم ، فوقفوا متأملين يحدقون في البحارة . وبدأت السرايا تسير في طريقها إلى الخارج ، فسارت مفرزة الرشاشات مع أسلحتها في المقدمة . وعلا صرير العجلات فوق البلاط الندي .

وذهب البحار ذو السترة مع الرعيل الأمامي للسرية الأولى . فشمّر قوزاقي طويل أشقر الحاجبين عن ذراعيه وقال بلهجة يشوبها الشعور بالإثم :

ـ أنت لا تعتقد أننا أردنا الذهاب ضد الشعب أيها الأخ ، أليس كذلك ؟ لقد جاءوا بنا إلى هنا خدعة ، ولو علمنا لما جئنا .

وهز رأسه بقوة ، وأضاف :

ـ صدقني ، لما جئنا! والله شهيد على ما أقول!

واتخذت السرية الرابعة موقعها في المؤخرة ، وتوقف القوزاق عند البوابة ، حيث تجمع الفوج النسائي بكامله في كتلة متراصة .

وتسلق قوزاقي ممتلىء الجسم المتاريس ، وهتف قائلاً وهو يهز اصبعه المتسخ بحركة دالة على محاولة الإقناع :

ـ انصتن اليّ أنتن! نحن خارجون ، ولكنكن باقيات هنا لحماقتكن النسائية . حسناً اذاً ، اياكن والغدر! اذا شرعتن بإطلاق النار علينا من الخلف فسوف نعود ونجعل منكن لحماً مفروماً .

أواضح هذا ؟ حسناً اذاً إلى اللقاء .

ثم قفز من على المتراس وهرول ليلحق برعيله ، متلفتاً بين الحين والآخر إلى الوراء . ولم يكد القوزاق يصلون وسط الساحة حتى التفت واحد منهم إلى الوراء وصرخ بانفعال :

ـ انظروا أيها الأولاد! هناك ضابط يركض وراءنا!

وأدار عديد من الرجال رؤوسهم . كان ضابط مديد القامة يهرول عبر الساحة ، ممسكاً بقبعته ، ويلوح بيده :

ـ انه أتارشيجوف من السرية الثالثة .

ـ من ؟

ـ طويل القامة ذو الشامة على جفنه .

ـ اذاً فهو يريد المجيء معنا .

ـ انه شاب طيب!

كان أتار شيجيكوف يركض مسرعاً وراء السرية ، وقد اختلج وجهه بابتسامة . فلوّح القوزاق بأيديهم وضحكوا .

ـ هرول أيها الرئيس! أسرع!

وانبعث من أبواب القصر صوت اطلاقة وحيدة جافة . فبسط أتار شيجيكوف يديه ، وتعثر ، ثم سقط على ظهره ، وجعل يخبط بساقيه ، ويحاول النهوض . وكما لو تلقت السرية أمراً ، استدارت وواجهت القصر . وصوب حاملو الرشاشات رشاشاتهم نحو البوابات فتعالت لعلعة أشرطة الخراطيش . ولكن أحداً لم يلح خلف جذوع الصنوبر . لعل الاطلاقة افلحت في ابعاد الضباط والنساء الذين كانوا محتشدين هناك قبل دقيقة . ثم سرعان ما اصطفت السرية من جديد وسارت إلى الخارج بخطوات سريعة .

ولحق بهم قوزاقيان من الرعيل الأخير كانا قد رجعا إلى أتار شيجيكوف ، وهتف أحدهم بصوت عال لتسمعه السرية بكاملها :

ـ لقد أصابوه تحت الكتف الأيسر . لقد قضي عليه! وراحت خطوات القوزاق ترن بثبات وقوة ، وأصدر البحار ذو العذارين الأسودين الأمر التالي :

ـ إلى اليسار در... عادة سر!

فمضوا مبتعدين يجرون المدافع الرشاشة ، تاركين القصر قابعاً يلفه الصمت .

٢٠

كان خريفاً دافئاً يتخلله مطر . وكانت الشمس الشاحبة قليلاً ما تظهر فوق بيخوفو ، المدينة الصغيرة . وفي اكتوبر شرعت الطيور بالهجرة نحو الجنوب . وحتى في المساء كانت صرخات الكراكي الصاخبة الحزينة تضج فوق الأرض الباردة السوداء . كانت الأسراب المهاجرة تنزح عجلى هرباً من الزمهرير المقبل ، ومن رياح الشمال العاتية العالية .

لبث الجنرالات الذين اعتقلوا في بيخوفو لارتباطهم بقضية كورنيلوف

ستة أسابيع في انتظار المحاكمة . كانت حياتهم في السجن قد استقرّت بشكل من الأشكال ، واتخذت نمطاً خاصاً بها وان لم تكن اعتيادية بكل معنى الكلمة . فبعد الافطار يخرج الجنرالات للتمشي ، وعند عودتهم ينصرفون لقراءة بريدهم ، ويستقبلون أقرباءهم ومعارفهم ، ثم يتغدون ، وبعد ساعة من السكون المطبق يذهبون الى غرفاتهم ليعمل كل منهم على انفراد ، وفي المساء يجتمعون عادة في غرفة كورنيلوف ، حيث يتحادثون ويتناقشون حتى وقت متأخر من الليل .

كانوا يقضون حياة مريحة نسبياً في ثانوية البنات النبيلات التي اتخذت سجناً لهم .

وكان يحرس البناية من الخارج رجال من فوج القديس غيورغي ، ومن الداخل رجال من التركمانيين وبالرغم من أن الحراسة كانت تحد من حرية السجناء إلى حد ما ، فقد وضعت بشكل يسهل معه للسجناءالهرب بأمان ، متى شاءوا ذلك . وطوال فترة انتقالهم كانوا على اتصال حر بالعالم الخارجي ، وراحوا يمارسون ضغطهم على الأوساط البرجوازية وهم يطالبون بالتحقيق والمحاكمة بأسرع وقت ممكن ، ويخفون معالم مؤامرتهم ، ويرسلون جواسيسهم ليتبينوا أمزجة الضباط ويعدوا العدة لهربهم عندما يتأزم الحال .

ورغبة من كورنيلوف للحفاظ على ولاء التركمانيين في حراسته ، اتصل بكاليدين الذي أرسل في الحال بطلب من كورنيلوف عدة شاحنات محملة بالحبوب إلى عوائل التركمانيين الجائعة في تركستان .

وبغية الحصول على مساعدة لعوائل الضباط الذين ساندوا كورنيلوف في محاولته الاستيلاء على الحكم ، بعث كورنيلوف برسالة شديدة اللهجة إلى أصحاب المصارف المتنفذين في موسكو وبتروغراد ، فوزع أصحاب المصارف في الحال منحاً بلغ مجموعها عشرات الآلاف من الروبلات خشية افتضاح أسرارهم المحرجة . وبقي كورنيلوف على اتصال دائب مع كاليدين حتى

تشرين الثاني ، وفي رسالة مطولة أرسلها إلى كاليدين في أواسط تشرين الأول سأله عن الحالة في الدون وكيف سيتقبله القوزاق . وكان جواب كاليدين مشجعاً .

ولكن ثورة اكتوبر زلزلت الأرض تحت أقدام الجنرالات المعتقلين في بيخوفو . وفي اليوم التالي أوفد الرسل إلى شتى الاتجاهات . وبعد اسبوع تردد صدى القلق على مصائر السجناء في الرسالة التي بعث بها كاليدين إلى دوخونين الذي نصب نفسه قائداً عاماً ، تتضمن طلباً ملحفاً بإطلاق سراح كورنيلوف وبطانته بكفالة . وقد أرسل طلب مماثل إلى مقر القيادة من تحالف القوزاق واللجنة الرئيسية لتحالف ضباط الجيش والبحرية . ولكن دوخونين تردد في إجابة الطلب .

وفي الأول من تشرين الثاني وجه اليه كورنيلوف رسالة . وقد عكست مطالعة دوخونين على تلك الرسالة مدى العجز الذي آلت إليه القيادة العليا ، ذلك لأنها فقدت كل سيطرة فعليه لها على الجيش وراحت تقضي أواخر أيامها في حالة من الشلل التام .

ياصاحب المعالي ، نيكولاي نيكولاييفتش!

لقد وضعك القدر في ظرف يتطلب منك أن تدير دفة الحوادث التي تنذر بخراب البلاد بسبب من تردد واهمال القواد الكبار بصورة رئيسية .

وقد حان الوقت بالنسبة لرجل مثلك لأن يقدم على مجازفة كبرى أو أن يستقيل ، وإلا فإن تبعات خراب البلاد والعار المتأتي من انهيار الجيش سيقع على عاتقك .

على ضوء المعلومات القليلة المتيسرة المتوفرة لدي ، فإن الوضع يبدو خطيراً ، ولكنه لا يزال غير ميؤوس منه تماماً . على أنه سيؤول إلى هذا المصير ، اذا ماتركت مقر القيادة يستولي عليه البلاشفة أو اذا اعترفت بسلطتهم طواعية .

ان فوج القديس غيورغي الذي أوشكت الدعاية أن تحطم معنويته ، وكتيبة

التركمانيين التي حل بها الضعف ، هاتان الوحدتان اللتان هما تحت تصرفك ، لا تتمتعان قط بأية قوة تذكر .

واستباقاً لحوادث المستقبل التي قد تتطور ، أرى من الضرورة أن تتخذ اجراءات من شأنها أن توجد ظروفاً ملائمة لضمان استمرار الكفاح ضد الفوضى التي توشك أن تطبق علينا ، بالإضافة الى ضمان سلامة مقر القيادة العامة .

وأرى أن تكون هذه الاجراءات على النحو التالي :

١ ـ ينبغي نقل كتيبة تشيكوسلوفاكية وكتيبة من الأوهلان البولونيين في الحال إلى موغيليف .

حاشية من دوخونين . لا تعتقد القيادة أن هاتين الكتيبتين يمكن الاعتماد عليهما كل الاعتماد . فقد كانت من أوائل الكتائب التي قبلت بالهدنة مع البلاشفة .

٢ـ ينبغي أن تحتل أورشا ، وسمولنسك ، وزلوبين ، وغوميل ، وحدات من القطعات البولونية تساندها المدفعية التي تسحب من بطاريات الجبهة القوزاقية .

حاشية . لقد جيء بفرقة الكوبان الثانية ولواء من قوزاق استراخان لاحتلال أورشا وسمولنسك . أمّا سحب كتيبة من الفرقة البولونية الأولى من بيخوفو فهو أمر غير مرغوب فيه اذ أن ذلك قد يتهدد سلامة السجناء .

وأما وحدات الفرقة الأولى فهي ضعيفة إلى درجة كبيرة ولا يمكن اعتبارها قوة حقيقية . وقد اتخذت الفيالق البولونية موقفاً واضحاً بعدم التدخل في شؤون روسيا الداخلية .

٣ـ ينبغي تحشيد جميع وحدات القطعات التشكيلية وكتيبة كورنيلوف ، مع واحدة أو اثنتين من الفرق القوزاقية التي يركن اليها ، على طول خط أورشا ـ موجيليف ـ زالوبين بحجة نقلها إلى بتروغراد أو موسكو .

حاشية . القوزاق يعارضون محاربة البلاشفة بشكل قاطع .

٤ ـ ينبغي تحشيد كل المدرعات البريطانية والبلجيكية في المنطقة ذاتها ويعهد بها للضباط فقط .

٥ ـ ينبغي أن تقام مستودعات تخزن فيها البنادق ، والعتاد ، والرشاشات ،

والأسلحة الاوتوماتيكية والقنابل ووضعها تحت حراسة جيدة في موجيليف ونقطة أخرى في موقع قريب ، لتوزيعها على الضباط والمتطوعين الذين لا بد أن يتجمعوا في هذه المنطقة .

حاشية . قد يؤدي هذا إلى افراط .

٦ـ ينبغي تنظيم صلات موثوقة وعقد اتفاقات دقيقة مع أتمانات الدون ، وجيوش التيرسك والكوبان ، واللجنتين التشيكية والبولندية . لقد هب القوزاق بعزم لإعادة النظام في البلاد ، أما بالنسبة للبولنديين والتشيكيين فإن مسألة المحافظة على النظام لها علاقة كبيرة بكيانهم بالذات .

* * *

ومع كل يوم كانت الأنباء تنذر بخطر أشد ، وكان القلق يتفاقم في بيخوفو نفسها . وكان مريدو كورنيلوف ، الذين يطالبون بإطلاق سراح الجنرالات يتوافدون جيئة وذهاباً بين موغيليف ، وبيخوفو في سيارتهم . وقد عمد تحالف القوزاق إلى التهديدات المقنعة .

واستمر تردد دوخونين تحت ضغط الحوادث . وفي الثامن عشر من تشرين الثاني أصدر أمراً يقضي بنقل المعتقلين إلى الدون ، ولكنه سرعان ماعدل عن رأيه .

وفي الصباح التالي اتجهت سيارة ملطخة بالطين نحو المدخل الرئيسي لسجن ثانوية بيخوفو . وفتح السائق الباب بخضوع ، فخرج من السيارة ضابط كهل حسن الهيئة . وكانت الأوراق التي قدمها إلى ضباط الحراسة تحمل اسم العقيد الركن كوسونسكي .

ـ أنا من القيادة العامة . لدي رسالة خاصة للجنرال كورنيلوف . أين أجد القومندان ؟

وقاد القومندان ـ وهو المقدم أرغهارت من كتيبة التركمانيين ـ الزائر في الحال إلى كورنيلوف . فقدم كوسونسكي نفسه واصطنع لهجة تنم عن شيء من الخطورة :

ـ بعد أربع ساعات ستستسلم موغيليف إلى البلاشفة دونما مقاومة . وقد أمرني الجنرال دوخونين أن أخبرك بأن على جميع المعتقلين أن يغادروا بيخوفو في الحال .

وبعد أن سأل كورنيلوف كورسونسكي عن الوضع في موغيليف ، استدعى المقدّم أرغهارت . وقال وقد اتكأ بأصابع يده اليسرى على حافة الطاولة :

ـ أطلق سراح الجنرالات في الحال . يجب أن يستعد التركمانيون للرحيل في منتصف هذه الليلة .

أما أنا فسوف أرافق الكتيبة .

وظلت المنافخ تشهق وتتنهد النهار كله في كورة الكتيبة ، ويتوهج الفحم متورد الحمرة ، وتصطفق المطارق فتصهل الخيل بشدة أمام السنادين . كان التركمانيون ينعلون الحوافر الأربعة لجميع الخيل ، ويصلحون سروجها ، وينظفون بنادقهم ويهيئونها .

وخلال النهار غادر الجنرالات السجن فرادى . وفي منتصف الليل الساعة التي فيها تسعى الذئاب ، وحين كانت البلدة الريفية تطفىء أنوارها وتغط في سبات عميق ، خرج رجال على صهوات جيادهم وانحدروا من باحة المدرسة الثانوية في تشكيلة ثلاثية ، وقد انتصبت أشباحهم السود كرسم منحوت على صفحة السماء ذات الزرقة الفولاذية . وسرى الخيالة بقبعات عالية من الصوف أنزلوها فوق عيونهم ، وقد التفعت وجوههم السمر اللامعة بقلنسواتهم ، ساروا منحنين على سروجهم مثل طيور سود كبيرة انتفش ريشها .

وفي وسط الصف استوى كورنيلوف بكتفيه المتهدلين على حصان نشيط حذاء آمر الكتيبة العقيد كوغيلغين . وبين آونة وأخرى كان ينكمش وجهه كلما لفحته الريح الباردة التي تهب في شوارع البلدات ، ويضيّق شقّي عينيه الصغيرتين محدّقاً في السماء الثلجية التي تتلألأ فيها النجوم .

وكان وقع حوافر الخيل الحديثة النعال يدق على الأرض برفق عبر الشوارع ، ثم تلاشى عند ضواحي القرية .

٢١

مضى يومان على كتيبة القوزاق الثانية وهي تتراجع . كانت تقاتل طوال الطريق ، وهي ماضية في تراجعها البطيء .

وكانت قوافل الشحن التي تنقل أمتعة الجيشين الروسي والروماني تزحف فوق الطرقات المرتفعة غير المعبدة . وقد أطبقت الفرق النمساوية والالمانية الموحدة على الجيوش المتقهقرة بحركة التفاف واسعة ، وحاولت احكام الطوق .

وذات مساء شاع نبأ يفيد بأن الكتيبة الثانية عشرة واللواء الروماني الذي يليها مهدّدان بالتطويق . وعند غروب الشمس طرد العدو الرومانيين من قرية هوفينيسكي وتقدم إلى المرتفع « ٤٨٠ » الذي يحدّ العبور الى غولشكي . وفي الليل تلقت الكتيبة الثانية عشرة التي تعززها بطارية من فرق الجبليين ، أمراً يقضي بإشغال مواقع لحماية المؤخرة في القسم الأسفل من وادي غولشكي . وبعد أن نظمت الكتيبة الحراسة أعدّت العدة لمواجهة العدو الزاحف .

وفي الليلة ذاتها أرسل إلى موضع أمامي خفي ميشا كوشيفوي وآخر ، وهو فتى بدين قصير القامة من قرية تاتارسكي يدعي أليكسي بشنياك . فكمنا في حفرة قريبة من بئر مهملة ، ولبثا يعبّان هواء بارداً لطيفاً . وبين آونة وأخرى كان سرب من الأوز البري يمرق في السماء الغائمة ، يدلل عن طيرانه بصرخات ملهوفة . وهمس ميشا بهدوء في أذن صاحبه وقد أثار سخطه الأمر بمنع التدخين :

ـ إنها لحياة غريبة ، يا اليكسي! يتخبط فيها الناس كالعميان ، يلتقون

ويفترقون ، وفي بعض الأحيان يدوس احدهم الآخر... وها أنت تعيش على حافة الموت ، وتقول لنفسك لم كل ذلك . أنا لا أعتقد أن هناك شيئاً في العالم أفظع من روح الآخرين ، افعل ماشئت ، ولكنك لا تستطيع أن تسبر غورها...

ها أنذا مستلق بجانبك ، ولست أدري ماذا يدور في ذهنك ،ولم يسبق لي معرفة شيء من هذا ، كما أنني أجهل أي نمط من الحياة عشت ، ولا أنت تعرف مثل هذا الشيء عنّي... ربما رمت قتلك الآن ، وها أنت ذا تعطيني البسقماطة دون أن تكون لديك أية فكرة عما يدور في خلدي... . ان الناس لا يعرفون الكثير عن أنفسهم . في الصيف كنت في المستشفى وعلى السرير المجاور لي كان يرقد جندي من موسكو . وكان يسألني طوال الوقت كيف يحيا القوزاق ، ولا يعلم الا الله ماذا كان يسألني أيضاً . فهم يعتقدون أن القوزاق لا يعرفون سوى السياط ويحسبون القوزاق وحوشاً ، يضمون بين جوانحهم زجاجة الفودكا بدلاً من الروح ، ومع هذا فنحن رجال مثلهم ، لا نختلف عنهم في كلفنا بالنساء والفتيات ، ونحن نبكي همومنا ، ولكننا لا نغتبط لسعادة الأخرين . ماذا تقول يا اليكسي ؟ صرت أنا متعطشاً للحياة ، وعندما أفطن إلى عدد النساء الجميلات في العالم يوجعني قلبي... لقد أصبح لدي شعور تجاه النساء من الرقة بحيث يسعني أن أحبهن جميعاً حتى الألم... وبوسعي أن أضاجعهن جميعاً ، طويلات ، قصيرات ، نحيفات بدينات .

ولكن أي نمط بديع من الحياة رسموه لنا ؟ فهم يلصقونك بامرأة واحدة وعليك أن تلازمها حتى الموت . ترى كيف ينتظرون منّا أن لا نملّها ؟ وفوق كل هذا وذاك نراهم يعلنون الحرب...

فقال بشنياك ماكراً :

ـ لم يشبعوك ضرباً ، أيها الثور!

واستلقى كوشيفوي على ظهره ولاذ بالصمت ، محدقاً في السماء وهو يبتسم حالماً ويداه تداعبان الأرض الباردة السادرة في سكونها .

وقبل أن ينتهي واجبهما بساعة باغتهما الألمان . وأفلح بشيناك باطلاق

رصاصة ، ثم خر ساقطاً وهو يطحن أسنانه منطوياً على نفسه من شدة الألم . فقد نفذت حربة ألمانية في أحشائه ، واخترقت مثانته وارتجت عندما اصطدمت بعموده الفقري ، وأطاح بكوشيفوي أخمص بندقية . ثم حمله جندي ضخم على ظهره مسافة نصف فرسخ . وخيّل لميشا أنه قد غصّ بدمه ، ولكنه عندما استرجع نفسه واستعاد قواه ، لم يجد صعوبة في الإفلات من على ظهر الالماني ، فأطلقوا النار في أثره دفعة واحدة . الا أن الظلام والدغل ساعداه على النجاة .

وبعد أن أوقف التراجع وخلصت القوات الروسية ـ الرومانية نفسها من حركة التطويق ، سحبت الكتيبة الثانية عشرة إلى المؤخرة ، إلى اليسار من موقعها ببضعة فراسخ ، وصدرت الأوامر بقطع الطرقات ، ووضع حراسة عليها للحيلولة دون تسلل الفارين ، واطلاق النار عليهم اذا اقتضى الأمر وارسال كل من يُلقى عليه القبض إلى مقر قيادة الفرقة تحت الحراسة .

وكان ميشا كوشيفوي بين الأوائل ممن أرسلوا إلى نقاط المراقبة . فترك هو وثلاثة قوزاق آخرين القرية في الصباح واتخذوا مواقعهم حسب أمر العريف ، عند طرف حقل ذرة على مقربة من الطريق العام . وكان يمتد الطريق بمحاذاة غابة وينتهي في وادٍ دائري كثير الزرع . وراحوا يتناوبون على المراقبة . وعند الظهر شاهدوا مجموعة تضم حوالي العشرة جنود تسير في الطريق باتجاههم . ومن البديهي انهم يبتغون السير بمحاذاة القرية التي تلوح خلف تل ولمّا بلغوا الغابة توقفوا وأشعلوا سكائرهم ، ولا بد أنهم كانوا يتناقشون حول الطريق ، اذا انعطفوا الى اليسار فجأة .

فسأل كوشيفوي زميله وهو ينهض من حقل الذرة :

ـ هل نناديهم ؟

ـ اطلق فوق رؤوسهم .

ـ انتم ياأولاد! قفوا!

وسمع الجنود النداء كانوا آنذاك على بعد حوالي مئة خطوة من القوزاق

فتوقفوا لحظة ثم عادوا فتحركوا ببطء فصرخ أحد القوزاق قفوا! ثم اطلق رصاصة في الفضاء .

وهرولوا وبنادقهم مسددة بوضع أفقي ليلحقوا بالجنود الذين كانوا يسيرون ببطء .وصاح كوليتشيف العريف القوقازي المسؤول عن نقطة المراقبة :

ـ لماذا لم تتوقفوا بحق الشيطان! من أين جئتم ؟ وأين أنتم ذاهبون ؟ أرونا أوراقكم!

فتوقف الجنود وأنزل ثلاثة منهم بنادقهم وانحنى أحدهم وأعاد شد السلك الذي يربط الكعب بحذائه . كانوا جميعاً خلقي الثياب قذرين إلى درجة فظيعة ويبدو أنهم باتوا الليل على أدغال الغابة فثمة بقايا كثيرة من الأشواك بنية اللون على معاطفهم .

وكان اثنان منهم يرتديان قبعتين صيفيتين أما الآخرون فقبعات رمادية متسخة من الفرو تركت أغطية الأذن غير معقودة عليها والريح تعبث بخيوطها ، وصرخ جندي محدودب طويل وهو رئيسهم كما يبدو بصوت غضوب وقد ارتعشت وجنتاه الغائرتان :

ـ ماذاتريدون ؟ هل اذيناكم ؟ علام تتعقبوننا ؟

فقاطعة العريف متصنعاً لهجة صارمة :

ـ أوراقكمَ .

فأخرج جندي ذو عينين زرقاوين وبشرة بحمرة القرميد المشوي حديثاً ، قنبلة يدوية من جيبه ولوح بها في وجه العريف والتفت إلى رفاقه وقال بلهجة ياروسلافية* سريعة :

ـ تلك هي أوراقي يا اخواني! تلك هي! إنها اجازة مفتوحة أستعملها في كل أيام السنة حذار إذاً! فمتى ما رميتها لن يتسنى جمع المزق فيما بعد .

---

* مدينة في روسيا الوسطى ياروسلافل .

فهمتموني ؟ هل فهمتموني ؟ أهذا واضح ؟

فقطب العريف ونخسه في صدره وقال :

ـ لا تعبث! تحاول اخافتنا فقد شبعنا خوفاً . أنتم فارون ، وعليكم أن تعودوا معنا إلى القيادة فهم يتوقون إلى رؤية أمثالكم هناك .

وتبادل الرجال النظرات وأنزلوا بنادقهم وجال أحدهم ، وهونحيل ذو شعر أسود يبدو أنه عامل منجم ، ببصره بين القوزاق فرداً فرداً وهمس :

ـ سوف نذيقكم طعم الحرية ، قسماً بالله! انقشعوا بحق الله سوف أجعل الطلقة تخترق أول من يقترب مني!...

ولوح الجندي ذو العينين الزرقاوين بقنبلته اليدوية فوق رأسه ، وخرق الرجل الطويل المحنيَ الواقف في المقدمة معطف العريف بحربته الصدئة وهتف عامل المنجم بكلمة سباب ولوح بعقب بندقيته في وجه ميشا كوشيفوي فارتعشت اصبع كوشيفوي على زناد بندقيته وأمسك أحد القوزاق جندياً قميئاً من ياقة معطفه وجره منبسط الذراع وهو ينظر مضطرباً إلى الوراء صوب الآخرين خشية أن تناله ضربة من الوراء .

كانت الأوراق اليابسة تخشخش على سيقان الذرة ، وخلف الوادي الدائري يلوح خط متماوج أزرق من التلال وفي المرعى القريب من القرية تسرح بقرات حمر وحملت الريح غباراً ثلجياً استحال دوامات خلف الغابة وكانت أيام اكتوبر البطيئة طافحة بسكون وسنان ، وأطل على الريف المشمس هدوء وصمت جليلان .

غير أن هناك رجالاً على قارعة الطريق يتخبطون في حومة من غضب لامبرر له مستعدين لهدر دمائهم على التربة الخصيبة التي رطبها المطر .

على أن العواطف كانت قد هدأت بعض الشيء وطفق الجنود والقوزاق يتكلمون بهدوء .

قال كوشيفوي ساخطاً :

ـ لم يمض على سحبنا من الجبهة سوى ثلاثة أيام ، ولم نهرب إلى

المؤخرة! بينما أنتم تفرون ، يجب أن تخجلوا من أنفسكم! تتركون رفاقكم! من سيدافع عن الجبهة ؟ لقد طعن رفيقي بالحربة وهو بجانبي ، تقولون أننا لم نذق الحرب! ذوقوها كما ذقناها!

فقاطعه قوزاقي آخر :

ـ فيم الكلام ؟ هيا إلى القيادة ولا داعي إلى الجدل . فقال الجندي الذي يشبه عمال المناجم مهدداً :

ـ تنحوا عن الطريق أيها القوزاق! وإلا رميناكم والله نرميكم!

فنشر العريف يديه قانطاً :

ـ لا نستطيع أن نفعل ذلك أيها الأخ! اقتلنا إذا شئت ، ولكن النتيجة واحدة وهي أنكم لن تمروا ، فسريتنا معسكرة في القرية هناك...

وجعل الجندي المحني الطويل يهدد تارة ويروغ تارة أخرى ، ويتوسل مرة أخرى متخضعاً . وفي الأخير ، انحنى إلى الأسفل ، وسحب قنينة مجدولة بالقشّ من حقيبته القذرة وغمز لكوشيفوي وهمس :

ـ سنعطيكم دراهم أيها القوزاق ، انظروا... فودكا ألمانية... وسنجمع أشياء أخرى . دعونا نمر ، حباً بالمسيح . فلدينا أطفال في بيوتنا ، ولاشك أنكم تقدرون ذلك بأنفسكم... لقد أُنهِكت قوانا ونلنا أكثر مما نتحمل... كم علينا أن نتحمل ذلك ؟ رباه! يقيناً أنكم لن تحولوا دون مرورنا .

وسحب كيسه بسرعة من ساق جزمته ، وأخرج منه ورقتين مدعوكتين من الروبلات الكيرنسكية ، وراح يدسهما بإلحاح في يد كوشيفوي وقال :

ـ خذهما! خذهما! بحق الإله...! لا تهتم... فسوف ندبر حالنا على نحو ما . إن النقود لاقيمة لها... بوسعنا أن ندبر حالنا بدونها . خذها! سوف نحصل على المزيد منها .

فتراجع كوشيفوي وقد وخزه الخجل ، مبقياً يده خلف ظهره وهو يهز رأسه ، وتوردت وجنتاه بالدم والتمع الدمع في عينه وقال في نفسه :« لقد جننتني ميتة بشنياك تلك! وها أنا أحاول أسر هؤلاء الرجال ، مع أنني ضد

الحرب . بأي حق أفعل ذلك ؟ ماذا أنا فاعل هنا ؟ وأي خنزير وضيع أنا »

ومضى إلى العريف ، وتنحى به جانباً ، وقال وهو يشيح بعينيه :

ـ لم لا ندعهم يذهبون ؟ ماذا تقول ؟ دعهم يذهبون ، بحق الله! !

وغارت عينا العريف كمن يقوم بعمل مخجل ، وقال :

ـ دعهم يذهبون... وإلا فما عسانا نفعل بهم ؟ فسرعان ما سنقدم نحن على فعل الشيء نفسه... لماذا نخفي الحقيقة ؟ والتفت إلى الجنود وصرخ مغضباً :

ـ أنتم أيها الحثالة! نحن نعاملكم بأدب وبكل احترام ، وأنتم تقدمون لنا المال! فهل تحسبوننا معوزين ؟

وازرق لونه وأردف صارخاً :

ـ أخفوا أكياسكم ، وإلا سقناكم إلى القيادة!

وتنحى القوزاق جانباً . واستأنف الجنود سيرهم . فالتفت كوشيفوي صوب شوارع القرية المهجورة البعيدة وصاح في أثر الفارين المتراجعين :

ـ أنتم! أمهار الخيل! إلى أين أنتم سائرون في وضح النهار ؟ هناك غابة في هذه الناحية التجئوا إليها خلال النهار ، ثم واصلوا سيركم في الليل . وإلا فسوف تلاقون نقطة مراقبة أخرى ، وسوف يقبضون عليكم!

فتلفت الجنود حواليهم متحيرين ، ثم انطلقوا مثل الذئاب في خط رمادي أغبر شطر غابة الحور .

* * *

في بداية تشرين الثاني بدأت الشائعات حول الإنقلاب في بتروغراد تصل أسماع القطعات القوزاقية . وقد أكد المراسلون في القيادة الذين هم أكثر علماً بالأخبار من غيرهم ، بأن الحكومة المؤقتة قد هربت إلى أمريكا ، كما قالوا أن كيرنسكي قد أسره البحارة وحلقوا شعره بدرجة صفر ، وسخموه بالقطران مثل المومس وجرجروه طوال يومين في شوارع بتروغراد .

وبعد ذلك عندما وصلت الأنباء الرسمية حول سقوط الحكومة المؤقتة وانتقال الحكم إلى العمال والفلاحين ، لزم القوزاق الصمت احتراساً . وكان الكثيرون فرحين أملاً بأن تنتهي الحرب .

ولكن الشائعات حول مسيرة فيلق الخيالة الثالث مع كيرنسكي والجنرال كراسنوف إلى بتروغراد ، وتقدم كاليدين من الجنوب مع الكتائب القوزاقية التي قد افلح في سحبها سلفاً إلى الدون ، زرعت الرعب في نفوسهم .

وتمزقت الجبهة شذر مذر ، وفي تشرين الأول أخذ الجنود يفرون جماعات متفرقة غير منظمة ، وعند نهاية تشرين الثاني انسحبت سرايا وكتائب بكاملها من مواقعها وكانت تحمل أحياناً معدات خفيفة ليس إلا ، ولكنها في الغالب تأخذ أمتعة الكتيبة معها ، ويقتحم الجنود المخازن عنوة ويطلقون النار على ضباطهم ويسلبون كل من يصادفونه ، عائدين إلى أهليهم كالسيل الجارف .

وأصبحت مهمة الكتيبة الثانية عشرة في ايقاف الفارين غير ذات معنى في الظروف الجديدة وبعد أن زجت في الجبهة ثانية في محاولة عقيمة لسد الفجوات والثغرات التي تركها المشاة عندما هجروا قطاعاتهم ، سحبت ثانية في كانون الأول ، إلى أقرب محطة ، حيث شحنوا جميع أمتعة الكتيبة ، ومدافعها الرشاشة ، والذخيرة الاحتياطية والخيل ، في الشاحنات وانطلقوا إلى قلب روسيا التي أنهكها القتال .

وسارت القطارات العسكرية التي تحمل الكتيبة الثانية عشرة إلى الدون عبر أوكرانيا وليس بعيداً عن زنامنكا حاول الحرس الأحمر البلشفي تجريدهم من السلاح . واستغرقت المفاوضات نصف ساعة . لقد طلب كوشيفوي وخمسة قوزاق آخرين ، وهم رؤساء لجان السرايا الثورية ، السماح لهم بالمرور مع سلاحهم فسألهم أعضاء سوفييت المحطة :

ـ ما حاجتكم بالسلاح ؟

فأجاب كوشيفوي نيابة عن الجميع :

ـ نستعمله في القضاء على برجوازيتنا وجنرالاتنا! ولقطع ذنب كاليدين!

واعترض القوزاق أيضاً :

ـ لن نسلم أسلحتنا ، فهي تعود إلى الجيش .

وسمح للقطارات بمواصلة سيرها.وفي كريمنتشوغ جرت محاولة أخرى لتجريدهم من السلاح . ولم يسمح لهم بالمرور إلا بعدأن نصب حملة الرشاشات القوزاق رشاشاتهم في أبواب الشاحنات المفتوحة وصوبوها نحو المحطة ، وانتشر جنود احدى السرايا على طول الخطوط مستعدين للقتال ، وقرب يكاترينوسلاف جردت الكتيبة من بعض سلاحها ومن غير أن يحصل تبادل إطلاق النار مع مفرزة الحرس الأحمر ، وصودرت الرشاشات ، وأكثر من مئة صندوق من الذخيرة ، وجهاز مخابرة الميدان وعدة بكرات من الأسلاك وقد رفض القوزاق الاستجابة إلى الاقتراح الذي يقضي بتوقيف ضباطهم . ولم يفقدوا أثناء الرحلة سوى ضابط واحد ، وهو مساعد الآمر ، وقد حكم عليه القوزاق أنفسهم بالموت ، ونفذ الحكم أوريوبين وبحار من الحرس الأحمر .

ففي السابع عشر من كانون الأول ، وشيك المساء في محطة سينلنيكوفو أمسك القوزاق بمساعد الآمر وسحبوه خارج القطار .

وسأل البحار ذو الأسنان المتباعدة وهو يحمل مسدساً من طراز ماوزر وبندقية يابانية والمرح باد عليه :

ـ أهذا هو الذي خان القوزاق ؟

فأجاب أوريوبين لاهثاً :

ـ هل تعتقد أننا لانعرف وجهه ؟ أي نعم ، هو بعينه! فحملق المساعد وهو رئيس شاب ، حواليه مثل حيوان وقع في شرك ماسحاً شعره بيده العرقة ، ولم يشعر بالبرد الذي لفح وجنتيه أو بألم الضربة التي تلقاها بأخمص البندقية وسار به أوريوبين والبحار مبتعدين عن القطار .

وفحّ أوريوبين قائلاً :

ـ إن الشياطين أمثاله يجعلون الناس يثورون وهو ممن سببوا هذه الثورة... آها ، لاترتجف كثيراً ياعزيزي ، وإلا تفككت أوصالك .

ثم رفع قبعته ورسم شارة الصليب ، وصاح :

ـ انتبه أيها الرئيس!

وقال البحار وهو يلعب بمسدسه ، وقد انفرجت شفتاه عن تكشيرة خبيثة ولمعت أسنانه البيضاء :

ـ مستعد ؟

ـ نعم .

ورسم أوريوبين شارة الصليب ثانية ، ونظر جانباً إلى البحار الذي أخر قدماً إلى الوراء مهدفاً ، وكشر عن ابتسامة وأطلق عليه النار قبله .

وعلى مقربة من تشابلين انجرت الكتيبة بصورة عفوية إلى معركة اندلعت بين الفوضويين والأوكرانيين ، فخسروا ثلاثة رجال من القوزاق وشقوا طريقهم بالقوة ، بعد أن لاقوا صعوبة في اخلاء الخطوط التي كانت تشغلها قطارات عسكرية تحمل فرقة من حملة البنادق .

وبعد ثلاثة أيام ترك القطار القسم الأول من الكتيبة في محطة ميليروفو ، أما القسم الآخر فقد تأخر في لوغانسك وأفلت نصفهم وامتطوا جيادهم إلى بيوتهم من المحطة رأساً ، أما الآخرون فقد ساروا إلى قرية كارغين بنظام ، وفي اليوم التالي أخذوا يتجرون بتحفياتهم وبالخيل التي غنموها من النمساويين وتقاسموا أموال الكتيبة ومعداتها .

وانطلق كوشيفوي والقوزاق الآخرون من أهالي قرية تاتارسكي إلى بيوتهم في المساء وارتقوا تلاً ، حيث تقع في سفحه على ضفتي نهر تشير المتعرجتين البيضاوين بلون الثلج ، قرية كارغين أجمل قرى الدون الأعلى ، وكان الدخان يتصاعد نفثات متجعدة من مدخنة الطاحونة البخارية ، وتجمع حشد أسود من الناس في الساحة ، وكان الناقوس يقرع لصلاة المساء وخلف منحدرات كارغين كانت تلوح قمم أشجار الصفصاف المحيطة بقرية

كليموفسكي . ووراء زرقة الشيح المترامية في الأفق الملتفع بالثلج ، نشرت أشعة الشمس الغاربة في السماء خيوطاً أرجوانية متألقة .

ومر الثمانية عشر فارساً برابية تحتضن ثلاثاً من أشجار التفاح البرية وعرّجوا خبباً بسرعة صرّت لها سروجهم ، صوب الشمال الشرقي وكان الليل القر قابعاً مثل اللص خلف قمم التلال وكان القوزاق يستحثون جيادهم بين آونة وأخرى لتمضي بهم في هذب سريع وقد لفوا وجوههم بقلنسواتهم . وكانت سنابك الخيل توقع على الأرض الصلدة برنين يكاد يثير الألم وهي تنساب وراءهم إلى الجنوب ، وعلى جانبي الطريق تنكشط قشرة الجليد بفعل الذوبان الحديث ، وتعلق بين الحشائش وتسطع في ضوء القمر مثل ذوب من نار .

وراح القوزاق يستحثون خيلهم وقد ران عليهم الصمت ، وانساب الطريق من ورائهم صوب الجنوب . وتلفع الشرق بغاية . بانت آثار الأرانب البرية الدقيقة على الثلج على جانب الطريق .

وعالياً فوق السهب تحزمت السماء بالمجرة كأنها نطاق قوزاقي مرصع بالفضة .



الجزء الخامس

١

بدأ القوزاق في أواخر خريف عام ١٩١٧ بالعودة إلى أهليهم من الجبهة فعاد خريستونيا الذي بدا عليه كبر واضح وكذلك ثلاثة آخرون ممن خدموا في الكتيبة الثانية والخمسين وعاد أنيكوشكا الأمرد ، والمدفعي ايفان توميلين وياكوف الملقب بنعل الحصان وفي أثرهم جاء مارتن شامل وايفان أليكسيفتش ، وزاخار كاورليوف وبورشيف الطويل الفظ ، أحيلوا جميعهم إلى الاحتياط ، وفي كانون الأول وصل ميتكا كورشونوف على غير انتظار ، وبعد ذلك بأسبوع وصلت جماعة برمتها من القوزاق الذين خدموا في الكتيبة الثانية عشرة : ميشا كوشيفوي ، وبروخور زيكوف ويبيفان ماكسايف وأندريه كاشولين ويغور سينيلين وقد عاد فيدوت بودوفسكوف الذي كان قد انفصل عن كتيبته من فورونيج رأساً على ظهر جواد بديع أشهب اللون داكن كان قد غنمه من ضابط نمساوي وروى بعد ذلك مراراً كيف شق طريقه بين قرى مقاطعة فورونيج وهي تمور بالثورة وكيف أفلت من تحت أنوف مفارز الحرس الأحمر معتمداً على سرعة جواده .

ووصل بعدئذ ميركولوف وبيوتر ميليخوف ، ونيقولاي كوشيفوي الذين هربوا من الكتيبة السابعة والعشرين المتبلشفة . وهم الذين جاؤوا بخبر

التحاق غريغوري ميليخوف بالبلاشفة وبقائه في كامينسكايا وكان قبل ذلك في كتيبة الاحتياط الثانية ، وقد خلفوا وراءهم كذلك مكسيم غريازنوف سارق الخيل الجريء الذي مال إلى البلاشفة في تلك الأيام الحافلة بكل جديد وطمعاً في الحصول على عيش رغيد ، وقيل أن مكسيم حصل على حصان لامثيل لقبحه ولا لقوته ، وإن خطاً من الشعر الفضي يمتد على طول ظهره وأنه لم يكن حصاناً عالي الهامة ، ولكنه طويل البنية أحمر كالبقرة ولم يتحدثوا عن غريغوري كثيراً . الواضح أنهم لم يرغبوا في الحديث عنه لعلمهم أنه اتخذ طريقاً غير طريق أهل القرية وربما فارقهم إلى الأبد .

لقد ملأ الفرح البيوت التي عاد إليها القوزاق أرباباً أو ضيوفاً طال انتظارهم وشدد هذا الابتهاج ، بشكل قاس لارحمة فيه ، من وطأة الأسى العميق في نفوس أولئك الذين فقدوا أقاربهم وأعزاءهم إلى الأبد . لقد افتقد العديد من القوزاق منتشرين فوق حقول غاليسيا وبوكوفينا وبروسيا الشرقية وجبال الكربات ، ورومانيا ـ بقيت جثثهم ملقاة لتجيف بينما دوّت فوقهم المدافع تنشد مرثاتهم وقد علت روابي المقابر المشتركة أدغال طويلة ، ينهال عليها المطر ويحف بها الثلج تحمله الرياح . ومهما ركضت نسوة القوزاق الحاسرات إلى منعطفات شارع القرية ليحدقن في الأبعاد وقد ظللن عيونهن ، فلن يبصرن يوماً أحباءهن عائدين على ظهور الجياد . ومهما انسابت الأدمع من عيونهن المتورمة الذاوية ، فليس بمستطاعهن إزالة الآلام . ومهما بكين في أيام الذكرى والاحتفال فلن تحمل ريح الشرق صرخاتهن إلى غاليسيا وبروسيا الشرقية ، إلى الروابي الغائرة حيث مقابرهم المشتركة!...

وكما ينبت العشب على القبور يطغى الزمن على الأحزان . وكما تذرو الرياح آثار من رحلوا ، كذلك يذرو الزمن ، من نفوس أولئك الذين انتظروا عودة أحبائهم عبثاً ، ذكرياتهم وآلامهم الدامية ، أولئك الذين سيدوم بهم الانتظار عبثاً ، فقصيرة هي حياة الإنسان . وليس لأي منا عمر يكفيه...

كانت زوجة بروخور شامل تضرب رأسها على الأرض الصلدة وتنهش

أرض بيتها وهي ترى إلى أخ زوجها يلاطف زوجته الحبلى أو يعطي الهدايا إلى أولاده ويدللهم . كانت تتلوى وتزحف على يديها وركبتيها : يحف بها أطفالها الصغار كقطيع من الغنم ، يتصارخون إذ يشهدون أمهم وقد اتسعت مآقيهم ذعراً .

إيه عزيزة قلبي ، مزقي آخر قمصانك! جزي شعرك الذي غدا رهيفاً جراء حياتك الشاقة التي لا تعرف البهجة ، عضي على شفتيك حتى تسيل الدماء اعصري يديك اللتين خدشهما الكدح ، دقي جسدك على عتبة بيتك الخاوي! فبيتك يفتقد سيده ، وزوجك راح ، وأطفالك أمسوا يتامى ، وتذكري أن أحداً لن يلاطفك أو يداعب أيتامك ، إن أحداً لن يشد رأسك إلى صدره ليلاً إذ تدلفين إلى الفراش وقد أضناك العناء ، وأن أحداً لن يقول لك كما قال لك ذات مرة : «لا تقلقي يا أنسكا ، سنتدبر الأمر بشكل ما!» إنك لن تحصلي على زوج جديد ، فقد ذبل عودك وشاخ من الكدح والجزع والأطفال . لن يكون هناك أب لأطفالك شبه العراة . وعليك أن تؤدي بنفسك كل أعمال الحراثة والتمهيد وتلهثي من فرط الإرهاق . سيكون من واجبك أن ترفعي بالمذراة حزم القمح من الحاصدة إلى العربة ، وحين ترفعين حزم القمح الثقيلة بالمذراة ستشعرين أن شيئاً يتمزق في أحشائك . وبعدها ستتضورين ألماً وستنزفين الدم تحت أسمالك .

بكت أم الكسي بيشنياك مر الدموع وهي تقلب ملابس ولدها الداخلية القديمة وتشمها ، ولم تستطع شم أثر لعرقه ، إلاّ في طيات قميصه الأخير الذي عاد به ميشا كوشيفوي ، ودفنت العجوز رأسها في القميص وراحت تهز جسدها وتنتحب حزناً فطرزت دموعها ذلك القماش القطني المتسخ .

لقد تيتمت عوائل مانيتسكوف ، وأوزيروف ، وكالينين ، وليخوفيدوف ، وكثير غيرها من عوائل القوزاق .

أما ستيبان أستاخوف فلم يبكه أحد إذا لم يكن لديه من يبكيه فقد ظل بيته الموصد بالألواح ، المتصدع الأظلم حتى في الصيف ، خاوياً على عروشه ،

فأكسينيا تعيش في ياغودنويه ، لايصل القرية من أخبارها إلا النزر اليسير ، ولم تطأ قدمها أرض القرية ، ولعلها لم تجد رغبة في ذلك .

عاد قوزاق المناطق العليا من الدون إلى أهليهم زرافات وما أن حل كانون الأول حتى عاد الجميع تقريباً إلى قراهم في منطقة فيشينكسايا فكانت جماعات من الفرسان يتراواح عدد كل فريق منها بين العشرة والأربعين ، يمرون ليلاً ونهاراً بتاتارسكي في طريقهم إلى الضفة اليسرى من الدون .

وكان الشيوخ يخرجون إليهم يسألونهم :

ـ من أين أنتم ، أيها الجنود ؟

فتأتيهم الأجوبة على هذا النحو ؟

ـ من نهر تشورنايا ، من زيموفنايا ، من دوبوفكا ، من غورخوفسكايا .

ـ فيسألهم الشيوخ بخبث : ـ هل انتهيتم من القتال ، إذاً ؟

ويبتسم بعض الفرسان ، الهادئين ذوي المشاعر الرقيقة ، ويقولون :

ـ لقد نلنا الكفاية ، يابتي! أجل لقد انتهينا .

أما المتهورون الحانقون منهم فكانوا يشتمون الشيوخ وينصحونهم قائلين : «اذهبوا وجربوها أنتم! مالداعي لكل هذه الأسئلة ؟ ماأكثر الفضوليين بينكم» .

كانت الحرب الأهلية قد اندلعت في أواخر الشتاء قرب نوفوتشيركاسك ولكن صمت المقابر ظل مخيماً على قرى مناطق الدون العليا ولم تحتدم سوى خلافات داخلية خفية تجري داخل البيوت ، وتطفو بعض الأحيان إلى خارجها فلم يستطع الشيوخ أن يكونوا على وفاق مع القوزاق العائدين من جبهة القتال .

ولم يعرف أهل القرى شيئاً عن الحرب التي اندلعت قرب عاصمة إقليم الدون إلا عن طريق الإشاعات وإذ استعصت على مداركهم الاتجاهات السياسية المختلفة التي برزت يومئذ إلى الوجود لم يكن أمامهم سوى أن يرهفوا آذانهم ويترقبوا الأحداث .

وانسابت الحياة وادعة في قرية تاتارسكي حتى شهر كانون الثاني . وقد

استكان القوزاق العائدون من الجبهة إلى الراحة في بيوتهم مع زوجاتهم فأكلوا حتى الشبع ولم يدر في خلدهم أن على عتبات بيوتهم مصائب وأعباء جديدة أمر من تلك التي تجرعوها أيام الحرب .

٢

في كانون الثاني عام ١٩١٧ رقي غريغوري ميليخوف إلى رتبة نائب ضابط تقديراً لخدماته البارزة في سوح القتال ، وقد نسب آمر رعيل في كتيبة الإحتياط الثانية . وعاد إلى أهله في شهر أيلول التالي بإجازة إثر إصابته بالتهاب الرئتين فأمضى ستة أسابيع بين أهله ، ثم قررت اللجنة الطبية المحلية أنه قد أبل من مرضه فأعيد إلى كتيبته . وبعد ثورة أكتوبر* رقي إلى مرتبة آمر سرية .

وفي حوالي ذلك الوقت طرأ عى آرائه تغير ملموس جراء ما دار حوله من أحداث وبتأثير من الملازم يفيم ايزفارين أحد ضباط كتيبته .

كان غريغوري قد تعرف على إيزفارين يوم عودته من الإجازة وصار بعد ذلك يلتقي به كثيراً أثناء الواجب وبعده وقد وقع تحت تأثيره دون أن يشعر بذلك كان يفيم ايزفارين ابناً لقوزاقي ثري وقد درس في كلية نوفوتشيركاسك العسكرية ومن الكلية التحق رأساً بكتيبة قوزاق الدون العاشرة في الجبهة ، وخدم فيها زهاء عام فنال كما يحلو له أن يقول «وسام صليب القديس غيورغي وأربع عشرة شظية من قنبلة يدوية في أجزاء مناسبة وغير مناسبة من جسمه» وقد نقل من ثم إلى كتيبة الاحتياط الثانية .

كان ايزفارين رجلاً فائق المقدرة كثير الموهبة نال من الثقافة قسطاً أوفر

---

* ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر الذي يصادف الخامس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) حسب التقويم القديم عام ١٩١٧. المترجمون

بكثير مما يناله الضابط القوزاقي الاعتيادي وكان شديد الحماس لأن تنال بلاد القوزاق استقلالها الذاتي وقد أيقظته ثورة شباط البرجوازية وأتاحت له فرص التقدم فاتصل بحلقات الانفصاليين القوزاق ، وقام بدعاية بارعة في سبيل الحكم الذاتي الناجز لمنطقة الدون ومن أجل اقامة حكومة كالتي حكمت في الدون من قبل أن تستولي القيصرية على القوزاق . كان حسن الإلمام بالتاريخ ، شديد الحماس مع صفاء في البصيرة ورزانة في التفكير ، فكان يرسم ببيانه الأخاذ صورة حياة المستقبل الحرة التي سينعم بها قوزاق الدون حين تكون لهم حكومتهم ، حين يخلو الاقليم من أي روسي . ويومذاك يقف القوزاق حرساً على امتداد حدود بلادهم ، فيكون بوسعهم أن يخاطبوا أوكرانيا وروسيا الكبرى مخاطبة الند للند ، دونما حاجة إلى رفع القبعة إجلالاً ، وأن يقيموا صلات التجارة والتبادل معهما ، لقد استحوذ ايزفارين على ألباب القوزاق البسطاء والضباط الذين لم ينالوا قسطاً وافراً من الثقافة ، ووقع غريغوري كذلك تحت سحره . وفي بادئ الأمر كان يحتدم بينهما الجدال ، ولكن غريغوري ، وهو أشبه بالأمي ، لم يكن ندا لمقابله ، فكان ايزفارين ينتصر دوما في صولات الجدال دونما مشقة . وكانت المناقشة تجري عادة في ركن من أركان الثكنة ، فيأخذ المستمعون على الدوام جانب ايزفارين . كان يبهرهم بحججه وبالصور التي يرسمها لحياة الاستقلال المترتقب ، وذلك ما يتجاوب بشكل خاص مع أعمق المشاعر الصميمية للقوزاق الموسرين في الدون الأسفل .

كان غريغوري يسأله :

ـ ولكن كيف يسعنا أن نعيش بدون روسيا ، وليس لدينا غير القمح ؟

فيوضح ايزفارين له الأمر بطول أناة :

أنا لا أفكر بالاستقلال والعزلة التامة لمنطقة الدون وحدها .

سنعيش سوية مع الكوبان ، والتيريك ، وأهالي مرتفعات القوقاز على أساس فيدرالي ، أي اتحادي . القوقاز غني بمعادنه ، وبوسعك أن تجد كل شيء هناك .

ـ والفحم كذلك ؟

ـ ان حوض الدونيتس لا يبعد أكثر من مرمى حجر .

ـ ولكنه يعود لروسيا .

ـ ان عائديته ، وفي أي حدود يقع ، لأمر متنازع عليه . ولكن حتى اذا ذهب حوض الدونيتس إلى روسيا فاننا لانخسر كثيراً .

فحلفنا الفيدرالي لن يرتكز على الصناعة . نحن بلد زراعي ، وسوف نموّن صناعتنا الصغيرة ، والحالة هذه ، بفحم نشتريه من روسيا . وليس الفحم وحده . ثمة أشياء كثيرة أخرى ينبغي لنا أن نشتريها من روسيا : الخشب ، المعادن ، الحاجيات المصنوعة وما إليها ، وفي مقابل ذلك سنزودهم بالقمح والبترول الجيدين .

ـ وماذا نربح من انفصالنا ؟

ـ ذلك أمر بسيط! قبل كل شيء ، سنتحرر من حمايتهم السياسية . سنعيد النظام الذى قضى عليه قياصرة روسيا ، ونطرد جميع الدخلاء . وفي غضون عشرة أعوام ستزداد ثروتنا عشرة أضعاف وذلك باستيرادنا المكائن التي ترفع مستوى زراعتنا ، فالأرض أرضنا . لقد اغتسلت بدماء آبائنا وأخصبت بسماد عظامهم ، ولكن أربعمائة عام مضت ونحن خاضعون لروسيا ، ندافع عن مصالحها دون اهتمام بحالنا . ان لدينا منفذاً على البحر . وسيكون عندنا جيش محارب قوي . ولن تستطيع أوكرانيا أوحتى روسيا أن تعتدي على استقلالنا .

كان ايزفارين مثال القوزاقي بقوامه المتوسط ، وهيئته الوسيمة ومنكبيه العريضين . وكان ذا شعر أجعد بلون الهرطمان قبل نضوجه ، ووجه أسمر ، وجبين منحدر ، ولم تلوح الشمس سوى وجنتيه وحوالي حاجبيه الحائلين . كان صوته صداحاً عالياً حسن النغمة ، ومن عادته لدى الكلام أن يرفع حاجبه الأيسر فجأة ويجعد أنفه الصغير المعقوف ، فيبدو وكأنه يتشمم شيئاً . وكان يتميز بين ضباط كتيبته بمشيته النشطة ، وانتصاب قامته اعتداداً بالنفس ،

ونظرة عينيه البنيتين الصريحة . وكان القوزاق يكنّون له احتراماً صادقاً ربما فاق احترامهم لآمر الكتيبة ذاته .

دارت بين ايزفارين وغريغوري أحاديث طويلة فشعر غريغوري بالأرض ترتخي تحت قدميه كرّة أخرى ومر بتجربة مثيلة لتلك التي عاناها في مستشفى العيون في موسكو حين التقى بغرانجا .

وحدث بعد ثورة أكتوبر بقليل أن دار بينه وبين ايزفارين حديث طويل . وكانت تتمزقه نوازع متناقضة ، فسأل الملازم باحتراس عن رأيه في البلاشفة .

ـ قل لي ، يفيم ايفانتش ، هل تعتقد أن البلاشفة على حق أم لا ؟

فأجابه ايزفارين رافعاً حاجبه مجعداً أنفه بهزل :

ـ هل البلاشفة على حق ؟ ـ ها ـ ها! انك ، يا بني ، أشبه بالطفل الوليد . ان للبلاشفة برنامجهم ، وخططهم ، وآمالهم ، انهم على حق ، من وجهة نظرهم هم ، كما أننا على حق من وجهة نظرنا نحن . أتعرف الاسم الحقيقي للحزب البلشفي ؟ لا تعرف ؟ حسناً ، انه حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، أفهمت ؟ العمال! انهم الآن يغازلون الفلاحين والقوزاق ، لكن الطبقة العاملة هي قاعدتهم . انهم يحررون العمال ، ولكنهم ربما يجلبون شر العبودية للفلاحين . ففي واقع الحياة لا يحدث مطلقاً أن يتساوى نصيب الجميع . اذا تغلب البلاشفة فذلك خير للعمال وشر للآخرين . واذا عاد النظام الملكي فذلك خير لمالكي الأرض ومن لف لفهم وشر لغيرهم ، اننا لا نريد هذا ولا ذاك . اننا بحاجة إلى نظام خاص بنا ولكننا بحاجة قبل كل شيء إلى التخلص من حماتنا سواء كانوا كورنيلوف ، أم كيرنسكي ، أم لينين . فبوسعنا العيش في أرضنا بدونهم . فلينجنا الرب من شر أصدقائنا وسوف نتدبر أمر أعدائنا بأنفسنا .

ـ ولكنك تعلم... أن غالبية القوزاق يميلون إلى البلاشفة ؟

ـ غريشا ، يا صاحبي ، أفهم هذا ، فهو أمر جوهرى . في الوقت الراهن يتفق اتجاه البلاشفة . هذا صحيح ، ولكن أتدري لماذا ؟ السبب هو أن

البلاشفة يطمحون إلى السلام ، إلى السلام الفوري ، وفي هذه اللحظة يحس القوزاق بوطأة الحرب ها هنا .

وصفع رقبته السمراء صفعة رنانة ، وصاح ، وهو يعدل حاجبه المرفوع تهكّماً :

ـ ولهذا يتبلشف القوزاق بعض الشيء ويسايرون البلاشفة ولكن... حالما تنتهي الحرب ويمد البلاشفة يدهم للاستحواذ على ممتلكات القوزاق يفترق طريقاهما! ذلك أمر أساسي ، وحتمية تاريخية . فثمة هوة لا قرار لها بين أسلوب القوزاق في المعيشة وبين الاشتراكية ، وهي غاية الثورة البلشفية! حسناً ، ما قولك في ذلك ؟

فغمغم غريغوري قائلاً :

ـ أقول انني لا أفهم شيئاً . إن من العسير عليّ أن أتبين رأس الشيء من ذنبه . إنني تائه لكأنني نهب عاصفة ثلجية في السهب .

ـ ولن تخرج اذا بقيت على هذه الحال . فسترغمك الحياة ذاتها على ادراك الأمور ، وستدفع بك إلى هذا الجانب أو ذاك .

دار هذا الحديث في أواخر تشرين الأول . وفي تشرين الثاني صادف لغريغوري أن يلتقي بقوزاقي آخر لعب دوراً كبيراً في تاريخ الثورة على الدون . التقى غريغوري بفيودور بودتيلكوف ، فاستعاد قلب غريغوري من جديد الحقيقة السابقة بعد شيء من التردد .

كان المطر يرذ يومها منذ الظهيرة ، وقد صفا الجو عند المساء فقرر غريغوري أن يزور دروزدوف ، وهو نائب عريف في الكتيبة الثامنة والعشرين ، من أهل منطقته . وبعد ربع ساعة كان يمسح قدميه على الحصير عند باب دروزدوف . وكان عند دروزدوف زائر : قوزاقي عظيم الجرم على كتفيه شرائط رئيس عرفاء في بطارية الحرس ، وكان يجلس على سرير سفرى وظهره ازاء النافذة وحوله أزهار فيكوس نحلية وأثاث مهترئ . كان يجلس محني الظهر وقد انفرجت ساقاه بسروالهما الأسود بينما استقرت يداه

الكبيرتان المشعرتان على ركبتيه العريضتين . وكانت قمصلته من الضيق بحيث بدت على وشك التمزق عند صدره . وعلى صرير الباب أدار رقبته القصيرة ، وحدق صوب غريغوري ببرود ، ثم أخفى ضوء عينيه البارد في مجاهل محجريهما الضيقين ، تحت أجفانهما الغليظة .

ـ أود أن تعرفا بعضكما! غريغوري ، أقدم اليك بودتيلكوف من أوست خوبرسكايا ، تكاد تجاورنا داره .

تصافح الاثنان بصمت ، ثم جلس غريغوري .

ابتسم غريغوري لمضيفه وقال :

ـ لقد لطخت الأرضية بحذائي ، آسف .

ـ لا عليك . سوف تقوم صاحبة البيت بتنظيفه... هل لك ببعض الشاي ؟

وكان دروزدوف قميئاً نشطاً كالسحلية ، فدق على السماور بظفر اصبعه الأصفر من الدخان ، وأردف بأسف :

ـ عليك أن تشربه بارداً .

ـ لا أريد ، دعك منه .

ثم قدم غريغوري سيكارة إلى بودتيلكوف فأعمل الأخير أصابعه الحمر الكبيرة بالعلبة المرصوصة بالسكائر وغمغم قائلاً : « عليها اللعنة ، لا أستطيع أن أمسكها على أية حال » . وأخيراً استطاع أن يخرج سيكارة ، ثم رفع عينيه الباسمتين (وقد زاد ضيقهما الآن) إلى وجه غريغوري فاستلطف طبيعته السمحة وسأله : « من أية قرية أنت ؟ » .

ـ ولدت في كوتوفسكي ، لكني كنت أعيش مؤخراً في أوست كلينوفسكي . أحسبك سمعت بكرتوفسكي ؟

كان يخاطب غريغوري دونما اهتمام تارة بالرسميات وتارة أخرى بصيغة مفرد ويتحدث بحرية وذات مرة وضع يده الثقيلة على كتف غريغوري .

كانت آثار الجدري الخفيفة تبدو على وجه بودتيلكوف العريض الحليق . وكان عذاراه مفتولين باحكام ، وشعره المبلل والممشط بعناية لصيقاً بأذنيه

الصغيرتين . وقد علت حاجبه الأيسر خصلة من شعره . كان محياه قمينا بأن يسر الناظر لولا أنفه الكبير المتجه إلى أعلى . ولم يبد على عينيه ، لأول وهلة ، أيّما شيء غريب ، ولكن حين نظر غريغوري إليهما ملياً كاد أن يلمس ثقلهما الرصاصي . كانتا صغيرتين ، أشبه بكرتين من الرصاص تلتمعان خلال شقيهما الضيقين وكأنهما تومضان من كوّتين ، لتسمّرا النظر في نقطة واحدة بإصرار لا يكل .

راح غريغوري يتملى هذا الرجل بفضول ، ولاحظ أن فيه ظاهرة خاصة ، فهو لا يكاد يطرف عينيه . كان وهو يتكلم يثبت نظرته الجادة على صاحبه ، أو ينتقل بها من شيء إلى شيء ، لكنما أهدابه الكثة الحائلة تبقى مسبلة لاحراك فيها . لم يكن ليسبل جفيه المنتفخين الا من حين لآخر . ثم لا يلبث أن يرفعهما بغتة ليصوب بتلكما العينين الخرزيتين .

قال غريغوري مفتتحاً الحديث :

ـ هاكما نقطة جديرة بالاهتمام ، أخويّ ، سوف تنتهي الحرب وسنبدأ الحياة على نمط جديد . ستكون لأوكرانيا حكومتها الخاصة ، وسيحكم الدون مجلس القوزاق العسكري .

فصحح بودتيلكوف قوله بهدوء :

ـ تعني الأتمان كاليدين .

ـ سيان ، وما الفرق ؟

فقال بودتيلكوف موافقاً :

ـ أوه ، ليس ثمة فرق .

وبدأ غريغوري يشرح حجة ايزفارين ، وقد استبد به الفضول لرؤية ما تحدثه هذه الآراء من رد فعل لدى دروزدوف وهذا العظيم الجرم من بطارية الحرس . قال :

ـ لقد قلنا لأمنا روسيا : وداعاً . ستكون لدينا حكومتنا الخاصة ونمط معيشة خاص . ليخرج الأوكرانيون من أرض القوزاق . سوف نعيّن حرساً

للحدود ونحول بين الدخلاء وبلادنا . سوف نعيش كما عاش أجدادنا في الأيام الخوالي . أعتقد أن الثورة جاءت لصالحنا . ما رأيك ، يا دروزدوف ؟

فابتسم دروزدوف ابتسامة ماكرة وتململ قائلاً :

ـ طبعاً سيكون ذلك أفضل بالنسبة إلينا . لقد سلبنا الفلاحون قوانا ، وماكان بالوسع أن نحيا في ظلهم . ثم ان جميع الاتمانات كانوا من الألمان! فون تاوبه ، فون كرابه ، والشيطان يعلم اسماء الآخرين . لقد منحوا أرضنا لكل ضباط الأركان هؤلاء . أما الآن فسيكون بمقدورنا أن نتنفس على أية حال .

فقال بودتيكوف بهدوء دون أن يوجه السؤال إلى شخص معين :

ـ ولكن هل توافق روسيا على ذلك ؟

فأجابه غريغوري مطمئناً :

ـ أحسب أنها سترغم على قبول ذلك .

ـ على أية حال ، سيبقى الامر على ما هو تماماً ، الحساء القديم نفسه سوى أنه مخفف أكثر من السابق .

ـ كيف تفسر الأمور هكذا ؟

ـ طبعاً سيكون الأمر كذلك .

وشرع بودتيلكوف ينقل عينيه الخرزيتين بسرعة أشد ثم رمى غريغوري بنظرة ثقيلة وأضاف :

ـ سيظل الأتمانات يجرون على منوالهم السابق في اضطهاد الشعب الذي يتعين عليه أن يكد . ستمثل أمام واحد من أصحاب السعادة وسيضربك على الخرطوم . حياة جميلة ، حقاً . أفضل منها أن تعلق حجر الطاحونة على رقبتك وترمي بنفسك في النهر .

فنهض غريغوري وراح يمشي في الغرفة الصغيرة جيئة وذهاباً . ثم توقف أمام بودتيلكوف وسأله :

ـ فماذا علينا أن نفعل اذاً ؟

ـ علينا أن نتم المهمة!

ـ أية مهمة ؟

ـ حين تشرع بالحراثة عليك شق الأرض إلى النهاية . وحين تخلع القيصر والمعادين للثورة عليك تسليم الحكم إلى الشعب . وأما قصة الأيام الخوالي تلك فهي حديث خرافة . ففي الأيام الغابرة كان القياصرة يضطهدوننا ، ولئن لم يعد القياصرة يضطهدوننا الآن ، فسوف يضطهدنا آخرون غيرهم .

ـ اذاً ما هو سبيلك للخروج من المأزق ، يابودتيلكوف ؟

ومرة أخرى راحت عيناه الخرزيتان تجولان هنا وهناك ، تتنسمان منفذاً في تلك الغرفة الصغيرة التي ضاقت بما فيها .

ـ حكومة شعبية ، منتخبة . وان وقعنا في قبضة الجنرالات فالحرب آتية من جديد ، ولا أرانا بحاجة اليها . ليتنا نستطيع اقامة حكومة شعبية في جميع انحاء العالم فلا يضطهد الشعب أو يساق إلى الحروب! ولكن ماذا عندنا الآن ؟ انك إن قلبت السروال العتيق على بطانته فلن تتوارى ثقوبه .

وضرب بودتيلكوف ركبتيه ضربة داوية ، وافتر فمه عن ابتسامة صارمة كاشفاً عن صف مرصوص من أسنان صغيرة بيضاء وأردف :

ـ خير لنا أن نبتعد عن الايام الخوالي ، لكيلا يشدوا السرج علينا وتمسي حياتنا أسوأ منها أيام القيصر .

ـ ومن الذي سيحكمنا ؟

فأجاب بودتيلكوف بحمية متزايدة :

ـ سنحكم أنفسنا ، ستكون لنا حكومتنا نحن . ليرخوا حزام سرجنا قليلاً ، أما كاليدين وأمثاله فبوسعنا نحن ان نلقي بهم من على ظهورنا في الحال .

وقف غريغوري ازاء النافذة المضببة وطفق يحدق إلى الشارع ، والى الاطفال وهم يلعبون ، والسقوف الندية للبيوت المقابلة ، والأغصان الرمادية الباهتة لشجرة حور تقوم وراء السياج ، ولم يعد ينصت إلى النقاش الدائر بين بودتيلكوف ودروزدوف . كان يجاهد متألماً لكيما يتبين ضوء النهار خلال

الأفكار التى اختلطت عليه فأثقلت كاهله ، ولكيما يتوصل إلى قرار ما .

ولبث هناك زهاء عشر دقائق يخط باصبعه على الزجاج الأحرف الأولى لبعض الأسماء . وكانت شمس المغيب الشتائي المبكر ، تتوهج وراء سقف البيت الواطىء المقابل . وكان قرص الشمس يبدو حاطاً على تسنيمة* السقف الصدئ وكأنه على وشك التدحرج في هذا الاتجاه أو ذاك . واندفعت من حديقة البلدة إلى الشارع أوراق مخشخشة متلاحقة ، وعصفت خلال البلدة ريح قادمة من أوكرانيا ولوغانسك ما لبثت أن اشتدت .

٣

غدت مدنية نوفوتشيركاسك محط أنظار كافة الهاربين من الثورة البلشفية . وتدفق إلى مناطق الدون السفلى جنرالات بارزون كان في يدهم ذات يوم مصير الجيوش الروسية المتدهورة ، جاؤوا يحدوهم الأمل في العثور على التأييد لدى رجعيي قوزاق الدون ، وليتخذوا الدون قاعدة للهجوم على روسيا السوفييتية . وفي الثاني من تشرين الثاني وصل الجنرال ألكسييف إلى المدينة . وبعد أن أجرى مداولات مع كاليدين شمر عن ساعد العمل لتنظيم مفارز من المتطوعين .

وتألف العمود الفقري لجيش المتطوعين العتيد من الضباط الذين فروا من الشمال وطلاب الكليات العسكرية ، والطلبة ، والجند الذين فقدوا ارتباطهم الطبقي ، ومن أنشط القوزاق المعادين للثورة ، ورجال يسعون وراء المغامرات والأجرة العالية ولو كانت بروبلات كيرنسكي .

وفي أواخر تشرين الثاني ، حين كان لدى ألكسييف أكثر من ألف رجل في مفارزه ، قدم الجنرالات لوكومسكي ، ماركوف وايرديلي .

---

* أعلى السقف الذى على شاكلة الجملون .

وفي السادس من كانون الأول وصل المدينة كورنيلوف نفسه الذى ترك في الطريق حرسه التركماني وبلغ حدود الدون متنكراً . وكان كاليدين قد أفلح آنذاك فى سحب كتائب القوزاق كلها تقريباً من الجبهات الرومانية والنمساوية الألمانية ، فوزعها على امتداد خطوط السكك الحديد الرئيسية في اقليم الدون . بيد أن القوزاق ، الذين أرهقتهم أعوام الحرب الثلاثة فعادوا من الجبهة يحملون روحاً ثورية ، لم يبدوا رغبة شديدة لقتال البلاشفة . ولم يبق فى الكتائب سوى أقل من ثلث أفرادها ، اذ كانت نار المواقد في منازلهم تدعوهم إليها بإلحاح . ولم تكن على الأرض قوة بوسعها أن تحول بين القوزاق وزحفهم التلقائي نحو قراهم . ولم يبق فى بتروغراد من كتائب القوزاق الا ثلاث ، وحتى هذه لم تمكث هناك طويلاً . ثمة وحدات لم تكن موضع ثقة فحاول كاليدين اعادة النظر في تشكيلاتها ، أو عزلها باحاطتها بأشد قطعاته اخلاصاً .

وفي أواخر تشرين الثاني ، حين قام كاليدين بأول محاولة لارسال عدد من مفارز الجبهة لمهاجمة روستف الثورية ، أبى القوزاق أن ينفذوا الأمر ، وعادوا القهقرى دون أن يتقدموا إلا مسافة قصيرة . بيد أن التنظيم المتطور الواسع لتدعيم الفرق المشتتة بدأ يعطي ثماره . وما ان حل السابع والعشرون من تشرين الثاني حتى أصبح تحت امرة كاليدين عدد من مفارز المتطوعين المخلصين ، واستطاع أن يستعير بعض القوات من ألكسييف ، الذي كان آنذاك قد جمع بضعة أفواج .

وما ان حل الثاني من كانون الأول حتى أطبقت قوات الحرس الأبيض على روستوف وحين وصلها كرنيلوف غدت المدينة المركز التنظيمي لجيش المتطوعين . وترك كاليدين وشأنه ، فوزع وحدات القوزاق على امتداد حدود الاقليم حتى تساريتسين وأطراف مقاطعة ساراتوف . إلا أنه استخدم مفارز من الضباط والانصار لتنفيذ أشد مهامه خطورة ، فلم يكن بوسع الحكومة العسكزية الهزيلة أن تركن في تنفيذ المهام الآنية إلا إلى هذه الوحدات .

وأرسلت المفارز المجندة حديثاً لاخماد حركة عمال المناجم في الدونيتسك . وشرع الرئيس تشيرنتسوف بالعمل في منطقة ماكاييف حيث كانت ثمة وحدات من كتيبة القوزاق النظامية الثامنة والخمسين .

وقد شكلت في نوفوتشيركاسك مختلف المفارز والأرهاط الحربية تحت قيادة سيميليتوف وغريكوف ، وفي الشمال جمع الضباط والأنصار لتشكيل ما دعيت بمفارز «ستينكا رازين»* الا أن طوابير من الحرس الأحمر كانت تتقدم صوب المقاطعة من اتجاهات ثلاثة .

واستمر جمع القوات في خاركوف وفوروينج لتوجيه ضربة إلى أعداء الثورة في منطقة الدون . علت السحب الدون وتكاثفت وادلهمت . وبدأت رياح أوكرانيا تحمل دوي المدافع الذي رافق الاشتباكات الأولى .

٤

كانت ثمة غمامات منتفشة بيضاء مصفرة ، تنساب على مهل فوق نوفوتشيركاسك . وتعلقت في السماء فوق قبة الكاتدرائية اللامعة غمامة رمادية متجعدة كالعِهن المنفوش ، وقد تدلى ذنبها الطويل بلون فضي متورد .

لم تكن الشمس ساطعة عند شروقها ولكن نوافذ قصر الأتمان كانت تتوهج بأشعتها توهجاً قوياً . وكانت سقوف المنازل الحديدية المائلة تلتمع ، وتمثال يرماك** البرونزي مايزال مبللاً بمطر اليوم السابق ، رافعاً تاج سيبيريا .

سار فصيل من مشاة القوزاق صعداً إلى تل كريشنسكي ، وراحت أشعة

* ستيبان (ستينكا) رازين (١٦٣٠ ـ ١٦٧١) وهو الأتمان القوزاقي وزعيم الحرب الفلاحية (١٦٧٠ ـ ١٦٧١) . المعرب

** يرماك (توفي عام ١٥٨٥) وهو الأتمان الذى بدأ بقواته القوزاقية بفتح سيبيريا وانضمامها إلى روسيا . كان يتمتع بشعبية واسعة وأصبح ، وهو على قيد الحياة ، بطلاً لقصائد وأغان شعبية كثيرة . المعرب

الشمس تتراقص مرحة على حراب بنادقهم . وكانت مشية القوزاق منتظمة لا يكاد وقعها يحدث الا صوتاً ضئيلاً لا يعكر صفو ذلك الصباح البلوري الذي لم يسمع فيه من صوت آخر سوى خطوات عابر سبيل يمر بين الفينة والفينة أو قعقعة عربة من عربات الدروزكي .

وصل صباح ذلك اليوم ايليا بونتشوك إلى نوفوتشيركاسك بقطار موسكو . وكان آخر من غادر عربة القطار لامّاً أطراف معطفه القديم شاعراً بالارتباك في ملابسه المدنية .

وكان ثمة دركي وفتاتان يتمشون ذهاباً اياباً على الرصيف وهما تتضاحكان لشيء ما . خرج بونتشوك إلى المدينة ، متأبطاً حقيبته الرخيصة الرثة . ولم يكد يصادف أيّما مخلوق في طريقه رغم أنه قطع المدينة من أدناها إلى أقصاها . وبعد أن سار نصف ساعة توقف أمام دار صغيرة خربة ، لم تمسسها يد الترميم لسنوات عديدة ، فعبثت بها يد الدهر ، وتهدل السقف ، وانحنت جدرانها ، وتدلت صفاقاتها الخشبية ، واحولت نوافذها . وحين فتح بونتشوك البوابة ألقى نظرة عجلى منفعلة على الدار وفنائها الصغير ، ثم أسرع مرتقياً الدرج .

صادفه صندوق معبأ بسقط المتاع يحتل نصف الممر الضيق . وقد ارتطمت ركبته بحافة الصندوق في الظلام ولكنه فتح الباب دون أن يشعر بالألم . ولم يكن ثمة أحد فى الغرفة الأولى الواطئة . فذهب صوب الثانية ، وتوقف عند العتبة وقد أفعمته رائحة مألوفة جداً ينفرد بها هذا البيت ، ورأسه يدور . واستوعبت عيناه الغرفة برمتها : الايقونات بأطرها الثقيلة في الركن ، والسرير ، المائدة التي تعلوها المرآة الصغيرة المنقطة ، بضعة تصاوير ، عدد من الكراسي المخلخلة ، ماكنة الخياطة وسماور قديم فوق الموقد . فألقى حقيبة ملابسه وراح يحدق في أرجاء المطبخ وقد اشتد خفقان قلبه على حين غرة . وكان على الموقد المرتفع المطلي بالاخضر سيماء الترحاب ، وأطلت قطة عجوز رقطاء من وراء ستارة قطنية زرقاء ، تومض عيناها بما يشبه فضول

البشر ، فلابد أنها لم تألف الزوار . وكان ثمة صحون وسخة مبعثرة على المائدة ، وعلى مقعد تركت كرة من الصوف وأربعة إبر لماعة تحمل جورباً لما تتم حياكته .

ان ثمانية أعوام بطولها لم تغيّر شيئاً . لكأنه لم يغادر البيت إلا قبل يوم . وهرع خارجاً إلى الدرج . فظهرت عجوز محنية الظهر من باب سقيفة في أقصى الفناء . «أمي! ولكن أتراها هي ؟ أهي أمي ؟» واندفع يلقاها بشفتين مرتعشتين نازعاً قبعته وهو يركض .

تساءلت العجوز جفلة وهي تظلل عينيها براحة يدها :

ـ من تريد ؟

فانفجرت الكلمات مبحوحة في حنجرة بونتشوك :

ـ أماه! ألا تعرفينني ؟

ومضى نحوها متعثراً ، فشاهدها تترنح من وقع صرخته ، وكأن ضربة سددت إليها . وحاولت أن تركض ولكن لم تسعفها قواها ، فتقدمت بخطوات صغيرة وكأنها تكافح ريحاً هوجاء . واحتواها بين ذراعيه ، وراح يقبل وجهها المتغضن وعينيها ، اللتين غشيهما الخوف والفرح ، بينما كانت عيناه تطرفان بلا ارادة .

وراحت العجوز تهمس :

ـ ايليا! اليوشا! يا ولدي الصغير! لم أعرفك... رباه من أين جئت ؟ ـ وهي تحاول ان تعدل قامتها لتقف على قدميها الضعيفتين المرتجفتين .

دخلا البيت ، وخلع معطفه المستعار وهو يتنفس الصعداء ، ثم جلس ازاء المائدة .

ـ لم يدر فى خلدي أبداً أنني سأراك ثانية وأنت على قيد الحياة... مضت سنوات كثيرة... يا عزيزي... كيف أستطيع معرفتك ، لقد نما جسمك كثيراً ، وصرت تبدو أكبر سناً .

فسألها باسماً :

ـ حسناً ، وكيف حالك ، يا أمي ؟

كان جوابها متقطعاً ، وهي تنتقل هنا وهناك ، تعد المائدة ، وتضع الفحم في السماور . وكانت تهرع إلى ابنها ، المرة تلو المرة ، بدموعها المنهمرة لتمسد رأسه وتشده إليها وهي تمسح خديها المبللين وتلطخهما بالفحم الأسود . ثم غلت الماء وغسلت رأسه بنفسها ، وأخرجت له من أسفل الصندوق بعض الملابس الداخلية النظيفة التي اصفر لونها من فرط القدم ، ثم قدمت إلى ضيفها العزيز وجبة طعام وجلست حتى منتصف الليل ، وقد سمرت فيه عينيها ، تسأله عن حاله وتهز رأسها بحزن .

كانت الساعة الثانية قد دقت في كنيسة مجاورة حين رقد بونتشوك لينام . وقد استغرق في النوم حالاً ، ورأى في نومه أنه عاد من جديد تلميذاً في مدرسة الصنائع وقد أنهكه التعب جراء اللعب فأغفا فوق كتبه ، بينا فتحت أمه باب المطبخ وسألته بصرامة : «ايليا ، هل حفظت دروسك ليوم غد ؟» كان نائماً وقد تسمرت على محياه ابتسامة تطفح بالهناء .

ذهبت أمه اليه أكثر من مرة خلال الليل لتسوي غطاء بطانيته ووسادته ، وتقبل جبينه السمح بخصلة من شعره الشقراء تدلت عليه ثم تخرج ثانية بهدوء .

أمضى في بيته يوماً واحداً فقط . وفي الصباح جاءه رفيق يرتدي معطفاً عسكرياً وقبعة جديدة من الخاكي وتحادث معه بصوت خافت ، وبعد أن غادره الرجل ، تنقل هنا وهناك منهمكاً في اعداد حقيبته ووضع فيها الملابس الداخلية التي غلتها له والدته ، وارتدى معطفه الذي لا يلائمه . ثم ودع أمه وداعاً عاجلاً ، بعد أن وعد بزيارتها في غضون شهر .

ـ أين أنت ذاهب الآن ، يا ايليا ؟

ـ إلى روستوف ، أماه ، إلى روستوف ، سوف أعود عما قريب... لا تحزني ، أماه... لا تحزني .

قال لها ذلك مشجعاً . فأسرعت تنزع صليباً صغيراً من حول عنقها ، وبينا

هي تقبل ابنها أنزلت الخيط حول رأسه وسوته حول رقبته بأصابع مرتعشة ، ثم همست :

ـ احمل هذا ، ايليا . احمه ونجه أيها القديس نيقولاي ، احفظه بجناحيك فهو كل ما عندي في هذه الدنيا .

وفيما كانت تعانقه بكل حرارة ، لم تقو على كبح جماح نفسها فارتعشت زاويتا شفتيها وتهدلت بمرارة . وكمثل مطر الربيع تساقطت دموعها الدافئة ، واحدة اثر واحدة ، على يد بونتشوك المكسوة بالشعر . ثم فكّ يديها عن رقبته وهرول إلى خارج البيت بوجه مكفهر محزون .

* * *

كانت محطة روستوف تعج بحشد تزاحم كالقطيع ، وقد تراكمت على الأرض حتى الكاحل أعقاب السكائر وقشور بذور عباد الشمس . ووقف جنود من حامية المدينة في ساحة المحطة يبيعون المعدات والتبغ والحاجيات التي سرقوها . وكان يضج ويموج أمامه حشد حاشد من شتى الأقوام كالذي يشاهده المرء في مرفأ من مرافئ الجنوب . وشق بونتشوك طريقه خلال الحشد إلى غرفة لجنة الحزب وارتقى السلم الى الطابق الأول . فاعترض سبيله جندي من الحرس الأحمر ببندقية من طراز ياباني . وكانت حربتها عريضة قصيرة .

ـ ماذا تريد ، أيها الرفيق ؟

ـ أريد الرفيق أبرمسون . أهو هنا ؟

ـ الغرفة الثالثة الى اليسار .

فتح بونتشوك باب الغرفة المقصودة ، فوجد رجلاً قصير القامة أسود الشعر كبير الأنف يتحدث إلى عامل من عمال السكة الحديد . كانت يسراه تحت ياقة سترته ويمناه تلوح في الهواء بانتظام . وكان الرجل ذو الشعر الأسود يقول :

ـ ما هذا بالعمل المرضي! ليس ذلك بتنظيم! اذا سارت الدعاية على هذا

المنوال فإنك تحصل على عكس النتيجة التي نريدها تماماً .

وكانت نظرة الشعور القلق بالذنب البادية على وجه عامل السكة الحديد تدل على أنه يريد قول شيء يبرر به عمله ، الا أن الرجل الآخر لم يدعه يفتح فاه . ومن الواضح أنه كان منفعلاً أشد الانفعال اذ كان يصرخ :

ـ أزح ميتشنيكو من العمل فوراً! لا يمكن احتمال ذلك! لا يمكننا السماح بما يجرى بينكم . سوف يترتب على فيرخوتسكي أن يمثل من أجل ذلك أمام المحكمة الثورية . هل تم إلقاء القبض عليه ؟ أجل ؟ سأصر على رميه بالرصاص! ـ وحين أنهى كلامه القاسي هذا ، أدار وجهه الغاضب صوب بونتشوك ، قبل أن يسيطر على نفسه تماماً ، وسأله بحدة : ـ ماذا تريد ؟

ـ هل أنت أبرامسون ؟

ـ نعم .

فناوله بونتشوك وثائق ورسالة من أحد الرفاق المسؤولين في بتروغراد وجلس على طنف النافذة . فقرأ أبرامسون الرسالة بعناية ويبدو أنه ندم لما أبدى من خشونة فابتسم لبونتشوك ابتسامة كئيبة ، وقال :

ـ انتظر قليلاً ، سنتحادث بعد لحظة أو لحظتين .

ثم صرف عامل السكك وخرج ، ليعود مع ضابط حليق الوجه متين البنية من الجيش النظامي يحمل على فكه أثر ضربة بالسيف .

ـ إليك عضواً من أعضاء لجنتنا العسكرية الثورية . وأنت ، أيها الرفيق... آسف ، نسيت اسمك .

ـ بونتشوك .

ـ أنت من حملة الرشاشات ، أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ أنت ضالتنا المنشودة .

قال ذلك وابتسم فتورد أثر الجرح بطوله ، من أذنه حتى نهاية فكه . ثم قال أبرامسون سائلاً :

ـ هل تسطيع أن تنظم لنا مفارز حملة رشاشات بين العمال المنتمين إلى الحرس الأحمر ؟ بأسرع ما يمكن ؟

ـ سوف أحاول . انها مسألة وقت .

فقال العسكري مائلاً نحو بونتشوك وعلى ثغره ابتسامة أمل :

ـ حسناً ، كم من الوقت تحتاج ؟ أسبوعاً... اثنين ، ثلاثة ؟

ـ بضعة أيام .

ـ عظيم .

وفرك أبرامسون جبينه ، ثم قال بكدر واضح :

ـ ان مفارز حامية المدينة واهنة العزيمة ، وليس بالوسع الاعتماد عليها ، كما هي الحال في كل مكان ، على ما أظن ، أيها الرفيق بونتشوك . ان محط آمالنا هنا هم العمال . والبحارة كذلك ، أمّا الجنود... ولهذا السبب نريد حملة رشاشات من جماعتنا . ـ ثم أمسك لحيته السوداء ، وقال سائلاً : « كيف تتصور وضع تجهيزاتنا ؟ حسناً ، سنتدبر ذلك . هل تيسر لك ما تأكله هذا اليوم ؟ لا ، بالطبع لا » .

« لا بد أنه ذاق طعم الحرمان في حياته ، فهو يستطيع أن يحكم من أول نظرة ما إذا كان المرء متخماً أم جائعاً ، ولا بد أنه عانى الكثير من المتاعب أو الرعب ليجمع في رأسه كل هذا الشيب » . هذا ما دار في نفس بونتشوك وقد تملكه حنان مفاجئ ، وهو يرى الى بقعة الشيب التي كانت تسطع على رأس ابرامسون الأسود كالخنفساء . وظل بونتشوك يفكر بأبرامسون وهو ذاهب إلى غرفته بصحبة أحد الأدلاء : « إنه رجل طيب ، بلشفي حقيقي! صارم ، ولكنه يحمل طيبة وانسانية فى أعماقه . إنه لا يتردد فى اصدار حكم الإعدام على مخرب ما ، ومع ذلك فهو يهتم بحاجات رفاقه » .

وكان مايزال متأثراً بالانطباع الدافيء الذي تكون لديه في ذلك اللقاء حين وصل إلى منزل أبرامسون ، فسلم ربة البيت رسالة من عنده وتناول بعض

العشاء ، ثم استلقى ليستريح على السرير فى الغرفة الصغيرة الملأى بالكتب . وسرعان ما أخذته سنة من النوم .

٥

فى الأيام الأربعة التالية ، شغل بونتشوك منذ الصباح الباكر حتى الليل ، بالعمال الذين أرسلتهم اليه لجنة الحزب . كان مجموعهم ستة عشر رجلاً ، وكانت حرفهم أيام السلم مختلفة جداً ، وكذلك تباينت أعمارهم وتعددت مللهم . كان بينهم عاملا ميناء هما خفليتشكو الأوكراني ، وميخاليدي اليوناني المتجنس بالروسية ، ومنضد حروف المطبعة ستيبانوف ، وثمانية من عمال التعدين ، وزيلينكوف عامل في مناجم بارامونوف ، وغيفوركيانتس خباز أرمني بادي الهزال . وألماني متجنس بالروسية وهو ميكانيكي ماهر يدعى ريبيندر ، وعاملان من معامل السكة الحديد . ثم وصلت الرسالة السابعة عشرة إلى بونتشوك بيد امرأة ترتدي معطفاً عسكرياً محشواً وجزمة كبيرة جداً لا تناسبها . وحين تناول الرسالة المختومة ، سألها قائلاً

ـ هل تستطيعين أن تمري بمقر الأركان فى طريق عودتك ؟ فابتسمت محرجة وسوّت خصلة غزيرة من شعرها تدلت من تحت عصابة رأسها ، ثم أجابت بارتباك :

ـ لقد أرسلوني اليك... ـ ثم تغلبت على ارتباكها الطارئ ، وأضافت : ـ ... كحاملة رشاش .

فاحمر وجه بونتشوك ، وقال :

ـ هل جن جنونهم ؟ أينبغي لي أن أشكل فوجاً نسائياً ؟ أرجو المعذرة ، ولكن هذا عمل لا يناسبك ، انه شاق ويتطلب قوة الرجال . كلا ، لا أستطيع قبولك .

ثم فض الرسالة ، وهو مايزال عابساً ، ومر على محتوياتها بعجالة . ان

كتاب التجنيد نفسه لا يعدو أن يقول ان عضو الحزب آنا بوغودكو قد نسبت إلى صنف الرشاشات ، لكن أبرامسون كان قد أرفق الكتاب برسالة قرأها بونتشوك مرات عديدة جاء فيه :

عزيزي الرفيق بونتشوك :

نبعث إليك رفيقاً طيباً في شخص آنا بوغودكو . لقد أذعنّا لطلبها الملحاح ونأمل أن تجعل منها حاملة رشاش محاربة . انني أعرف الفتاة . وبوسعي أن أزكيها بحرارة .انها عاملة جليلة النفع ، واني لأرجوك أن تنتبه إلى أمر واحد : انها فتاة ملتهبة المشاعر ذات مزاج حاد بعض الشيء فهي ماتزال غراً (فهي لم تستطع أن تتخطى شبابها) ، امنعها من اتيان الأعمال الطائشة ، واعتن بها .

ان نواة مفرزتك ستتألف ، بدون شك ، من عمال التعدين الثمانية . ومن بين هؤلاء أول اهتماماً خاصاً ببوغوفوي فهو رفيق قدير مخلص للثورة . ان مفرزتك حملة الرشاشات ، أممية فى تكوينها ، وذلك أمر حسن يزيد من قدرتها على القتال . عجل في التمرين ، فقد بلغنا أن كاليدين يعد العدة لمهاجمتنا .

مع تحيات رفاقية

أبرامسون

تفرس بونتشوك في الفتاة الماثلة أمامه ، ولم يستطع أن يتبين معالم وجهها فقد أخفته عتمة القبو الذي أعطى له مثابة المقر . ثم قال بلا مجاملة :

ـ أوه حسناً! اذا كانت هذه مشيئتك أنت... وبما أن أبرامسون يرجو ذلك ، فبوسعك البقاء .

* * *

واحتشدوا حول المدفع الرشاش ، وخيموا عليه كالعنقود مستندين إلى

ظهور بعضهم البعض وراحوا يرقبونه بعيون متلهفة فيما كانت يدا بونتشوك تفصلان أجزاءه . ثم أعاد تركيبه ، وهو يشرح طبيعة كل جزء ، ويبين لهم كيفية استعماله ، وحشوه وتصويبه ، وتثبيت المحرك والمدى . ثم علمهم كيف يحمون أنفسهم من نار العدو ، مشيراً الى ضرورة نصب المدفع على موقع مناسب ووضع شريط العتاد بصورة صحيحة .

وقد تعلم السبعة عشر كلهم بسرعة ، باستثناء الخباز غيفوركيانتس . فمهما حاول بونتشوك أن يعلمه لم يستطع أن يتذكر شيئا ، وطار صوابه ، وهو يغمغم مرتبكاً :

ـ لماذا أخطئ ؟ آه... انني لأحمق... هذه القطعة ينبغي أن تكون هناك... ولكنها مع ذلك ليست في محلها! ـ ثم صرخ يائسا : ـ لماذا ؟

ـ اليك السبب! ـ حاكاه فى ذلك بوغوفوي وهو رجل أسمر ، ترك البارود آثاراً زرقاء على جبينه وخديه . وأردف : ـ انك لا تستطيع تركيبه لأنك مغفل . إليك ما ينبغي أن تفعل . ـ فوضع الجزء في محله الصحيح بكل ثقة وأردف : ـ منذ صباي كنت مولعاً بالأمور العسكرية . ـ ثم أشار إلى الآثار الزرقاء على وجهه وسط ضحك الجميع . ـ لقد حاولت أن اصنع مدفعاً ، ولكنه انفجر ، فنلت أسوأ عاقبة ، ولهذا السبب ترونني الآن ماهراً .

وكان هو فعلاً أول من أتقن فن استعمال المدفع الرشاش .

ولم يتخلف سوى غيفوركيانتس ، فكان صوته المتوجع الحانق يتردد على الدوام :

ـ أخطأت ثانية ، ولكن لماذا ؟ لست أدري!

ـ يا لك من حمار! ليس فى ناختيتشيفان الا حمار واحد مثله!

قال ذلك ميخاليدي بغضب ، وأيده الألماني المتحفظ ريبندر قائلاً :

ـ انه أحمق بشكل لا مثيل له .

وقال خفيليتشكو مازحاً :

ـ ان هذا العمل لا يشبه عجن العجين .

فابتسم الجميع ابتسامة رضية . بيد أن ستيبانوف صاح متكدراً وقد أحمر وجهه :

ـ يجب أن تعلموا رفيقكم لا أن تضحكوا منه!

وقد أيده في ذلك كروتوغوروف ، وهو عامل ضخم الهامة طويل الأطراف جاحظ العينين من معامل السكك الحديد ، قال :

ـ تقفون ضاحكين هناك ، أيها الحمقى ، فتؤخرون العمل! أيها الرفيق بونتشوك ، درب تماثيلك الشمعية هذه ، أو اطردها! ان الثورة في خطر وهم يقفون ضاحكين!

ثم لوح قبضة يده الشبيهة بالمطرقة الكبيرة .

استفسرت آنا بوغودكو عن كل شيء باهتمام بالغ . كانت ترهق بونتشوك ، وتعتّ كميه ، ولم تتزحزح عن جانب المدفع الرشاش . وكانت تلحف عليه بالأسئلة رافعة إلى عينيه برجاء عينيها السودوابين الوامضتين :

ـ ماذا يحدث لو أن الماء تجمد في خزان الماء ؟... ما هو الميل اللازم لريح شديدة ؟

كان يشعر بالارتباك في محضرها ، فغدا يتشدد معها ، فيسلك حيالها سلوكاً بالغ الفتور . ولكن شعوراً جياشاً غريباً كان ينتابه حين تدلف إلى قبوه في تمام السابعة صباح كل يوم ، وقد أخفت يديها في كمي سترتها ، وهي تجر خطاها في جزمتها العسكرية الكبيرة .

كانت أقصر منه قليلاً ، لها الجسد القوي البدين تلك البدانة التي تتميز بها العاملات اللواتي يتمتعن بصحة جيدة ، وربما اتصف كتفاها بشيء من الاستدارة ، وربما افتقرت إلى الجمال ، لولا عيناها الواسعتان الأخاذتان اللتان تضفيان على محياها برمته جمالاً غريباً .

ولم تكد تسنح له فرصة لإمعان النظر فيها ، في الأيام الأربعة الأولى . كان القبو رديء الانارة ، وحتى لو تيسر لديه الوقت لينعم النظر في وجهها فما كان ليستمرئ ذلك . وفي مساء اليوم الخامس غادرا القبو سوية . كانت

تسير أمامه ، ولكنها حين وقفت عند الدرجة الأخيرة والتفتت لتسأله عن شيء ما ، شهق بونتشوك شهقة صامتة حين رآها في ضوء الغروب . وقفت تنتظر الجواب ، وقد أمالت رأسها قليلاً ، وسمرت عينيها فيه ، وهي تدفع شعرها إلى الوراء بيدها . غير أنه لم يسمع سؤالها . ومضى يرتقي السلم على مهل ، وقد تملكه احساس رقيق إلى حد الألم . ووجدت صعوبة في ترتيب شعرها ثانية دون أن تخلع عصابة رأسها ، وقد ارتعش منخراها الورديان رعشة طفيفة جراء انهماكها . وكانت معالم فمها قوية لا تخلو من رقة صبيانية . وبدا على شفتها العليا المرفوعة زغب ناعم لاح داكناً على أديم بشرتها . فأحنى رأسه وكأنه يتلقى ضربة وقال مازحاً على نحو مسرحي :

ـ آنا بوغودكو ، يا حاملة الرشاش رقم ٢ ، انك جميلة مثل السعادة التي يرفل بها البعض .

ـ هراء! ـ أيها الرفيق بونتشوك! سألتك عن موعد ذهابنا غدا للتمرين على الرمي .

وأضفت عليها ابتسامتها مزيداً من البساطة والالفة والقرب .

وتوقف بجانبها يسرح نظرة ساهمة في الشارع حيث كانت الشمس جانحة تغمر كل الأشياء بغشاوة زرقاء . ثم أجابها بصوت خافت :

ـ التمرين على الرمي ؟ غداً . في أي اتجاه تذهبين ؟ أين تقيمين ؟

فذكرت اسم شارع صغير في أطراف المدينة . وذهبا معاً .

وعند أحد مفترقات الطرق أدركهما بوغوفوي ، وقال :

ـ بونتشوك ، متى نجتمع غداً ؟

فأوضح بونتشوك وهم سائرون أنهم سيلتقون في الساعة الثامنة غداً في غابة تيخايا . وسيأتي اثنان من الآخرين بمدفع رشاش في عربة . ورافقهما بوغوفوي مسافة قليلة ثم ودعهما .

واستمر بونتشوك وآنا يسيران بعض الوقت دونما كلام . وأخيراً رمقته بنظرة جانبية وقالت سائلة : ـ هل أنت قوزاقي ؟

ـ أجل .

ـ وهل كنت ضابطاً ؟

ـ لا ، أبداً .

ـ من أي منطقة أنت ؟

ـ من نوفوتشيركاسك .

ـ هل مضى عليك وقت طويل في روستوف ؟

ـ بضعة أيام .

ـ وقبل ذلك ؟

ـ كنت فى بتروغراد .

ـ متى انضممت إلى الحزب ؟

ـ في عام ١٩١٣ .

ـ وأين عائلتك ؟

ـ في نوفوتشيركاسك ، ـ قال ذلك على عجل ومد يده متوسلاً : ـ قفي قليلاً ودعيني الآن أقوم ببعض الأسئلة . هل ولدت في روستوف ؟

ـ لقد ولدت في مقاطعة يكاترينوسلاف ، ولكني أقمت هنا منذ أمد قريب .

ـ هل أنت أوكرانية ؟

فترددت برهة ، ثم أجابت بحزم :

ـ كلا .

ـ يهودية ؟

ـ نعم ، ولكن كيف عرفت ؟ هل أتكلم كما يفعل اليهود ؟

ـ كلا .

ـ إذاً ، كيف حزرت أني يهودية ؟

فقصر خطواته فى محاولة لتنسيقها مع خطواتها ، وأجاب :

ـ أذنك ، شكل أذنيك ، وعينيك . والا فليس فيك ما ينم قليلاً عن

قوميتك . ـ ثم صفن برهة ، وأردف : ـ إنه لأمر حسن أنك معنا .

فسألته بلهفة :

ـ لماذا ؟

ـ حسناً ، ان لليهود سمعة معينة . وأعرف أن كثيراً من العمال يعتقدون بصحة هذا ـ وأنا كما ترين عامل أيضاً ـ إن اليهود يصدرون الأوامر ولايعرضون أنفسهم للنار . ليس ذلك صحيحاً . وإنك ستبرهنين بشكل رائع على أن ذلك ليس صحيحاً

ـ هل درست في مكان ما ؟

ـ أجل ، لقد تركت المدرسة الثانوية في العام الماضي . من أين حصلت على ثقافتك ؟ أسألك هذا لأن حديثك يظهر بأنك من اصل غير عمالي .

ـ لقد قرأت الكثير .

ومضيا يسيران على مهل . وقد عمدت إلى اختيار طريق أطول إلى بيتها ، وبعد أن أخبرته شيئاً يسيراً عن نفسها ، شرعت تسأله عن هجوم كورنيلوف ، وعن موقف عمال بتروغراد ، وعن ثورة أكتوبر .

ووصل سمعهما من مكان ما في المرفأ اطلاق بندقية ، ثم مزق الصمت مدفع رشاش . فبادرت إلى السؤال :

ـ ما نوع ذلك الرشاش ؟

ـ لويس .

ـ ما مقدار ما استهلكه شريط العتاد ؟

لم يجب على سؤالها . فقد كان يتأمل باعجاب الضوء البرتقالي الكشاف ترسله سفينة صيد راسية إلى سماء المغرب الملتهبة .

تجولا فى أرجاء المدينة الخاوية قرابة الثلاث ساعات ، وافترقا في النهاية عند بوابة المنزل الذى تقيم فيه .

وعاد إلى بيته مفعماً بالغبطة والرضى .

ـ انها رفيقة رائعة ، وفتاة ذكية! ،حسناً فعلتُ بالحديث معها . لقد

غدوت خشن الطباع خلال الأعوام الأخيرة . لا بد أن تكون للمرء صلات ودية مع الناس ، والا غدا جافاً كالخبز العسكري .

كان ذلك يدور في خلده وهو يخادع نفسه عن عمد .

وجد أبرامسون قد عاد لتوه من اللجنة العسكرية الثورية ، فشرع يسأل بونتشوك عن تدريب مفرزة حملة الرشاشات ، ثم سأله عن آنا :

ـ كيف الحال معها ؟ اذا كانت غير لائقة فبوسعنا أن نجد لها عملاً آخر بسهولة .

فاجابه بونتشوك بهلع :

ـ آه ، كلا! انها فتاة جد قديرة .

وأحس رغبة لا تقاوم للمضي في الحديث عنها ، ولم يستطع كبح هذه الرغبة الا بجهد عظيم من ارادته .

٦

في ظهر الخامس والعشرين من تشرين الثانى شرع كاليدين يدفع قواته في الهجوم على روستوف . فتقدمت صفوف قليلة من مفارز ضباط الكسييف على امتداد السكة الحديد ، تساندهم من الجناح الأيمن قوة أكبرمن طلاب الكلية العسكرية ، ومن الجناح الأيسر مفرزة المتطوعين التابعة لبوبوف ، وتواثبت أشباحهم مثل خلق رمادية داخل خندق ، ثم تزاحفت خارجة وانتظمت صفوفها من جديد .

وكان صف الحرس الأحمر المنتشر على أطراف مدينة ناخيتشيفان قلقاً لا يقر له قرار وكان بعض العمال ، وكثير منهم يحمل بندقية لأول مرة فى حياته ، يحسون بالخوف ويزحفون ، هنا وهناك ، بمعاطفهم السود ، لايكترثون بوحل الخريف ، وكان بعضهم يرفع الرأس ويحدق بالأشباح الصغيرة النائية للجنود البيض المتقدمين .

وكان بونتشوك في ذلك الصف ، راكعاً بجانب مدفعه الرشاش ، والمنظار على عينيه . وكان في اليوم السابق قد غيّر معطفه المدني المزعج ، فأصبح يشعر بالراحة والسكينة في معطفه العسكري .

فتح الرجال النار دون انتظار لاشارة الآمر : كان السكوت متوتراً حين دوّت الطلقة الأولى ، أرسل بونتشوك اللعنات ، ثم قفز على قدميه ، وصرخ :

ـ أوقفوا النار!

ولكن صرخته غرقت في خضم الطلقات ، فتخلى عن محاولته ، وأمر بوغوفوي أن يفتح النار بالمدفع الرشاش ، جاهداً أن يسمع صوته فوق دوي الطلقات . فألصق بوغوفوي وجهه الباسم الرمادي بمغلاق المدفع الرشاش ثم لفّ اصبعه حول الزناد . فنفذت إلى أذن بونتشوك لعلعة المدفع الرشاش المألوفة . وحدق صوب العدو ليتبين دقة التصويب ، ثم هرول على امتداد الصف نحو المدافع الرشاشة الأخرى .

ـ ارم!

ـ حسناً! ها ـ ها ـ ها ـ ها!

هكذا دوى صوت خفيليتشكو ، وهو يلتفت اليه بوجه مرتعب وسعيد في آن واحد .

ولم يكن الفتيان العاملون حول المدفع الرشاش الثالث من المركز موضع اعتماد تام ، فهرول بونتشوك اليهم . وتوقف في منتصف الطريق ، واذ انحنى ، شرع يحدق في عدسات المنظار المضببة . واستطاع أن يرى أجسادهم الرمادية المتزاحمة تتحرك عن بعد ، وقد وصل سمعه صوت رميهم المستمر . فارتمى على الأرض ، ورأى ، وهو منبطح ، أن مدى المدفع الرشاش الثالث لم يكن دقيقاً ، فصاح وهو ويزحف على الخط :

ـ أخفضوه ، أيها الشياطين!

كانت الطلقات تصفر واطئة فوقه بشكل خطر . كان العدو يرمي بدقة من يقوم بالتمرين . كانت فوهة المدفع الثالث مائلة بزواية تبعث على الضحك ،

وقد ارتمى الرجال حوله على بطونهم .

وكان ميخاليدي اليوناني يطلق النار دون توقف ، فيبدد عتاده . وكان بقربه ستيبانوف مرتعباً ، وخلفه أحد عمال السكة الحديد وقد غاص برأسه إلى الأرض ، وحدّب ظهره كالسلحفاة .

فدفع بونتشوك ميخاليدي جانباً ، وسدد المدفع تسديداً بعيداً محكماً . وحين بدأت الطلقات تندفع منه ثانية كان لها أثرها الفوري . فقد ولت الأدبار حدر التل ثلة من طلاب الكلية العسكرية ، كانت تتقدم نحوهم جرياً ، تاركة وراءها أحد الطلبة على الأرض الطينية .

وسلمهم بونتشوك المدفع ، وعاد إلى مدفعه ، فوجد بوغوفوي راقداً على جنبه ، وهو يقذف اللعنات ويعصب جرحاً في الجزء اللحمي من ساقه ، وكانت آثار البارود تبدو بشكل أوضح على وجهه الشاحب .

وهتف أحد رجال الحرس الأحمر زنجبيلي الشعر وهو يجثو على ركبتيه بجانبه :

ـ واصل الرمي ، أنت أيها الشيطان! ألا تراهم يتقدمون ؟

كانت صفوف مفرزة الضباط تتقدم عبر المنحدر بنسق محكم .

حل ريبيندر محل بوغوفوي وشرع يرمي بمهارة دون أن يبدد عتاده أو يتعرض للانفعال .

وجاء غيفوركيانتس من الجناح الأيسر ينط كالأرنب ، منبطحاً اثر كل رمية تمر فوق رأسه ، متوجعاً صارخاً :

ـ لا أستطيع... لا أستطيع... لقد استعصى! أصابه العطب!

فهرع بونتشوك راكضاً على امتداد الصف الى المدفع المعطوب .

وقبل أن يبلغه بمسافة قصيرة رأى آنا بجانبه وقد جثت على ركبتيها ، وراحت تحدق من تحت راحة يدها في صف العدو المتقدم وهي تبعد خصلة من شعرها تدلت على عينيها .

فهتف بها ، وقد ادلهم وجهه خوفاً عليها :

ـ انبطحي! انبطحي ، اني آمرك!

فرمقته بنظرة خاطفة ولبثت راكعة فأوشكت لعنات ثقيلة كالصخر أن تنطلق من شفيته . ثم هرع يركض إليها ودفعها إلى الأرض بعنف .

ورقد كروتوغوروف يحمحم وراء درعه ، وتمتم لبونتشوك قائلاً :

ـ لقد أصابه العطب! لا يعمل! ـ وتلفت باحثاً عن غيفوركيانتس ، وانفجر صارخاً :

ـ لقد هرب الآن ، لعنة الله عليه! لقد زعزعني بأنينه... انه لا يدع الانسان يعمل!

وجاء غيفوركيانتس ، زاحفاً متلوياً كالثعبان ، وقد علق الوحل بلحيته الشعثاء السوداء ، فحدق كروتوغوروف فيه برهة ، ثم صرخ بأعلى من دوي الرصاص :

ـ ماذا صنعت بأحزمة العتاد ؟ أيها الحيوان! أبعده عني ، يا بونتشوك ، وإلا سأقتله!

وفيما كان بونتشوك يفحص الرشاش أصابت الدرع طلقة شديدة ، فسحب يده وكأن النار قد لسعتها . ثم أصلح المدفع ، وأصلى رجال الكسييف المغيرين بالرصاص فأرغمهم على الانبطاح . ثم انسحب بعيداً ، وهو يبحث عن وقاء .

اقتربت صفوف العدو . ورأى بونتشوك ، والمنظار على عينيه ، سير المتطوعين فهم لا ينبطحون الا نادراً . واشتدت نارهم . وقد أصيب ثلاثة من رجال الحرس الأحمر ، فأخذ رفاقهم بنادقهم وعتادهم : فليس للأموات من حاجة إلى السلاح... لقد أصيب شاب من الحرس الأحمر برصاصة أمام عيني آنا وبونتشوك وهما راقدان بجانب مدفع كروتوغوروف .

فتلوّى وتوجّع ، رافساً الأرض ، وأخيراً رفع نفسه فوق الأرض بيديه ثم سعل وشهق للمرة الاخيرة . وحدج بونتشوك آنا بنظرة من طرف عينه . اعتراها رعب كانت تحدق دون طرفة عين بساقي الفتى المتوفى ولفاف الخرق

يحيط بهما ، فلم تنتبه لصياح كروتوغوروف :

ـ شريط... شريط...! أيتها الفتاة ، أعطيني شريطاً جديداً!

وبحركة التفاف بعيد المدى اضطرت قوات كاليدين صفوف الحرس الأحمر على التراجع . فشرعت المعاطف السود للعمال ، ومعاطف الحرس الأحمر العسكرية تتسرب الى شوراع الضواحي .

وقد سقط المدفع الرشاش القائم في أقصى الجناح الأيمن في يد البيض ، اذ أصاب أحد طلاب الكلية العسكرية ميخاليدي اليوناني بطلقة وأرداه قتيلاً . وطُعن حامل رشاش ثانٍ بالحراب ، ولم يستطع النجاة سوى منضد الحروف ستيبانوف .

وتوقف التراجع حينما شرعت القذائف الأولى تنطلق من سفن الصيد الحمر في المرفأ .

صرخ رجل ، وهو يركض إلى أمام ، وقد عرفه بونتشوك عضواً في اللجنة الثورية :

ـ اصطفاف!... اتبعوني!...

تردد الحرس الأحمر ، ثم استداروا ، وتقدموا هاجمين .

وكان بونتشوك قد لمّ حوله كلاً من آنا ، وكرتوغوروف ، وغيفوركيانتس .

ومر بهم ثلاثة من الحرس الأحمر . كان أحدهم يدخن ، والاخر حاملاً بندقيته بحيث كان ترباسها يرتطم بركبته ، وكان ثالثهم يتفحص أذيال معطفه المتسخ باهتمام . وكانت ثمة ابتسامة مرتبكة تلوح في ذؤابتي شاربيه ، لكأنه غير ذاهب لمواجهة الموت بل عائد الي بيته بصحبة أصدقائه من وليمة شراب ، يتفحص سترته ليقدر درجة العقوبة التى يتوجسها من زوجته الشكسة . وأشار كروتوغوروف ، على حين غرة الى سياج بعيد تجمع خلفه عدد من الناس بملابسهم الرمادية ، وصاح :

ـ هناك هم!

فربض بونتشوك كالدب وأدار الماسورة صوبهم . وانطلقت لعلعة المدفع الرشاش فسدت آنا أذنيها . وجلست ورأت الحركة تتلاشى خلف السياج . وبعد برهة ، فتح البيض ناراً محكمة التسديد ، فتطاير الرصاص فوقهم ، ناخراً في لوحة المساء المضببة ثقوباً لا تراها العين . وجلجل الشريط وهو يمر عبر المدفع الرشاش كالطبل الصغير . وتصارخت فوق رؤوسهم القذائف التى أطلقها بحارة أسطول البحر الأسود من الميناء . وكان للطلقات المنفردة دوي عال لدن . وكان صرير القذائف الداوي فوق الرؤوس يصم الآذان . وشاهدت آنا رجلاً ضخماً من الحرس الأحمر ، بقبعة من جلد الخراف ، وشاربين مشذبين على الطراز الانكليزي ، ينحني دون ارادة مع كل قذيفة تمر فوق رأسه . وكان يصيح :

ـ لقنهم درساً يا سيمون ، لقنهم درساً!

وكان البحارة قد أحكموا التسديد ، فأصلوهم ناراً مركزة .

وكان منشار القنابل المتفجرة يحيق بجماعات مبعثرة من قوات كاليدين المتقهقرة . وقد انفجرت احدى القذائف فوق جماعة منهم مباشرة فنثر عمودالانفجار البني أولئك الرجال شذر مذر .

فزلقت آنا منظارها ، وتأوهت ، حاجبة عينيها الهلعتين بيديها المتسختين . وانتاب حنجرتها تشنج مر . فصاح بونتشوك بها :

ـ ما الأمر ؟

فصكّت على أسنانها وزاغت عيناها المتسعتان :

ـ لا أستطيع...

فدوى فى أذنيها صوته الآمر المهيمن :

ـ تشجعي! أنت... أنا ، أتسمعينني ؟ أتسمعينني ؟ لا تفعلي ذلك! لا تفعلي...

كان بعض رجال العدو قد تجمع في الجناح الأيمن ، في الوادي وعلى سفوح أحد التلال . وقد اكتشف بونتشوك أمرهم ، فهرول بمدفعه الرشاش

إلى نقطة ملائمة وفتح النار على الوادي .

وكان مدفع ريبندر يطلق بدفعات قصيرة .

وانبعث من بعد عشرين خطوة تقريباً صوت أجش غاضب :

ـ نقالة! أليس هناك نقالة ؟... نقالة!

وأطلق ضابط مشاة صيحة مستطيلة :

ـ سددوا المرمى!

ـ فصيل ، ارم!

وقبيل المغرب شرعت بلورات الثلج الأولى تدوم نازلة إلى الأرض القاسية . وان هي الا ساعة حتى غطى الثلج الندي اللزج الحقل برمته وأكوام الموتى السوداء الموحلة . فما كان من قوات كاليدين إلا أن تنسحب .

أمضى بونتشوك تلك الليلة الثلجية في موقع المدفع الرشاش . وكان كروتوغوروف قد لف حول رأسه مرشحة فرس سميكة وجدها في مكان ما ، وراح يمضغ قطعة لحم مطاطية ، وهو يبصق ويلعن . وكان غيفوركيانتس قد تكوم في مدخل أحد البيوت ومضى يدفئ يديه الزرقاوين فوق سيكارته . وجلس بونتشوك فوق صندوق عتاد ، مدثراً آنا المرتجفة بمعطفة وانتزع يديها من فوق عينيها وقبلهما . وقد نبست شفتاه بعسر بعض الكلمات الرقيقة التي لم يتعودها .

ـ كفى ، كفى ، كيف بوسعك أن تتأثري هكذا ؟...

كنت شديدة المراس فيما مضى... آنا ، اصغي ، سيطري على نفسك! آنا... عزيزتي... سوف تعتادين على ذلك . لئن منعك الكبرياء من الانسحاب فلا بد أنك من طينة أخرى ليس بوسعك أن تنظري إلى الموتى ، هكذا . لا تدعي أفكارك تذهب في هذا الاتجاه! سيطري عليها . هل رأيت طبيعة المرأة تنتصر فيك رغم ما قلته .

لبثت آنا صامتة . ومن يديها تفوح رائحة أرض الخريف ودفء المرأة .

وتوشحت السماء بثوب ناعم هش من الثلج المتساقط . واكتنف الصمت الناعس الفناء ، والحقول ، والمدينة الهامدة .

٧

دام القتال ستة أيام في روستوف وضواحيها . وكانت المعارك تدور في الشوارع ومفترق الطرقات . وقد سلّم الحرس الأحمر المحطة مرتين ، وطرد العدو منها مرتين أخريين . ولم يأسر أي من الطرفين أحداً خلال الأيام الستة تلك .

وأصيل ذات يوم كان بونتشوك وآنا يجتازان محطة قطار البضائع ، فشاهدا اثنين من الحرس الأحمر يطلقان النار على ضابط أسير . فقال بونتشوك بلهجة أقرب الى التحدي لآنا التي أشاحت بوجهها :

ـ هذا طبيعي! يجب أن يقتلوا ، ويبادوا دونما رحمة . فهم لم يرحمونا ، ولن نطلبها منهم . فلماذا نرحمهم ؟ يجب أن تجرف هذه القذارة من الأرض . ليس هناك مجال للعواطف الرقيقة حينما يتعرض مصير الثورة للخطر . ان هذين العاملين على صواب!

وفي اليوم الثالث من المعركة ألم به مرض . ولكنه تملك نفسه طوال يوم بأكمله ، وهو يحس بغثيان متزايد موصول وبوهن في كل مفاصله . وكان رأسه يطن ، وقد بدا له ثقيلاً لا يحتمل .

وغادرت المدينة مفرزتا الحرس الأحمر اللتان استنفدتا قواهما في فجر الثاني من كانون الأول . وكان بونتشوك يتمايل خلف عربة تحمل جرحى ورشاشاً ، مستنداً الى آنا وكروتوغوروف . كان يجرجر جسده الواهن بصعوبة فائقة ، رافعاً قدميه الثقيلتين كالحديد ، أشبه بسائر في نومه . وكان يرى عيني آنا القلقتين وكأنهما نائيتان عنه ويستمع الى صوتها يقول :

ـ اصعد إلى العربة يا ايليا...أتسمعني ؟ هل تعي ما أقول ؟ أقول لك اصعد ، أنت مريض .

ولكنه لم يع كلماتها ، ولم يك يدري أن المصيبة قد حلّت به ، ووقع صريع التيفوس . وكانت الأصوات المألوفة وغير المألوفة تنقر على الغطاء الخارجي لوعيه ، دون أن تنفذ إلى داخله ، وفي مكان ما في البعيد القاصي التمعت عينا آنا السوداوان قلقتين يائستين ، وتموجت لحية كروتوغوروف بأشكال شائهة .

وأمسك بونتشوك برأسه ، وشد بيديه الكبيرتين على وجهه الملتهب . وأحس كأن الدم يسيل من عينيه ، والعالم كله لا حدود له ولا قرار ، وقد حالت دونه ستارة غير منظورة ، وجعل ينساب ويميد تحت قدميه . وفى بحران هذيانه راح خياله يناجي رؤى غريبة كل الغرابة . وكان يتوقف بين حين وآخر . ويقاوم كروتوغوروف الذي راح يحاول جهده أن يضعه فى العربة . وصرخ بغلظة وهو ينتزع يده من قبضة آنا :

كلا! انتظر!... من أنت ؟... أين آنا ؟ أعطني قليلاً من التراب... ودمّر هؤلاء... آمرك أن تصوب الرشاش عليهم... انتظر! انها حارة جداً!

ورفعوه عنوة ووضعوه في العربة . وبعد لحظة استطاع أن يشم خليطاً من شتى الروائح الحريفة ، وجاهد أن يستعيد زمام نفسه والخوف يستبد ، دون أن يفلح فى ذلك . وأطبق عليه فراغ أصم أسود ، وفي الأعالي تراقصت أمام عينيه الشمس الملتهبة في الزرقة اللازوردية ، وارتعاشات ووهج لبريق أرجواني .

٨

كانت خيوط الثلج تتساقط من أفاريز السطوح وقد علق بها التبن ورافق تكسرها رنين بلوري . وفي القرية انجلى الذوبان عن غدران وبقع من الأرض الجرداء . وتسكّعت الماشية في الشوارع تشمشم بخياشيمها ، وهي لما تزل تلتفع بأردية الشتاء ، وزقزقت العصافير كما لو كان الفصل ربيعاً ، وهي تنقر في أكوام الدغل في الأفنية . وكان مارتن شامل يطارد عبر الساحة حصاناً

أشهب ناعم الملمس هرب من اصطبله . وقد ارتفع ذيله المنسدر إلى الأعلى ، وعبثت الريح بعرفه الأشعث ، وجمح وجعل ينثر كتل الثلج نصف الذائبة بحوافره ، وحام حول الساحة ، ثم توقف عند جدار الكنيسة ، وأخذ يشمشم الآجر . وأغرى سيده بالاقتراب منه ونظر شزراً بعين بنفسجية إلى اللجام وقد أمسك به في يده ، ثم جمح من جديد وجرى هائجاً .

وغمر كانون الثاني الأرض بأيام دافئة غائمة . وترقب القوزاق الدون متوقعين فيضاناً مبكراً ، ووقف ميرون غريغوريفتش في فنائه الخلفي طويلاً ينظر إلى الثلج بعيداً في الحقول ، والى خضرة الدون الرمادية الجليدية ، وقال في دخيلته : « سوف يفيض علينا هذا العام كما فعل في العام الفائت . ثلج ، ثلج ، ولا شيء غير الثلج! لابد أنه سيثقل على أمنا الأرض بكلكله » .

وكان ميتكا ينظف حظيرة الماشية مرتدياً قمصلته الخاكية . وقد التصقت قبعته الفرو البيضاء بمؤخرة رأسه بأعجوبة . وتدلى شعره السبط المبلل بالعرق على حاجبه ، فأعاده إلى الوراء بقفا يده الوسخة التي تفوح منها رائحة الروث . وكان ثمة ماعز منتفش يململ في مكانه عند البوابة ، وهو يضرب بحوافره زبل البهائم المتجمد أكواماً . وثمة حمل أكبر من أمه يحاول أن يرضع من ضرعها ، ولكنها أحنت رأسها وطردته عنها . وكان ثمة كبش أسود ذو قرن دائري يحك جسمه بمحراث .

وأقعى سلوقي كبير مبقع بالأحمر المصفر على كسرة من الجليد الذائب قرب باب مخزن الحبوب المطلية بالطين . وتدلت الشباك وحبال صيد الأسماك على الجدران الخارجية تحت الأفاريز ، وكان غريشاكا العجوز يقف هناك يتكئ على عكازه وينظر اليها ، كان يفكر على ما يظهر بالربيع القادم وفي العمل لاصلاح الشباك .

ذهب ميرون غريغوريفتش إلى ساحة درس الحبوب ، وبعين حريصة قدر كمية التبن التي مازالت باقية . وأخذ يجرف بعض عيدان الذرة التي نثرها الماعز ، وبلغت سمعه أصوات غير مألوفة ، فألقى بالمجرفة على الكومة وذهب

الى الفناء .

كان ميتكا واقفاً يلف سيكارة ، وقد باعد بين قدميه ، وأمسك بكيس تبغه باصبعين ، وهو ثر التطريز أهدته اياه حبيبة له من احدى القرى . وكان خريستونيا وايفان أليكسييفتش واقفين معه... وايفان اليكسييفتش مستنداً إلى السياج ينقب في جيوب سرواله المبطنة ، وقد لاحت على وجهه النظيف الحليق أمارات الكدر : لقد نسي شيئاً ما على ما يظهر . فقال خريستونيا :

ـ هل قضيت ليلة هانئة يا ميرون غريغوريفتش ؟

ـ لله الحمد!

ـ تعال ودخن معنا .

ـ ليحفظكم المسيح . لقد فرغت الآن من تدخين سيكارة .

وصافح ميرون غريغوريفتش القوزاق ، ورفع قبعته ذات الرأس الأحمر ، ومسد شعره الأشعث الأشيب وقال مبتسماً :

ـ وما عساكم تريدون منا اليوم أيها الاخوان ؟

ونظر اليه خريستونيا من الأعلى إلى الأسفل ، دون أن يجيبه في الحال . ومر بلسانه الكبير الخشن كلسان الثور متباطئاً على قصاصة من الورق ، وأجاب بعد أن لف السيكارة :

ـ لدينا شغل مع ميتكا .

ومر غريشاكا الجد متثاقلاً ، وهو يحمل شبكة صيد على ذراعه المنبسطة . فرفع ايفان وخريستونيا قبعتيهما وحيياه ووضع الشبكة على الدرجات ثم قفل عائداً وتساءل :

ـ فيم أنتم مقيمون في بيوتكم ، أيها الجنود ؟ أتراكم تقضون وقتاً بالغ المتعة مع زوجاتكم ؟

فتساءل خريستونيا :

ـ لماذا ؟

ـ أسكت ، خريستونيا! لا تقل لي انك لا تدري!

فأقسم خريستونيا :

ـ الله يشهد ، أنني لا أدري! وحق الصليب أنا لا أدري! أيها الجد!

ـ جاء رجل قبل أيام من فورونيج ، وهو تاجر ، صديق لسيرغي بلاتونوفتش موخوف أو قريبه أو ما إلى ذلك . لست أعرف بالضبط . حسناً ، جاء وقال ان جنوداً غرباء ، أولاء البلاشفة ، هم في تشيرتكوف . سوف تشن روسيا الحرب علينا ، بينما أنتم لابدون في بيوتكم! وأنت ، الآخر ، أنت أيها الشيطان الصغير... هل تسمعني ، يا ميتكا ؟ أليس لديك شيء تقوله ؟ ما رأيك ؟

فابتسم ايفان اليكسييفتش : ـ لا رأي لنا اطلاقاً!

فقال غريشكا العجوز وقد امتلأ غيظاً :

ـ هذا هو العار بعينه ، أن لا يكون لكم رأي! سوف يوقعونكم في الشرك مثل طير الحجل! سيأخذكم الفلاحون أسرى ويهشمون خطومكم!

فتبسم ميرون غريغوريفتش بتأدب . وحك خريستونيا يده بخديه اللذين لم يحلقا منذ وقت طويل . ووقف ايفان اليكسييفتش يدخن وينظر إلى ميتكا . وتطايرت شرارات من عيني ميتكا الشبيهتين بعيني القط ، وكان من المستحيل أن يعرف المرء فيما اذا كانت عيناه الخضراوان تانك تضحكان أم تشعان حقداً لا يكبح .

وبعد أن تحدث ايفان اليكسييفتش وخريستونيا بعض الوقت تركا ميرون غريغوريفتش ، واستدعيا ميتكا إلى البوابة الصغيرة . وسأله ايفان اليكسييفتش بحدة :

ـ لماذا لم تحضر الاجتماع البارحة ؟

ـ لم يكن لديَّ وقت .

ـ ولكن كان لديك الوقت للذهاب إلى بيت ميليخوف!

وأتى ميتكا بحركة من رأسه فانزلقت قبعته إلى الأسفل فوق جبهته ، وقال وقد كظم غيظه :

ـ لم أحضر ، وهذا كل ما في الأمر . ماذا يمكن أن يقال ؟

ـ كل رجال القرية العائدين من الجبهة كانوا هناك ما عداك وبيوتر ميليخوف . لقد قررنا ارسال مندوبين الى قرية كامنسكايا . فسوف يعقد فيها مؤتمر لرجال الجبهة في العاشر من كانون الثاني . وقد أجرينا القرعة فتقرر أن نذهب أنا ، وخريستونيا ، وأنت .

فأعلن ميتكا جازماً :

ـ أنا لن أذهب .

فعبس خريستونيا وجره من زر قمصلته .

ـ ما هي لعبتك ؟ هل تريد أن تبتعد عن رفاقك ؟ أو لا يناسبك ذلك ؟

فقال ايفان اليكسييفتش :

ـ انه وبيوتر ميليخوف يدان في قفاز واحد .

وتلمس كمّ معطف خريستونيا وأضاف وقد استحال لونه شاحباً بصورة ملحوظة :

ـ هيا . ليس لدينا شيء نفعله هنا . اذاً ، فأنت لن تذهب يا ميتكا ؟

ـ كلا! لقد قلت كلا ، وأنا أعني كلا .

فأمال خرريستونيا رأسه جانباً وقال :

ـ الى اللقاء اذاً . وحظاً سعيداً لك .

وبسط ميتكا يده وودعه متفادياً النظر بعينيه ، ثم استدار ويمم وجهه شطر الدار فدمدم ايفان اليكسييفتش وقد ارتعش منخراه : « يا للوغد! » ثم كرر بصوت عال وهو يخرز ظهر ميتكا العريض : « يا للثعبان الوغد! » .

وفي طريقهما إلى البيت أخبرا بعضاً من رجال الجبهة أن ميتكا قد رفض الذهاب ، وأنهما سيذهبان كلاهما إلى المؤتمر في اليوم التالي .

وغادرا تاتارسكي في فجر الثامن من كانون الثاني . وقد تطوع ياكوف الملقب نعل الحصان بنقلهما إلى كامينسكايا . فسار بهما فرساه بخفة خارج القرية صعد المنحدر . وكان الذوبان قد عرى الطريق ، وحيث كان الثلج قد

زال ، أخذ مزلاقا الزحافة يلتصقان بالطين وظلت الزحافة تترجرج في طريقها ، والفرسان يشدان بجهد جهيد على السيور . وكان القوزاق يسيرون خلف الزحافة . وكان ياكوف يحث خطوه طوال الطريق فتقرش جزمتاه قشرة الجليد الرقيقة ، وقد ألهب وجهه نسيم الصباح الصقيعي . الا أن الندبة البيضوية بقيت على خده زرقاء ميتة . وكان خريستونيا يلهث صاعداً التل فوق الثلج المتصلب وهو يسير على جانب الطريق ، ويشهق بشدة من أثر الغاز السام الألماني الذي أصاب رئتيه فى دونبو عام ١٩١٦ .

وفي أعلى التل اشتد لسع الهواء وعصف الريح . وظل القوزاق صامتين . وغطى ايفان اليكسييفتش وجهه بياقة فروته . واقتربوا من غابة ، يتجه فيها الطريق شطر قمة رابية . وتدفقت الريح أمواجاً خلل الغابة . وكانت جذوع أشجار البلوط المتقرنة تكسوها بطبقات من اللحاء الأخضر الذهبي الصدئ . وراح عقعق يثرثر من بعيد ، ثم ما لبث أن رفرف بجناحيه عبر الطريق . لقد حادت به الريح عن اتجاهه ، فراح يخفق بجناحيه بعنف مائلاً إلى أحد الجانبين ، وقد انتفش ريشه المتلبد .

والتفت ياكوف الذى لم ينبس ببنت شفة مذ غادر القرية ، إلى ايفان اليكسييفتش وقال متروياً ، وهو يفصح ، على ما يظهر ، عن أفكاره التي ظل يقلبها في ذهنه منذ فترة :

ـ حاولا فى المؤتمر أن تجعلا الأمور تسير بحيث لا تكون هناك حرب . فلن يكون ثمة متطوعون للحرب .

فأكد خريستونيا : « طبعا » ، ـ وهو يتعقب العقعق بغبطة فى طيرانه الطليق ، ويقارن في ذهنه بين حياة الطير السعيدة الخالية من االهموم وحياة الانسان .

بلغوا كامنسكايا أصيل العاشر من الشهر . كانت جموع القوزاق تأخذ طريقها خلل الشوارع صوب مركز المدينة . وكان الحماس يلحظ في كل مكان . وذهب ايفان وخريستونيا إلى نزل غريغوري ميليخوف ، ولكنهما

علما أنه لم يكن هناك . لقد أخبرتهما صاحبة المنزل ، وهي امرأة شقراء مكتنزة بأنه ذهب إلى المؤتمر .

- وأين هو هذا المؤتمر ؟ - سألها خريستونيا .

- لعله في الادارة أو في مبنى البريد - أجابت المرأة وصفقت الباب بوجهيهما .

وعند وصولهما وجدا الموتمر قد باشر أعماله . ولم تتسع الغرفة ذات النوافذ العديدة لجميع المندوبين ، وقد احتشد كثير من القوزاق على الدرجات ، وفى الممرات ، وفى الغرف الملاصقة . وقال خريستونيا لايفان بما يشبه الزحير وهو يشق طريقه بمرفقيه :

- ابق ورائي!

وتبعه ايفان خلال الفتحة الضيقة التى مهدها .

وعندما كادا أن يبلغا الغرفة التي انعقد فيها المؤتمر وجد خريستونيا أمامه قد سده قوزاقى تفصح عنه لهجته عن كونه من الدون الأسفل . فانتهره قائلاً :

- مهلك يا فتى .

- دعنا نمر .

- بامكانك أن تقف هنا . فليس ثمة متسع في الداخل .

- دعنا ندخل أيها البعوضة ، والاّ قصمت ظهرك! واندفع خريستونيا ، ونحّى القوزاقي جانباً بسهولة ، ودخل الغرفة .

وسرت همهمة من الاعجاب والدهشة فى الحشد المتجمع حول الباب . وابتسم القوزاق ورنوا الى خريستونيا بنظرات احترام لا ارادية ، فقد كان يعلو هاماتهم برأسه .

ووجدا غريغوري ازاء الحائط في المؤخرة ، كان مقرفصاً على مؤخرته ، يدخن ويتحدث مع مندوب آخر . وعند مرأى ابني قريته ارتعش عذاراه الفاحمان المتهدلان عن ابتسامة .

ـ ماذا ، أية ريح عصفت بكما الى هنا ؟ مرحباً يا ايفان اليكسييفتش!
وكيف حالك أيها العم خريستونيا ؟

فأجابه خريستونيا ضاحكاً ، وهو يضم كف غريغوري بكامله بقبضته الكبيرة :

ـ لا بأس .

ـ وكيف هي أحوال عائلتي ؟

ـ حسناً . لقد بعثوا بتحياتهم . وطلب أبوك منك الشخوص إليهم لزيارتهم .

ـ وكيف حال بيوتر ؟

فابتسم ايفان اليكسييفتش بغير لباقة :

ـ بيوتر.. بيوتر.. لا يختلط معنا .

ـ أدري . وناتاليا ؟ والطفلان ؟ هل صادف أن رأيتهما ؟

ـ الكل على ما يرام ، وهم يبلغونك تحياتهم . وأبوك مستاء .

وكان خريستونيا ينظر الى الزمرة الجالسة وراء الطاولة على المنصة ، أثناء كلامه . ورغم أنه كان في المؤخرة فقد كان بوسعه أن يرى خيراً من أي شخص آخر . وظل غريغوري يمطرهما بالأسئلة ، مستفيداً من برهة توقف أثناء الجلسة . فراح ايفان أليكسييفتش يحدثه عن أخبار القرية ، وقص عليه باقتضاب عن اجتماع رجال الجبهة الذين أرسلوهما إلى كامينسكايا ، بيد أن امرءاً جالساً أمام الطاولة هتف قائلاً :

ـ أيها القوزاق ، سيتكلم الآن مندوب عن عمال المناجم . يرجى الاصغاء اليه باهتمام ، والمحافظة على النظام .

ومستد رجل متوسط الطول شعره الأشقر إلى الوراء وشرع يتكلم . فتلاشت همهمة الأصوات في الحال .

وشعر غريغوري والقوزاق الآخرون بعمق ايمان عامل المنجم من الكلمات الأولى لخطابه العاطفي المشبوب . لقد تكلم عن السياسة المارقة لكاليدين

الذي كان يسوق القوزاق إلى الحرب ضد عمال وفلاحي روسيا ، وعن المصالح المشتركة للقوزاق والعمال ، وعن أهداف البلاشفة ، الذين يشنون نضالاً ضد أعداء الثورة من الفوزاق .

ـ اننا نمد أيدينا إلى القوزاق الكادحين ، ونأمل أننا فى غمرة نضالنا ضد عصابات الحرس الأبيض سنجد حلفاء أمناء بين قوزاقي الجبهة . لقد أراق العمال والقوزاق دماءهم سوية في جبهات الحرب القيصرية . وفي الحرب ضد البرجوازية التي يدافع عنها كاليدين يجب أن نقف سوية أيضاً . ولسوف نقف سوية! سوف نخوض القتال كتفاً لكتف ضد أولئك الذين استعبدوا الكادحين قروناً ، ـ دوى صوت الرجل القوي العالي .

وهمس خريستونيا منشرح الخاطر : «لقد أجاد ، ابن العاهرة!» ، ـ وعصر مرفق غريغوري بشدة جعلته يقطب من الألم .

وأخذ ايفان اليكسييفتش يهمهم مراراً وتكراراً فيما كان يصغي وفمه نصف مفتوح : «انه على حق! ايه ، انه لعلى حق!» .

وعندما فرغ مندوب عمال المناجم من كلامه ، نهض عامل منجم مديد القامة ، يتأرجح مثل شجرة الدردار في مهب الريح ، واستوى بكامل طوله ، وجال ببصره فوق بحر العيون الماثل أمامه ، وتمهل حتى تخفت الضوضاء . وكان يبدو قوياً ومتيناً كأنه حبل مراكب . وكانت مسامات وجهه ملأى بهباب دقيق من غبار الفحم ، ولم يكن لعينيه الغائرتين الباهتتين أي لون في ظلمة الأرض الأبدية ، نفس بريق الفحم . وهز رأسه قصير الشعر ، ورفع ثم خفض قبضتيه الململمتين كمن يضرب بالمعول .

ـ من الذي شرّع عقوبة الاعدام ضد الجنود في الجبهة ؟ كورنيلوف! من الذي يساعد كاليدين في خنقنا ؟ كورنيلوف! وجعل يسرع فى قوله ويغص بكلماته :

ـ أيها القوزاق! أيها الأخوة ، أيها الأخوة! أيها الأخوة! إلى أي جانب ستنضمون ؟ ان كاليدين يريد منا أن نشرب دماء أخوتنا . كلا! لن نفعل ذلك أبداً . وسوف نسحقهم! سوف نغرقهم في البحر!...

وكشر خريستونيا عن أسنانه ووسّع شدقتيه وقال : ـ يا له من ابن عاهرة! ـ ثم رفع يديه وقهقه دون أن يقوى على مقاومة نفسه ، وأضاف : ـ هكذا يكون الكلام . لقنهم درساً!

فهتف ايفان اليكسييفتش متهيباً :

ـ اخرس يا خريستونيا ، ماذا دهاك ؟ فسوف يركلونك خارج القاعة!

ولفح لاغوتين ـ وهو قوزاقي من بوكانوفسكي ، والرئيس الأول لشعبة القوزاق التابعة للجنة المركزية لمجلس السوفييت ـ لفح القوزاق بكلمات لاهبة ، غير مترابطة ولكنها أثرت بهم في الصميم .

ثم تكلم الرئيس بودتيلكوف ، وتبعه شادينكو ، وهو رجل وسيم ذو شاربين انكليزيين صغيرين .

وتساءل خريستونيا مشيراً بمخلبه الكبير :

ـ من ذلك ؟

ـ شادينكو ، قائد بلشفي .

ـ وذاك ؟

ـ ماندلشتام .

ـ من أي الديار هو ؟

ـ من موسكو .

ـ ومن هم أولئك ؟ ـ وأشار خريستونيا إلى زمرة من مندوبي فورونيج .

ـ أوه ، اخرس قليلاً يا خريستونيا .

ـ يا إلهي ، ألا يجدر بي أن أعرفهم ؟ هيا ، قل لي ، من هو ذلك الرجل الطويل الجالس جوار بودتيلكوف ؟

ـ كريفوشليكوف ، من قرية غورباتوف . وجماعتنا خلفه ، كودينوف ، ودونيتسكوف .

ـ سؤال آخر لا غير . من هو ذلك الرجل ؟ كلا ، ليس ذاك ، انما الشخص الذي في النهاية ، ذو الخصلة المتدلية على ناصيته .

ـ يليسييف . كلا ، لست أدري من أي الديار هو .

واذ اكتفى خريستونيا بذلك ، لاذ بصمت وأنصت إلى كل متكلم بانتباه زائد وكان أول من يسمع من بين مئات الأصوات بهديره العميق «حق ما تقول!» .

وبعد المتكلمين الآخرين ، وقف مندوب عن الكتيبة الرابعة والأربعين . وأمضى وقتاً طويلاً في اخراج عباراته المرتبكة ، كان يأتي بكلمة كأنها الجذوة الملتهبة ، ثم يتوقف وينشق بأنفه . ولكن القوزاق كانوا ينصتون إليه بتعاطف كبير ، ولا يقاطعونه إلا بهتافات التأييد بين الحين والآخر . ويبدو أن كلماته كانت تلقى استجابة عميقة من لدنهم .

ـ أيها الأخوة! إن على مؤتمرنا أن يتناول هذه القضية الخطيرة بشكل لا يعود بالعار على شعبنا وبحيث يمكن أن ينتهي كل شيء بصورة هادئة وحسنة . ان ما أعنيه هو أننا يجب أن نجد مخرجاً بدون حرب دموية . لقد مضى علينا ، كما ترون ، ثلاث سنوات ونصف مدفونين في الخنادق ، ، واذا أجبرنا على مواصلة القتال ، فسوف يتعرض القوزاق إلى الهلاك...

ـ هذا صحيح!

ـ نحن لا نريد الحرب .

ـ يجب أن نبحث ذلك مع البلاشفة والمجلس العسكري .

ـ يجب أن نحسمها سوية ، وليس كيفما اتفق .

وهوى الرئيس بودتيلكوف على الطاولة بقبضته ، فتلاشى الهدير . وواصل مندوب الكتيبة الرابعة والأربعين كلامه ، وهو ينتف لحيته القصيرة :

ـ يجب أن نبعث بمندوبين إلى نوفوتشيركاسك ونطلب من المتطوعين والأنصار أن يرحلوا من هنا . وليس للبلاشفة ما يعملونه هنا هم الآخرون . اننا نستطيع أن نسوي الحساب مع أعداء الشغيلة بأنفسنا . نحن لا نحتاج إلى مساعدة الآخرين ، ومتى ما كنا بحاجة إليها فسوف نطلب منهم أن يمدونا بيد المعونة .

ـ ان هذا الضرب من الكلام لن يجدي فتيلاً!

ـ انه على صواب!

ـ انتظر قليلاً . أى صواب فيه ؟ هب أنهم حصرونا فى زاوية ، من أين سنحصل على المعونة حينذاك ؟

ـ علينا أن نشكل حكومة من عندنا .

ـ قول أيسر من فعل!

وأعقب لاغوتين مندوب الكتيبة الرابعة والأربعين بخطاب ناري جريء . وقوطع في كثير من الأحيان بالصيحات . ثم عرض اقتراح يقضي بتأجيل الاجتماع عشر دقائق ، بيد أنه ما ان حصل الصمت حتى هتف بودتيلكوف بجمهور القوزاق الهائج :

ـ أيها الاخوة القوزاق! ان عدو الكادحين ليس نائماً ، فى حين تتجادل هنا نحن . اننا جميعاً نريد أن يشبع الذئاب وتبقى الخراف سليمة ، ولكن هذا هو غير ما يريده كاليدين . لقد استولينا على نسخة من أمر وقّعه هو يقضي بتكليف كل الذين يسهمون الآن في هذا المؤتمر وها أنا أقرأه عليكم .

وحينما قرأ الأمر سرت موجة من الهياج بين المندوبين ، وازداد الصخب أكثر من السابق .

ـ نتكلم كثيراً غير أننا نفعل قليلاً!...

ـ اسكتوا!

ـ لماذا يسكتون ؟ دعوهم يتكلمون!

ـ لوبوف ، يا لوبوف! ألق كلمة!

ـ مهلاً!

ـ أما كاليدين فهو ليس بالغبي!

كان غريغوري يصغي بصمت ، ويحدق في الرؤوس المتأرجحة ، والأذرع الملوحة للمجتمعين . ولم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك فى آخر الأمر ، فصرخ وقد وقف على رؤوس أصابعه :

ـ هدوءاً ، أيها الشياطين! هل نحن في سوق ؟ دعوا بودتيلكوف يتكلم!

وأمسك ايفان اليكسييفتش بتلابيب أحد المندوبين وجعل يناقشه .

وجأر خريستونيا راداً على زميل له من كتيبته :

ـ ينبغي لنا أن نكون يقظين! لا تحدثني بهذا الكلام الفارغ! ألا ترى أننا لسنا أقوياء بما فيه الكفاية حتى نندفع بمفردنا!

وأخيراً خبا هدير الأصوات ـ كما لو أن الريح مرت على حقل من القمح ـ ومن المنصة مزقت نبرات كريفوشليكوف الأنثوية الصمت :

ـ يسقط كاليدين! تعيش اللجنة الثورية القوزاقية!

وزخر المتجمهرون . وتعالت هتافات التأييد معاً في جوقة لافحة ثقيلة من الصخب . ولبث كريفوشليكوف واقفاً ويده مرفوعة إلى الأعلى . كانت أصابعه ترتعش قليلاً مثل أوراق الحور .

ولم يكد الهدير الذي يصم الآذان يخبو حتى صاح بصوته ذى النبرة العالية الرنانة قائلاً :

ـ أقترح انتخاب لجنة ثورية عسكرية قوزاقية من بين المندوبين الحاضرين ، وأن يعهد إليها مواصلة النضال ضد كاليدين وتنظيـ...

ومزقت الهواء صرخة استحسان «آـ آـ آ» كأنها قذيفة متفجرة ، أهالت قشوراً من الصبغ الأبيض من السقف .

وشرع المجتمعون في الحال ينتخبون أعضاء اللجنة . واستمر قطاع صغير من القوزاق يقوده مندوب الكتيبة الرابعة والأربعين وآخرون ، يطالبون بحل سلمي للخلاف مع حكومة كاليدين .

بيد أن الأكثرية لم تعد تعضدهم . فلقد أثار حفيظة القوزاق أمر كاليدين القاضي بالقاء القبض عليهم ، فطلبوا مقاومته بصورة فعالة .

واستدعي غريغوري فى الحال إلى قيادة الكتيبة فلم يبق حتى نهاية الانتخاب . وسأل خريستونيا وايفان أليكسييفتش فيما هو يستعد للخروج :

ـ عندما ينتهي الاجتماع تعالا إلى غرفتي . أود أن أعرف من انتخب .

وذهب ايفان اليكسييفتش بعد الغروب . وأخبر غريغوري وهو واقف على العتبة قائلاً :

ـ الرئيس بودتيلكوف ، والسكرتير كريفوشليكوف .

ـ والأعضاء ؟

ـ ايفان لاغوتين وخريستونيا ، ومناييف ، وكودينوف وآخرون .

فسأله غريغوري :

ـ ولكن أين هو خريستونيا ؟

ـ ذهب مع آخرين لالقاء القبض على سلطات كامنسكايا . وقد صار جمرة حتى أنك لو بصقت عليه لفار البصاق على ناره .

ولم يعد خريستونيا إلاّ عند الفجر ووقف في الغرفة يتنفس بصعوبة ويتمتم بشيء ما بصوت خفيض . ولاحظ غريغوري وهو يشعل المصباح أن وجهه كان مدمى وأن خدشة اطلاقة قد سرت عبر قصبته .

فانتفض غريغوري وفتح حقيبة الاسعافات الأولية العائدة له وقال :

ـ من فعل ذلك بك ؟ هل أعصبها لك ؟ تمهل لحظة ، سآتي بضمادة .

فلعلع خريستونيا :

ـ سيبرأ الجرح من تلقاء نفسه ، كما يبرأ الكلب . لقد أطلق الآمر العسكري علي النار من مسدسه . كنا نتقدم سوية إلى الباب الأمامي كما يفعل الضيوف . ولكنه ابتدرنا بالقتال . وقد جرح قوزافياً آخر أيضاً . وأردت أن أنزع عنه روحه لأرى ماذا تشبه روح الضابط ، غير أن القوزاق الآخرين لم يدعوني... كنت أود أن أمسك روحه بيدي . أجل ، كنت أود ذلك!

٩

بعد مؤتمر كامينسكايا بيوم ، كانت كتيبة قوزاق الدون العاشرة ، التي أرسلها كاليدين لتلقي القبض على جميع أعضاء المؤتمر وتجرد أشد الفرق

القوزاقية ثورية من سلاحها ، قد وصلت كامينسكايا ، وتركت القطار لحظة انعقاد الاجتماع في المحطة . وكان بودتيلكوف على الرصيف . كان يقول :

ـ أيها الآباء ، والأخوة ، أنا لست عضواً في أي حزب ولست بلشفياً . انما أكافح من أجل شيء واحد فقط : من أجل العدالة ، ، ومن أجل السعادة والاتحاد الأخوي بين جميع العمال ، كيلا يكون هناك اضطهاد ، ولا كولاك* ، ولا برجوازيون وأناس أثرياء ، كيما يعيش كل انسان حراً وحسب ارادته... ويحاول البلاشفة أن يحققوا ذلك ، وهم يناضلون من أجله . ان البلاشفة عمال ، ناس كادحون مثلنا نحن القوزاق . ولا يختلف العمال البلاشفة عنا ، سوى أنهم أكثر وعياً واتحاداً منا . فقد كنا نحن سادرين في الظلام ، فيما هم ، في المدن ، تعلموا أن يفهموا الحياة أحسن منا . ومن هنا فان ما ينجم عن ذلك هو أنني بلشفي رغم أنني لست منتمياً إلى الحزب البلشفي .

كان القوزاق الذين وصلوا حديثاً ، وهم رجال ذوو بنية قوية ، ومعظمهم جنود مختاورن ، قد احتشدوا حول الاجتماع ، واختلطوا برجال من كتائب أخرى . وسرعان ما أثرت خميرة الدعاية الفعالة التي بدأ أنصار البلاشفة يبثونها بينهم ، فحينما دعاهم آمر الكتيبة لتنفيذ أمر كاليدين رفضوا .

وكانت كامنيسكايا في هذه الأثناء تضج بالنشاط ، فقد أرسلت مفارز من القوزاق حشدت على عجل إلى الخارج لاحتلال المحطات ، وعجل بارسال قطر عسكرية . وجرى انتخاب قادة جدد للمفارز . وتسلل بعض القوزاق الراغبين في تجنب الحرب بهدوء خارج المدينة ، في حين كان المندبون المتأخرون القادمون من مختلف القرى ما يزالون يتوافدون . ولم يسبق لشوارع كامينسكايا أن شهدت حركة ناشطة كهذه على الاطلاق .

في الثالث عشر من كانون الثاني وصل إلى المدينة وفد من الحرس الأبيض لحكومة الدون ليفتح باب المضاوضات برئاسة آغييف فقوبل بحشد

---

* كولاك ـ فلاح غني يستغل عمل الغير .

كبير في المحطة ، وسارت حامية من القوزاق من كتيبة حرس الأتمان بالوفد إلى بناية البريد حيث قضت فيها اللجنة الثورية العسكرية معظم الليلة في جلسة مع وفد الحكومة .

كان سبعة عشر ممثلاً عن اللجنة الثورية العسكرية حاضراً . ووجه بودتيلكوف رداً عنيفاً على خطاب آغييف الذي يتهم اللجنة الثورية العسكرية بخيانة الدون والتعاون مع البلاشفة . وأعقبه كريفوشليكوف ولاغوتين . وقوطع خطاب العقيد كوشناريف بهتافات القوزاق المحتشدين فى الممر . وطالب أحد رماة الرشاشات باسم القوزاق الثوريين بالقاء القبض على الوفد الحكومي .

وفشل المؤتمر في الوصول إلى تسوية ، وحوالى الساعة الثانية صباحاً ، بعد أن صار من الجلي عدم الوصول إلى اتفاق ، اقترح أحد أعضاء الوفد بأن على اللجنة الثورية العسكرية أن ترسل وفداً إلى نوفوتشيركاسك ، للوصول إلى حل نهائي بشأن حكومة المستقبل . فأقر الاقتراح .

ورحل وفد حكومة الدون ، وتوجه ممثلو اللجنة الثورية العسكرية في الحال بعده شطر نوفوتشيركاسك . وكان بودتيلكوف على رأسهم...واستبقى ضباط كتيبة الأتمان الذين قد ألقي القبض عليهم فى كامينسكايا ، رهائن .

١٠

كانت عاصفة ثلجية ترعد خارج نوافذ العربة . وتتجمع كتل الثلج التى حملتها الرياح فوق أسوار الثلج المتقوسة . وكانت مقاصير السكك ، وأعمدة التلغراف ، ورتابة السهب الثلجية الموحشة غير المتناهية تنسل بعيداً إلى الشمال .

جلس بودتيلكوف ازاء النافذة ، وقد ارتدى سترة جلدية جديدة . وجلس قبالته كريفوشليكوف ، وهو نحيف ضيق المنكبين كالصبيان وقد

استند بمرفقيه على المنضدة . كان ثمة قلق وترقب في عينيه الصافيتين الصبيانيتين . وكان لاغوتين يمشط لحيته الشقراء الخفيفة . وكان مينايف ، وهو قوزاقي جسيم ، يدفئ يديه على أنابيب الحرارة ويتململ غير مرتاح فى مقعدة . واستقلى غولوفاتشوف وسكاتشكوف على السريرين العلويين يتحدثان بهدوء .

وعلت نافذة المقصورة غشاوة من الضباب بفعل دخان التبغ والبرد . ولم يكن أعضاء الوفد يشعرون بالثقة فى نجاح مهمتهم إلى نوفوتشيركاسك . ولم يتحدثوا الآ لماماً ، وخيّم عليهم صمت ثقيل . وأخيراً عبر بودتيلكوف عن الشعور الذي كان يتملكهم جميعاً :

ـ لن نخرج بنتيجة منها . فلن نتفق على شيء .

فأيده لاغوتين :

ـ أي ، إنه ضياع وقت .

ثم خيم عليهم الصمت ثانية . ولوى بودتيلكوف معصمه بصورة ايقاعية ، كمن يدخل مكوكاً فى شبكة ويخرجه . وراح ينظر بين آونة وأخرى إلى سترته ، متملياً لمعان الجلد . ولما كانوا يقتربون من نوفوتشيركاسك ، بسط مينايف الخارطة ونظر الى الدون المبتعد عن المدينة عريضاً زاخراً وشرع يروي لهم قائلاً :

ـ فى الأيام السالفة عندما كان قوزاق كتيبة الأتمان ينهون الخدمة العسكرية كانوا يعدون العدة للعودة إلى بيوتهم . كانوا يحمّلون القطار بصناديقهم وجيادهم وحوائجهم ، ثم ينطلق بهم إلى ديارهم ، وبالقرب من فورونيج ، حيث يمر الخط الحديد عبر الدون للمرة الأولى ، يخفف السائق سرعة القاطرة ، ويسير بأبطأ ما يستطيع من سرعة... فقد كان يدري بما سيعقب . وما ان يبلغ القطار الجسر..يا أجدادي! يا له من منظر! حتى يطير صواب القوزاق : « الدون! الدون! الدون الهادئ! أبونا ، نهرنا! له المجد » . ـ وتتطاير القبعات والقمصلات العتيقة ، والسراويل ، والقمصان ، وأشياء أخرى

يشهد الله عليها ، عبر النافذة فوق الجسر إلى الماء! كانوا يقدمون الهدايا إلى الدون عند عودتهم من الخدمة . وعندما يصادف أن تنظر إلى الماء أحياناً ، ترى قبعات الأتمان الزرق تجري طافية مثل الأوز والزهور... لقد كانت تلك عادة قديمة جداً .

وخفف القطار السرعة ، ثم توقف أخيراً . ونهض القوزاق وقال كريفوشليكوف بابتسامة نافرة وهو يشدّ حزام معطفه :

ـ حسناً ، ها قد وصلنا!

فقال سكاتشكوف محاولاً المزاح :

ـ لا أحسبهم ناشرين الأعلام لنا!

وفتح الباب رئيس مديد القامة دون أن يطرقه ، ودخل المقصورة . وتفحّص أعضاء الوفد بعينين عدائيتين ، قال بفظاظة متعمدة :

ـ لقد كلفت بمرافقتكم . أرجو أن تغادروا العربة بالسرعة الممكنة ، أيها السادة البلاشفة . فلا أستطيع أن أضمن الجمهور و... سلامتكم .

وثبت عينيه على بودتيلكوف ، أو بالحري على سترته وهي سترة ضابط جلدية ، ثم صاح بلهجة عدائية مكشوفة قائلاً :

ـ أخرجوا ، بسرعة!

وحينما خرجوا هتف ضابط ذو عذراين طويلين ، واقف على الرصيف وسط الحشد :

ـ أولئك هم ، الخنازير ، خونة القوزاق!

فشحب وجه بودتيلكوف ونظر وراء إلى كريفوشليكوف بعينين مضطربتين . فتبسم كريفوشليكوف وهمس :

ـ «لن نستقبل بكلمات استحسان واطراء ، بل بعواء حقود فاجر» ، ألا تعرف ذلك ، يا فيودور ؟

وقرر بودتيلكوف أن يردّ بابتسامة رغم أنه لم يسمع الكلمات الأخيرة .

ورافق الوفد حرس قوي من الضباط . وصاحبهم جمهور محموم إلى باب

مقر الحكومة تماماً يطالب بشنقهم في الحال . ولم تأتهم الاهانات من الضباط والتلامذة العسكريين فحسب ، بل من نساء متأنقات وطلاب أيضاً .

فالتفت لاغوتين إلى أحد الضباط المرافقين وقال والحنق باد عليه :

ـ ان هذه لفضيحة مقصودة ، انها لكذلك!

فحدجه الأخير بنظرة حقود ، وفحّ قائلاً :

ـ أشكر ربك أنك مازلت حياً . لو كانت لديّ سلطة عليك... اللعنة عليك ، أنت أيها الجيفة...

وكبحت جماحه خزرة معنفة من ضابط آخر ، أصغر منه .

وهمس سكاتشكوف إلى غولوفاتشوف عندما وجد فرصة سانحة :

ـ أية ورطة!

ـ يبدو كما لو أنهم يقودوننا إلى المشنقة .

لم تكن قاعة المحكمة الاقليمية واسعة بما فيه الكفاية لتسوعب كل الحشد الذي تجمع . ووصل أعضاء الحكومة بينما كان أعضاء الوفد يجلسون في جانب واحد أمام الطاولة كما أوعز بذلك الملازم .

واقترب من المائدة كاليدين منحنياً بعض الشيء بخطوات ذئبية راسخة ، يرافقه بوغايفسكي . وسحب كرسيه إلى الوراء وجلس ، ثم وضع قبعته التي تزينها شارة الضابط على الطاولة بهدوء ، ومسّد شعره الى الوراء وزرر جيب قمصلته الجانبي . ثم مال إلى بوغايفسكي الذي كان يهمس له بشئ ما . وكانت كل حركة ونأمة يأتي بها تعبّر عن ثقة راسخة وقوة بالغة . كانت كل حركاته تنم عن رجل تذوق السلطة واكتسب في غضون سنوات عديدة هيبة وتصرف ومشية تميزه على الآخرين . فى حين بدا بوغايفسكي ، وهو ذو هيئة قميئة بالمقارنة مع كاليدين ذي الشخصية المهيبة ، أكثر انفعالاً أمام المفاوضات الوشيكة . كان يهمس ، وبالكاد يحرك شفتيه ، وكانت عيناه الضيقتان الحادتان تتألقان خلف نظاريته . قد فضحت عصبيته حركات يديه القلقة ، فتارة يصلح ياقته ، وأخرى يتحسس ذقنه القوى ، ثم مايلبث أن يرفع

حاجبيه الأشعثين . وجلس بقية وفد الحكومة الى جانبي كاليدين ، وكان بعضهم يزورون كامينسكايا ، وهم : كاريف ، سفيتوزاروف ، أولانوف وآغييف .

وسمع بودتيلكوف بوغايفسكي يهمس بشيء ما لكاليدين . ثم نظر الجنرال بحدة إلى بودتيلكوف المقابل له وقال : «أعتقد أننا نستطيع المباشرة» .

فتبسم بودتيلكوف ، وجعل يتكلم بصوت جلي ، ذاكراً أسباب مجيء الوفد . وتناول كريفوشليكوف الانذار الذي أعدته اللجنة الثورية العسكرية ونشره على الطاولة ، غير أن كاليدين دفعه بحركة من يده البيضاء ، وقال بلهجة راسخة :

ـ لا حاجة لتبذير الوقت بأن يدرس الوثيقة كل عضو من أعضاء الحكومة على انفراد . أرجو تلاوة انذاركم . ثم نناقشه بعد ذلك .

فأوعز بودتيلكوف قائلاً :

ـ اقرأه .

وشد نفسه باعتداد ، بيد أنه كان واضحاً أنه ، شأن بقية الوفد ، شعر بالحاجة إلى التزام جانب الحذر .

واستوى كريفوشليكوف واقفاً . وانساب صوته النسوي الرفيع وسحب في هواء القاعة المزدحمة :

ـ «ابتداءً من العاشر من كانون الثاني عام ١٩١٨ ، تنتقل السلطات على الوحدات العسكرية في اقليم الدون من الأتمان إلى اللجنة العسكرية الثورية لقوزاق الدون . وتسرّح وتجرّد من السلاح جميع الوحدات العسكرية التي تعمل ضد الجيش الثوري في الخامس عشر من كانون الثاني ، وكذلك جميع أرهاط المتطوعين ، والكليات العسكرية ، ومدراس خدمة العلم . ويرحل جميع أعضاء المنظمات الآنفة الذكر الذين هم من غير سكنة اقليم الدون إلى أماكن سكنهم الدائم .

ملاحظة : يجب تسليم السلاح ، والمعدات ، والملابس العسكرية إلى قوميسار اللجنة العسكرية الثورية ، الذى سيصدر رخصاً بمغادرة نوفوتشيركاسك .

وسوف تحتل القوات القوزاقية مدينة نوفوتشيركاسك حسب أمر اللجنة العسكرية الثورية . وتعتبر أوراق اعتماد مجلس الجيش القوزاقي باطلة ابتداءً من الخامس عشر من كانون الثاني .

وعلى حكومة الدون أن تسحب جميع رجال البوليس المتخذين مواقعهم في مصانع ومناجم اقليم الدون .

وحقناً للدماء يجب على الحكومة أن تعلن لجميع قرى ومقاطعات اقليم الدون أنها استقالت من تلقاء ذاتها وانها ستنقل السلطة فى الحال إلى اللجنة العسكرية الثورية القوزاقية . إلى حين تشكيل حكومة دائمة من الكادحين فى الاقليم » .

ولم يكد يخفت صوته حتى سأله كاليدين بصوت عال :

ـ أية وحدات عسكرية منحتكم السلطة لإصدار هذا الانذار ؟

فتبادل بودتيلكوف النظرات مع كريفو شليكوف ، وشرع يعدد بصوت عال :

ـ حرس الأتمان ، الحرس القوزاقي ، البطارية السادسة ، الكتيبة الرابعة والأربعون ، البطارية الثانية والثلاثون ، السرية الخاصة الرابعة عشرة... ـ وكان يثني اصبعاً من يده اليسرى كلما أتى على ذكر وحدة ، وتتعالى من القاعة قهقهات استهزاء مكتومة . فعبس بودتيلكوف ، ووضع يديه المكسوتين بشعر أشقر على المائدة ورفع صوته : ــ الكتيبة الثامنة والعشرون . البطارية الثامنة والعشرون ، البطارية الثانية عشرة ، الكتيبة الثانية عشرة...

وهمس له لاغوتين بصوت خفيض :

ـ الكتيبة التاسعة والعشرون .

وأردف بودتيلكوف :

ـ ... الكتيبة التاسعة والعشرون ، البطارية الثالثة عشرة ، سرية كامنيسكايا المحلية ، الكتيبة العاشرة ، ، الكتيبة السابعة والعشرون ، فوج المشاة الثاني ، الاحتياطي الثاني ، الكتيبة الثامنة ، الكتيبة الرابعة عشرة .

وعندما فرغ سأله كاليدين بضعة أسئلة غير هامة ، ثم مال إلى الأمام على الطاولة ، وتفرس في بودتيلكوف وسأله :

ـ هل تعترفون بسلطة مجلس مفوضي الشعب ؟

وأتى بودتيلكوف على قدح من الماء ، وأعاد وضع الدورق على الصحن ، ومسح عذاريه بكمه ، ثم أجاب :

ـ لا يستطيع الاجابة على ذلك الاّ الشعب بأكمله .

وتدخل كريفوشليكوف ، خشية أن يفوه بودتيلكوف الساذج بأكثر مما ينبغي فقال :

ـ ان القوزاق لن يقبلوا بأية حكومة يوجد فيها ممثلون عن حزب الحرية الشعبي* . اننا قوزاق ، وينبغي أن تكون حكومتنا حكومة قوزاقية من عندنا .

ـ كيف يتسنى لنا أن نفسر هذا القول في الوقت الذي يكون اليهود وأمثالهم على رأس المجلس ؟

ـ لقد وضعت روسيا ثقتها بهم ، وسوف نوليهم نحن ثقتنا .

ـ هل ستنشئون علاقات معهم ؟

ـ نعم .

وزخر بودتيلكوف مستحسناً ، وأيد كريفوشليكوف :

ـ اننا لا نهتم بالأشخاص ، إن ما يهمنا هو الفكرة .

وسأل أحد أعضاء الحكومة بلهجة بريئة :

ـ هل يعمل مجلس مفوّضي الشعب لصالح الشعب ؟

وحامت نظرة بودتيلكوف المتفحصة بطيئاً حوله . وتناول قنينة الماء وهو

---

* الديمقراطيون . أو الكاديت . كما كان يسمى حزب الكاديت المعادي للثورة .

يبتسم ، وصب قدحاً آخر وشربه بسرعة . كان شديد العطش ، وكأن ناراً حامية كانت تصطلي في أحشائه . ونقر كاليدين بأصابعه على الطاولة وسأله مستفهماً :

ـ ما الذي يجمع بينكم وبين البلاشفة ؟

ـ اننا نريد أن يكون للقوزاق حكم ذاتي في اقليم الدون .

ـ نعم ، ولكنك تعرف جيداً أنه سيصار إلى تأليف مجلس عسكري جديد في الرابع من شباط . وسوف يعاد انتخاب الأعضاء . فهل توافقون على سلطة مشتركة ؟

فرفع بودتيلكوف عينيه ، وأجاب بحزم :

ـ كلا! اننا سنملي ارادتنا عليكم مادمتم تمثلون الأقلية .

ـ ولكن ذلك سيكون قسراً!

ـ أجل .

وحوّل بوغايفسكي عينيه من بود تيلكوف إلى كريفوشليكوف وسأله :

ـ هل تعترف بالمجلس العسكري ؟

فهز بودتيلكوف كتفيه قائلاً :

ـ إلى حد ما فقط... سوف تعقد اللجنة العسكرية الاقليمية مؤتمراً لممثلي الشعب . سوف تعمل تحت اشراف القوات المسلحة . واذا لم يرضنا المؤتمر فلن نعترف به .

فرفع كاليدين حاجبيه وقال :

ـ ومن سيكون الحكم في هذه المسألة ؟

ورمى بودتيلكوف برأسه بزهو إلى الوراء فصرّت سترته الجلدية فيما استند إلى ظهر كرسيه المنقوش ، وقال :

ـ الشعب!

وبعد فترة قصيرة نهض كاليدين للكلام . فتلاشت الضوضاء في القاعة ، وانبعث صوته ، بنبراته الخفيضة الكامدة كمود الخريف ، واضحاً في السكون :

ـ ان الحكومة لاتستطيع أن تتخلى عن سلطاتها بناءً على طلب اللجنة الثورية العسكرية . لقد انتخب الحكومة سكان الدون ، ، وهم وحدهم ، لا الفئات الخاصة ، يستطيعون أن يطالبوا بالتخلي عن السلطة . أما أنتم فآلات صماء بيد البلاشفة . إنكم تعملون وفق مشيئة عملاء الألمان دون أن تدركوا المسؤولية الجسيمة التي تحملون أنفسكم بها ازاء القوزاق . أنصحكم بأن تعيدوا النظر في الموضوع ، لأنكم ستجلبون لوطنكم شقاء عظيماً باصطدامكم مع الحكومة التي تمثل ارادة مجموع السكان . أما أنا فلن أتشبث بمركزي . انما سيدعي المجلس الكبير لجيش قوزاق الدون للاجتماع ، وسوف يقرر هو مصير البلاد . ولكن يجب أن أبقى في منصبي حتى موعد اجتماعه . وللمرة الأخيرة أنصحكم باعادة النظر بموقفكم .

ثم خطب بعده أعضاءالحكومة من القوزاق وغير القوزاق . وألقى بوسيه الاشتراكي الثوري ، خطبة طويلة حشرت بضمانات مغرية .

وقاطعه هتاف من لاغوتين :

ـ ان مطلبنا هو أن تسلموا السلطة إلى اللجنة الثورية العسكرية! ما الذي تنتظرونه اذا كانت حكومة الدون تروم حلاً سلمياً للمسألة...

فتبسم بوغايفسكي :

ـ وهذا يعني ؟...

ـ إن عليكم أن تعترفوا للملأ أن سلطتكم قد انتقلت إلى اللجنة الثورية . وليس بمقدورنا أن ننتظر أسبوعين آخرين ريثما يلتئم مجلسكم! ان الشعب جياش الغضب كما تعهدونه .

وألقى عضو حكومي آخر خطاباً ملتوياً ، ومع ذلك فقد نشد عضو آخر تسوية مستحيلة .

وأصغى بودتيلكوف اليهما بزعل . وعندما ألقى بنظرة خاطفة إلى مساعديه ، لاحظ أن لاغوتين كان شاحباً وعابساً ، وكريفوشليكوف قد ثبت عينيه على المائدة ، وغولوفاتشوف يتفجر ليقول شيئاً ما . وحانت اللحظة التي

كان كريفوشليكوف يترقبها فهمس بهدوء :

ـ أعطهم درساً!

وبدا على بودتيلكوف أنه كان ينتظر هذه المناسبة . فدفع كرسيه إلى الوراء وشرع يتكلم بتوتر ، ويتهته بانفعال ، ويبحث عن كلمات من شأنها أن تزيل كل الشكوك :

ـ انكم تخطئون الحساب في كل ذلك! فلئن كانت الحكومة العسكرية يركن إليها ، لتنازلت عن كل مطالبنا عن طيب خاطر . بيد أن الشعب لا يثق بها! ولسنا نحن ، بل أنتم تبدؤون الحرب الأهلية . لماذا تأوون هؤلاء الجنرالات الهاربين في أرض القوزاق ؟ لذلك يهجم البلاشفة على دوننا الهادىء . اننا لن نذعن لكم . ولن نسمح بذلك! ان الحقائق إلى جانبنا . لا أصدق ان الحكومة العسكرية ستنقذ الدون! أي اجراء اتخذتم ضد الوحدات التي تأبى اطاعتكم ؟... آها ، لقد أسقط في يدكم! لماذا ترسلون متطوعيكم ضد عمال المناجم ؟ قل لي ، أي ضمان هناك في أن الحكومة العسكرية ستتجنب الحرب الأهلية ؟ آها ، ليس لديكم شيء تقولونه بهذا الشأن! ان الشعب وقوزاق الجبهة إلى جانبنا!

ومرقت ضحكة خلال القاعة مثل عزيف الريح ، وتناهى إلى الأسماع صياح غضوب ضد بودتيلكوف . فالتفت بوجهه المحتقن تجاههم ، وهتف دون ان يكتم غضبه المرير :

ـ أنتم تضحكون الآن ، ولكنكم سرعان ما ستذرفون الدموع! ـ والتفت ثانية إلى كاليدين ، وثبت فيه عينيه الخرزيتين وأردف :

ـ اننا نطلب منكم أن تسلموا الحكم الينا نحن ممثلي الشعب الكادح ، وتبعدوا جميع البرجوازيين وجيش المتطوعين... ويجب أن تستقيل حكومتكم أيضاً .

فأحنى كاليدين رأسه بتعب وقال :

ـ ليست لديَّ نية في ترك نوفوتشيركاسك .

وبعد فترة قصيرة استأنف الجلسة متكلم حكومي آخر :

ـ ان مفارز الحرس الأحمر تتقدم نحو الدون لتقضى على القوزاق! لقد دمروا روسيا بحكمهم المخبول وهم يريدون أن يفعلوا المثل هنا! لم يحدث أبداً في التاريخ أن تحكم البلاد جيداً طغمة من المدعين أو تعمل لصالح الشعب . لقد أعماكم جنون الآخرين وتريدون أن تجردونا من السلطة وتفتحوا الأبواب على مصاريعها للبلاشفة . ولكننا لن نسمح لكم بذلك!

فتقحم بودتيلكوف قائلاً :

ـ سلموا السلطة إلى اللجنة الثورية ، وسيوقف الحرس الأحمر هجومه .

وافسح كاليدين المجال إلى فرد من جمهور المستمعين وهو الضابط الرئيس شاين . فنهض من بين الصفوف وعلى صدره أربعة أوسمة من طراز القديس غيورغي . وأصلح قمصلته كأنه في استعراض ثم اندفع وكأنه يغير بجواده ، وجعل ينبح وقد أسبل ذراعه وكأنه يضرب بسيفه :

ـ فيم نصغي لهم ، أيها القوزاق! ان سبيل البلاشفة هو غير سبيلنا! ان خونة الدون والقوزاق وحدهم يستطيعون أن يتحدثوا عن تسليم السلطة إلى السوفييتات ويحثوا القوزاق على الانضمام إلى البلاشفة! ـ وانحنى إلى الأمام وهتف مؤشراً صوب بودتيلكوف بالذات : ـ هل تعني ما تقول ، يا بودتيلكوف ، ان الدون سيتبع شخصاً أمياً نصف متعلم مثلك ، كما يخيل لك ؟ لن تحصل على أتباع لك الا من شذاذ الآفاق القوزاق والذين قد تركوا ديارهم وذويهم . وحتى هؤلاء سيثوبون إلى رشدهم ، يا ولدي ، ويشنقونك لقاء ذلك!

واتجهت إليه رؤوس المجتمعين كما تتجه أوراد عبّاد الشمس نحو الشمس ، وتعالى زعيق الاستحسان . وعاد شاين إلى مقعده . فانحنى فوقه ضابط مديد القامة يرتدي معطفاً ملموماً قصيراً على كتفه شارة مقدم وربّت على ظهره . فتجمع الضباط حوله . ولعلع صوت نسائي بنبرة هستيرية :

ـ شكراً لك يا شاين! شكراً!

ونعب صوت جهير فتي متصنع من المقصورة ، مرفعاً رتبة الرئيس في الحال :

ـ مرحى لك أيها الرئيس الأول شاين! ألف مرحى! واستمر خطباء الحكومة وقتاً طويلاً يحاولون اقناع قوزاق اللجنة الثورية حديثة التكوين . وغدا الهواء أزرق ثقيلاً من جراء دخان التبغ . وكانت الشمس وراء النوافذ تقترب من نهاية مسيرتها النهارية . والتصقت أغصان شجر الشوح المتجمدة بالألواح الزجاجية الخارجية . وكان بوسع الناس الجالسين على عتبات النوافذ أن يسمعوا صلاة الغروب تنشد ، وهديراً أجش كصفير قاطرات المحطة يطغى على عزيف الريح .

ولم يستطع لاغوتين أخيراً أن يتحمل أكثر من ذلك . فالتفت إلى كاليدين وقال مقاطعاً أحد الخطباء :

ـ اتخذوا قراراً : لقد حان الوقت لإنهاء ذلك!

فهمس بوغايفسكي بلهجة كاوية :

ـ لا تنفعل يا لاغوتين! اشرب قدح ماء . انه شيء خطر على أرباب العائلة وغير قابلين لجمع الشمل أن ينفعلوا . هذا إلى أنه لا يحسن مقاطعة الخطباء ، فليس هذا مجلس سوفييتات!

ورد عليه لاغوتين بشدة هو الآخر ، ولكن جميع الأعين اتجهت صوب كاليدين من جديد . اذ كان ما يزال يلعب لعبته السياسية باعتداده المعهود ، ازاء أجوبة بودتيلكوف الساذجة لكنها الثابتة ثبات الدرع .

ـ لقد قلت اننا اذا سلمنا السلطة لكم فسوف يكف البلاشفة عن شن هجومهم على الدون . ولكن هذا رأيك ليس الا . أمّا ماذا سيعمل البلاشفة عندما يبلغون الدون ، فلسنا ندري .

ـ ان اللجنة الثورية على ثقة من أن البلاشفة سوف يحققون ما قلته . جرِّبوا ذلك . سلموا السلطة لنا ، واطردوا المتطوعين من الدون وسوف ترون ان البلاشفة سينهون الحرب .

وبعد لحظة نهض كاليدين . كان خطابه قد أعد مسبقاً ، وكان قد أمر تشيرنتسوف بتحشيد القوات للتقدم نحو محطة ليخايا المجاورة . ولكنه كان يراوغ كسباً للوقت ، ثم أنهى المؤتمر باقتراح مماطل :

ـ ستنظر حكومة الدون في مقترحات اللجنة الثورية ، وسوف تقدم جوابها خطياً في الساعة العاشرة من صباح الغد .

١١

نص الجواب الذي سلمته الحكومة العسكرية القوزاقية إلى وفد اللجنة الثورية في الصباح التالي على ما يأتي :

لقد تدارست الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون مطاليب اللجنة الثورية العسكرية القوزاقية التي تقدّم بها مفوضو اللجنة باسم حرس الأتمان ، والحرس القوزاقي ، والكتائب : الرابعة والأربعين والثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين ، والوحدات : العاشرة والسابعة والعشرين والثالثة والعشرين والثامنة العائدة للاحتياطي الثاني والكتيبة الثالثة والأربعين ، والسرية المستقلة الرابعة عشرة والبطاريات السادسة والثانية والثلاثين والثامنة والعشرين والثانية عشرة والثالثة عشرة ، وفوج المشاة الثاني ، وسرية كامينسكايا ، وعليه فان الحكومة العسكرية القوزاقية تعلن أن الحكومة تمثل جميع السكان القوزاق في الاقليم . وليس لها الحق ، كحكومة انتخبها السكان ، في التخلي عن سلطاتها ريثما يصار إلى تأليف مجلس جديد .

ان الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون ترى من الضرورة حل المجلس السابق واجراء انتخابات جديدة لمفوضي كل من النواحي ووحدات الجيش . ان المجلس الجديد ، المنتخب بحرية (بحرية كاملة عن طريق التصويت) من قبل السكان القوزاق على أساس الانتخاب السري المتساوي المباشر ، سوف يجتمع في مدينة نوفوتشيركاسك في الرابع (حسب التقويم القديم) من شباط ١٩١٨ ، وهو يجتمع في الوقت نفسه مع مؤتمر جميع السكان من غير القوزاق .

والمجلس وحده ، وهو المؤسسة الشرعية التي أعادتها الثورة والتي تمثل سكان المنطقة من القوزاق ، له الحق في تنحية الحكومة العسكرية القوزاقية من الحكم وانتخاب حكومة جديدة . وسوف يتدارس هذا المجلس في الوقت نفسه مسألة سيطرة الوحدات العسكرية وفيما ينبغي أو لا ينبغي وجود وحدات من المتطوعين للدفاع عن سلطة الحكومة . أما بشأن تشكيل جيش المتطوعين وفعالياته ، فان الحكومة الائتلافية الحالية قد اتخذت قراراً يقضي بوضع جيش المتطوعين تحت السيطرة المشتركة للحكومة واللجنة العسكرية الاقليمية .

وبصدد مسألة سحب البوليس من منطقة المناجم الذي زعم أن الحكومة العسكرية القوزاقية قد أرسلته إلى هناك ، فان الحكومة تعلن أن هذه المسألة ستحال إلى المجلس في الرابع من شباط .

وتعلن الحكومة أن السكان المحليين هم وحدهم الذين يحق لهم أن يسهموا في تنظيم شؤون حياتهم المحلية ، ومن ثم فانها حسب ارادة المجلس ترى من الضروري ان تعارض بكل الوسائل تغلغل المفارز البلشفية المسلحة إلى الاقليم الذي تريد أن تفرض نمط حياتها عليه . ان على الأهالي وحدهم أن ينظموا نمط حياتهم .

ان الحكومة لا تريد حرباً أهلية ، انها تسعى في كل خطواتها للتوصّل الى حل سلمي . ولهذا السبب اقترحت أن تسهم اللجنة الثورية العسكرية في وفد مشترك يبعث إلى القوات البلشفية .

وترى الحكومة أنَّ حرباً أهلية لا تنشب الاّ اذا سمح لقوات غريبة بالدخول إلى الاقليم ، ذلك ان الحكومة لا تقوم الاّ بالدفاع عن أرض الدون ، وهي ليست بصدد الاعداد لأي عمل عدواني ، كما أنها لاتريد فرض ارادتها على بقية انحاء روسيا ، وعليه فهي لا ترغب بأن تفرض أية جماعة غريبة ارادتها على الدون .

وستؤمن الحكومة حرية كاملة في الانتخابات في النواحي ووحدات الجيش ، وسيكون بوسع كل مواطن الادلاء بصوته حسب رغبته ، وأن يبدي وجهة نظره عن طريق انتخابات المجلس العسكري القوزاقي .

ويجب ان تشكل لجان من المندوبين من مختلف الوحدات لتتدارس حاجات

القوزاق في جميع الفرق .

وتوعز الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون إلى سائر الوحدات التي أرسلت مندوبين إلى اللجنة الثورية العسكرية باستئناف واجبهم الاعتيادي في الدفاع عن اقليم الدون .

وترى الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون أن من غير المعقول أن تعمل بعض وحداتها ضد الحكومة ، فتزج الدون الهادىء في حرب لا تبقي ولا تذر .

ويجب أن تحل اللجنة الثورية العسكرية من لدن الوحدات التي انتخبتها ، وينبغي أن تبعث جميع الوحدات ، بديلاً عنها ، بممثلين إلى اللجنة العسكرية الاقليمية القائمة ، التي تمثل جميع الوحدات العسكرية في الاقليم .

وتطالب الحكومة العسكرية القوزاقية . باطلاق سراح جميع الأشخاص الذين أوقفتهم اللجنة الثورية العسكرية على الفور ، وبغية اشاعة الحياة الاعتيادية في الاقليم يجب السماح للادارة باستئناف أعمالها .

ولما كانت اللجنة الثورية العسكرية لا تمثل الا عدداً غير ذي شأن من الوحدات القوزاقية ، فليس لها الحق أن تتحدث باسم جميع الوحدات ، ناهيكم عن المطالبة باسم القوزاق جميعاً .

وتعتبر الحكومة العسكرية القوزاقية أنه من غير الجائز مطلقاً للجنة أن تنشىء علاقات مع مجلس مفوضي الشعب ، وتتسلم منه المساعدات المالية ، لأن ذلك من شأنه أن يبسط نفوذ مجلس مفوضي الشعب في اقليم الدون ، علماً بأن مجلس القوزاق ومؤتمر السكان من غير القوزاق في سائر أنحاء الاقليم قد قررا رفض سلطة السوفييتات ، كما فعلت القوات الأوكرانية ، والسيبيرية ، والقفقاسية ، وسائر القوات القوزاقية بلا استثناء .

رئيس الحكومة العسكرية القوزاقية ، نائب
أتمان الجيش القوزاقي م .بوغايفسكي
أمراء جيش قوزاق الدون يلاتونتسيف ،
بولياكوف ، ميلنيكوف .

انضم لاغوتين وسكاتشكوف ممثلين عن لجنة كامينسكايا الثورية إلى الوفد الذي أرسلته حكومة الدون إلى تاغانروغ ليتفاوض مع ممثلي سلطة السوفييتات . وكان بودتيلكوف وأعضاء اللجنة الآخرون قد احتجزوا موقتاً في نوفوتشيركاسك ، بينما كانت قوات كاليدين تحت أمرة تشيرنتسوف ، التي تنتظم بضع مئات من حملة الحراب ، وبطارية ثقيلة ومدفعين خفيفين مركبين على عربة سكك ، قد احتلت محطتي زفيريفو وليخايا بسرعة ، وتركت فيهما قوة صغيرة للحماية ، وواصلت تقدمها شطر كامينسكايا ، واحتلت تلك الناحية في السابع عشر من كانون الثاني . وبعد بضع ساعات من احتلال كامينسكايا وردت أنباء تفيد أن مفارز الجيش الأحمر برئاسة سابلين قد طردت قوات الحماية من زفيريفو وليخايا . فكرّ تشيرنتسوف بقواته . وبهجوم جبهوي خاطف اكتسح مفرزة موسكو الثالثة ، ووجه ضربة قاصمة لمفرزة خاركوف ورمى بالحرس الأحمر إلى مواقعهم الأصلية .

وبعد أن استعاد تشيرنتسوف زمام الأمر في جبهة ليخايا ، أخذ المبادرة وعاد إلى كامينسكايا ، وفي التاسع عشر من كانون الثاني تسلم امدادات من نوفوتشيركاسك ، وصمم في اليوم الثاني على التقدم شطر غلوبوكايا .

وتقرر في مجلس حرب القيام بالاستيلاء على غلوبوكايا بحركة التفاف واسعة . وقد تردد تشيرنتسوف في التقدم على السكك الحديد خشية من مجابهة مقاومة عنيفة من وحدات لجنة كامينسكايا الثورية وامدادات الحرس الأحمر التي أرسلت من تشيرتكوف .

وبدأت حركة الالتفاف تلك الليلة ، وكان تشيرنتسوف يقودها بنفسه .

وبلغوا غلوبوكايا قبل الفجر . فغير الرتل تشكيلاته بخفة وانتشر على هيئة صف . وأعطى تشيرنتسوف أوامره الأخيرة ، ثم ترجل ، وأوعز بصوت أجش ، وهو يمط ساقيه ، إلى آمر احدى السرايا قائلاً :

ـ بلا رحمة ولا شفقة أيها الرئيس . فهمت ؟

وخشخشت جزمتاه فوق الثلج ، ودفع قبعته الاستراخانية الرمادية إلى

أحد الجانبين ليحك بقفازه أذناً وردية . وكان ثمة دائرة قاتمة الزرقة تحت عينيه المتألقتين . وكانت شفتاه مزمومتين من شدة البرد ، كما كان شارباه القصيران مفضضين بالصقيع .

ووثب على سرجه بعد أن نال شيئا من الدفء ، وعدل طيات سترته العسكرية القصيرة ، وحثّ كميته بعد أن تناول العنان وهو يفتر عن ابتسامة رصينة واثقة وقال :

ـ فلنبدأ!

١٢

قبيل انعقاد مؤتمر قوزاقيي خط الجبهة في كامينسكايا هرب صديق غريغوري الرئيس أزفارين من كتيبته . كان قد زار غريغوري في الليلة السابقة لرحيله وألمح له بغموض بالخطوة التي أزمع تنفيذها .

ـ اني أجد من الصعب عليّ أن أخدم في الكتيبة في الوضع الراهن . فالقوزاق يتأرجحون بين نقيضين ، البلاشفة والنظام الملكي السابق . ولا أحد يريد مساندة حكومة كاليدين ، لأنه على أقل تقدير يتصرف كطفل بيده لعبة جديدة . ان من نريده هو رجل حازم ثابت العزم يضع الغرباء في أماكنهم اللائقة بهم . ولكنني أعتقد أنه من الأفضل أن نساند كاليدين في الوقت الحالي ، والاّ فسوف نخسر اللعبة كلياً . ـ وتساءل بعد برهة صمت أشعل خلالها سيكارة : ـ أحسب أنك اعتنقت عقيدة الحمر ؟

فأجابه غريغوري :

ـ تقريباً .

ـ عن ايمان ؟ أم مثل غولوبوف ، تريد أن تحظى بشعبية بين القوزاق ؟

ـ لست بحاجة إلى الشعبية . أنا أبحث عن مخرج بنفسي .

ـ انك تضرب في حديد بارد ، ولا أخالك قد وجدت سبيل الخلاص .

ـ سوف نرى...

- أخشى أن نلتقي كأعداء يا غريغوري .

فتبسم غريغوري :

- ان المرء لا يعرف حتى أصدقاءه في ساح المعركة . ولبث أزفارين يتكلم بعض الوقت ، ثم خرج . واختفى في الصباح التالي كما يتوارى الحجر في الماء .

وفي يوم انعقاد المؤتمر جاء لزيارة غريغوري أحد أفراد الحرس القوزاقي من مقاطعة فيشينسكايا . كان غريغوري ينظف ويزيت مسدسه . لقد جاء جندي الحراسة الذي كان في السابق يخدم في كتيبة ليستنتسكي ويعرف أن ليستنتسكي قد أخذ صاحبة غريغوري منه ليخبره أنه شاهد الضابط السابق في المحطة . ومع ذلك فلم يأت على ذكر الموضوع الآ قبيل مغادرته ، فقال عرضاً :

- لقد رأيت بالصدفة صديقاً لك في المحطة اليوم يا غريغوري .

- من ؟

- ليستنتسكي . هل تعرفه ؟

فسأله غريغوري بحدة :

- متى رأيته آخر مرة ؟

- قبل حوالي الساعة .

وجلس غريغوري ، وقد اعتصر الألم القديم قلبه كأن ذئباً أنشب فيه مخلبه ولم يعد يحس بالحقد الضاري ذاته تجاه عدوه ، ولكنه يدري أنه لو صادف والتقيا ، اذا ما اندلعت الحرب الأهلية ، فسوف تراق بينهما الدماء . لقد جعله هذا النبأ المفاجئ عن ليستنتسكي يدرك أن جرحه القديم لما يندمل بعد ، ان محض لمسة من شأنها أن تجعله ينزف من جديد . لا شك أن طعم الانتقام حلو لدى غريغوري لما اقترفه ليستنتسكى من جرم مرير بحقه ، فلم يترك له من حياته السابقة سوى قشرتها ، فغدت ملهوفة تاعسة ظمأى بعد أن كانت تزخر بسعادة مشبوبة طافحة .

ولاذ بالصمت بعض الوقت ، ثم قال عندما أحس بالحميا تنجاب عن وجنتيه :

ـ أتحسب أنه سيأتي إلى هنا ؟

ـ لا أظن ذلك ، . لعله في طريقه إلى نوفوتشيركاسك .

ـ حسناً .

وقال الحارس شيئاً آخر عن المؤتمر ، ونقل له آخر أنباء الكتيبة ثم رحل . ولم يستطع غريغوري في الأيام التي تلت أن يطفئ نيران الألم الذي تأجج في دخيلته . وغشيته حالة من الذهول ، وعاودته ذكرى أكسينيا أكثر من ذي قبل فجلبت المرارة إلى طعم فمه وأحالت قلبه كالصخر . وفكر في ناتاليا والطفلين بيد ان ما كان يبعث فيه ذلك من فرح قد ذوى وعفى عليه الزمن . كان قلبه أسير أكسينيا وما برح يحس باللوعة العارمة الخانقة عليها .

حينما شن تشيرنتسوف هجومه ، كان على القوات الثورية أن تخلي كامينسكايا على عجل . وتحشدت سرايا القوزاق التي هجرها العديد من أفرادها في القطار ، وقد اختلط حابلها بنابلها ، تاركة كل ما ثقل حمله . وبدا للعيان افتقار التنظيم ، والقيادة الحازمة التي من شأنها أن تحشد وتنظم قواتهم الكبيرة حقاً . وأثناء تلك الأيام برز من بين الأمراء المنتخبين رئيس أول يدعى غولوبوف . فتسلم قيادة الكتيبة القوزاقية السابعة والعشرين الثورية واستعاد النظام من جديد بصرامة . وقد أطاعه القوزاق عن ثقة تامة ، معترفين بسجاياه التي افتقرت اليها الكتيبة : مقدرته على سبكها في وحدة متماسكة ، وعلى تعيين الواجبات ، وعلى تسلم مهام القيادة . وأثناء الجلاء صاح هذا الضابط ذو الوجنتين الورديتين المكتنزتين ملوحاً بسيفه في القوزاق الذين كانوا بطيئين في شحن العربات :

ـ ماذا دهاكم ؟ هل تؤدون لعبة الاختفاء والطراد* ؟ اللعنة عليكم . هيا

---

* لعلها تقابل الاستغماية المصرية . المترجمون

انهضوا بواجبكم! انى آمركم باسم الثورة ان تطيعوا في الحال... ماذا ؟ من هو ذلك الديماغوغي ؟ لسوف أطلق النار عليه ، ذلك السافل! صه... انك مخرب وجاسوس معاد للثورة ، ولست برفيق!

وقد استجاب له القوزاق بالفعل . حتى أن كثيرين منهم أحبوا أساليبه المتغطرسة ، فما برحوا يتوقون إلى الماضي . وفي الأيام السالفة كان خير القادة في نظر القوزاق هم أشدهم فظاظة .

انسحبت مفارز اللجنة الثورية العسكرية إلى غلوبوكايا . وانتقلت القيادة الفعلية إلى يد غولوبوف . وفي أقل من يومين أعاد تنظيم القوات المبعثرة واتخذ الخطوات اللازمة للدفاع عن غلوبوكايا . وكان غريغوري ميليخوف قد عين بناءً على طلبه آمر مفرزة تشتمل على سريتين من كتيبة احتياط وسرية من الحرس .

وفي غسق العشرين من كانون الثاني خرج غريغوري ليستطلع المراكز الأمامية . وعلى أبواب القرية التقى ببودتيلكوف . فعرفه بودتيلكوف :

ـ أهذا أنت يا ميليخوف ؟

ـ نعم .

ـ أين ذاهب ؟

ـ أفتش المراكز الأمامية . هل مضى على رجوعك من تشيركاسك زمن طويل ؟ كيف سارت الأمور ؟

فقطب بودتيلكوف :

ـ لا تستطيع أن تكون مسالماً مع أناس هم أعداء ألداء للشعب . أرأيت إلى الحيلة التي اتبعوها ؟ يتفاوضون... وأثناء ذلك كانوا يدفعون بتشيرنستوف إلى الأمام . يا لكاليدين من خنزير ، ايه ؟ حسناً ، لقد أدركني الوقت . يجب ان أعود إلى مقر القيادة .

وترك غريغوري بعجالة وحث خطاه .

لقد طرأ على موقفه من غريغوري ومعارفه الآخرين من القوزاق تبدل

واضح حتى قبل أن ينتخب رئيساً للجنة الثورية ، فشابت صوته نبرة من التعالي والغطرسة . لقد لعب التسلط برأس القوزاقي البسيط .

رفع غريغوري ياقة معطفه وسار مسرع الخطى . وكان الليل ينذر بصقيع ، وهب نسيم خفيف من الشرق . كانت السماء صافية . وخشخش الثلج تحت قدميه . وتعالى القمر وئيداً ، يعرج ، مثل كسيح يرتقي سلماً . وغشيت السهب خلف المنازل ضبابة بنفسيجة قاتمة . كانت تلك ساعة المساء حين تنمحي كل الخطوط ، والألوان ، والأبعاد ، وحيث ما تزال بقايا النهار مشتبكة بأحابيل الليل وحيث يلوح كل شيء رجراجاً على غير حقيقته . وحتى الروائح تكون لها في مثل هذه الساعة أطياف خادعة .

عاد إلى مقره بعد أن قام بالجولة . وأعدّ مضيفه ، وهو مستخدم في السكك الحديد ، السماور وجلس أمام الطاولة .

ـ هل ستشنون هجوماً ؟

ـ لست أدري .

ـ أم أنكم ستنتظرونهم هنا ؟

ـ سوف نرى .

ـ حسناً ما تفعلون . فلست أعتقد أن لكم من العدة ما تهاجمون بها ، ولذا يحسن الانتظار . لقد خضت غمار الحرب الألمانية كجندي استحكام ، لذلك فأنا أعرف الاستراتيجية التعبوية جيداً . ان قواتكم صغيرة ، أليس كذلك ؟

وحاول غريغوري أن يتجنب هذا الحديث الذي لا يرتاح اليه ، فقال :

ـ ستكفينا .

غير أن الرجل ظل يصب سيلاً دافقاً من الاسئلة ، محوماً حول الطاولة ، هارشاً بطنه النحيل من تحت صدريته .

ـ كثير من المدفعية ؟ مدافع شتى ؟

فأجابه غريغوري بغضب بارد :

ـ لقد كنت في الجيش ، ألست تعرف واجب الجندي ؟

ثم قلب عينيه بعنف فجفل الرجل إلى الوراء ، وأردف :

ـ بأي حق تسأل عن عدد قطعاتنا ، وخططنا ؟ لسوف ألقي القبض عليك وأستجوبك...

فشحب وجه الرجل وكاد أن يغص من الارتباك :

ـ يا إلهي... أيها الضابط! عزيزي... كان ذلك حماقة مني... حماقة . اغفر لي! ـ دمدم صاحب البيت وهو يتوسل ويتضرع فاغراً فاه الأدرد .

وصادف أن تطلع غريغوري إلى الرجل أثناء شرب الشاي ، فرآه يرف بعينيه كمن يصادف بريقاً ، وعندما فتح عينيه ثانية بدت نظرتهما عطوفاً حتى الوله . لقد كانت زوجته وابنتاه اليافعتان يتكلمن همساً ، وأوى غريغوري إلى غرفته دون أن يفرغ من قدحه الثاني .

وبعد فترة وجيزة عاد ستة قوزاق من كتيبة الاحتياط الثانية ، الذين كانوا هم الآخرون مقيمين في المنزل ، وجلسوا يشربون الشاي ، ويتحدثون بصخب . كان غريغوري نصف نائم ، بيد أنه التقط نتفاً من حديثهم . كان واحد منهم وهو ضابط رعيل بخماتشوف من قرية لوغانسكايا يروى حادثاً وقع في النهار :

ـ كنت هناك حينما حصل ذلك . لقد جاء ثلاثة عمال من غورلوفكا من المنجم رقم ١١ وذكروا أنهم قد جمعوا قوة ، ولكنهم لا يملكون اي سلاح . وهكذا فقد طلبوا منا أن نعطيهم ما كان بوسعنا أن نقتصده . فقال لهم أحد أعضاء اللجنة... لقد سمعته بنفسي .

ورفع المحدث صوته استجابة لسؤال خافت :

ـ « اذهبوا واطلبوا من سابلين يا رفاق ، فليس لدينا هنا أي شي! » . ولكن كيف لا نملك أي شيء ؟ فأنا أدري أن لدينا احتياطاً من البنادق . ليس ذلك بيت القصيد . لقد كان يغار من تدخل الشعب البسيط في...

فصاح آخر : ـ صحيح جداً! تعطيهم سلاحاً وقد يحاربون أولا يحاربون .

ولكنهم ما أن تثار مشكلة الأرض حتى يضعوا أيديهم عليها .

فزخر ثالث :

ـ اننا نعرف طباعهم!

ونقر المحدث الأول بملعقته على قدحه بترو ، وأجاب في الحال متمهلاً في كلماته :

ـ كلا ، ان مثل هذا الشيء لن يجدي . ان البلاشفة سيلاقوننا في منتصف الطريق من أجل مجموع الشعب ، ولكننا لسنا بلاشفة حقيقيين . ان كل ما نبتغيه هو أن نطرد كاليدين ، ثم نشرع...

فعقّب على ذلك بيقين صوت عالي النبرة يكاد ان يكون صوت صبي :

ـ ولكن انظر هنا يا ولدي! ألا ترى أنه ليس لدينا ما نتنازل عنه ؟ لربما نحصل عند توزيع الأراضي على ديسياتين ونصف من الأرض الصالحة وأمّا البقية فلا تصلح لشيء . إذاً فماذا سنمنحهم ؟

ـ لن يأخذوا أي شيء منك ، ولكن يوجد آخرون لديهم أرض أكثر مما ينبغي .

ـ وماذا عن أرض الجيش القوزاقي ؟

ـ كلا ، شكراً لك كثيراً! هل علينا أن نستغني عما نمتلكه ثم نشحذ من أراضي غيرنا ؟ يا لها من فكرة رائعة!

ـ سنحتاج أرض الجيش لأنفسنا .

ـ بالطبع .

ـ لقد أصابكم الجشع!

ـ اللعنة على الجشع!

ـ لعل بعضهم سيفكر في ترحيل قوزاقنا من الدون الأعلى . فليس لديهم هناك غير الرمال .

ـ صحيح جداً .

ـ ولكن ليس من واجبنا أن نفعل ذلك .

ـ ان قطرة من الفود كا قد تنفع .

ـ قبل مدة ، أيها الأولاد ، هجموا على مخازن الشراب .

وقد غرق أحدهم في دن من الكحول .

ـ ان شيئاً من الشراب يسعفني الآن ، شيئاً يبعث الدفء في أوصالي .

وسمع غريغوري وهو يغفو القوزاق الذين افترشوا الأرض ليبيتوا ليلتهم يتجادلون حول الأرض وكيف ينبغي ان توزع .

وأوقظهم قبل انبلاج الفجر صوت اطلاقة خارج النافذة تماماً : ووثب القوزاق واقفين . فارتدى غريغوري قمصلته ، وتناول معطفه وتخبطت ذراعه في كمه ، وارتدى جزمته وهو يركض . ولعلعت الطلقات في الشارع . ومرت عربة تقعقع . وهتف أحدهم بفزع خارج الباب :

ـ إلى السلاح!... إلى السلاح!...

لقد أجبرت قوات تشيرنتسوف النقاط الأمامية على التراجع وتدفقت الي المدينة . وانطلق الخيالة في العتمة السهبية الرمادية . ومرق المشاة خلال الشوارع فراحت تضج بأصوات أحديتهم . ونصب رشاش في أحد الأركان . واصطف عبره زهاء ثلاثين قوزاقياً . وتوافد المزيد منهم وقعقعت الترباسات فيما هي يحشون الخراطيش في مغاليق البنادق . وفي الشارع المجاور كان صوت مرنان يعطي الأوامر :

ـ السرية الثالثة ، انتبه! من ذلك الذي خرج عن الصف ؟ استـ... عد! رماة الرشاش إلى اليمين در! هل أنتم مستعدون ؟ سرية...

ومرت بهم عربة تهدر تجرها خيل مسرعة ، وكان السواق يلوحون بسياطهم . وشرعت الرشاشات تلعلع عن كثب . وفي الشارع التالي انقلب مطبخ الميدان أثناء فراره الهلوع وقد اشتبكت احدى عجلاته بأحد أعمدة سياج . فهدر صوت مرتعب موات :

ـ أنت أيها الشيطان الأعمى! أما كان بوسعك أن تراه!

وبعد لأي استطاع غريغوري أن يلم شتات سريته ثم انطلقوا شطر

المحطة . فوجدوا القوزاق يتراجعون كالموج المتلاطم .

أمسك غريغوري ببندقية أحد المتقدمين وقال :

ـ أين ذاهبون ؟

فانتزع القوزاقي بندقيته وقال :

ـ إليك عني! اليك عني! أيها الخنزير! ماذا دهاك ؟ ألا ترى أننا نتراجع ؟

ـ انهم أقوى منا بكثير!

ـ لا شيء يقوى على ايقافهم .

وتعالى صياح أصوات أخرى :

ـ إلى أين ؟ أين ينبغي ان نذهب ؟ قرية ملليرسكايا في أية جهة ؟

وقرب مستودع البضائع في أقصى المحطة حاول غريغوري أن يوزع جنود سريته في تشكيلة انتشار ، غير أن موجة جديدة من القوزاق الهاربين اكتسحتهم جانباً . وما لبثت سرية غريغوري القوزاقية أن اختلطت بالحشد وهربت معه ناكصة إلى الشوارع .

فزأر غريغوري وهو يختض من الغضب :

ـ قفوا! توقفوا والاّ فسأطلق النار!

ولكنهم لم يعيروه أذنا صاغية . وأمطر الشارع بوابل من رصاص الرشاش . فانبطح القوزاق على الطريق لحظة ، وزحفوا مقتربين من الجدران ، ثم هربوا إلى المنعطفات الجانبية .

وهتف ضابط رعيل فيما هو يمر ركضاً وينظر في عيني غريغوري :

ـ لن نوقفهم الآن يا ميليخوف!

فتبعه غريغوري وهو يصر بأسنانه .

وانتهى الفزع الذي استبد بالقوزاق إلى هزيمة تامة عشوائية من غلوبوكايا ، فتركوا معظم المعدات وراءهم . ولم يكن من الممكن لم شمل السرايا وزجها في هجوم مضاد الاّ عند انبلاج الفجر .

هرول غولوبوف مزرق الوجه يتصبب عرقاً وقد ارتدى سترة من الفرو ،

أمام صفوف كتيبته السابعة والعشرين ، وهتف بصوت معدني :

ـ تحركوا! ليس هذا وقت الهجوع! تقدموا ، تقدموا!

وصفت البطارية الرابعة عشرة في موقعها وفصلت الخيل عن عدتها ، وقف الآمر على صندوق ذخيرة وجعل يتطلع خلل منظارته .

بدأت المعركة في السادسة ، فانطلقت قوات القوزاق والحرس الاحمر ، من فورونيج مجتمعة في كتلة هائلة ، فبدت كأنها تطرز الارض الثلجية بالسواد . وهبت ريح زمهرير من الشرق .

ومن تحت الغيوم التي ساقتها الرياح انحسر الفجر عن حمرة بلون النجيع . وأرسل غريغوري نصف سرية الأتمان لتحمي البطارية الرابعة عشرة ، وشن هجوماً بالبقية .

انفجرت القذيفة الأولى على مبعدة يسيرة من طلائع قوات تشيرنتسوف . وتطاير نثار الانفجار البرتقالي المزرق إلى الأعلى .

وأطلقت قذيفة اخرى . ثم تلتها لحظة هدوء زادت من توترها نيران البنادق ، فدوى صدى بعيد اثر انفجار القذيفة . ثم بدأت القذائف تتفجر قرب خطوط العدو . فقال غريغوري في دخيلته بشعور من الارتياح وهو يضيق عينيه أمام الريح : «لقد أحكمنا مدى الرمي!» .

وفي الميمنة كانت سرايا الكتيبة الرابعة والأربعين . وكان غولوبوف يقود كتيبته في الوسط . وغريغوري إلى ميسرته . وفي المؤخرة كانت مفارز الحرس الأحمر تحمي الجناح الأيسر . وقد زودت سرية غريغوري بثلاثة رشاشات . وأشرف آمرهم ، وهو بدين من الحرس الأحمر ذو وجه كئيب ويدين مشعرتين عريضتين ، على اطلاق النار ببراعة ، شالاً محاولات العدو لشن الهجوم . ولهث طوال الوقت لصق الرشاشات وهو يتقدم مع قوزاق سرية الاتمان الزاحفين . وكانت إلى جانبه امرأة مكتنزة ترتدي معطف جنود . وحينما مر غريغوري بصف القوزاق قال في نفسه مغضباً : «يا له من زير نساء! لا يستطيع التخلي عن امرأته حتى في المعركة! كان ينبغي أن يأتي

بأطفاله وفراشه الريش معه أيضاً! » .

واقترب منه آمر مفرزة الرشاشات ، وهو يصلح وضع حزام المسدس على صدره .

ـ أنت آمر هذه المفرزة ؟

ـ نعم .

ـ سأوجه سداً من النار أمام نصف سرية الاتمان ، فالعدو يحول دون تقدمهم .

فاستحسن غريغوري الفكرة قائلاً : « حسناً! » ـ والتفت على اثر صرخة انطلقت من اتجاه الرشاش الذي هدأ لحظة وسمع رامي رشاش ملتحياً يزأر بضراوة :

ـ بونتشوك! سوف ينصهر الرشاش! لا نستطيع المضي على هذا المنوال!

وكانت المرأة بمعطف الجنود جاثية إلى جانبه . وتألقت عيناها السوداوان تحت عصابتها ، فذكرت غريغوري بأكسينيا ، فتطلع اليها لحظة باشتياق ، مبهور النفس .

وفي الظهيرة جاء مراسل من لدن غولوبوف ومعه تعليمات لغريغوري تقضي بسحب سريتيه من موقعهما وتطويق ميمنة العدو ، على أن يقوم بذلك بصورة غير ملحوظة قدر المستطاع . كان عليه أن يغير على جناح العدو حالما تشن القوات الرئيسية الهجوم الحاسم . وسحب غريغوري في الحال سريتيه ، وبعد أن أوعز لهم بامتطاء الخيل ، قادهم بطريق دائري قرابة عشرين فرسخاً في وادٍ ضحل . كانت الخيل تتعثر وتغوص في الثلج العميق ، الذي يصل أحياناً إلى بطونها . وأنصت غريغوري إلى صوت اطلاق النار وعاين ساعته بقلق ، وهي غنيمة استحوذ عليها من معصم ضابط ألماني ميت في رومانيا . وقد استعان بالبوصلة لمعرفة الطريق ، ولكنه رغم ذلك انحرف إلى اليسار أكثر من اللازم . ثم ظهروا في حقل مكشوف على كثيب فسيح . كان العرق يتبخر من أديم الجياد والبلل يسحّ من أوراكها . وأوعز غريغوري بالترجل ، وكان أول

من تسلق الكثيب . وتركت الخيل في الوادي . وتبعه القوزاق مخوضين صعد المرتفع الثلجي . والتفت الى الخلف ، فرأى ما ينوف على السرية من القوزاق منتشرين فوق المرتفع الثلجي فأحس بمزيد من القوة والثقة . فقد كانت غريزة الشعور بالجماعة تستبد به في كل معركة ، شأن غيره من الرجال .

وألم بالموقف في نظرة واحدة ، فأدرك أنه قد تأخر نصف ساعة على الاقل لانه لم يأخذ بعين الاعتبار صعوبات الطريق . كان غولوبوف قد أوشك أن يقطع على قوات تشيرنتسوف خط الرجعة بمناورة استراتيجية جريئة ، مرسلاً مفارز تطويق من كلا الجانبين . وطفق الآن يسدد الضربات على مقدمتهم . وكانت اطلاقات البنادق تلعلع مثل الحب في مقلاة ، ومزقت قذيفة صفوف العدو المرتبكة ، وتساقطت القنابل مدرارة .

هتف غريغوري :

ـ إلى الأمام!

وهجم بمفرزته على الجناح . كان القوزاق يتقدمون كما لو كانوا في استعراض بيد أن رامي رشاش بارعاً من جيش تشيرنتسوف أمطرهم بوابل من الرصاص بصورة متقنة جعلتهم يجدون في الانبطاح على الأرض ملاذاً بعد أن خسروا ثلاثة منهم .

وفي الأصيل الباكر أصيب غريغوري بطلقة فوق ركبته تماماً . فجعل يصر بأسنانه وقد أحس بألم لاهب وغثيان مألوف ناجم عن النزيف . وزحف خارج الخط وقفز على قدميه ، وهز رأسه ، وجعل يهرف بعض الشيء بتأثير الصدمة وكان الألم على أشده لأن الرصاصة لم تخرج . اذ كانت ، حين أصابته قد فقدت زخمها وبعد أن اخترقت معطفه وسرواله وجلده استقرت هامدة ، في عضلاته . وحال الألم المبرح دون حركته ، فرقد مرة اخرى . وفيما استلقى هناك عاودت ذهنه ذكرى هجوم الكتيبة الثانية عشرة في جبال ترانسلفانيا في رومانيا ، يوم جرح في ذراعه : أوريوبين ووجه ميشا كوشيفوي المكفهر غضباً ويميليان غروشيف وهو يجر الرئيس الأول الجريح حدر التل .

وتولى مساعد غريغوري قيادة السرايا وأوعز لقوزاقيين بالعودة بغريغوري إلى ماسكي الجياد . وحينما أجلساه على حصانه أشارا إليه بحنو باد أن يضمد الجرح ولم يكد غريغوري يستوي على سرجه حتى ترجل ، ونزع سرواله وضمّد جرحه النازف المتهيج بعجالة وقد قطب اذ سرت رعدة في جسمه العرق ثم مضى على صهوة جواد برفقة مراسله ، عائدين من نفس الطريق الدائري في الوادي ، إلى الموقع الذي انطلق منه قبل بضع ساعات الهجوم المضاد وجعل يتطلع وهو وسنان نعس ، إلى آثار حوافز الخيل على الثلج ، ومعالم الوادي المألوفة ، وسرعان ما بدت له الأحداث الجارية على سفح التل بعيدة وقليلة الأهمية .

واستمر اطلاق النيران من البنادق بجنون ، ونشطت بطارية العدو الثقيلة ؛ ومن حين لآخر كان يلوح على نيران الرشاشات أنها تكتب بخط منقوط غير منظور نتيجة المعركة .

قطع غريغوري حوالي ثلاثة فراسخ خلال الوادي . وبدأ التعب ينال من الجوادين جراء مسيرتهما الشاقة .

فهمهم غريغوري لمراسله : ـ اتجه شطر العراء! ـ واستدار بحصانه وصعدا سفح الوادي الثلجي .

فرأيا في البعيد جثث الموتى المبعثرة راقدة وكأنها غربان سوداء حاطة . وفي خط الأفق كان حصان يهرب بلا فارس . ورأى غريغوري ان قوات العدو الرئيسية التي قل عددها كثيراً انطلقت من ساحة المعركة وهي تتراجع متجهة إلى غلوبوكويه . ورمّح غريغوري حصانه ؛ كانت تلوح في البعيد جماعات القوزاق الصغيرة المبعثرة . وعندما مضى غريغوري نحو أقرب جماعة منهم تبين غولوبوف . كان الآمر مستوياً على سرجه . وكانت سترته المصنوعة من جلد الخراف مفتوحة ، وقبعته الفرو منداحة إلى أحد الجانبين ، وحاجباه مبللين بالعرق ، صاح بصوت أجش وهو يبرم عذاريه الشبيهين بعذاري رئيس عرفاء :

ـ ميليخوف ، أحسنتَ! ماذا ، هل جرحت ؟ اللعنة على الشيطان! هل عظمك سالم ؟

وانفجر باسماً دون أن ينتظر جواباً ، وأردف :

ـ لقد مزقناهم شر ممزق! لقد مزقنا مفرزة الضباط بحيث لن يكون بمقدورهم أن يلموا شعثهم من جديد .

وطلب غريغوري منه سيكارة . وكان القوزاق والحرس الأحمر يتدفقون على السهب وجاء قوزاقي مسرعاً على صهوة جواده بين جمع حاشد في البعيد .

وصاح وهو لما يزل على مسافة ما :

ـ لقد أسرنا أربعين رجلاً ، يا غولوبوف! أربعين ضابطاً ، وتشيرنتسوف أيضاً!

ـ تكذب ؟!

قال ذلك غولوبوف واستدار بلهفة على سرجه ، وانطلق نحو الأسرى ، وهو يعمل بسوطه بلا رحمة على جواده المحجل .

ولبث غريغوري برهة ، ثم انطلق في أثره خبباً .

كان يقوم بحراسة رهط الضباط الأسرى ركب من ثلاثين قوزاقياً . وكان تشيرنتسوف يحث خطوه في مقدمة الآخرين . وكان قد رمى بمعطفه الفرو حين حاول الهرب من المطاردين ، ولم يبق عليه سوى سترة جلدية خفيفة فقط . وكانت الشارة منتزعة من كتفه الأيسر ، وكان ثمة كدم حديث فوق عينه اليسرى ينزف . كان يسير حثيثاً وبثبات . وقد أضفت قبعته المصنوعة من جلد الحمل والمنداحة إلى أحد الجانبين على مظهره اللاابالية والمرح . ولم يلح على وجهه المتورد الوجنتين أي ظل من الهلع . وكان جلياً أنه لم يحلق منذ أيام ، فلقد كسا وجنتيه وذقنه شعر أشقر نامٍ . وألقى بنظرة خاطفة قاسية على القوزاق الذين يركضون نحوه ، وعلت حاجبيه تقطيبة مرة حقود . وأشعل عود ثقاب وأشعل السيكارة التي تدلت من إحدى زاويتي شفتيه الرصينتين .

كان معظم الضباط شباناً ، خلا واحداً أو اثنين وخط شعرهما الشيب . وقد تأخر عنهم واحد مصاب بجرح في ساقه ، وكان قوزاقي صغير مجدور ، كبير الرأس يسوقه بعقب البندقية . والى جانب تشيرنتسوف تقريباً كان ثمة رئيس أول طويل وسيم . وكان اثنان آخران يسيران يداً بيد ، مبتسمين ، وخلفهما كان تلميذ عسكري بدين أجعد الشعر حاسر الرأس . وضابط آخر كان قد رمى بمعطف جنود على كتفيه دونما عناية . وكان هناك آخر حاسر الرأس ، ولكنه يرتدي قلنسوة ضابط حمراء أنزلت إلى الأسفل فوق عينيه السوداوين الجميلتين جمال عيون النساء .

كان غولوبوف خلفهم . فتوقف وهتف للحارس القوزاقي :

ـ اسمعوا! سوف تكونون مسؤولين عن حماية هولاء الأسرى وفق أقسى ما شهدته العهود الثورية العسكرية من أنظمة . واحرصوا على أن يصلوا مقر القيادة دون أن يصابوا بأذى .

واستدعى قوزاقياً خيالاً ، ودوّن ملاحظة وأمره أن يسلمها الى بودتيلكوف . ثم التفت إلى غريغوري وسأله :

ـ هل أنت ذاهب إلى هيئة الأركان ، يا ميليخوف ؟

وبعد أن تلقى رداً ايجابياً ، اقترب منه وقال :

ـ أخبر بودتيلكوف أنني سأكون مسؤولاً عن تشيرنتسوف . مفهوم ؟ حسناً ، اذهب اذاً .

وتخطى غريغوري جمع الأسرى ومضى شطر مقر اللجنة الثورية ، الذي كان قد نزل على مقربة من قرية صغيرة . فوجد بودتيلكوف يتخطى ذهاباً واياباً أمام عربة رشاشات بعجلات متجمدة ورشاش مغطى بجوخ أخضر ، محاطة بضباط أركان ، ومرافقين ، ومراسلين . وكان ميناييف وبودتيلكوف قد عادا للتو من ساحة المعركة . كان مينايف جالساً على مقعد السائق ، يلوك قطعة من خبز أبيض متجمد بشهيّة . وانتحى غريغوري ببودتيلكوف وقال له :

ـ سوف يكون الأسرى هنا بعد برهة . هل تسلمت رسالة غولوبوف ؟

فلوح بودتيلكوف بسوطه بقوة ، وخفض عينيه الغائرتين واحمر وجهه انفعالاً ، وقال :

ـ اللعنة على غولوبوف! ان طلبه لطريف! سوف يتعهد تشيرنتسوف ، أليس كذلك ؟ يتعهد ذلك المعادي للثورة وقاطع الطريق! أبداً! لن أسلمه! ان أفضل شيء هو أن ترميهم جميعاً بالرصاص ، وخلاص!

ـ لقد قال غولوبوف انه سيكون مسؤولاً عنه .

ـ انني لن أتركه! لقد قلت هذا ، وأنا أعني ما أقول . هذا كل ما في الأمر! لسوف يحاكم أمام محكمة ثورية وسوف يتم تنفيذ الحكم في الحال ، عبرة للآخرين! هل تدري... ـ وجعل يتكلم بنبرة أهدأ ، متفحصاً حشد الأسرى المتقدمين ـ هل تدري كم سبب من اراقة الدماء ؟ كم بحاراً ؟... كم عامل منجم قتل ؟ ـ ومرة اخرى قلب عينيه وقال متهتها مغضباً : ـ لن أتركه حياً!

ورفع غريغوري هو الآخر صوته وقال :

ـ ليس هناك ما يدعو إلى الصياح! ـ كان يرتعش في دخيلته كما لو كان بودتيلكوف قد عداه بسورته . وأضاف : ـ ان لديك العديد من القضاة هنا! اذهب اليهم اذاً! ـ وأشار إلى الوراء اتجاه ساحة المعركة ومنخراه يرتعشان ، وأردف : ـ هناك كثيرون من أمثالك يريدون تصفية الحساب مع الأسرى!

وابتعد بودتيلكوف ، وهو يشد قبضته على سوطه ، وصاح من بعيد :

ـ لقد كنت هناك! لا تحسب أنني أحتمي بهذه العربة لأنجو بجلدي . اغلق فمك أنت يا ميليخوف! مفهوم ؟ مع من تتكلم ؟ دعك من أساليب الضباط التي تتمسك بها! ان اللجنة الثورية هي التي ستحكم وليس أي...

واستدار غريغوري بحصانه نحوه ، وقفز من على سرجه ، ناسياً جرحه في هذه اللحظة . ولكنه انثنى على نفسه من شدة الألم وسقط على رأسه . وتدفق الدم من ساقه مبقبقاً . ونهض لوحده ، وجر نفسه على نحو ما إلى العربة ، وارتمى على النابض الخلفي .

وآنذاك قدم الأسرى . وانضم رجال الحرس إلى المراسلين والقوزاق الذين كانوا يقومون بحراسة القيادة . ولم تك نار المعركة قد خفتت بعد بينهما ، وتلامعت عيونهم بغضب وحدة فيما كانوا يتبادلون الآراء حول المعركة الأخيرة .

ومضى بودتيلكوف نحو الأسرى وهو يطأ الثلج العميق بقوة . وراح تشيرنتسوف الذي كان ما يزال يتقدمهم بعض المسافة ، يحدق فيه بعينيه القانطتين الصافيتين ، لقد ضاقتا ازدراء ، وكان يستند إلى الوراء على ساقه اليسرى دونما اكتراث ، ويعض شفته السفلى المتوردة بأسنان بيض قوية . وتقدم منه بودتيلكوف وجهاً لوجه وهو يختض بعنف ويحدق إلى أسفل في الثلج المحفر . ورفع عينيه ، فتلاحمت حملقته مع نظرة تشيرنتسوف المستخفة الجريئة ، فغمرتها بما تحمله من كراهية وحقد . وقال بصوت مختنق خفيض ، وهو يخطو خطوة إلى الوراء :

ـ اذاً فقد قبضنا عليك ، أيها الخنزير! ـ وخددت وجنتيه ابتسامة قاتمة مصعرة كما لو اصابته ضربة سيف . فاندفعت الكلمات من بين أسنان تشيرنتسوف كالبصاق :

ـ يا خائن القوزاق! يا كلب! يا غدار!

فهز بودتيلكوف رأسه وكأنه يتحاشى صفعة ، واحتقن وجهه ، وفغر فاه ناشداً الهواء .

وما تلا ذلك حدث بسرعة مدهشة . اندفع تشيرنتسوف نحو بودتيلكوف ، مكشراً عن أسنانه ، شاحب الوجه ، وقبضتاه مشدودتان إلى صدره ، وقد مال جسمه بكامله الى الأمام . وانهالت من شفتيه المرتعشتين كلمات مبهمة مصحوبة باللعنات . ولم يسمع سوى بودتيلكوف الذي جعل يتراجع إلى الوراء على مهل .

ثم رفع تشيرنتسوف صوته فجأة بحيث تناهت الكلمات إلى أسماع الأسرى والحراس وضباط الأركان :

ـ سيأتي دوركم... أنت تعرف ذلك!

فلهث بودتيلكوف بصوت مختنق ، متحسساً قبضة سيفه :

ـ أنت...

ثم خيّم صوت فجائي . وخشخش الثلج بصوت مسموع تحت أقدام مينابيف وكريفوشليكوف وقوزاق آخرين ألقوا بأنفسهم صوب بودتيلكوف . بيد أنه كان أسرع من أن يدركوه . فلقد استل سيفه من غمده وهو يستدير بكامل جسمه إلى اليمين مقرفصاً ، ثم ألقى بنفسه بقوة إلى الامام وأنزل السيف بضربة هائلة على رأس تشيرنتسوف .

ورأى غريغوري الضابط يرتعد ويرفع يده اليسرى ليتقي الضربة ، ورأى السيف يبتر معصمه كما لو كان ورقة ، ويهوي على رأسه المرتمي إلى الوراء . فسقطت قبعته المصنوعة من جلد الحمل ، أولاً ، ثم هوى تشيرنتسوف ببطء مثل ساق ذرة بتر من أسفله ، وقد التوى فمه بصورة شوهاء ، وأزورت عيناه ألماً ، وعلت وجهه تقطيبة وكأنه يواجه بريقاً .

وعندما هوى الضابط ، انقضّ عليه بودتيلكوف ثانية ، ثم استدار وابتعد عنه بخطوات مثاقلة متعبة ، وهو يمسح سيفه الملطخ بالدم . والتفت إلى الحراس وصاح بصوت مكدود وهو يتعثر بالعربة :

ـ اقتلوهم... اللعنة عليهم! عن بكرة أبيهم! نحن لا نأخذ أسرى! فالعداء للشعب راسخ في قلوبهم ، في دمائهم!

ولعلع الرصاص بشكل محموم . فاستدار الضباط وحاولوا الهرب بحشد متخبط متدافع . وجرى الملازم ذو العينين النسويتين الجميلتين والقلنسوة الحمراء ، ويداه مشدودتان إلى رأسه . وأصابته رصاصة فقفز عالياً وكأنه يروم طفر حاجز . ثم سقط ولم ينهض ثانية . وهوى قوزاقيان على الرئيس الطويل . فأمسك بحدي السيفين ، وتدفق الدم من يديه المجروحتين وسال على كمه . وجعل يصرخ مثل الطفل ، وسقط على ركبتيه ، ثم على ظهره ، ثم تدحرج رأسه على الثلج ، ولم يلح من وجهه سوى عينين ملتهبتين وفم أدكن

مزقته صرخة . وبقي السيفان المتطايران يعيثان بوجهه ، بفمه ، ولكنه ظل يزعق بصوت أوهنه الألم والفزع . ثم ركله قوزاقي آخر وقضى عليه برصاصة . وكاد التلميذ العسكري ذو الشعر الأجعد أن يفلت من الحلقة ، بيد أن واحداً من قوزاق الاتمان أدركه وهوى عليه . وسدد هذا الأخير اطلاقة إلى ظهر ضابط يعدو وسترته تتطاير في الهواء . فجثا الضابط وجعل يهرش صدره ، حتى قضى . وقتل في الحال ضابط رئيس أشهب العشر ، وحفر حفرة عميقة بقدميه في الثلج وهو يودع الحياة ، وكان بالامكان أن يستمر على رفسه كما يفعل حصان جامح مربوط ، لو لم يشفق عليه القوزاق ويضعوا حداً لألمه .

كان غريغوري قد جرجر نفسه من العربة ، حالما بدأت المجزرة ، وجعل يعرج بخفة نحو بودتيلكوف مسمراً عينيه الملتهبتين فيه . الآ أن مينايف طوقه من خلف ، ولوى ذراعيه ، واستل المسدس من يده ، وحملق في عينيه بنظرة بليدة ، وقال لاهثاً :

ـ وماذا كنت تتوقع ؟

١٣

كانت الهضبة المتشحة بالثلج ، والمتألقة في وهج الشمس وزرقة السماء الصاحية ، بيضاء تلتمع كالسكر . وعلى سفحها ترقد قرية متناثرة البيوت أشبه بلحاف مرقع . الي اليمين استقرت قرى صغيرة ومرابع زرقاء لجاليات ألمانية . والى الشرق نهض تل تمزقه الاخاديد . وفوق ناصيته سياج من أعمدة التلغراف . كان النهار صحواً زمهريراً على غير العادة . وأحاطت بالشمس سدائم قزحية الظلال . وكانت الريح تهب من الشمال ، وتثير غبار الثلج من السهب . ولكن المدى المكسو بالثلج كان واضحاً حتى الأفق ، خلا الشرق وحده ، حيث خيم ضباب بنفسجي فوق السهب عند التقاء التل بالسماء .

كان بانتلاي بروكوفتش قد شخص إلى ميليروفو ليصطحب غريغوري إلى القرية . لقد قرر أن لا يتوقف عند القرية ، بل يواصل مسيرته إلى كاشارا ليقضي الليلة فيها . كان قد انطلق من تاتارسكى بعد استلامه برقية من غريغوري ، فوجد ابنه بانتظاره في نزل . وكان غريغوري بعد أن جرح في غلوبوكايا ، قد أمضى أسبوعاً في عربة مستشفى ميدان مسافرة إلى ميليروفو . ثم قرر العودة إلى أهله عندما التأم جرح ساقه بعض الشيء . وقد قاد قوزاق القرية حصانه اليه . ذهب تتوزعه أحاسيس هي مزيج من التبرم والسرور : تبرم لأنه ترك كتيبته في أوج الكفاح من أجل السلطة في الدون ، وسرور لأنه سوف يرى أهله وقريته ثانية . وكتم اللهفة لرؤية أكسينيا حتى عن نفسه ، بيد أنه لم يكن بوسعه الا أن يفكر بها .

وقد داخله شعور بالغربة عند التقائه بأبيه . وكان بانتلاي بروكوفيتش (بعد الذي أسره به بيوتر) ينظر إلى غريغوري باكتئاب ، وقد نمت عيناه عن برم وقلق . وفي المساء ، وهما بالمحطة ، راح يستفهم بالتفصيل من غريغوري عن الاحداث الجارية في منطقة الدون ، ويبدو ان اجابات ابنه لم تقع في نفسه موقع الرضا . فجعل يلوك بلحيته التي دبّ فيها المشيب ، ويحدج في جزمته اللبادية ويزنخر . وقد أحجم في البداية عن الجدال ، غير أنه بدافع من حميته الغضبى في الدفاع عن كاليدين ، طلب من ابنه ان يغلق فمه كعادته في الأيام السالفة ، حتى أنه راح يضرب الأرض برجله العرجاء .

ـ لا تحاول أن تفرض علي آراءك! لقد جاء كاليدين إلى تاتارسكى في الخريف . وقد عقدنا اجتماعاً في الساحة ، واعتلى هو طاولة وراح يتكلم مع الشيوخ ، وكالانجيل تنبأ أن الفلاحين سيأتون وسوف تندلع الحرب ، وما لم نقرر ما ينبغي أن نفعله فسيجردوننا من كل شيء ويشرعون بالاقامة في أرضنا . وكان قد أدرك منذ ذلك الحين أن الحرب ستندلع . وماذا تقولون في ذلك يا أبناء العاهرات ؟ هل يعلم هو أقل مما تعلمون ؟ جنرال مثقف مثله ، وهو الذي قاد الجيش ، أتحسبون أنه يعلم أقل منكم ؟ ولكن الرجال في

كامينسكايا لغاطون غير مثقفين مثلك ، يبثون القلق بين الناس . وبودتيلكوفكم هذا! من هو ؟ رئيس عرفاء ؟ آها! رجل بمثل رتبتي . ذلك ما آل اليه أمرنا!

وراح غريغوري يناقشه دونما حماس . فقد كان يدرك مسبقاً موقف أبيه . وها قد برز في الأمر عنصر جديد : فلم يكن بوسعه أن ينسى موت تشيرنتسوف ومذبحة الضباط الأسرى دون محاكمة ، أو يغفر فعلة المتسببين .

كان الحصانان يجران الزحافة طوال الطريق بسهولة . وكان جواد غريغوري المسرج مربوطاً إلى الخلف . وكانت القرى والمرابع المألوفة لديه تطالعه طوال الطريق . وكان غريغوري طوال طريقه إلى قريته يفكر بلا ترابط ولا هدف في الأحداث الراهنة ، ويحاول جهده أن يشخص بعض معالم المستقبل . بيد أن ذهنه لم يشخص إلى ما هو أكثر من الاستجمام في البيت . « سأنعم ببعض الراحة عندما أعود ، ويكون جرحي قد التأم ، ومن ثم... » وقال وكأنه يهز كتفيه . « سوف نرى ، فالزمن كفيل بإجلاء الأمور » .

كانت الهموم التي سببتها الحرب قد سحقته . وود لو يدير ظهره إلى العالم الكريه الذي استعصى عليه فهمه . كان كل شيء مضى معقداً متناقضاً . وكان من العسير تبين السبيل السوي ، فقد مادت الأرض تحت قدميه وكأنه واقف في مستنقع ، وتشعب الطريق أمامه مسالك شتى وزايله الاحساس بالثقة من أنه قد اختار السبيل السوي . وكان قد مال إلى جانب البلاشفة ، وجر آخرين وراءه ، ثم ما لبثت رغبته أن فترت ، وسرت البرودة إلى قلبه . « ترى هل كان أزفارين على صواب اذاً ؟ ومن عسانا نثق به ؟ » . ولكنه عندما فكر أنه سرعان ما سيحين الوقت لاستعمال المجاريف والعربات في الربيع ، ونسج معالف الصفصاف ، وحينما تكون الارض جرداء وجافة سيكون بوسعه أن ينطلق إلى السهب ، وتمسك يداه الملهوفتان إلى العمل بقبضة المحراث ، ويشعر به ينبض ويرتج كشيء حي ، عندما تذكر أنه سيتنسم عما قريب

الشذى العبق للعشب النامي والتربة ذات الشميم الندي التي عزقتها سكة المحراث والتي ما تزال تفوح منها رائحة الثلج الذائب ، غمر قلبه الدفء . وتاق إلى تنظيف زريبة الماشية ، وتجميع القش ، واستياف شميم نبات البرسيم الذابل ، وحشيش الأرائك ، ورائحة الروث الحريفة . وأحس برغبة إلى السلام والدعة ، وهكذا أعربت عيناه القاسيتان عن سرور خفي عندما تطلع إلى السهب ، والجياد ، والى ظهر أبيه . وذكره كل ذلك بحياته السابقة التي يكاد يلفها النسيان : الرائحة المنبعثة من فروة أبيه ، المظهر الأليف للحصانين غير المحسوسين ، وصياح ديك في مزرعة . لقد بدت الحياة هنا ، في هذا المنتجع ، حلوة وثرة تبعث في النفس الخدر .

بلغا تاتارسكى وشيك المساء في اليوم التالي . وراح غريغوري يتطلع إلى الدون من التل : هناك كانت الغياض تلفها فروة قاتمة من القصب ، وهناك كانت أشجار الحور الذابلة ، غير أن المعبر على الدون لم يعد حيث كان بالأمس . القرية ، الحقول وبيوتها ، الكنيسة ، الساحة... وحينما ثبت عينيه على منزله اندفع الدم إلى رأسه ، وغمره طوفان من الذكريات . ولاحت مغرفة البئر في الفناء كأنها تومىء اليه بذراعها المرفوعة المصنوعة من الصفصاف :

وقال له بانتلاي مبتسماً وهو يلتفت اليه :

ـ ألا تتوجع عيناك لهذا المنظر ؟

فأجاب غريغوري دون أن يحاول إخفاء مشاعره :

ـ بلى... وأي توجع!

وتنهد العجوز يملؤه شعور الرضا وقال :

ـ ما أحب البيت في عين صاحبه!

ويمم سيره إلى وسط القرية . وجرى الحصانان بخفة حدر التل ، وانزلقت الزحافة على الطريق ، تتواثب من عثرة إلى عثرة . وعلى الرغم من أن غريغوري قد فطن إلى قصد أبيه ، الا أنه بادره بالسؤال :

ـ علام تسوق خلال القرية ؟ اتجه شطر شارعك .

فالتفت بانتلاي بعينه وقال مبتسماً خلل لحيته :

ـ شهدتُ ابني الاثنين يذهبان إلى الحرب كقوزاق أنفار ، ولكنهما شقا طريقهما إلى مراتب الضباط . ألا تعتقد أن من حقي أن أفخر بالمرور بابني خلال القرية ؟ فلينظروا وليملأهم الحسد! انه بلسم لفؤادي يا ولدي .

وفي الشارع الرئيسي صاح بالحصانين ، ومال بجسمه إلى خارج العربة وهوى بسوطه على خاصرتيهما ، واذ أدرك الحصانان أنهما صارا قريبين من البيت ، جريا بخفة وحيوية كأن المئة والأربعين فرسخاً التي قطعاها لم تنل منهما شيئاً . وانحنى لهما المارة من القوزاق ، وجعلت النسوة يحدقن من تحت راحات أيديهن من الأفنية والنوافذ ، وتفرق الدجاج يقوقي في الطريق . وجرى كل شيء على ما يرام .

وشقا طريقهما خلل الساحة . وتطلع جواد غريغوري بنظرة جانبية إلى حصان آخر مربوط إلى سياج موخوف ، فزنخر ، وشمخ برأسه . ولاح لهما منظر أقصى القرية وسقف منزل استاخوف . الا أن حادثاً ما قد وقع لهما في أول ملتقى طريق . اذ ان خنزيراً صغيراً كان يجري عبر الطريق ، فقد صوابه ووقع تحت حوافر الحصانين ، وتدحرج ، وجعل يقبع ويزحر محاولاً النهوض بظهره الكسير . فصاح بانتلاي بروكوفيتش وهو يذيق الخنزير طعم سوطه :

ـ فليأخذك الشيطان!

وكان الخنزير لسوء الحظ ملك أنيوتكا أرملة افونكا أوزيرف ، وهي امرأة شكسة اللسان . فهرعت من حوشها وراحت تصب سيلاً من اللعنات جعلت بانتلاي بروكوفيتش يكبح بالحصانين ويستدير في مقعده . ثم صاح :

ـ امسكي لسانك أيتها الحمقاء! فيم زعيقك ؟ سوف نعوضك عن خنزيرك الأجرب .

فراحت تصرخ ملوحة بيديها :

ـ أنتَ يا روح الشر!... أيها الشيطان! أنت نفسك الأجرب . أنت أيها السلوقي الأعرج! لسوف أشتكي عليك عند الأتمان في الحال! وسوف أعلمك

كيف تسحق حيوان أرملة مسكينة!

وإذ سمع بانتلاي بروكوفيتش ما فيه الكفاية ، نق وقد استحال لونه أزرق :

ـ يا لفمك القذر!

فردّت عليه المرأة بعنف :

ـ أيها التركي اللعين!

ورفع بانتلاي صوته : ـ أيتها العاهرة ، يا ابنة مئة شيطانة!

ولكن أنيوتكا أوزيروفا لم تكن أبداً لتعوزها سلاطة اللسان . فجعلت تغوق مثل العقعق :

ـ أجنبي! قواد! لص! من سرق مجرفة ؟ من يسعى وراء المغيبات ؟*

ورد عليها العجوز :

ـ سألقنك درساً بهذا السوط ، أيتها المومس! اغلقي فمك!

ولكن أنيوتكا نطقت بشيء بلغ من البذاءة درجة جعلت بانتلاي بروكوفيتش الذي رأى وسمع الكثير في حياته ، يحمر من الحرج ، وراح العرق يتصبب منه .

ـ امضِ! لماذا تكلمها ؟ ـ قال غريغوري ذلك مغضباً حين شرع حشد يتجمع وينصت باهتمام إلى هذا التبادل العارض بالتحايا بين ميليخوف العجوز والأرملة الشريفة أوزيروفا .

فقال بانتلاي بروكوفيتش :

ـ يا له من لسان! يطول بزوج من الأعنة! ـ وبصق بانخذال ، ولفح الحصانين بالسوط وكأنه يسعى لدهس أنيوتكا أيضاً .

وعندما بلغا المنعطف التالي التفت حوله بحذر ، وقال بألم :

ـ ما أقذع شتائمها... أية شيطانة! فلتنتفخي وتنفجري ، أيتها القحبة

---

* الزوجات اللواتي يغيب أزواجهن . المترجمون

السمينة! كان ينبغي أن تسحق كما سحق خنزيرها! ان هذه القحبة تستطيع أن تسلخ لحمك من عظمك بلسانها!

وأخذت صفاقات منزلهم الزرق تدنو منهما بسرعة . وفتح البوابة بيوتر حاسر الرأس مرتدياً ثوباً بلا حزام . ولاح وميض لعصابة بيضاء ، ثم هرعت دونيا تنزل الدرجات متألقة العينين :

وقبّل بيوتر أخاه وتطلع إلى عيني غريغوري :

ـ هل أنت سالم غانم ؟

ـ أصبت بجرح .

ـ أين ؟

ـ قرب غلوبوكايا .

ـ أي حاجة لوجودك هناك ؟ كان ينبغي أن تعود إلى البيت منذ زمن .

وصافح غريغوري بحرارة وود ، ثم سلّمه إلى دونيا . فطوق غريغوري كتفي أخته المكتملين وقبلها من شفتيها وعينيها ، ثم خطا إلى الوراء مندهشاً .

ـ عجباً ، دونيا ، الشيطان نفسه ما كان يستطيع أن يتعرف عليك ؟! أي فتاة غدوتِ ، كنت أحسب أنك ستكونين دميمة قبيحة .

وهم بأن يقرصها غير أن دونيا حالت دون ذلك بقولها :

ـ حذار ، حذار ، ياأخي! ـ وجرت بعيداً وهي تبتسم مثل ابتسامة غريغوري التي تتكشف عن أسنان ناصعة .

وجاءت ايلينشنا بالطفلين تحملهما على ذراعيها ، وهرعت ناتاليا تجري أمامها . كانت زوجة غريغوري قد تفتحت وحسنت بصورة مدهشة . وكان شعرها الأسود البراق الذي سواه المشط ناعماً ، والتأم في عقصة كبيرة من الخلف ، قد زين وجهها المتورد الفرح . والتصقت بغريغوري وجعلت تتمسح بشفتيها على وجنتيه وعذاريه عدة مرات بارتباك ، ونتشت ابنها من ذراعي ايلينشنا ، ورفعته أمام زوجها . وقالت بزهو وسرور :

ـ انظر أي ولد لطيف لديك!

ودفعتها ايلينشنا جانباً بانفعال :

ـ دعيني ألقي نظرة على ولدي أنا!

وأمسكت برأس غريغوري ، وقبلت جبينه ، ومسّدت وجهه بيدها الخشنة ، وهي تبكي من شدة الانفعال والفرح .

ـ وهذه بنتك يا غريشا! هاك خذها!

ووضعت ناتاليا البنت المتدثرة بشال في ذراع غريغوري الأخرى ، ولم يدر من شدة انفعاله إلى أيهم ينظر : ناتاليا ، أو أمه ، أم طفليه . وكان الطفل بعينيه الشكستين وحاجبيه الأجعدين ، قد صب في قالب آل ميليخوف : نفس العينين المستطيلتين السوداوين ، بله الحزينتين ، والبياضين الجاحظين الأزرقين ، وخط الحاجبين العريض ، والبشرة السمراء . ودس بكفه الصغيرة المتسخة في فمه وحدج أباه بعناد ونفور . ولم ير غريغوري سوى عيني ابنته الصغيرتين السوداوين اليقظتين ، فقد كانت بقية وجهها ملفعة بشال .

وخطا نحو الدرجات وهو يحملهما على ذراعيه ، بيد أن حرقة ألم سرت في ساقه . وتبسم بزهو وخجل وقال :

ـ خذيهما يا ناتاليا ، والا عجزت عن ارتقاء الدرجات .

كانت داريا واقفة وسط المطبخ ، تصفف شعرها ، ثم تبسمت وتقدمت نحو غريغوري متبخترة ، وأغمضت عينيها الضاحكتين وضغطت شفتيها النديتين الدافئتين على شفتيه :

ورفعت قوسي حاجبيها النحيفين بمجون وقالت :

ـ ان في مذاقك طعم التبغ!

ـ دعني ألقي نظرة أخرى عليك ، يا حبيبي ، يا ولدي!

فتبسم غريغوري وجعل قلبه يخزه عندما وضع خده على كتف أمه .

وفي الفناء كان بانتلاي بروكوفيتش بقبعته المجللة بالأحمر وحزامه الأحمر يعرج حول الزحافة ، ويفك عدة الجوادين . وكان بيوتر قد قاد جواد

غريغوري إلى الاسطبل ، وحمل سرجه إلى البيت . وطفق يقول شيئاً لدونيا التي رفعت صفيحة برافين من الزحافة .

خلع غريغوري فروته ومعطفه وعلقهما على حافة السرير ، ثم مشط شعره وجلس على مصطبة ونادى ولده :

ـ تعالَ اليَّ يا ميشا! ماذا ، ألست تعرفني ؟

فراح الطفل يحجل اتجاهه وكفه ما تزال في فمه ، ولكنه توقف عند المائدة . وتطلعت أمه اليه بزهو ووله وهي ازاء الموقد . وانحنت وهمست بشيء في أذن ابنتها ، ودفعتها برفق إلى الأمام :

ـ اذهبي!

ورفعهما غريغوري سوية ، وأجلسهما على ركبتيه وجعل يخاطبهما :

ـ ألا تعرفانني أيتها البندقتان ؟ بوليا ، ألا تعرفين أباك ؟

فقال الولد وقد شعر بمزيد من الثقة لوجود أخته معه :

ـ أنت لست أبانا .

ـ من أنا اذاً ؟

ـ واحد من القوزاق .

فأطلق غريغوري ضحكة عالية :

ـ هكذا اذاً! فأين هو أبوكما ؟

فقالت البنت في ثقة :

ـ انه في الجيش .

كانت أنشط الاثنين . وتدخلت ايلينشنا متصنعة الغضب ، وهي تبتسم لغريغوري :

ـ هذا صحيح أيها الطفلان ، لقناه درساً ، فقد كان بعيداً طوال هذه السنوات الثلاث ويظن الآن أن كل شخص ينبغي أن يعرفه بعد أن عاد آخر الأمر إلى البيت! حتى زوجتك سوف تهجرك عما قريب! فقد كنا نبحث عن رجل لها!

والتفت غريغوري إلى زوجته وقال مازحاً :

ـ ما معنى هذا يا ناتاليا ؟

فاحمرت وجنتاها خجلاً ، ولكنها سيطرت على ارتباكها ، وتقدمت نحوه وجلست إلى جانبه . وجعلت تتشربه بعينيها الطافحتين بالسعادة ، وتمسد ذراعه الجافة السمراء بيدها الخشنة الدافئة .

قالت ايلينشنا :

ـ داريا ، أعدي المائدة!

فضحكت داريا واستدارت على طريقتها الممراحة تجاه الموقد وقالت :

ـ ان له زوجة!

لقد كانت كعهدها رشيقة أنيقة . كان جورباها الصوفيان البنفسجيان ملتصقين بشدة على ساقيها الجميلتين ، وكان حذاؤها يلائم قدميها وكأنهما قد صنعا له . وكانت تنورتها ذات الكشكش ، الحمراء بلون توت العليق يشدها زنار ضيق ، وصدريتها مطرزة ناصعة البياض . وحول غريغوري عينيه إلى زوجته ، ولاحظ انها قد تغيرت بعض الشيء . لقد زينت نفسها بمناسبة عودته إلى البيت : بلوزة من الساتان الازرق بكمين من الدانتيلا مشدودين عند المعصمين أبرزت جمال قوامها وارتفعت فوق ثدييها الكبيرين اللدنين ، وتنورة زرقاء ذات حاشية مطرزة مجعدة تشد على خصرها . وتطلع غريغوري إلى ساقيها الجميلتين المكتنزتين ، وبطنها المشدود وعجيزتها الكبيرة ، وكأنها عجيزة فرس موفورة الغذاء ، وقال في نفسه : « بوسع المرء أن يتبين القوزاقية من بين مئات النساء . فهي ترتدي الملابس لتظهر كل شيء ولسان حالها يقول : « انظر اذا شئت ، والا فلا! » ولكنك لا تستطيع أن تتبين الخلف من القدام للمرأة الفلاحة ، انها تبدو كما لو ارتدت كيساً... » .

فأحست ايلينشنا بنظرته ، وقالت مباهية :

ـ انظر كيف ترتدي زوجات الضباط بيننا نحن القوزاق! انهن يستطعن أن يضاهين نساء المدينة!

فقاطعتها داريا :

ـ كيف تستطيعين أن تقولي ذلك يا أمي ؟ أين نحن من بنات المدينة جمالاً! أنا نادمة على أن أحد قرطي مكسور ، رغم انهما لا قيمة لهما ، ـ قالت كلماتها الأخيرة بمرارة .

وضع غريغوري ذراعه على ظهر زوجته العريض وقال لنفسه لأول مرة : «انها لجميلة ، وبوسع كل انسان أن يرى ذلك . فكيف كانت تعيش بدوني ؟ أحسب أن القوزاق كانوا يجرون وراءها وربما جرت هي وراء واحد منهم . هب أنها فعلت ذلك!» . وعند هذه الفكرة غير المتوقعة وجب قلبه بعنف ، وأخذ يمعن النظر في وجهها المتورد ، الذي يشع بدهان الخيار نضارة ، فتوردت وجنتا ناتاليا تحت نظرته المتفحصة ، وهمست وهي تكبت خجلها :

ـ فيم تنظر اليَّ هكذا ؟ أكنت مشتاقاً اليَّ ؟

ـ ماذا ، بالطبع!

وطرد عن ذهنه خاطرته المزعجة ، ولكنه أحس لحظة بعداء غامض لزوجته لا يكاد يعي معناه .

ودخل بنانتلاي بروكوفيتش يتنحنح ، ورسم اشارة الصليب أمام الايقونة ، وقال وكأنه يقوقيء :

ـ حسناً ، أتمنى لكم مرة أخرى صحة طيبة!

فقالت ايلينشنا وهي تحدث جلبة بالملاعق :

ـ لله الحمد يا رجل! هل تجمدت أوصالك ؟ لقد كنا بانتظارك . والحساء دافئ .

وفك المنديل الأحمر من رقبته وهو يدبدب بجزمتيه اللباديتين ، ثم نزع فروته ، ونفض قطرات الماء المتجمدة على لحيته وعذاريه ، وجلس جوار غريغوري وقال :

ـ لقد تجمدت بكليتي ، ولكننا كنا دافئين بما فيه الكفاية عند مرورنا بالقرية . فقد دهسنا خنزير أنيوتكا أوزيروفا . أمّا كيف جاءت تركض ، تلك

العاهرة! كيف راحت تعربد! « سألقنك درساً » و« أنت كيت وكيت وكذا » و« أنت سرقت مجرفاً! » . الشيطان يعرف أي مجرف ؟!

ذكر كل الصفات التي أطلقتها عليه أنيوتكا ، مغفلاً اشارتها إلى كلمة « قواد » فقط . فضحك غريغوري وجلس أمام المائدة . وأنهى بانتلاي بروكوفيتش كلامه بحدة ليبرر موقفه في نظر ابنه :

ـ لولا أن غريغوري كان معي لأذقتها طعم السوط ، فلم يكن ذلك بالظرف المناسب .

وفتح بيوتر الباب ودخلت دونيا تقود عجلاً لطيفاً بمقود . وهتف بيوتر وهو يدفع العجل برجله مغتبطاً :

ـ سوف نتناول فطائر بالقشطة في عيد الباعوثة .

وبعد العشاء ، فتح غريغوري حقيبته العسكرية وراح يوزع .

ـ هذا لك يا أمي ، ـ قال ذلك وهو يقدم لها شالاً دافئاً .

فتناولت ايلينشنا الشال ونشرته على كتفيها منفعلة متوردة الوجنتين مثل الفتيات الشابات . وأمضت وقتاً طويلا تزهو بنفسها أمام المرآة حتى أن بانتلاي بروكوفيتش ثارت حفيظته فصاح :

ـ أيتها الحيزبون الشمطاء ، تختالين أمام المرآة! باه!

ـ وهذه لك يا أبتي ، ـ قال غريغوري متعجلاً ، وهو يزيح الغلاف عن قبعة قوزاقية جيدة ذات جبهة عالية وشريط أحمر متوهج .

فأجابه بلهجة متذمرة ناظراً حوله كأنه يخشى أن يأخذ أحدهم هدية ابنه :

ـ أطال الله عمرك! لقد كنت بحاجة إلى قبعة جديدة . ولم يوجد أي منها في الحانوت طوال العام الفائت ، ولم يطب لي الذهاب إلى الكنيسة بقبعتي القديمة . فهي لا تصلح الا فزاعة للغربان ، ولكنني واظبت على ارتدائها .

واستدار ليذهب أمام المرآة ليرى كيف تبدو عليه ، غير أنه لمح عيني ايلينشنا ، فدار فجأة على عقبيه وراح يعرج تجاه السماور . ووقف أمامه

ليجرب قبعته ، حانياً قمتها بحبور إلى أحد الجانبين . فالتفتت اليه ايلينشنا :
ـ ماذا تفعل هناك أيها الأحمق العجوز ؟
فرد عليها بانتلاي :
ـ يا الهي ، أية امرأة حمقاء أنت! ان هذا سماور ، وليس مرآة .
ثم قدم غريغوري لزوجته قطعة من القماش الصوفي تصلح تنورة ، وتلقى طفلاه أوقية من بسكويت العسل ، وداريا زوجاً من الأقراط الفضية ، ودونيا شيئاً يصلح كبلوز ، وبيوتر سكاير وتبغاً ، وفيما راحت النسوة يثرثرن حول هداياهن ، تخطر بانتلاي في المطبخ كأنه أمير رافع صدره .
ـ هاك قوزاقياً رائعاً من كتيبة الحرس! نال جوائز أيضاً! نال الجائزة الأولى في الاستعراض الامبراطوري . سرجاً بجميع معداته! هوذا أنا!...
ونظر بيوتر وهو يقضم شاربيه القمحيين إلى أبيه باعجاب . وتبسم غريغوري ، ثم أشعل الرجال السكاير ، وقال له بانتلاي وهو ينظر خلال النافذة بقلق :
ـ قص على بيوتر ماذا يحدث هناك ، قبل أن يشرع الاقارب والجيران بالمجيء .
فلوح غريغوري بيده :
ـ انهم يتقاتلون .
فسأله بيوتر في الحال وهو يعتدل في جلسته :
ـ أين هم البلاشفة الآن ؟
ـ قادمون من ثلاثة اتجاهات ، من تيخوريتسكايا ، ومن تاغانروغ ، ومن فورونيج .
ـ حسناً ، وما هو موقف لجنتك الثورية من ذلك ؟ لماذا يدعونهم يأتون إلى ديارنا ؟ لقد عاد خريستونيا واليكسييفتش وقصا لنا مختلف أفانين اللغو ، ولكنني لا أصدقهما . ان الأمر على غير ما يقولان .
ـ ان اللجنة الثورية لا حول لها . والقوزاق يفرّون إلى أهليهم .

ـ وهذا هو سبب جنوح الوضع إلى جانب السوفييت ؟

ـ بلا شك .

ولاذ بيوتر بالصمت فيما نفخ على سيكارته ، ثم ألقى نظرة صريحة على أخيه :

ـ والى أي جانب تقف أنت ؟

ـ انني أنشد حكومة سوفيتية .

فانفجر بانتلاي بروكوفيتش مثل البارود :

ـ الأحمق! أفهمه أنت يا بيوتر!

فابتسم بيوتر وربت على كتف أخيه ، وقال :

ـ انه جامح مثل حصان غير مذلّل . هن يستطيع أحد أن يفهمه ، يا أبتي ؟

فاستبد الغضب بغريغوري :

ـ ليس هناك من شيء يقال لي! فأنا لست أعمى . ترى ماذا يقول رجال الجبهة في القرية ؟

ـ ما شأن رجال الجبهة معنا ؟ ألم تدرك إلى الآن مدى حماقة خريستونيا ؟ ماذا عساه يفهم ؟ ان الناس جميعهم تائهون ، ولا يدرون أي سبيل يسلكون . ـ وعض بيوتر شاربه وأردف : ـ انتظر لترى ماذا سيحدث في الربيع ، أي حينما تبدأ المشاكل... في الجبهة لعبنا دور البلاشفة ، أما الآن فقد حان الوقت للرجوع إلى صوابنا . «اننا لا نبتغي الاستيلاء على ما يخص الآخرين ، ولكن عليكم ألا تمستوا ما يخصنا » ـ ذلك ما يتعين على القوزاق أن يقولوه لكل من يأتي إلى هنا للنهب . ان ما يحدث في كامينسكايا لهو عمل شنيع . لقد فتحوا قلوبهم للبلاشفة وسوف يقتبسون نظامهم .

وقال أبوه :

ـ أعد النظر يا غريغوري . أنت لست أحمق! ويجب أن تفهم هذا : القوزاقي هو قوزاقي دائماً . اننا لن نرضى بأن تحكمنا زمرة من الفلاحين

الروس الحقيرين . وهل تدري ماذا يقول الغرباء الآن ؟ يجب ان توزع الأرض كلها سواسية بين الجميع . فماذا تقول في هذا ؟

ـ سنعطي أرضاً لأولئك الغرباء الذين كانوا يعيشون في الدون منذ سنين .

ففرقع بانتلاي بروكوفيتش اصبعيه تحت أنف غريغوري المعقوف بصوت مرتفع وقال :

ـ ولا بوصة!

كان ثمة وقع خطوات على الدرجات في الخارج ، ثم دخل أنيكوشكا ، وخريستونيا ، وايفان توميلين مرتدين قبعات من جلد الأرانب طويلة بصورة مضحكة . وهدر خريستونيا :

ـ مرحباً يا غريغوري! ما رأيك يا بانتلاي بروكوفتش بشراب لنحتفل بقدومه ؟

فجفل العجل الوسنان عند الموقد على أثر صيحته ، وجعل يترنح على سيقانه التي مازالت واهنة وينظر بعينين سوداوين مرتبكتين إلى القادمين . وقذف لشدة فزعه شريطاً من البول على الأرض . فأوقفته دونيا بربتة على ظهره ، ومسحت البركة ووضعت اناء قذراً تحت الحيوان . وقالت ايلينشنا مغضبة :

ـ لقد أفزعت العجل ، أيها الطبل!

وصافح غريغوري القوزاق ودعاهم إلى الجلوس . وسرعان ما وفد قوزاق آخرون من طرف القرية الآخر . كانوا يدخنون كثيراً أثناء حديثهم بحيث أن المصباح بدأ يخفق والعجل يختنق .

ولعنت ايلينشنا الضيوف وهي تطردهم في منتصف الليل :

ـ لتصبكم الحمى! اذهبوا إلى الفناء ودخنوا يا مداخن! انقشعوا ، انقشعوا! فلم يذق ولدنا غريغوري طعم الراحة حتى الآن منذ سفرته . انقشعوا بحق الله!

١٤

كان غريغوري آخر من استيقظ في الصباح التالي . لقد أيقظته زقزقة العصافير ، وكأنها في عز الربيع على الأفاريز وخارج أطر النوافذ . وانسرب ضوء الشمس الذهبي خلل خصاص الصفاقات الخشبية . وكان ناقوس الكنيسة يدق لصلاة الصبح ، فتذكر أنه يوم الأحد . ولم تكن ناتاليا بجانبه ، بيد أن الفراش الريش ما يزال يحتفظ بحرارة جسدها . فلا بد أنها استيقظت قبل قليل . فناداها :

ـ ناتاليا!

فدخلت دونيا :

ـ ماذا تريد يا أخي ؟

ـ افتحي النافذة ونادي ناتاليا . ماذا تفعل ؟

ـ انها تساعد أمي . سوف تأتي بعد قليل .

ودلفت ناتاليا وهي تضيق حدقتي عينيها جراء ضوء الغرفة . وفاحت من يديها رائحة العجين الطازج . فطوقها دون أن ينهض ، وضحك عندما تذكر الليلة .

ـ هل تأخرت في النوم ؟

وتبسمت وتوردت وجنتاها وهي تخفي رأسها في صدر غريغوري وقالت :

ـ آه ـ هه! لقد استنزفت الليلة... قواي .

وساعدته في تضميد جرحه ، ثم أخرجت خير بناطيله من الصندوق وقالت :

ـ هل سترتدي قمصلة الضباط مع الأوسمة ؟

فقال لها جزعاً :

ـ كلا ، لماذا ؟

ولكنها أصرّت :

ـ البسها بالله عليك! ان الوالد سيسر بذلك . لماذا نلتها اذا كنت ستتركها في الصندوق ؟

ورضخ إلى توسّلاتها . ونهض ، واستعار موسى الحلاقة من أخيه ، وحلق ، ثم غسل وجهه ورقبته . سأله بيوتر :

ـ هل حلقت قفا رقبتك ؟

ـ أوه ، اللعنة على الشيطان! لقد نسيت!

ـ حسناً ، اجلس وسوف أقوم بذلك .

وكوت رغوة الصابون الباردة رقبته . ورأى في المرآة أخاه يعمل بالموسى ولسانه متهدل من احدى زاويتي فمه كما هو الحال في طفولته .

قال بيوتر مبتسماً :

ـ رقبتك هزلت ، مثل ثور بعد الحراثة .

ـ لن تتوقع أن يسمن المرء من زقوم الجيش .

ارتدى غريغوري قمصلته بشارات النائب الضابط وصف حاشد بالأوسمة ، وعندما تطلع في المرآة المضببة لم يتبين نفسه الا بصعوبة : كان الذي يطالعه ضابط نحيل طويل ، أسمر كالغجري .

فقال له بيوتر بانشراح دون أن يظهر أدنى أثر من الحسد في صوته وهو يتأمل أخاه اعجاباً :

ـ لكأنك عقيد!

فأطربت الكلمات غريغوري بالرغم منه ، ومضى شطر المطبخ ، وتطلعت إليه داريا معجبة ، فيما هتفت دونيا :

ـ بفو! كم تبدو عظيماً!

وهنا لم تقو ايلينشنا على حبس دموعها . فأجابت على مزاح دونيا وهي تمسح دموعها بستار متسخ :

ـ هل لديك أولاد مثله ، يا سفيهة! ان لديّ ولدين وقد شقا طريقهما في الحياة .

أما ناتاليا فلم تحول عينيها النديتين المولهتين عن زوجها اطلاقاً . ورمى غريغوري معطفه على كتفيه وخرج إلى الفناء . ولاقى صعوبة في النزول على الدرجات بسبب ساقه الجريحة . « سأضطر إلى استعمال العصا » . قال ذلك في دخيلته وهو يتشبث بالحاجز . لقد أخرجت الرصاصة في ميليروفو ، غير أن فتحة الجرح قد قلصت الجلد كثيراً فلم يكن بمقدوره أن يثني ساقه بصورة طبعيية .

كانت القطة تتشمس على افريز جدار البيت . وكان الثلج يذوب فيتجمع ماؤه عند الدرجات . وأخذ غريغوري يجيل بصره حول الفناء بتمعن وحبور . فعند الدرجات تماماً يستوي عمود ثبتت في قمته عجلة . لقد كان هناك مذ كان طفلاً ، كانت النسوة يستعملنه . في المساء كن يقفن في أعلى الدرجات ويضعن أواني الحليب عليه ، وأثناء النهار القدور والآنية المنزلية لتجف . ولفتت نظره بعض التغييرات في الفناء : لقد طلي باب مخزن الحبوب بالطين الأحمر بدلاً من الدهان ، وأعيد تسقيف السقيفة بقش الجويدار وهو لما يزل أصفر بعد ، وبدت كومة الأوتاد أصغر من عهده بها ، ولربما استعمل بعضها في اصلاح السياج . وعلا قبو المؤونة الأرضي رماد أزرق ، وكان ثمة ديك أسخم كالزاغ تحيط به عدة دجاجات صغيرات واقفاً فوقه رافعاً احدى ساقيه وكأنه بردان . واستقرت أدوات الحقل تحت السقيفة بمنجى من جو الشتاء ، وقد برزت الأطر الجانبية للعربات مثل الأضلاع والتمعت بعض الأجزاء المعدنية للالة الحاصدة في أشعة الشمس التي انسلت خلل ثقب في السقف . وكان ثمة أوز مقرفص على كومة من الروث حذاء الاسطبل ، وقد شزر ذكر أوز هولندي ذو عرف ، غريغوري بكبرياء عندما مر يعرج .

وبعد ان تفرّج على كل هذه الثروات عاد إلى المنزل ، وفاحت من المطبخ رائحة طيبة من الزبدة الساخنة والخبز الحار . كانت دونيا تنظف بعض التفاح المخلل على صفيحة مزخرفة فألقى نظرة عليه وسألها بلهفة مفاجئة :

ـ هل من بطيخ مملح ؟

فقالت ايلينشنا منادية :

- انزلي يا ناتاليا وأتي له بشيء منه .

وعاد بانتلاي بروكوفيتش من الكنيسة . وقسم الرقاقة تسعة أقسام (وقد ترك القسم الناقص في الكنيسة) ، لكل فرد من أفراد العائلة ، ووزعها على المائدة . ثم جلسوا يفطرون . وكان بيوتر هو الآخر قد تأنق لهذه المناسبة ، وقد دهن شاربيه بشيء ما ، وجلس جوار غريغوري ، وقبالتهما جلست داريا توازن نفسها على حافة مقعد . وقد انسكبت على وجهها الوردي المتألق حزمة من أشعة الشمس ، فضيقت حدقتي عينيها وخفضت بامتعاض القوسين الأسودين لحاجبيها المشعين . وأطعمت ناتاليا الطفلين قرعاً مشوياً ، وهي تبتسم بين الحين والآخر كلما تطلعت إلى غريغوري . وجلست دونيا إلى جانب أبيها ، بينما اتخذت ايلينشنا مقعدها في آخر المائدة قرب الموقد .

تناولوا وجبة شهية كعهدهم أيام الأعياد . وقد أعقبت حساء الكرنب مع لحم الضأن ، شعرية من صنع البيت ، ثم تلا ذلك لحم الضأن ، ودجاجة ، ومرق كراع الخروف ، وبطاطا مقلية ، وعصيدة ذرة بالزبدة ، وشعرية بالكرز المجفف ، وفطائر بالقشطة الخاثرة ، وبطيخ مملح . ولم ينهض غريغوري بعد هذه الوجبة الثقيلة الا بصعوبة . فاستلقى على السرير بعد ان رسم اشارة الصليب وهو يتنفس بمشقة . ولم يزل بانتلاي منكباً على عصيدته ، وقد عمل فيها حفرة بعد أن سطحها ، وكانوا يسمونها «بالبئر» ، وصب الزبدة السائلة المضمخة بالعنبر فيها ، ثم طفق يتناول العصيدة الدسمة بملاعق متتالية . وجلس بيوتر الذي يحب الأطفال كثيراً ، يطعم ميشا ملاطفاً إياه ويلطخ وجنتي الطفل وأنفه باللبن الحامض .

- لا تكن سخيفاً يا عم!

- لم لا ؟

- لماذا تفعل ذلك ؟

ـ لِمَ لا ؟

ـ سأخبر أمي .

ـ ولِمَ ؟

والتمعت عينا ميشا الميليخوفيتان الشكستان بغضب وترقرق الدمع فيهما من الغيظ . ومسح أنفه بكفه وجعل يصرخ وقد يئس من إقناع بيوتر بالكلام اللطيف :

ـ لا تفعل ذلك ، يا غبي! يا أحمق!

ولم يكن من بيوتر إلا أن انفجر ضاحكاً ، ومضى يطعم ابن أخيه من جديد ، ويدس ملء ملعقة تارة في فمه وأخرى في أنفه . فاعترضته ايلينشنا قائلة :

ـ أنت أشبه بالطفل!

وجلست دونيا إلى جانب غريغوري وقالت له :

ـ إن بيوتر ما هو إلا أحمق كبير ليس إلا! إنه يسعى دائماً وراء ألاعيب جديدة . قبل أيام خرج مع ميشا إلى الفناء ، وكان الولد يلح على الخروج ، فسأله : « عمي ، هل بإمكاني أن أتبول عند الدرجات ؟ » ولكن بيوتر قال له : « كلا ، يجب ألا تفعل ذلك . اذهب أبعد منها بقليل » فجرى ميشا بعض المسافة وقال « هنا ؟ » . « كلا ، كلا ، اجر إلى مخزن الحبوب » . ومن مخزن الحبوب أرسله إلى الاسطبل ، ومن الاسطبل إلى ساحة درس الحبوب . لقد ترك الولد المسكين يجري ويجري حتى فعلها في سرواله . ولم يكن من ناتاليا إلى أن تنقض عليه!

ورنّ صوت ميشا الناعم مثل الجرس :

ـ دعني أطعم نفسي!

فرفض ذلك بيوتر بحركة مازحة من عذاريه :

ـ أوه كلا ، يا ولدي . سوف أطعمك أنا .

ـ سأطعم نفسي بيدي .

كان غريغوري يستمع إلى بيوتر وميشا مبتسماً ، ولف لنفسه سيكارة . ثم تقدم نحوه أبوه . وأسر له :

ـ أفكر في الذهاب إلى فيشينسكايا اليوم .

ـ لماذا ؟

وتجشأ بانتلاي بروكوفيتش وقال وهو يمسد لحيته :

ـ لديّ بعض الشغل مع السراج ، كنت قد تركت عنده نيرين ليصلحهما .

ـ هل ستعود اليوم ؟

ـ بالطبع . سأكون هنا في المساء .

وبعد فترة استراحة ، أسرج العجوز الفرس ، التي عميت ذلك العام ، وشد إليها عريش الزحافة ، ثم انطلق بها . وبلغ فيشينسكايا في غضون ساعتين أو نحوهما . ومضى إلى دائرة البريد ، ثم إلى السراج وأخذ النيرين . ثم مضى قاصداً أحد معارفه القدماء وهو عرّابه يعيش جوار الكنيسة الجديدة . فألح عليه الرجل ، وهو مضياف كريم ، بالبقاء حتى العشاء . وسأله وهو يصب شيئاً ما في قدح :

ـ كنت في دائرة البريد ؟

فأجاب بانتلاي بروكوفيتش بالايجاب وهو يحدق بدهشة في القنينة ويتشمم الهواء مثل سلوقي يسعى في أثر حيوان .

ـ إذاً ، فقد سمعت بالخبر ؟

ـ الخبر ؟ كلا ، لم أسمع شيئاً . ما هو ؟

ـ كاليدين ، أليكسي ماكسيموفيتش كاليدين ، قد انتقل إلى جوار ربه .

فاستحال وجه بانتلاي أخضر بشكل ملحوظ ، وقال وقد نسي القنينة المشتبه فيها ورائحتها : « ماذا تقول ؟ » ، ورمى بنفسه إلى الوراء في كرسيه . فقال له مضيفه وهو يطرف مكتئباً :

ـ لقد وصلنا الخبر بواسطة التلغراف بأنه أطلق النار على نفسه قبل بضعة أيام في نوفوتشيركاسك ، وهو الذي كان الجنرال الكفؤ الوحيد في كل

الإقليم . يا لشهامة الرجل! لم يكن ليسمح بأي عار يحل بالقوقاز!

فسأله بانتلاي بشرود ، وهو يبعد القدح الذي قدم إليه :

ـ مهلاً! وما الذي سيحدث بعد الآن ؟

ـ الله أعلم . إن أياماً سوداً ستأتي . فالمرء لا يطلق الرصاص على نفسه في الأوقات الطيبة .

ـ ما الذي دعاه إلى ذلك ؟

فقال مضيفه ، وهو رجل متين البنية ، ملوحاً بيده في غضب :

ـ لقد تخلى عنه رجال خط الجبهة ، وأفسحوا الطريق للبلاشفة بالمجيء إلى الإقليم ، وهكذا انتهى أتماننا . إني أشك في العثور على رجل مثله . من سيحمينا ؟ لقد شكلت لجنة ثورية أو ما إليها في كامينسكايا ، مع قوزاق من خط الجبهة مشتركين فيها . وهنا... هل تناهى إلى سمعك ؟ لقد جاء أمر من كامينسكايا يقضي بالتخلص من الاتمانات وانتخاب اللجان الثورية بديلاً عنهم . وبدأ الفلاحون يرفعون رؤوسهم . وأولئك النجارون والحدادون والساعون وراء الوظائف كلهم... محتشدين في فيشينسكايا مثل البرغش في المرج .

لبث بانتلاي بروكوفيتش حانياً رأسه الأشيب وقتاً طويلاً . وعندما صعد نظره بدت عليه الصرامة والقسوة :

ـ ما هذا الذي عندك في القنينة ؟

ـ كحول . جاء به قريب لي من القفقاز .

ـ حسناً ، صبه يا صديقي . فلنشرب نخب ذكرى أتماننا الراحل . عسى أن تفتح ملكوت السماوات أبوابها له!

وشربا . وأحضرت ابنة رب المنزل الطعام ، وهي فتاة طويلة نمشاء . وتطلع بانتلاي إلى الفرس التي ملت الوقوف أمام الزحافة ، غير أن المضيف أكد له قائلاً : « لا تقلق على الفرس . سوف أرى فيما إذا أطعمت ورويت » .

وسرعان ما نسي بانتلاي بروكوفيتش فرسه وكل شيء في الدنيا جراء

الحديث المحتدم وبتأثير القنينة . وراح يتحدث بكلام لا رابط له عن غريغوري ، وخاض نقاشاً مع مضيفه الثمل ، وظل يناقشه ولكنه نسي بالضبط موضوع الحديث . وكان المساء قد حل عندما نهض على قدميه ، وعقد العزم على التوجه إلى البيت متجاهلاً الدعوة لتمضية الليل هنا . فشد ابن صديقه الفرس إلى الزحافة ، وساعده عرابه في الصعود إليها . ورأى صديقه أن يرافقه إلى خارج القرية . فرقدا سوية في قعر الزحافة وقد شبكا أذرعهما حول بعضهما البعض . وعلقت زحافتهما في بادئ الأمر بمحور البوابة ، ثم راحت تعلق بكل شيء ناتئ حتى بلغا السهب . وهناك تفجرت الدموع من عيني عرابه وسقط بلا عمد من الزحافة . ولبث راكعاً على الأربع وقتاً طويلاً ، وهو يلعن ، عاجزاً عن النهوض على قدميه . ولفح بانتلاي الفرس بالسوط ليحثها على الجري ، ولم يعد يرى صديقه يزحف في الطريق وأنفه منغرس في الثلج ، ويتوسل قائلاً وهو يضحك بصوت أجش باد عليه الحبور :

ـ كف عن الدغدغة... أرجوك أن تكف عن الدغدغة!

وانطلقت الفرس في جري أعمى يحثها السوط على ذلك . وسرعان ما مال سيدها إلى الوراء وارتمى رأسه على جدار العربة وقد غلبه خدر الشراب ، ولفه الصمت . وصادف أن سقط العنان تحته ، فمضت الفرس تسير سيراً وئيداً على غير هدى . وحادت في أول مفرق عن الطريق السوي وسارت باتجاه قرية صغيرة . وبعد بضع دقائق ضلت هذا الطريق أيضاً . واتجهت شطر السهب الطلق ، وجنحت في مسار ثلجي عميق عند غابة ، وانزلقت في حفرة . وعثرت الزحافة بشجيرة ، فتوقفت . وأيقظت الهزة العجوز لحظة . فرفع رأسه وجعل يصيح بصوت أجش : « دي... أيتها الشيطانة... » ثم ما لبث أن رقد من جديد .

تحركت الفرس واجتازت الغابة دونما أذى ، وشقت طريقها بنجاح حدر ضفة الدون واتجهت صوب القرية التالية تجذبها رائحة الدخان الذي ساقته الريح الشرقية .

وعلى مبعدة نصف فرسخ من القرية أو نحوه ثمة فجوة بالقرب من ضفة النهر اليسرى . وحول الفجوة تنبع عيون من الضفة الرملية ، ولا يتجمد الماء هنا بتاتاً ، حتى في عز الشتاء ، إنما يركد في بركة عريضة نصف دائرية . ويحيد الطريق المحاذي للنهر عن الفجوة بحذر ، مستديراً استدارة حادة إلى أحد الجانبين . وفي أيام الربيع عندما تصب مياه الحقول في طوفان هائل خلال الفجوة إلى الدون ، تنشأ فيها دوامة هادرة . ويرقد سمك الشبوط طوال الصيف في الأعماق قرب أكوام الخشب الذي تجرفه المياه من الضفة .

وقادت الفرس العجوز خطواتها العمياء نحو حافة البركة اليسرى . وعندما كانت على بعد حوالي خمسين خطوة انقلب بانتلاي وفتح عينيه قليلاً . ومن عتمة السماء تطلعت إليه النجوم التي تحكي الكرز الفج الأخضر المائل إلى الصفرة . «الليل...» همهم بذلك ساهماً وجرّ الأعنة بقوة . وصاح في الفرس :

ـ الآن! سوف ألقنك درساً ، أيتها الشيطانة العمياء!

وانطلقت الفرس تهذب . وبلغت منخريها رائحة الماء القريب . وجعلت ترهف أذنيها ، وتلتفت بعينها العمياء اتجاه سيدها في ارتباك . وعلى حين غرة بلغ أذنيها صوت ارتطام الماء المدوم . فاستدارت إلى أحد الجانبين وهي تزنخر بوحشية ، وحاولت التراجع . وخشخش الجليد نصف الذائب عند حافة البركة تحت حوافرها بصوت خافت ، وتكسرت حافة الثلج . فأطلقت زنخرة تنم عن هلع مميت . وقاومت برجليها الخلفيتين بكل قواها ، بيد أن قائمتيها كانتا قد انزلقتا في الماء ، وراح الجليد الرقيق يتكسر تحت حافريها الخلفيين . وانزلق بها الجليد منشرخاً مقرقعاً . وإذ ابتلعت البركة الفرس ، راحت ترفس بإحدى ساقيها الخلفيتين وهي تعاني سكرات الموت ، فضربت عريش الزحافة . وفي تلك اللحظة بالضبط ، هجس بانتلاي أن الأمر ليس على ما يرام فقفز من الزحافة وكبا إلى الوراء ورأى ظهر الزحافة يرتفع ، كاشفاً عن

المزلاقين اللماعين فيما غطست المقدمة تحت ثقل الفرس ، ثم ما لبثت أن انزلقت بعيداً في الأعماق الخضر القاتمة . وأطلق الماء المختلط بكسر الثلج ، خريراً خافتاً وأرسل موجة كادت أن تبلغ قدميه . ولكنه انكفأ إلى الوراء بخفة عجيبة ووثب على قدميه ، وجعل يزأر :

ـ النجدة أيها الناس الطيبون! إننا غارقون!

وطار من رأسه الشراب وكأنه قد طرق بمطرقة ، وجرى نحو البركة . كان الجليد المتكسر حديثاً ذا لمعان شديد . وساقت الريح قطع الجليد فوق البركة الداكنة نصف الدائرية ، وهزت الأمواج أعرافها الخضر ودمدمت . وخيم حوله صمت القبور . وكانت أنوار القرية القصية تعكس ضوءاً أصفر خلل العتمة . وتوهجت النجوم تتراقص في مخمل السماء مثل حبات قمح كبيرة خرجت لتوها من المذراة . وأثار النسيم الثلج من الحقل ، فتطاير هباباً ذا حفيف ، وتساقط في أعماق البركة الداكنة . ثم تصاعد البخار من البركة بعض الشيء وما لبثت أن عادت داكنة مفزعة خادعة .

أدرك بانتلاي أن الصياح بات الآن عقيماً لا يجدي فتيلاً . وتطلع حواليه ، ففطن إلى أين أدى به ثمله الأخرق ، وجعل يرتعد مغضباً على نفسه وعلى ما حدث . وكان سوطه لما يزل بيده . فقد قفز به من الحافة . وأخذ يلفح ظهره بالسوط وهو يلعن ، ولكنه لم يشعر بأيما ألم ، لأن فروته السميكة خففت من وطأة الضربات ، وبدا من غير المعقول أن يخلع فروته لمجرد الاستمتاع بالضرب . ولكنه جز لحيته ملء قبضته من الشعر ، وجعل يحصي في ذهنه خسارته : المشتريات التي فقدها ، ثم الفرس ، والزحافة ، والنيرين ، وراح يلعن بجنون ثم تقدم أقرب فأقرب نحو البركة .

وقال بصوت منتحب مرتجف ، موجهاً كلامه إلى الفرس الغارقة : « أيتها الشيطانة العمياء... أيتها القحبة! أغرقت نفسك وكدت أن تغرقيني معك! أين مضت بك الروح الشريرة ؟ سوف يسرجك الشياطين ويسوقونك ، ولكن لن يكون لديهم ما يسوقونك به! هاك ، خذي السوط أيضاً! » ولوح بالسوط ذي

اللون الكرزي بيأس حول رأسه ورمى به وسط البركة .

فلطم السوط الماء وفتح فيه ثغرة ، ثم اختفى في الأعماق .

١٥

بعد النصر الذي أحرزه كاليدين على القوات القوزاقية الثورية ، هرعت اللجنة الثورية العسكرية لمنطقة الدون التي أجبرت على الفرار إلى ميليروفو ، إلى إرسال البيان التالي إلى قائد العمليات القائمة ضد كاليدين ورادا ـ المجلس الأوكراني المعادي للثورة .

خاركوف ، ١٩ كانون الثاني ١٩١٨ . من لوغانسك ، رقم ٤٤٩ . الساعة ٢٠ : ١٨ .

تلتمس اللجنة الثورية لقوزاق الدون أن ترفعوا القرار التالي إلى مجلس قوميسارية الشعب في بتروغراد .

بناءً على قرار مؤتمر رجال خط الجبهة الذي انعقد في كامينسكايا ، قررت اللجنة الثورية العسكرية القوزاقية ما يلي :

١ ـ ان اللجنة التنفيذية المركزية لسوفييتات مفوضي القوزاق والفلاحين والجنود والعمال ومجلس قوميسارية الشعب المنتخب من قبلها يجب الاعتراف بهما كسلطة حاكمة مركزية لجمهورية روسيا السوفييتية .

٢ ـ أن ينشئ مجلس سوفييتات مفوضي القوزاق والجنود والعمال في اقليم الدون ، حكومة محلية .

ملاحظة : ان مسألة الأرض في اقليم الدون ينبغي ان تحل من قبل هذا المجلس ذاته .

اثر تسلم هذا البيان ، أرسلت مفارز من الحرس الأحمر لمساعدة قوات اللجنة الثورية وكنتيجة لذلك قضى على قوات العقيد تشيرنتسوف وأصبح وضع القوات الثورية في منجى من الخطر . وانتقلت المبادأة إلى أيدي اللجنة

الثورية . وبعد احتلال زفيريفو وليخايا شنت مفارز الحرس الأحمر بقيادة سابلين وبتروف ، تدعمها رعائل قوزاقية تابعة للجنة الثورية ، هجوماً وأجبرت أعداءها على التراجع إلى نوفوتشيركاسك .

على أنه حدث على مشارف تاغانروغ أن انهزمت قوات سيفرس أمام مفارز المتطوعين التي يقودها العقيد كوتيبوف ، فخسرت مدفعاً ، و٢٤ رشاشاً ، وسيارة مدرعة . وفي اليوم الذي انهزمت قوات سيفرس وأجبرت على التقهقر هب العمال في معامل البلطيق في تاغانروغ ، وطردوا طلبة الكلية العسكرية من المدينة .

ثم استجمع سيفرس قواته ، وشن هجوماً أجبر المتطوعين على التقهقر باتجاه تاغانروغ . وكان جلياً أن النجاح حليف الجيوش السوفييتية . فقد أحاطت بالبيض وبقية باقية من مفارز كاليدين من ثلاث جهات . وفي الثامن والعشرين من كانون الثاني أرسل كورنيلوف برقية إلى كاليدين يخبره فيها أن جيش المتطوعين كان يخلي روستوف ويتحرك صوب الكوبان .

وفي التاسعة قبل ظهر التاسع والعشرين عقدت جلسة استثنائية لحكومة الدون في قصر الأتمان . كان كاليدين آخر من حضر . فغطس مغموماً في كرسي وجر كومة من الوثائق إليه . كان وجهه شاحباً ذابلاً لطول سهاده ، وكانت ثمة ظلال زرق تحت عينيه القاتمتين الذاويتين ، وقد صبغت غشاوة من الذبول وجهه الكليل بالصفرة . تلا متمهلاً برقية كورنيلوف ، وتقارير أمراء الوحدات الذين كانوا يتلقون ضربات الجيش الأحمر شمالي نوفوتشيركاسك . وقال بكلال وهو يسوي رزمة من البرقيات باعتناء براحته العريضة البيضاء ، دون أن يرفع جفنيه الداكنين المنتفخين :

ـ ان جيش المتطوعين يتراجع ، وليس لدينا سوى ١٤٧ حربة ندافع بها عن الاقليم ونوفوتشيركاسك .

وطرف جفنه الأيسر ، وارتعشت زاويتا شفتيه المزمومتين بشدة . وأردف رافعاً صوته :

- ان وضعنا لا رجاء فيه . والأهالي لا يمكن أن نرتجي منهم العون ، فهم معادون لنا . وليست لدينا قوات ، ولم تعد المقاومة تجدي فتيلاً . فأنا لا أريد خسائر لا داعي لها ، ولا دماء تراق دونما جدوى . لذا أقترح أن نستقيل ونسلم السلطة إلى غيرنا . ومن جهتي أنا ، فانى أقدم استقالتي كأتمان لجيش قوزاق الدون .

وعدل بوغايفسكي ، الذي كان ينظر خارج النافذة ، نظارتيه وقال دون أن يدير رأسه :

- وأنا أقدم استقالتي أيضاً .

- من البديهي أن تستقيل الحكومة بمجوعها . بيد أن المسألة هي : إلى من نسلم السلطة ؟

فأجاب كاليدين بجفاف :

- الي مجلس دوما المدينة .

فقال كاريف عضو الحكومة متردداً :

- يجب أن نعلن ذلك بصورة رسمية .

وخيم صمت ثقيل بعض الوقت . وبدا صباح كانون الثاني الكئيب كليلاً وراء زجاج النوافذ المضببة . وغلف المدينة وشاح من الضباب والصقيع الأشيب ولاذت بصمت حالم . ولم يكن بوسع الاذن ان ترهف لنبض الحياة العادي . فقد طغى هزيم طلقات المدافع (صدى القتال قرب قرية سولين) على كل الأصوات وخيم فوق المدينة نذيراً غامضاً مبهماً .

وفي الخارج ، كانت الزيغان تنعب بحدة وغلظة . وقد حومت حول القبة البيضاء وكأنها تحوم حول فطيسة . وكسا ساحة الكاتدرائية ثلج جديد ليلاكي الظلال . وبين حين وآخر يمر عبرها شخص ما أو زلاجات وتخلف من آن لآخر آثاراً قاتمة خلفها . وهنا اقترح بوغايفسكي مبدداً الصمت المتوتر أن يصار إلى اصدار وثيقة تقضي بتسليم السلطة إلى مجلس دوما المدينة :

- يجب أن نجتمع سوية مع أعضاء مجلس الدوما حول هذه القضية .

ـ ما هو أنسب وقت للجميع ؟

ـ فيما بعد ، حوالي الرابعة . وشرع أعضاء الحكومة يبحثون مسألة تسليم السلطة وموعد الاجتماع ، وكأنما سرهم أن يقطع حبل الصمت الثقيل . أمّا كاليدين فقد لاذ بالصمت ، وجعل ينقر الطاولة بأظفاره ببطء رتيب . ولاحت الكآبة والغشاوة على عينيه من تحت حاجبيه الأشعثين . وأحال القلق المطبق ، والنفور والاجهاد ، نظرته ، ثقيلة كريهة .

وكان أحد أعضاء الحكومة يتجادل مع زميل له بذلاقة لسان . فقاطعهما كاليدين بغيظ مكتوم :

ـ أوجزا أيها السيدان ، فالوقت قد أدركنا . فما كان لروسيا أن تهلك لولا اللغو الزائد . انني أعلن عن استراحة أمدها نصف ساعة . فتدارسوا الأمر فيما بينكم و... دعونا نفرغ منه بالسرعة الممكنة .

ثم انسحب إلى شقته ، وتجمع الآخرون جماعات صغيرة وراحوا يتناقشون بهدوء . وأشار أحدهم إلى أن كاليدين كان يبدو عليه المرض . فتناهت الى بوغايفسكي الذي كان واقفاً قرب النافذة ، الكلمات المهموسة التالية :

ـ ان الانتحار بالنسبة لرجل مثله هو المخرج الوحيد .

فانتفض بوغايفسكي وسار مسرع الخطى شطر شقة كاليدين . وعاد بعد قليل يصحبه الأتمان . لقد قررا أن يعقدا اجتماعاً مشتركاً مع مجلس دوما المدينة في الساعة الرابعة بغية تسليم الوثيقة التي أقروها رسمياً والتي تقضي باعتزال الحكم . ثم نهض كاليدين . وتبعه الآخرون . وحينما كان كاليدين يودع أحد أعضاء الحكومة المسنين ، لاحظ يانوف يهمس لكاريف ، فقال :

ـ ماذا هناك ؟

فارتبك يانوف ، وقال :

ـ ان أعضاء الحكومة ـ من غير القوزاق ـ يطالبون بتكاليف سفرهم ٠ ـ

فقطّب كاليدين وأجاب بخشونة :

ـ ليست لديَّ نقود... لقد سئمت كل شيء .

فأشار بوغايفسكي الذي كان يتسمع إلى الحوار ، إلى يانوف فيما كانا يتركان المحل :

ـ تعال إلى غرفتي . وقل لسفيتوزاروف أن ينتظر في الردهة .

وتركا المحل في الحال بعد كاليدين الذي ابتعد مسرع الخطى مهدل الكتفين . وسلم بوغايفسكي في غرفته يانوف صرة من النقود :

ـ هذه أربعة عشر ألفاً . أعطها لأولئك الناس .

وأخذ سفيتوزاروف الذي كان ينتظر يانوف في الردهة ، النقود وشكره ويمم وجهه شطر الباب . وفي اللحظة التي كان يانوف يتناول معطفه من البواب ، تناهت إلى سمعه جلبة على السلم ، فتطلع إلى الخلف . كان مولدافسكي مرافق كاليدين يجري حدر السلم ويصيح :

ـ ايتوا بطبيب! أسرعوا!

فرمى يانوف بمعطفه وهرع اليه . وأحاط المرافق القائم بالحراسة والمراسلون المتجمعون في الردهة بمولدافسكي . وصاح يانوف شاحب الوجه :

ـ ماذا جرى ؟

ـ لقد أطلق كاليدين النار على نفسه ، ـ وسقط مولدافسكي ينشج على الدرابزين .

وهرع بوغايفسكي . كانت شفتاه ترتعدان كأن به قشعريرة :

ـ ماذا حدث ؟ ماذا ؟

وهجم الحشد على السلم وخيم عليه صوت خطوات الناس الهاربين المرتب والعالي . كان بوغاييفسكي يزدرد ريقه بتشنج ، ويلهث ناشداً الهواء . وكان أول من بلغ الباب واقتحمه . وجرى عبر غرفة الانتظار إلى المكتب . فألفى الباب بين المكتب والغرفة الصغيرة التي تلاصقه مشرعاً . كان ثمة دخان رمادي حريف تنبعث منه رائحة البارود ، عالقاً في الهواء .

وتناهى صوت زوجة كاليدين متكسراً ، مريعاً ، غريباً :

ـ أواه ، أواه! آ... آه! أليوشا! عزيزي!

وجرى بوغاييفسكي إلى الغرفة وهو يفك ياقته وكأنها تشد على خناقه . كان كاريف محدودباً فوق النافذة ، وقد شدت أصابعه على أكرتها المذهبة . كان عظما اللوح يتشنجان تحت سترته ، وبين لحظة وأخرى تند عنه رعدة عنيفة . وهز بوغايفسكي نواح أجوف لرجل يافع أشبه بعويل الحيوان .

كان كاليدين راقداً على ظهره فوق سرير عسكري ، وقد طويت يداه على صدره . واتجه رأسه إلى الجدار قليلاً . وكان ثمة تباين شديد بين غطاء الوسادة الأبيض والزرقة الرطبة لجبهته ووجنته المستقرة عليها . وكانت عيناه نصف مغمضتين كمن يحلم في يقظته ، وزاويتا فمه الصارم مزمومتين بشكل ينم عن الألم . كانت زوجته تتضور عند قدميه . وكان صوتها ضارياً يصم الآذان . وعلى السرير استقر مسدس من طراز كولت . وكان ثمة خط رقيق أحمر قاتم يسيل تحت القميص ، إلى جانب المسدس .

كانت هناك سترة معلقة بعناية على ظهر كرسي . وثمة ساعة يدوية موضوعة على الطاولة .

وركع بوغايفسكي على ركبتيه مترنحاً ، وشد أذنه على صدر كاليدين الناعم الحار . فشم رائحة العرق الرجالية شديدة الحموضة . كان قلب كاليدين ساكناً لا يريم . وراح بوغايفسكي الذي استحال كل كيانه في تلك اللحظة حاسة سمع ، ينصت يائساً ، غير أن كل ما تناهى اليه هو التكتكة المتواصلة للساعة اليدوية الموضوعة على الطاولة ، والنشيج المختنق المبحوح لزوجة الأتمان المتوفي ، ونعيب الزيغان الحزين المشؤوم .

١٦

كانت عينا آنا السوداوان المتألقتان بالدموع والفرح أول ما طالع نظرة بونتشوك بعد أن استرد وعيه .

مضت عليه ثلاثة أسابيع وهو في حالة هذيان . ثلاثة اسابيع وهو يجول في عالم آخر ، عالم حالم غير منظور . ولكن وعيه عاد اليه وشيك المساء في الرابع والعشرين من كانون الأول . وراح يتطلع إلى آنا بعينين ضبابيتين جادتين محاولاً تذكر كل ما كان مقترناً بها ، ولكنه لم يفلح الا قليلاً . لقد كان الكثير من ماضيه القريب ما يزال غائراً حروناً في أعماق ذاكرته .

ـ أعطيني ماء... ـ تناهى صوته إلى سمعه وكأنه قادم من بعيد ، فتبسم لذلك . وتقدمت آنا اليه مسرعة ، وكانت دخيلتها تنطق بابتسامة خفيفة . وقالت له :

ـ دعني أسقيك من يدي .

ثم نحّت يده الكليلة التي مدها لتناول القدح . فشرب وهو يرتعش من الجهد الذي بذله عند رفع رأسه ، ثم هوى بكلال على الوسادة... ورقد يتطلع إلى الجدار ، تحدوه الرغبة لأن يقول شيئاً ما . غير أن ضعفه تغلب عليه ، فأخذته سنة من النوم .

وعندما استيقظ كانت عينا آنا القلقتان هما اللتان التقتا بعينيه مرة اخرى ، ثم التفت إلى ضوء المصباح الزعفراني ، والدائرة البيضاء التي يعكسها على ألواح السقف العارية .

ـ آنا ، تعاليْ هنا!

اقتربت وتناولت يده . كانت مصافحته ضعيفة واهنة .

قالت :

ـ كيف تشعر ؟

ـ كأن لساني يعود إلى شخص آخر ، ورأسي كذلك ، وكذلك ساقي ، وأشعر كأن عمري مئتا عام .

كان يفوه بكل كلمة بعناية . ثم تساءل بعد برهة صمت :

ـ هل أصابني التيفوس ؟

ـ نعم .

وجالت عيناه في الغرفة ، ثم سألها بنبرة خافتة :

ـ أين نحن ؟

ـ في تسارتسين .

ـ وأنت... كيف حصل ان جئت إلى هنا ؟

ـ لقد بقيت معك . ـ وتعجلت لتضيف وكأنها تبرر ما فعلت أو تحاول أن تتحاشى ما قد يجول في ذهنه من أفكار لم يفصح عنها .

ـ ما كان لنا أن نتركك بأيدي غرباء . وهكذا طلب مني أبرامسون ، ورفاق اللجنة أن أعتني بك... وها أنت ، تراني أقوم بتمريضك على غير ما كان في الحسبان . فشكرها بنظرة وحركة واهنة من يده .

ـ وكروتوغوروف ؟

ـ ذهب إلى لوغانسك .

ـ وغيفوركيانتس ؟

ـ انه... مات بداء التيفوس .

ولاذ كلاهما بالصمت ، وكأنهما يفعلان ذلك اجلالاً لذكرى الميت . ولكنها قالت بهدوء :

ـ كنت أخاف عليك . فقد كان مرضك شديد الوطأة .

ـ وبوغوفوي ؟

ـ لقد فقدت اتصالي بهم جميعاً . بعضهم ذهب إلى كامينسكايا . ولكن ألا يضرك الكلام ؟ وهل لك في تناول الحليب ؟

فهز بونتشوك رأسه . وواصل أسئلته وهو يحرك لسانه بصعوبة :

ـ أبرامسون ؟

ـ ذهب إلى فورونيج منذ أسبوع .

وانقلب على جنبه بصعوبة ، ودار رأسه وهجم الدم بألم إلى عينيه . وأحس براحة يدها الباردة على حاجبه ، ففتح عينيه . سؤال واحد كان يعذبه : لقد كان فاقد الوعي ، فمن الذي تولى أمر حاجاته . أتراها هي التي قامت

بذلك ؟ واصطبغت وجنتاه بحمرة خفيفة ، ثم سألها :

- هل كان عليك أن تعني بي وحدك ؟

- نعم .

ثم استدار إلى الحائط وهمس :

- حرام عليهم ، على هؤلاء الجرذان أن يتركوا كل ذلك عليك...

لقد أصابه صمم طفيف من مضاعفات مرضه . بيد أن الطبيب الذي أرسلته لجنة الحزب في تساريتسين قال لآنا انه لا يمكن علاج ذلك الا بعد أن يبل من المرض تماماً . وأخذت صحته تتحسن ببطء . وصارت له شهية تحاكي شهية الذئاب ، ولكن آنا كانت تقسط طعامه بصرامة . وتشاجرا أكثر من مرة حول هذا الموضوع . فقد كان يقول :

- اعطيني مزيداً من الحليب .

- لن أعطيك .

- أرجوك... اعطيني مزيداً . هل تريدين أن أموت جوعاً ؟

- ايليا ، أنت تدري أنه لا ينبغي عليّ أن أعطيك أكثر من الكمية المقررة .

ولن يكون منه الا أن يلوذ بصمت جريح ، ويدير وجهه إلى الحائط ، ويتنهد ويضرب عن الكلام . وما كان لها أن تستسلم رغم معاناتها بسبب عطفها عليه . ثم يلتفت بعد برهة ، ويتوسل اليها ووجهه غائم وقد بدا أكثر شقاء :

- هل لي بشيء من الكرنب المخلل ؟ أرجوك ، يا عزيزتي آنا... اسمعي... انها ليست سوى خرافات الأطباء من أن ذلك يؤذيني .

واذ يجابه دائماً برفض قاطع ، يسعى أحياناً الى مسها بكلمات فظة جارحة :

- ليس لديك حق في أن تجعلي مني ألعوبة بهذا الشكل . أنت امرأة لا قلب لك ولا شعور . لقد بدأت أمقتك .

ولا يسعها ضبط عواطفها فتقول :

ـ ذلك هو خير مكافأة استطيع أن أنالها مقابل ما قمت به من السهر عليك .

ـ لم أطلب منك البقاء معي . وليس من العدل أن تسيئي اليَّ بذلك . انّما أنت تستغلين مركزك . حسناً! لا تعطيني أي شيء . دعيني أمت غير مأسوف عليَّ!

فترتعش شفتاها ، الا أنها تسيطر على نفسها ، تتحمل كل ذلك بأناة . ولكنها لاحظت مرة ، بعد أن تشاجرا حول زيادة كمية العشاء ، وقلبها يعصرها ، الدموع تترقرق في مآقيه . فقالت :

ـ ماذا ، انك لطفل بمعنى الكلمة!

وجرت إلى المطبخ لتأتي بصحن مليء بالفطائر . وقالت له وهي تدس بفطيرة في يديه بأصابع مرتجفة :

ـ كلْ ، كلْ ، يا عزيزي ايليا . ولا تغضب بعد الآن . هذه أخرى لذيذة .

وحاول بونتشوك أن يرفض وهو يعاني بشدة . ولكنه لم يستطع المقاومة ، فمسح دموعه ، واستوى في جلسته ثم تناول الفطيرة . وانزلقت ابتسامة على وجهه المتلحي النحيل ، وقال لها وهو ينشد المغفرة بعينيه :

ـ انني أسوأ من الطفل . ألا ترين ، كنت على وشك أن أبكي...

وتطلعت إلى رقبته الشديدة الهزال ، والى صدره الغائر الذي لا لحم عليه خلال ياقة قميصه المفتوحة ، والى ذراعيه الهزيلين . فقبلت جبينه الاصفر الجاف لأول مرة ببساطة وتحنان يهزها احساس عميق بالحب والشفقة .

لم يكن يقوى على الحركة في الغرفة دونما مساعدة الا بعد أسبوعين . وكانت ساقاه العنكبوتيتان تتهاويان تحته ، فكأن عليه أن يتعلم المشي .

قال : «انظري آنا ، أستطيع أن أمشي» . وجرب أن يتحرك بمزيد من السرعة . غير أن ساقيه لم تقويا على تحمل ثقل جسمه ، فانزلقت الأرض من

تحت قدميه . واذ اضطر إلى الاتكاء على أول شيء يصادفه ، تبسم مثل رجل عجوز ، فتجعدت بشرة وجنتيه الشفافتين . وأطلق ضحكة صغيرة ناعبة ، ثم عاد فارتمى على فراشه واهن القوى .

كانت حجرتاهما على مقربة من المرسى . وكان بوسعهما أن يشاهدا من النافذة مدى الفولغا الثلجي ، والغابات تنبسط من ورائه في نصف دائرة قاتمة ، والمعالم المتماوجة للحقول البعيدة . وكانت آنا تقف عند النافذة في كثير من الأحيان ، تطيل التفكير في التبدل الغريب الحاد الذي طرأ على حياتها . فلقد قارب مرض بونتشوك بينهما كثيراً على نحو غريب .

في البدء ، بعد رحلة طويلة مضنية قطعاها حتى وصلا إلى تساريتسين ، كانت حياتها شاقة مرة تستدر الدموع . ولم يسبق لها مطلقاً أن اضطرت إلى الاطلاع على كثب وبشكل مكشوف على الجانب الخفي من الحياة مع الانسان الذي تحبه . كانت تصك على أسنانها كلما غيرت ملابسه الداخلية ، وفلت رأسه المحموم من القمل ، وتنافح من أجل رفع جسمه الثقيل ، وتسترق النظر برعدة ونفور إلى جسده الرجالي العاري الموهون والى اهابه الذي كان يضم حياته الغالية التي تكاد أن تخبو تحته . وقد انتفض كل شيء فيها ونفر ، غير أن القذارة الخارجية لم تستطع أن تقضي على عواطفها الصادقة العميقة . فتحت تأثيرها القوي تعلمت كيف تتغلب على آلامها ونفورها . وهكذا لم يبق عندها سوى العطف وحب عميق كالبئر يموج ويطفح بالمشاعر .

حدث أن سألها بونتشوك ذات مرة :

ـ أحسب أنني أثير فيك الاشمئزاز بعد كل هذا... أليس كذلك ؟

ـ كان امتحاناً .

ـ لأي شيء ؟ لضبط النفس ؟

ـ كلا . لعواطفي .

فأشاح بوجهه ، ولوقت طويل ظل عاجزاً عن ايقاف شفتيه من

الارتعاش . لم يعودا ثانية إلى الموضوع ، فما كان للكمات الا أن تبدو تافهة باهتة اللون .

وفي منتصف كانون الثاني سافرا إلى فورونيج .

١٧

وصل بونتشوك وآنا فورونيج مساء السادس عشر من كانون الثاني . ولبثا يومين فيها ، ثم لما علما أن لجنة الدون الثورية وقواتها الوفية قد أزاحتها جيوش تشيرنتسوف من كامينسكايا تبعاها إلى ميليروفو .

كانت ميليروفو تزخر بالحياة وتضج بالناس . ولم يبق فيها بونتشوك سوى بضع ساعات ، سافر بعدها إلى غلوبوكايا بأول قطار . وفي اليوم التالي تولى من جديد أمرة مفرزة رماة الرشاشات ، وفي الصباح الذي تلاه اشترك في المعركة التي انتهت بهزيمة قوات تشيرنتسوف .

وبعد أن قُضي على تشيرنتسوف ، كان على بونتشوك أن يفارق آنا على نحو غير مرتقب . فذات صباح جاءت تجري من مقر هيئة الأركان منفعلة حزينة بعض الشيء :

ـ هل تدري أن أبرامسون موجود هنا ؟ انه يريد أن يراك بصورة ملحة . ولديَّ أخبار أخرى... سوف أرحل اليوم .

فسألها مذهولاً :

ـ إلى أين ؟

ـ أنا وأبرامسون وعدد آخر من الرفاق سنذهب إلى لوغانسك للدعاية .

فقال بفتور :

ـ اذا فأنت تهجرين مفرزتنا ؟

فضحكت ودست وجهها المتورد على صدره .

ـ اعترف! فأنت لا تحزن لأنني سأرحل عن المفرزة ، بل لأني سأرحل

عنك! ولكنها لن تدوم طويلاً . وأنا واثقة من أنني سأكون ذات شأن في ذلك العمل أكبر من عملي معك . فأنا أصلح للدعاية أكثر مني للرشاشات ، ـ ورمقته بنظرة خبيثة وأضافت : ـ حتى وان كنتُ تحت أمرة قائد محنك مثل بونتشوك .

وجاء أبرامسون بعد ذلك بقليل . كان نشطاً كالعادة ، يتدفق حيوية ، ولا يعرف معنى للراحة . وكانت الخصلة البيضاء تلتمع كالعهن بين سواد شعره الذي يحاكي القطران . وقد سر كل السرور لرؤية بونتشوك .

ـ عدت ثانية ؟ حسناً . ستعود آنا معنا . ـ وضيق عينيه بخبث ، وأردف : ـ لا اعتراض من جانبك ؟ أبداً! حسناً . كنت أتساءل فقط لأنني اعتقدت أن المودة قد توثقت بينكما في تساريتسين ، أليس كذلك ؟

فندت عن بونتشوك ابتسامة عابسة مجهدة :

ـ لا أستطيع أن أخفي أسفي لمفارقتها .

ـ أنت متأسف ؟ حسناً ، ذلك شيء... آنا ، هل سمعت ؟

وجعل يتخطى ذهاباً واياباً في الغرفة ، متناولاً رواية علاها الغبار من خلف صندوق ، ثم انتفض ويمم صوب الباب . ـ هل ستكونين مستعدة بعد قليل يا آنا ؟

فأجابته من وراء الستارة حيث كانت تغير ملابسها :

ـ اذهب أنت ، وسوف آتي بعد دقيقة .

وعندما خرجت ظهرت بقمصلة الجنود الخاكية محزمة بنطاق جلدي ، وقد برز الجيبان قليلاً فوق ثدييها ، وكانت تنورتها القديمة السوداء مرقعة في بعض المواضع ولكنها نظيفة . وكانت قد غسلت شعرها حديثاً ، فانتفش وأفلت من عقصته . وارتدت معطفها وشدت الحزام ، وتساءلت بلهجة فقدت حيويتها السابقة فبدت كئيبة كسيرة : ـ هل ستشترك في الهجوم اليوم ؟

ـ ولِمَ لا ، بالطبع! هل تتوقعينني أن أقعد دونما عمل ؟

ـ انني أتساءل فقط... اسمع ، لتكونن حذراً . ستفعل ذلك من أجلي ،

أليس كذلك ؟ تركت لك زوجاً اضافياً من الجوارب الصوفية . احذر من البرد ، واجهد أن تحافظ على جفاف قدميك . سأكتب لك من لوغانسك .

وتلاشى الألق من عينيها فجأة . واعترفت وهي تودعه قائلة :

ـ ها أنت ترى كم يؤلمني أن أرحل عنك . عندما اقترح أبرامسون علي الذهاب إلى لوغانسك سرني ذلك ، ولكنني سأشعر بالوحدة بدونك . وهذا دليل آخر على أن العواطف تعترض سبيلنا في الوقت الحالي ، انها تشد المرء شداً... حسناً ، وداعاً على أية حال .

كانت باردة عند الوداع ، مكرهة عليه ، ولكنه أدرك أنها كانت تخشى أن تتراجع عن قرارها .

ووقف عند الباب ليودعها . وابتعدت مسرعة الخطى ، تهز كتفيها في ارتباك دون أن تتلفت حواليها . وأراد أن يناديها لتعود غير أنه كان قد لاحظ بريقاً ندياً في عينيها حينما ودعته للمرة الأخيرة ، فكتم رغبته ، وهتف بحماس ظاهري :

ـ آمل أن أراك في روستوف . اعتني بنفسك يا آنا!

فتطلعت عبر كتفها ، ثم أسرعت خطواتها .

أحس بونتشوك فجأة بوحدة قاتلة بعد رحليها . فانثنى إلى البيت ، ولكنه فر منه في الحال ثانية ، وكأن قد شب به حريق... فكل شيء هناك كان يتحدث عنها . كل شيء يحتفظ بشذاها : المنديل المنسي ، حافظة الجنود ، الكوز النحاسي ، وكل ما لمسته يداها .

ظل يجول في القصبة حتى المساء ، وهو يعاني قلقاً غريباً ، واحساساً بأن شيأ ما قد انقطع عنه . ولم يستطع أن يألف وضعه الجديد . وصار يحدق شارداً في وجوه الحرس الأحمر والقوزاق ، فيتبين البعض ويتبينه العديدون منهم . وأوقفه قوزاقي كان معه في الجيش أثناء الحرب . فألح عليه الرجل بالذهاب إلى بيته ودعاه لينضم إلى حلقة لعب الورق مع عدد من الحرس الأحمر البحارة . كانوا يلطمون الورق على المنضدة ، ويخشخشون بروبلات

كيرنسكي الورقية . ويتشاتمون ويتصايحون دونما انقطاع ، وقد لفعتهم غمامة من دخان التبغ . فتاق بونتشوك إلى الهواء ، وخرج . وقد انتشله من حالته هذه اشتراكه في هجوم شنّ بعد ساعة .

١٨

بعد موت كاليدين دُعي مجلس عسكري في التاسع والعشرين من كانون الثاني للاجتماع في نوفوتشيركاسك حيث تقرر تعيين الجنرال نازاروف أتمانا للاقليم . ولم يحضر الاجتماع سوى بضعة مندوبين ، وجلهم من قصبات المناطق الجنوبية . واذ شعر نازاروف باسناد هذا المجلس الناقص ، دعا إلى تجنيد جميع القوزاق من سن الثامنة عشرة حتى الخمسين . بيد أن استجابة القوزاق كانت فاترة ، رغم الوعيد وارسال المفارز المسلحة إلى القرى لتنفيذ الأمر بالقوة .

ومنذ اليوم الذي مارس فيه المجلس الناقص عمله تحركت كتيبة قوزاق الدون السادسة تحت قيادة العقيد تاتسين إلى نوفوتشيركاسك من الجبهة الرومانية بعد أن شقت طريقها خلل حلقة من القوات البلشفية . كانت قد عوملت معاملة قاسية في مواضع مختلفة في طريقها من يكاتير ينوسلاف ولكنها بالرغم من ذلك وصلت بكل قواها وجميع ضباطها تقريباً .

وقد أقيم للكتيبة استقبال رسمي . وبعد صلاة الشكر التي أقيمت في ساحة الكاتدرائية ، شكر الجنرال نازاروف القوزاق لمحافظتهم على ضبطهم العسكري الجيد ولجلبهم أسلحتهم للدفاع عن الدون .

ولم يمض وقت طويل حتى أرسلت الكتيبة إلى الجبهة ، ثم وصلت الأخبار المثيرة إلى نوفوتشيركاسك أن الكتيبة قد انسحبت بصورة اعتباطية من مواقعها ورفضت حماية جيش الحكومة وذلك لوقوعها تحت تأثير الدعاية البلشفية .

وكانت الخطوات التي اتخذها المجلس ضعيفة . فقد شعر الجميع أن الصراع ضد البلاشفة أمر مقضي عليه بالفشل . وكان نازاروف ، وهو جنرال فعّال نشيط ، أثناء دورات المجلس يجلس ورأسه بين يديه وكأنه قد تاه في تأملاته الحزينة .

كانت الآمال الأخيرة تتداعى مثل خشب نخره السوس . فقد صار هدير المدفعية يسمع حول تيخوريتسكايا . وأشيع أن قوات القوزاق الحمر تحت قيادة الملازم أفتونوموف كانت تتقدم نحو روستوف من تساريتسين .

وقد انسحبت مفرزة الحرس الأبيض بقيادة الرئيس تشيرنوف إلى روستوف ، تحت النيران التي انصبت عليها من جهتين ، وقرر كورنيلوف التراجع في التاسع من شباط ادراكاً منه أن البقاء في المدينة يعرّضه إلى الخطر .

وكان العمال في منطقة تيميرنك طوال اليوم يقنصون دوريات الضباط المعادية في المحطة .

ووشيك المساء شق طابور طويل طريقه خارج روستوف ، وسار متثاقلاً فوق الثلج نصف الذائب . وكانت ترى بين الحين والآخر معاطف طلاب ، غير أن معظمهم كانوا يرتدون بزات ضباط ، وكان يقود الفصائل رؤساء وعقداء . وبين المراتب كان طلاب الكلية العسكرية وضباط من مختلف الرتب من الملازمين حتى العقداء . وخلف العديد من عربات قافلة المتاع تأتي حشود من اللاجئين : كهول ، ورجال أنيقون يرتدون معاطف وأخفافاً ، ونساء يرتدين أحذية عالية الكعوب وهي يتحركن فوق الثلج العميق بصعوبة .

ومع احدى سرايا الجنود سار الرئيس ليستنتسكي . والى جانبه في الطابور كان يسير ضابط نظامي انيق هو الرئيس الركن ستاروبيلسكي ، وبتشاغوف ملازم أول وحدة سوفوروف لرماة القنابل اليدوية ، والمقدم لوفيتشيف ، وهو هرم عديم الأسنان ملفع بشيء رمادي محمر مثل ثعلب عجوز .

تجمعت ظلال المساء . وكان الهواء قارساً بعض الشيء . وهبت ريح نسيم مالحة بليلة من ثغر الدون . كان ليستنتسكي يوسع خطاه بثبات بحكم العادة فوق الثلج المسحوق ، ويحدق في وجوه الذين لحقوا بالسرية .

ومر بجانب الطريق الرئيس نيزينتسيف وعقيد الحرس كوتيبوف ، آمر كتيبة بريوبراجينسكي السابق ، وقد تطايرت سترته وانداحت قبعته إلى الوراء . فنادى لوفيتشيف نيزينتسيف .

أدار كوتيبوف رأسه ، وهو صاحب وجه ضخم يشبه وجه الثور وعينين سوداوين متباعدتين ولحية قصّت قصاً عريضاً . والتفت نيزينتسيف هو الآخر وراح يرمق عبر كتفه باتجاه الصيحة .

- أوعز للسرية الأولى أن تحث خطاها! والا فسوف نتجمد . ها قد تبللت أقدامنا ونحن نسير على هذا النحو البطيء .

فهدر ستاروبيلسكي :

- يا لها من شناعة!

فلم يحر نيزينتسيف جواباً بل واصل سيره ومضى يناقش كوتيبوف . وبعد قليل أدركهم الجنرال أليكسييف . ومضت العربة وسط هبة ثلة أثارته حوافر جوادين أدهمين ليني الاهاب . كان الكسييف جالساً بصوة جانبية على المقعد ممسكاً بياقته بيده اليسرى اتقاء البرد وتتبع الضباط وجهه المألوف بنظراتهم وهم يبتسمون . وقد برز شارباه وحاجباه بلونها الأبيض من وجهه الأحمر الذي ألهبته الريح .

ولاحت برك صفر هنا وهناك على الطريق الذي ناء بثقل المارين . وكان المضي عسيراً ، فقد تسرب البلل داخل الجزمات . وأصغى ليستنتسكي أثناء سيره إلى حوار الرجال أمامه . كان ضابط يرتدي سترة فرو وقبعة قوزاقية اعتيادية مصنوعة من جلد الخراف يقول :

- هل شاهدته أيها الملازم ؟ رودزيانكو رئيس مجلس دوما الدولة ، وهو رجل مسن ، مضطر إلى السير على قدميه...

- ان روسيا تسير إلى هاوية الجلجلة* .

فقال أحدهم هازئاً من خلال نحنحته :

- حقاً انها لجلجلة... مع فارق واحد ، هو أن أمامنا طريقاً ثلجياً بارداً إلى حد اللعنة بدلاً من الطريق الصخري .

- هل يعرف أحدكم أين سنقضي الليلة أيها السادة ؟

- في يكاترينودار .

- نعم ، فقد قمنا بمسيرة كهذه في بروسيا ، كما أذكر...

- كيف سيستقبلنا الكوبان ؟... ماذا ؟... أجل ، ان الأمور ستكون مغايرة هناك بلا شك .

وسأل الملازم غولوفاتشيوف ليستنتسكي :

- هل لديك ما يمكن تدخينه ؟

ونزع الرجل قفازه الخشن وتناول السيكارة التي قدمها يفغيني ، وشكره ، وتمخط بيده كما يفعل الجنود ، ثم مسح أصابعه بذيل معطفه . فقال له المقدم لوفيتشيف وهو يبتسم متهكماً :

- انك تكتسب عادات ديمقراطية أيها الملازم ، أليس كذلك ؟

- لا معدى للمرء من ذلك ، فليس هناك من سبيل آخر . ماذا تفعل أنت ؟ هل أفلحت في الابقاء على دزينة من المناديل ؟

ولم يجبه المقدم . كان ثمة خيوط ثلجية خضر متعلقة بشاربيه الأشيبين المحمرين . وكان يزنخر بين الحين والآخر ، ويقطب من شدة البرد الذي نفذ إلى داخل معطفه الخفيف .

« ورود روسيا! » - قال ليستنتسكي ذلك في دخيلته وهو يتطلع بحنان شديد إلى أفراد الطابور الذي يمضي متعرجاً على امتداد الطريق .

ومر فريق من الفرسان مسرعين يتوسطهم كورنيلوف على صهوة جواد

* الجلجلة : الجبل الذي صعد اليه المسيح حاملاً صليبه . المترجمون

طويل . كان بقبعته البيضاء المصنوعة من جلد الحمل ومعطفه الأخضر الفاقع القصير ذي الجيوب الجانبية المائلة يهتز بين المراتب . وتبعه هتاف جهير أطلقته حناجر أمراء السرايا .

ـ لولا عائلتي لما كنت أهتم بهذا... ـ قال المقدم لوفيتشيف ذلك ثم سعل سعلة متعبة ونظر إلى ليستنتسكي من زاوية عينيه وكأنه ينشد عطفه ، وأردف : ـ لقد خلفت عائلتي ورائي في سمولنسك . زوجتي وابنتي . لقد بلغتْ السابعة عشرة في عيد رأس السنة الماضي . ماذا تقول في ذلك أيها الرئيس ؟

ـ هم... م... م...

ـ ألديك أنت أيضاً عائلة ؟ هل أنت من نوفوتشيركاسك ؟

ـ كلا ، أنا من اقليم الدون . ان والدي هناك .

ومضى لوفيتشيف يقول :

ـ كيف ستدبران أمرهما بدوني ، لا أستطيع أن أتصور...

بيد أنه قوطع بصوت ستاروبيلسكي المنفعل :

ـ كلنا خلفنا عوائلنا وراءنا . أنا لا أفهم لماذا تستمر على عويلك أيها المقدم . أي ناس أنتم! ما ان غادرتم روستوف حتى...

وصاح أحدهم من المراتب الخلفية :

ـ أهذا أنت يا ستاروبيلسكي ؟ ألم تكن في المعركة في تاغانروغ ؟

فاستدار ستاروبيلسكي وافتر وجهه الغاضب عن ابتسامة كئيبة وقال :

ـ آ ، فلاديمير غيورغيفتش ، كيف حصل أن التحقت بفوجنا ؟ نقلت ، ايه ؟ حفيظة من أثرت ؟ لا بأس... كنت تسأل عن تاغانروغ... نعم ، لقد كنت... لماذا ؟ بالضبط... لقد قتل! .

وعنّت على بال ليستنتسكي ، وهو ينصت إلى الحوار ساهماً ، ذكرى رحيله عن ياغودنويه ، وأبيه ، وأكسينيا . واستبد به شعور بالحنين مباغت . ومضى يجر خطاه ، ويرنو إلى ماسورات البنادق والحراب المتراقصة أمامه ،

والى القبعات الفرو ، والقبعات المدببة والقلنسوات المتجاوبة في حركتها مع ايقاع السير ، وراح يفكر في ذات نفسه :

«ان كل واحد من هؤلاء الأحياء المنبوذين الذين يعدون خمسة آلاف هو مثلي ، ولشد ما يضمره كل منا في قلبه من حقد وغضب لا حد لهما . لقد ألقى بنا الخنازير خارج روسيا ، ويحسبون أنهم سيقضون علينا هنا . ولكننا مع هذا سنرى كورنيلوف يقودنا إلى موسكو» .

وفي تلك اللحظة تذكر وصول كورنيلوف إلى موسكو وراح يفكر مسروراً في ذلك اليوم .

وعلى مبعدة إلى الوراء ، في مؤخرة الطابور كانت ثمة بطارية . وكانت الخيل تزنخر وعربات المدافع تقعقع ، وقد بلغت منخري ليستنتسكي رائحة عرقها فجعلته الرائحة المثيرة المألوفة يلتفت إلى الوراء ، فراح السائق الأمامي ، وهو نائب عريف شاب ، ينظر اليه ويبتسم بلا تكلف .

* * *

في الحادي عشر من آذار تجمع جيش المتطوعين في منطقة أولغنسكايا على مبعدة بضعة فراسخ جنوبي - شرقي روستوف . وقد أرجأ كورنيلوف كل حركة أخرى ، لأنه كان ينتظر وصول الجنرال بوبوف الأتمان الجديد الذي عين لجيش قوزاق الدون ، والذي كان قد تراجع من نوفوتشيركاسك إلى السهوب نحو الجهة الشرقية من الدون مع قوة قوامها ألف وستمائة رجل ، وخمسة مدافع ميدان وأربعون رشاشاً .

ذهب بوبوف يصحبه رئيس أركان حربه سيدورين ومرافق قوزاقي على ظهور الجياد إلى أولغنسكايا في صباح اليوم الثالث عشر . وأوقف حصانه في الساحة مقابل البيت الذي يشغله كورنيلوف ، وأمسك بقربوس سرجه ، ثم رفع ساقه عن السرج بصعوبة . وساعده مراسل ، وهو قوزاقي شاب ذو خصلة سحماء ، ووجه أسمر وعينين حادتين حدّة الزقزاق . ورمى بوبوف اليه العنان

وسار بتؤدة ووقار نحو سقيفة الباب ، يتبعه سيدورين وضباط آخرون . وساق المراسلان الخيل خلل بوابة جانبية إلى الفناء . وبينما وضع أحدهما ، وهو خيال كهل أحنف الساقين ، مخالي* علف الدواب ، ذهب الشاب ذو الشعر الأسود والعينين اللتين تحاكيان الزقزاق ليتعرف على الطاهية . كان يعيرها ببعض الكلام ، بينما كانت الفتاة وهي صبية متوردة تشد عصابتها بغنج وترتدي خفين كبيرين في قدميها العاريتين ، تأخذ طريقها مارة به ، وتواثبت ضاحكة فوق بركة إلى مخزن الحبوب .

دلف بوبوف الكهل الوقور إلى المنزل . وأعطى معطفه في الصالة إلى مراسل كفء نشيط ، وعلق سوطه وراح يتمخط مدة طويلة بصخب . وقادة المراسل مع سيدورين إلى قاعة الاستقبال .

كان الجنرالات الذين استدعوا لحضور المؤتمر مجتمعين . كان كورنيلوف يجلس أمام طاولة ومرفقاه على خارطة نشرت فوقها ، والى يمينه كان اليكسييف ، منتصباً ، نحيفاً ، حسن الحلاقة ، وقد اشتعل شعره شيباً . وكان دينيكين وقد التمعت عيناه الشاقبتان يسرّ إلى رومانوفسكي بشيء ما . ولوكومسكي ، الشبيه بدينيكين نوعاً ما ، يتخطى في الغرفة وهو ينتف لحيته . ووقف ماركوف أمام النافذة يتطلع إلى الفناء ، كان يراقب المراسلين وهما يعنيان بالخيل ويغازلان الطاهية .

حيا القادمان الجديدان الجنرالات المجتمعين وسارا إلى الطاولة وسألهما أليكسييف بضعة أسئلة ثانوية حول رحلتهما والجلاء عن نوفوتشيركاسك . ودخل كوتيبوف يصحبه عدد من الضابط المحاربين الذين دعاهم كورنيلوف إلى المؤتمر .

ثبت كورنيلوف بصره في بوبوف الذي اتخذ لنفسه مقعداً أمام الطاولة بهدوء ، وسأله :

---

* جمع مخلاة وهي ما يوضع به من علف . المترجمون

ـ أخبرنا أيها الجنرال بعدد قواتك .

ـ ألف وخمسمائة سيف ، وبطارية ، وأربعون رشاشاً بمعداتها .

ـ أنت ملم بالظروف التي أقسرت جيش المتطوعين على الجلاء عن روستوف . لقد عقدنا مؤتمراً البارحة ، واتخذنا قراراً بالسير نحو الكوبان ، باتجاه يكاترينودار ، حيث تنشط هناك بالفعل مفارز المتطوعين . سوف نسلك هذا الطريق ، ـ ومر برأس قلمه الثالم فوق الخارطة ، واستأنف يقول متعجلاً : ـ وسوف نستميل قوزاق الكوبان أثناء مسيرتنا ، ونقضي على مفارز الحرس الأحمر القليلة الواهنة غير المنظمة التي قد تحاول اعتراض سبيلنا . ـ وتابع عيني بوبوف في نظرتهما الجانبية الضيقة وأضاف : ـ ونقترح عليك أن تلتحق وقواتك بجيش المتطوعين وتسير معنا شطر يكاترينودار . فليس من صالحنا أن نبعثر قواتنا .

فأعلن بوبوف باصرار وحدة :

ـ لا أستطيع فعل ذلك .

انحنى أليكسييف قليلاً باتجاهه وقال :

ـ لِمَ لا ، اذا جاز لي أن أسأل ؟

ـ لأنني لا أستطيع أن أهجر اقليم الدون وأرتدّ إلى الكوبان . اننا في حمى الدون من الشمال وسوف نترقب الحوادث في السهب . ونحن لا نتوقع حركات فعالة من جانب العدو ، لأن الجليد سيذوب عما قريب ، وسوف يكون من المستحيل ارسال المدفعية وحتى الخيالة عبر الدون . ومن المنطقة التي اخترناها ، والوافرة بالكلأ والمؤونة ، نستطيع أن ننظم حركات أنصار في أي لحظة وبأي اتجاه .

كان يرد على حجج كورنيلوف بصورة مؤثرة ، ثم توقف ليأخذ نفساً ، غير أنه هز رأسه بعناد عندما رأى كورنيلوف على وشك أن يتكلم :

ـ دعني أنتهي . بالاضافة إلى ما سبق ، هناك عامل هام جداً ، وينبغي علينا نحن في القيادة العليا أن نحسب له الحساب . انه موقف قوزاقنا . ـ

وبسط يداً ناعمة بيضاء انغرست بعمق في لحم سبابتها حلقة ذهبية ، وواصل حديثه رافعاً صوته بعض الشيء : ـ فاذا ما تراجعنا إلى الكوبان فثمة خطر من تشتت مفارزنا . وقد يرفض القوزاق الذهاب . ويجب أن لا ننسى أن أثبت جنودي وأقواهم هم من القوزاق ، وهم لا يمكن الركون اليهم قطعاً كما... كما يركن إلى رجالكم ، مثلاً . انهم لا يدركون . انهم ببساطة يرفضون الذهاب . وأنا لا أستطيع أن أجازف بخسارة جنودي كلهم . ـ شد على الكلمات ثم قاطع كورنيلوف مرة أخرى : ـ يجب أن تعذرني . ها قد أخبرتك عن قرارنا وينبغي أن أؤكد لك أننا لسنا في وضع يسمح لنا بتغييره . ولا ريب أنه ليس من صالحنا أن نجزىء قوانا ، بيد أنه يوجد مخرج واحد لهذه المشكلة . لذلك أقترح أنه لو أخذنا ما قلته بنظر الاعتبار ، فسوف يكون أكثر سداداً لجيش المتطوعين ألا يتراجعوا إلى الكوبان ، إنما ينضمون إلى قطعات الدون في السهب وراء الدون . وسوف يكون بوسعه أن يستريح هناك ويستجمع قواه وسوف يعزز في الربيع بمتطوعين جدد من روسيا...

ـ كلا! ـ هكذا هتف كورنيلوف الذي كان أمس يفضل التراجع إلى السهوب فيما وراء الدون والذي وقف مع رأي أليكسييف على طرفي نقيض . وأضاف : ـ ليس هناك من معنى في الذهاب إلى السهب . ان لدينا ستة آلاف رجل تقريباً...

ـ اذا كانت المؤونة هي ما يشغل بالك ، فبوسعي أن أؤكد لك ، يا صاحب المعالي ، أنه لا توجد هناك منطقة فيها من المؤونة أكثر مما في السهب الذي يقع عبر الدون . هذا إلى أنك تستطيع الحصول على الجياد من الاسطبلات الخاصة هناك لتضع بعضاً من جيشك على ظهور الخيل... ومن ثم ستتوفر لك فرصة أفضل لحرب الحركات . ينبغي أن تكون لك خيالة ، وجيش المتطوعين يفتقر اليها في الوقت الحالي .

فنظر اليه كورنيلوف ، الذي كان ذلك اليوم مستجيباً إلى أليكسييف أكثر من المعتاد ، وبدا عليه بوضوح أنه لا يدري أي سبيل يسلك ، وأنه ينشد

العون من غيره . ثم حظي اليكسييف بانتباه زائد من المستمعين . وقد عبّر الجنرال العجوز عن نفسه بايجاز إلى جانب الشخوص إلى يكاترينودار ، كعادته في البت بالمسائل بسرعة ووضوح تام . وأنهى حديثه قائلاً :

ـ سيكون من السهل علينا أن نخترق حلقة البلاشفة في ذلك الاتجاه ، وأن نضم قوانا إلى الوحدات التي تعمل هناك . وتساءل لوكومسكي بحذر :

ـ واذا أخفقنا ؟

فعض اليكسييف على شفتيه ومرر اصبعه فوق الخارطة وقال :

ـ حتى لو أخفقنا ، فسوف يبقى لدينا مجال التراجع إلى جبال القفقاس حيث نفرق الجيش هناك .

وأيده رومانوفسكي . وتكلم ماركوف بضع كلمات مثيرة . وقد بدا أنه ليس هناك ما يقال ضد حجج اليكسييف الراجحة ، غير أن كلمات لوكومسكي وازنت بين كفتي الميزان .

قال هوه ينتقي كلماته بتريث وحذر :

ـ انني أويد اقتراح الجنرال بوبوف . ذلك أن المسيرة إلى الكوبان سترافقها صعوبات جمة لا يمكن تقديرها من هنا . فقبل كل شيء ، سيلزمنا أن نجتاز خطوط السكك الحديد مرتين...

وتبعت العيون كلها اتجاه اصبعه وهو يتحرك عبر الخارطة . ومضى لوكومسكي يقول بعناد :

ـ ولن يخفق البلاشفة في الترحيب بنا بالشكل المناسب . فسوف يستخدمون قاطرات مدرعة . ولدينا قوافل شحن ثقيلة وعدد كبير من الجرحى الذين لا يمكن تركهم وراءنا . ان ذلك كله سيكون عبئاً عظيماً على الجيش ويعرقل تقدمه السريع . هذا إلى أنني لا أستطيع أن أكون على استعداد للاعتقاد بأن قوزاق الكوبان يكنون لنا الود . لئن أخذنا ، على سبيل المثال ، قوزاق الدون الذين يفترض بهم انهم لا يرتاحون إلى حكم البلاشفة فعلينا أن نضاعف يقظتنا وأن ننظر إلى مثل هذه الشائعات بكثير من الشك . ان قوزاق

الكوبان يعانون من التراخوما البلشفية ذاتها التي نشرها الجيش الروسي السابق . وربما قابلونا بالعداء . وأخيراً ، أرى لزاماً علي أن أعيد القول ، ان رأيي هو أن علينا أن نيمم وجهنا شطر الشرق ، شطر السهوب ، ومتى ما استجمعنا قوانا ، فسوف نهدد البلاشفة من هناك .

إلا أن كورنيلوف ، تدعمه أكثرية جنرالاته ، تمسك بقراره القاضي بالسير خلال طريق زائغة شطر الكوبان ، وجمع الخيل لوحدات الخيالة . ثم ارفضّ المؤتمر . وتبادل كورنيلوف بضع كلمات مع بوبوف ، وودعه ببرود ، وذهب الى غرفته ، يتبعه أليكسييف . وخرج العقيد سيدورين إلى سقيفة الباب وصاح بحماس على مرافقه :

ـ الجياد!

وقدم اليه ملازم شاب وهو قوزاقي أشقر ، يمسك بسيفه وهو يطفر البرك . ووقف عند العتبة السفلى ، وتساءل بهمس :

ـ حسناً ، ما هو القرار أيها العقيد ؟

فأجابه سيدورين بصوت خفيض لا يخلو من فرح :

ـ قرار لا بأس به! لقد رفضنا الذهاب إلى الكوبان . وسنرحل في الحال . هل أنت مستعد يا أزفارين ؟

ـ نعم . وسيأتون بالخيل .

وأحضر المراسلان الجياد . كان ذو الخصلة السوداء وعيني الزقزاق يغمز لصاحبه ويقول وهو يزنخر ضاحكاً :

ـ انها لطيفة ، أليس كذلك ؟

فكشر الأكبر سناً وقال بتحفظ :

ـ لطيفة كفرس مصابة بالقوباء* .

ـ وقد تستدعيك إلى غرفتها مع ذلك ، هه ؟

* القوباء : داء في الجسد يتقشر منه الجلد . المترجمون

ـ دعكما من ذلك ، يا ابني آوي . فنحن في الصوم الكبير .

امتطى أزفارين ، صديق غريغوري ميليخوف القديم ، صهوة جواده الأخرق ذي الخطم الأبيض وأصدر الأمر بالسير صوب الشارع .

وهبط بوبوف وسيدورين الدرجات الأمامية ، يصحبهما بعض الجنرالات . وأمسك أحد جنود الحرس حصان الجنرال بوبوف وساعده على ادخال قدمه في الركاب . ثم لوح بوبوف بسوطه القوزاقي البسيط ، وخب بفرسه ، وكان إلى ورائه سيدورين ، والضباط الآخرون والقوزاق ، واقفين على ركائبهم ومنحنين إلى الأمام قليلاً . وحينما وصل جيش المتطوعين ميتشيتينسكايا بعد مسيرة يومين ، تسلم كورنيلوف تقارير جديدة عن السهوب الشرقية . ولم تكن مشجعة . فاستدعى كورنيلوف أمراء وحدات القتال وأعلن عن عزمه على الشخوص شطر الكوبان .

وأوفد رسولاً إلى بوبوف يدعوه للمرة الثانية بتوحيد القوات . ولكن الجواب كان عينه . لقد رفض بوبوف بأدب وبرود ، مفيداً أن قراره لا يمكن أن يطرأ عليه تغيير وأنه سيبقى في الوقت الراهن في المنطقة الشرقية من الدون .

١٩

كانت مفرزة غولوبوف قد أرسلت بإيعاز من اللجنة الثورية لاحتلال نوفوتشيركاسك بحركة التفاف واسعة ، وقد ذهب بونتشوك معها . وكان غولوبوف يقود المفرزة بخطى حثيثة ، ممتطياً صهوة جواده في مقدمتها لافحاً حصانه بإلحاف . وفي المساء بلغوا احدى القصبات ، وبعد أن أراحوا خيلهم قليلاً ، واصلوا مسيرتهم ثانية في الليل القاتم الخالي من النجوم ، والطريق المغطى بالجليد يتكسر تحت حوافر خيلهم ، وتبلج الفجر حينما كانوا يمرون بقصبة أخرى . وكانت الشوارع لما تزل خالية بعد ، ولكن قرب الساحة كان قوزاقي عجوز يكسر الجليد في حوض ازاء بئر . فتقدم منه غولوبوف ، فيما

توقفت المفرزة . وحياً الآمر القوزاقي :

ـ مرحباً يا أبتي .

فرفع الرجل يداً ترتدي قفازاً ببطء إلى قبعته الفرو ، وأجاب بنبرة غير ودية :

ـ أسعدت صباحاً .

ـ حسناً ، أيها الجد ، هل ذهب قوزاقيوكم إلى نوفوتشيركاسك ؟ وهل هناك تعبئة في قريتكم ؟

التقط العجوز فأسه بعجالة واختفى وراء بوابة فنائه دونما جواب .

فهتف غولوبوف «الى الأمام سر! » وامتطى جواده وهو يلعن .

وفي اليوم ذاته كان مجلس الجيش يتهيأ لاخلاء نوفوتشيركاسك . وقد سحب أتمان الميدان الذي عين حديثاً لجيش قوزاق الدون وهو الجنرال بوبوف ، القوات المسلحة للتو من المدينة ونقل كل المقدّرات العسكرية . فدخلت خيالة غولوبوف نوفوتشيركاسك دونما مقاومة على عكس ما توقعت . وجرى غولوبوف نفسه بصحبة مفرزة كبيرة من القوزاق إلى مقر قيادة المجلس . كان هناك حشد من نظارة فاغرين أفواههم متجمعين عند البوابة ، وكان ثمة ساعٍ ينتظر مع حصان الجنرال نازاروف المسرج .

قفز بونتشوك عن حصانه ووضع يده على رشاشه . وهرول مع غولوبوف وقوزاق آخرين إلى المنزل . وعند صوت اصطفاق الباب أثناء فتحه ، خطفت وجوه المندوبين المتجمعين في القاعة الفسيحة وشحب لونها أمام القادمين .

أمر غولوبوف بنبرة متوترة وكأنه في ساحة استعراض : « قفوا! » وأوسع خطاه نحو رأس الطاولة محاطاً بالقوزاق ، وقد تعثر لعجالته . ونهض أعضاء المجلس محدثين ضوضاء بكراسيهم اثر الصيحة الآمرة ، خلا نازاروف فقد بقي جالساً .

قال الجنرال بصوت غضوب :

ـ كيف تجرؤون على مقاطعة جلسة مجلس الجيش ؟

ـ أنتم رهن التوقيف! سكوتاً! ـ وازرق وجه غولوبوف ، ثم جرى نحو نازاروف ، ونزع الشارات من بزة الجنرال العسكرية ، وزأر بغلظة :

ـ لقد قلت انهض! خذوه! مع من أتكلم ؟ يا كبير العساكر!

وكان بونتشوك قد وضع رشاشه عند الباب . فتكأكأ أعضاء المجلس على بعضهم البعض مثل الخراف . وجر القوزاق نازاروف ، ورئيس المجلس فولوشينوف ذا الوجه الأخضر من الخوف ، وكثيرين آخرين ، أمام بونتشوك . وتبعهم غولوبوف قرمزي الوجه ، وسيفه يقعقع . فتشبث أحد أعضاء المجلس بكمه :

ـ أين تريدون الذهاب بنا ، أيها العقيد ، يا سيدي ؟

وحشر آخر رأسه فوق كتف غولوبوف :

ـ هل نحن أحرار ؟

فصاح بهما الآمر وهو يدفعهما عنه : «اذهبا إلى الشيطان! ـ ولما بلغ بونتشوك التفت اليهم وقال وهو يضرب الأرض بقدمه : ـ انقشعوا إلى الجحيم ! ليس لي الوقت لانشغل بكم! حسناً ، ماذا تنتظرون ؟» ـ ورجع صوته الملتاح* صداه في القاعة بعض الوقت .

صرم بونتشوك الليلة في بيت أمه . وفي اليوم التالي وردت أخبار تقول ان روستوف قد تم احتلالها بقوات سيفيرس . فاستحصل في الحال اذناً من غولوبوف بالذهاب إلى روستوف ، وشخص اليها بعد ان امتطى حصانه في الصباح التالي .

وبعد وصوله إلى روستوف ، عمل طوال يومين في مقر هيئة الأركان ، وزار دوائر اللجنة الثورية . بيد أنه لم يجد أبرامسون ولا آنا . وكانت قد تشكلت محكمة ثورية في مقر القيادة لتجري محاكمة مستعجلة للأسرى من الحرس الأبيض . فعمل بونتشوك طوال يوم في المحكمة ، واشترك في

---

* الملتاح : المتغير من الشمس أو من السفر . المترجمون

الاغارات ، ثم ذهب في اليوم التالي إلى اللجنة الثورية مرة أخرى دون كبير رجاء . ولكنه ما ان هم بارتقاء السلم حتى تناهى اليه صوت آنا من غرفة في الطابق الأعلى ، فاندفع الدم إلى قلبه عندما سمع ضحكتها . وتمهل في خطاه ، ثم فتح الباب .

كانت الغرفة التي تعود إلى القومندان في السابق ، تعج بالدخان . وكان ثمة رجل يرتدي مطعفاً عديم الأزرار يكتب على طاولة نسائية صغيرة ، وقد تجمع حوله جنود ومدنيون بفرواتهم ومعاطفهم وهم يدخنون ويتحادثون . ورأى آنا واقفة أمام النافذة وظهرها إلى الباب . وكان أبرامسون قاعداً على عتبة النافذة ويداه معقودتان على ركبتيه ، وقد وقف إلى جانبه واحد من رجال الحرس الأحمر طويل ذو أمارات لاتفية . كان الرجل يمسك سيكارة ويتكلم وخنصره منتصبة ، ولا بد أنه كان يروي حادثاً مضحكاً ، ذلك أن آنا كانت قد ألقت برأسها إلى الوراء من شدة الضحك ، وتجعد وجه أبرامسون الضاحك ، والتمعت تقاطيع الجندي الأحمر البارزة عن ذكاء حاد وحانق قليلاً .

فتقدم بونتشوك ووضع يده على كتف آنا :

ـ مرحباً يا آنا!

فالتفتت ، وهجم الدم على وجهها وطفا حتى ترقوتيها ، وترقرقت الدموع في عينيها . وراحت تتلعثم دون أن ترفع عينيها :

ـ من أين قدمت ؟ أنظر ، يا أبرامسون! انه يبدو مثل عملة جديدة ، وقد كنتَ قلقاً عليه!

واستدارت ومشت صوب الباب غير قادرة على السيطرة على انفعالها .

وشد بونتشوك على يد أبرامسون الحارة ، وتبادل بضع كلمات معه ، ثم مضى نحو آنا ، وقد اكتسى وجهه بابتسامة حمقاء جذلة للغاية ، تاركاً سؤالاً سأله أبرامسون دون جواب (بل لم يدرك معناه) . وإذ استعادت السيطرة على نفسها رحبت به بابتسامة ، ولكنها كانت متكدرة بعض الشيء من ارتباكها . وسألته :

ـ حسناً ، وكيف أنت ؟ متى وصلت ؟ هل جئت من نوفوتشيركاسك ؟ وهل كنت في مفرزة غولوبوف ؟ وما عندك من أخبار ؟

فأجاب على أسئلتها دون أن يحوّل نظرته الكئيبة المثبتة في وجهها .

واقترحت عليه قائلة :

ـ فلنذهب دقيقة إلى الخارج .

وعندما استدارا ليخرجا قال لهما أبرامسون :

ـ ستعودان قريباً ؟ لديَّ عمل لك ، أيها الرفيق بونتشوك . فكرنا في الاستفادة منك .

ـ سأعود بعد ساعة .

وفي الشارع جعلت آنا تحدق في عيني بونتشوك ، ولوحت بيدها مغضبة :

ـ ايليا ، ايليا ، لكم فقدت السيطرة على نفسي! تماماً مثل فتاة صغيرة! كان ذلك بسبب من عدم توقعي رؤيتك ، وبسبب من علاقتنا غير الواضحة مع بعضنا أيضاً . والحق يا بونتشوك ، ما هي علاقتي بك ؟ أهي علاقة مخطوبين عابثين ؟ هل تدري ، سألني أبرامسون في لوغانسك ذات مرة : « هل تعيشين مع بونتشوك ؟ » فأنكرت ، ولكنه رجل كثير الملاحظة ويرى ما يحدث أمام عينيه . ولم يقل شيئاً ، ولكنني أستطيع أن أرى من نظراته أنه لم يصدقني .

ـ ولكن حدثيني بكل شيء عن نفسك .

ـ آه ، شد ما كان عملنا رائعاً في لوغانسك! لقد جمعنا قوة من مائتين واحدى عشرة حربة . وقمنا بفعاليات تنظيمية وسياسية... ولكني لا أستطيع أن أحدثك عن كل ذلك بكلمتين! ولم أشف بعد من الصدمة التي سببها وصولك غير المنتظر . أين تراك... أين تراك تقضي الليلة ؟

ـ في منزل... أحد الرفاق . ـ قال ذلك كذباً وهو يتلعثم ، لأنه كان يقضي لياليه في مقر هيئة الأركان .

ـ ستنتقل إلى منزلنا هذا اليوم! هل تذكر أين أقطن ؟ لقد أوصلتني مرة إلى البيت .

ـ سأجده . ولكن... ألا يزحمكم وجودي نوعاً ما ؟

ـ لا تكن أحمق! انك لن تزحم أحداً ، وعلى أية حال فالأمر غير جدير بالنقاش .

وفي العشاء جمع حاجياته في حقيبته العسكرية الواسعة ، وذهب إلى الشارع في الضاحية حيث تسكن آنا . وعلى عتبة بيت آجري صغير التقى امرأة عجوزاً . كان لملامحها شبه قليل بآنا ، فلديها نفس البريق الأسود المزرق في عينيها وأنف مقوس بعض الشيء . انما بشرتها الترابية المخددة وفمها الغائر فضحا عمرها .

سألته :

ـ هل أنت بونتشوك ؟

ـ نعم .

ـ تفضل أدخل ، رجاء . ابنتي حدثتني عنك .

قادته إلى غرفة صغيرة ، وأرشدته أين يضع أشياءه ، وأشارت إلى الغرفة باصبع قوّسها الروماتيزم :

ـ هنا سيكون منامك . وذاك سريرك .

كانت تتكلم برطانة يهودية واضحة . وكانت تعيش معها في المنزل صبية شديدة النحول لها عينان داكنتان مثل آنا .

وبعد برهة من الزمن جاءت آنا نفسها ، جالبة الحياة والنشاط معها :

ـ هل جاء أحد ؟ هل قدم بونتشوك ؟

أجابتها أمها باللغة البيدية* ، فأسرعت آنا بخطوات راسخة إلى باب غرفة بونتشوك :

---

* اللغة التي يتكلمها اليهود في بعض أقطار أوروبا ، وهي قريبة إلى الألمانية . المترجمون

ـ هل لي أن أدخل ؟

ـ أجل ، أجل ، ـ ونهض من على الكرسي وتقدم للقائها .

ـ حسناً ، هل كل شيء على ما يرام ؟

وجالت ببصرها فيه بنظرة رضية بشوش ، وسألته :

ـ هل تناولت شيئاً من الطعام ؟ تعال الى الغرفة الأخرى .

وقادته من كمه إلى الغرفة الأكبر وقالت :

ـ أمي ، هذا رفيقي ، ـ وتبسمت . ـ كوني طيبة معه ، أرجوك .

وفي المساء فرقعت اطلاقات فوق روستوف مثل سنف** نبات الأكاسيا الناضج . بين حين وآخر يلعلع رشاش ، ثم يتلاشى الصوت ، ويغلف الليل ، ليل شباط المعتم الجميل ، الشوارع ويلفها في صمته الجليل . وظل بونتشوك وآنا جالسين حتى وقت متأخر في غرفته الصغيرة المعني بترتيبها كثيراً . قالت له :

ـ كنت أعيش هنا مع أختي الصغيرة . أنت ترى أية حياة متواضعة نحياها… تماماً مثل الراهبات ، اذ لا توجد حتى الصور الرخيصة أو الصور الفوتوغرافية ، أو ما يفيد بأني كنت تلميذة في الثانوية .

سألها :

ـ كيف كنتم تدبرون المعيشة ؟

فأجابت بلهجة لا تخلو من الاعتزاز :

ـ كنت أعمل في مصنع وأعطي دروساً .

ـ والآن ؟

ـ أمي تخيط . هما الاثنتان لا تحتاجان الاّ إلى اليسير .

وحدثها عن تفاصيل احتلال نوفوتشيركاسك ، والمعارك التي اشترك فيها مذ غادرته . وأعطته هي نبذة عن عملها في لوغانسك وتاغانروغ . وعندما

** السنف : قشر وعاء النبات اذا أكل الحب الذي فيه ، كالبازلاء والباقلاء وما اليها . المترجمون

أطفأت أمها الضوء في غرفتها ، في الساعة الحادية عشرة ، تمنت له ليلة سعيدة وتركته .

٢٠

نسب لبونتشوك عمل في المحكمة الثورية الملحقة بلجنة الدون الثورية . ومضى رئيس المحكمة وهو طويل ذو وجنتين غائرتين ، وعينين مسهدتين من العمل والسهر المتواصلين ، مع بونتشوك إلى نافذة غرفته . وقال له وهو يمسك بساعته اليدوية (فقد كان متأخراً حضور مؤتمر) :

ـ متى انضممت الى الحزب ؟ آها . طيب! حسناً ، سوف تكون قومندانا . أرسلنا الليلة الفائتة قومندانا السابق إلى جوار كاليدين ، لأنه كان يرتشي . لم يكن سوى رجل سادي ، كان خنزيراً بهيماً ، ونحن لا نريد مثل هذا النمط في صفوفنا . ما كنا نقوم به عمل قذر ، ولكن يجب علينا أن نعي مسؤوليتنا كلها تجاه الحزب . هل تفهم جيداً ما أقول ؟ ـ قال ذلك بمزيد من التأكيد ، واستمر : ـ يجب أن نحافظ على انسانيتنا . اننا نقضي على أرواح المعادين للثورة لأسباب ضرورية ، ولكن يجب أن لا نجعل من هذا العمل سركاً . هل تفهمني ؟ طيب ، هذا شيء حسن . والآن اذهب ومارس عملك .

وفي الليلة ذاتها أطلق بونتشوك ، بصفته مسؤولاً عن فصيل من الحرس الأحمر ، النار على خمسة من معادي الثورة ، بعد أن مضى بهم على مبعدة ثلاثة فراسخ خارج المدينة . اثنان منهما قوزاقيان ، والبقية من أهالي روستوف . وبعد ذلك في كل ليلة تقريباً كانوا يسوقون المحكومين بالاعدام خارج المدينة في سيارة حمل ، وتعد قبور مستعجلة ، يحفرها بعض جنود الحرس الأحمر والمحكومين جنباً إلى جنب . ثم يصف بونتشوك فصيله ، ويعطي الأمر برنة معدنية في صوته :

ـ على أعداء الثورة... ـ ثم يلوح بمسدسه : ـ أطلقوا النار!

ولم يمضِ أسبوع من هذا العمل حتى ذوى وازداد جهامة ، وكأنه ميت . وغارت عيناه ، وبات جفناه اللذان يطرفان بعصبية لا يقويان على اخفاء بريقهما البارد الحائر . وكانت آنا تراه في المساء فقط ، لأنها كانت تعمل في اللجنة الثورية وتعود إلى البيت متأخرة . ولكنها كانت تنتظره دائماً حتى تنبيء الطرقة المألوفة على النافذة عن وصوله .

وذات أمسية عاد بعد منتصف الليل كالعادة . وفتحت الباب وقالت :

ـ هل تتناول بعض العشاء ؟

فلم يجب ، بل مضى إلى غرفته ، يتعثر ثملاً . وألقى بنفسه ، كما هو ، بمعطفه ، وجزمته وقبعته ، على سريره . فذهبت إليه آنا وجعلت تحدق في وجهه : كانت ثمة غشاوة لزجة على عينيه ، وتألق اللعاب على أسنانه ، وشعره الذي خف بعد التفوس انبسط خصلات داكنة فوق جبينه .

جلست إلى جانبه . وهمست وقد اعتصر الاشفاق والألم فؤادها :

ـ هل يرهقك ذلك ، يا ايليا ؟

فعصر يدها ، وصك أسنانه ، واستدار إلى الحائط . وأخلد إلى النوم دون أن ينبس بكلمة . وجعل يدمدم في نومه بأشياء مبهمة بائسة ، وحاول الوثوب . وراقبته هلعة ، وهي ترتعد من الخوف ارتعاداً شديداً . نام وقد أغمض عينيه نصف اغماضة ، وكانت مقلتاهما الصفراوان الجاحظتان تلتمعان بشكل محموم تحت الأجفان .

قالت له في الصباح :

ـ أترك هذا العمل! اذهب إلى الجبهة . انك لا تشبه أي شيء على الأرض يا ايليا . وسوف يهلكك هذا العمل .

فصرخ وعيناه تطرفان من الغيظ :

ـ اخرسي!

ـ لا تصرخ ، هل أسأت اليك ؟

فلزم الصمت في الحال ، وكأن صرخته قد أطلقت هياجه المتجمع في

صدره . ثم نظر إلى راحتيه بقلق ، وقال :

ـ القضاء على قذارة الانسانية عمل قذر هو الآخر . واطلاق النار على الناس يكرب الصحة والروح . اللعنة عليها جميعاً... ـ وجعل يلعن لأول مرة أمامها بما يصعب وصفه . ـ ان المخابيل والوحوش والمتعصبين وحدهم هم الذي يتطوعون لمثل هذا العمل القذر . أليس كذلك ؟ كلنا نريد الحياة في جنينة . ولكن اللعنة عليها جميعاً! فقبل أن تزرع الورود والأشجار يجب أن تزاح القذارة . ويجب أن تسمد الأرض! ولابد أن تتسخ يداك! ـ ورفع صوته رغم أن آنا قد ابتعدت عنه ببطء . ـ يجب أن يقضى على القذارة ، ومع هذا فالناس يقرفون من هذا العمل! ـ كان يصرخ ويرعد على الطاولة بقبضته ويطرف بعينيه المتأججتين .

فألقت أم آنا نظرة داخل الغرفة ، فثاب إلى رشده وجعل يتكلم بهدوء :

ـ لن أترك هذا العمل! أنا أدرك ، وعلى ثقة من أنني أقدم خدمة هنا . لسوف أجرف القذارة ، وسوف أسمد الأرض بالروث ، كيما تزداد خصوبة... أجل ، خصوبة . ولسوف يمشي ناس سعداء على هذه الأرض يوما ما... وربما سيمشي عليها ابني الذي لم أنجبه بعد! ـ وأطلق ضحكة صارة جوفاء .
ـ لكم قتلت من هذه الأفاعي ، هذا القراد! ان القرادة حشرة تنهش في الجسد . قتلت حوالي عشر منها بهاتين اليدين... ـ ومد يديه الطويلتي الأصابع ، السوداويتي الشعر المعقوفتين كمخلبي نسر ثم أسقطهما على ركبتيه وقال بصوت مهموس : ـ إلى الجحيم! سوف أذهب إلى الجبهة... أنت على حق...

فقالت بهدوء :

ـ نعم ، اذهب إلى الجبهة أو اتخذ لك عملاً آخر . افعل ذلك يا ايليا ، والا... فسوف تفقد صوابك .

أدار لها ظهره وجعل ينقر على النافذة .

ـ كلا... أنا قوي بما فيه الكفاية . ولكن لا تحسبي أن هناك رجالاً قدّوا

من حديد . لقد جبلنا من طينة واحدة . ولا يوجد انسان في واقع الحياة مجرد من الخوف في المعارك ، ليس هناك انسان يستطيع أن يقتل أناساً دونما احساس... دون أن يتألم معنوياً . أمّا أنا فلا أتوجع للضباط . فهم واعون طبقياً ، مثلك ومثلي . ولكن كان عليّ البارحة أن أقتل ، من بين التسعة الذين قتلتهم ، ثلاثة قوازق... ثلاثة كادحين . وعندما شرعت أفك وثاق أحدهم... ـ واستحال صوته أجوف غير واضح ، لكأنه كان يبتعد رويداً رويداً ، ـ لمست يده عفواً ، فالفيتها صلبة مثل كتاب مجلد مطلي بالصمغ . راحة سوداء ، كلها شقوق وكدمات... حسناً ، يجب أن أذهب . ـ وقطع حديثه بغلظة ، واستدار ليتحاشى عيني آنا ، وجعل يحك جوزة عنقه التي أحس وكأنها تشد بأنشوطة من ذيل الحصان .

ارتدى جزمته ، وشرب قدحاً من الحليب وخرج . وفي المجاز لحقت به آنا . وقفت وأمسكت بيده الثقيلة ، ثم ضغطتها على خدها الملتهب وجرت إلى الفناء .

* * *

ازداد الطقس دفئاً . وجاء الربيع يطرق أراضي الدون . وفي بواكير نيسان بدأت مفارز من الحرس الأحمر الأوكراني تتوافد على روستوف يطاردها الهيداماك* والألمان . ووقعت في المدينة حوادث اغتيال ونهب ، وتجاوزات غير مشروعة . وقد اضطرت اللجنة الثورية إلى نزع السلاح عن بعض وحدات متفسخة كلياً . ولم يكن ذلك ليتم دونما مشاحنات وتبادل اطلاق النار . أمّا القوزاق المقيمون حول نوفوتشيركاسك فقد بدؤوا يتململون . وكما تشب براعم الحور في آذار ، شبت الصدامات في القرى بين القوزاق والغرباء ، وقامت التمردات هنا وهناك ، ووضعت اليد على مؤامرات معادية للثورة .

---

* قوات أوكرانية قومية . المترجمون

ولكن روستوف ظلت تحيا حياة ناشطة بنبض الدم في عروقها . كان الجنود والبحارة والعمال يتنزهون جيئة وذهاباً في الشارع الرئيسي في الأماسي . وكانوا يعقدون الاجتماعات ، ويقشرون بذور عباد الشمس ، ويبصقون على الأرصفة الندية ، ويغازلون النساء ، وكانوا كالسابق يعملون ، ويأكلون ، ويشربون ، ويهجعون ، ويموتون ، وينسلون ، ويتعاطون الحب ، ويحقدون ، ويتنسمون نسيم البحر المالح ، ويعيشون في خضم من العواطف النبيلة والتافهة . ولكن أيام النحس كانت تقترب من روستوف . وكان الهواء مشحوناً بشميم الأرض السوداء بعد ذوبان الجليد ودماء المعارك الوشيكة .

ذات يوم مشمس لطيف عاد بونتشوك إلى البيت مبكراً على غير عادته ، وقد أدهشه وجود آنا قبله .

ـ ولكنك تتأخرين دائماً فلماذا بكّرت اليوم ؟

ـ ليست صحتي على ما يرام . تبعته إلى غرفته . وخلع ملابسه الخارجية ، وقال بإبتسامة شابها السرور :

ـ آنا لن أعمل في المحكمة بعد اليوم .

ـ ماذا ؟ أين ستذهب ؟

ـ إلى اللجنة الثورية . لقد تحدثت اليوم مع كريفو شيليكوف . وقد وعد بإيفادي إلى مكان ما في المنطقة .

ثم تناولا عشاءهما سويّة وبعد ذلك استلقى لينام . ولكنه لبث وقتاً طويلاً لا يستطيع النوم من شدّه اضطرابه ، وظل راقداً يدخّن ، ويتقلّب على الفراش الخشن ، ويتأوه بسرور ، لقد تنفّس الصعداء لتركه المحكمة ، فقد شعر أنّه لن يمضي طويل وقت حتى تنهدّ أعصابه . وكان قد انتهى من سيكارته الرابعة عندما تناهى إلى سمعه صرير الباب الخفيض . ولمّا رفع رأسه رأى آنا فمرقت عبر عتبة الباب حافية القدمين لا يسترها سوى قميصها الداخلي ، واقتربت من فراشه بهدوء . ومن خصاص صفاقة النافذة سقط ضوء القمر الأخضر الضبابي على كتفها العاري .

انحنت فوقه ووضعت يداً دافئة على شفتيه .

تزحزح بهدوء...

واستلقت بجانبه .

ودفعت إلى الوراء بنفاذ صبر خصلة من شعرها بثقل العنقود ، كانت قد تدلّت على جبينها وتوهجت عيناها بنار زرقاء وهمست بصوت قاسٍ معذّب :

ـ سوف أحرم منك عاجلاً أم أجلاً... أريد أن أحبّك بكل جوارحي ، وارتعدت بشدّة من كلامها :

حسناً ، عجّل!

فقبلها بونتشوك ، ولكن بهلع ، واستبد به حياء طغى على شعوره الواعي ، فقد أدرك أنه عاجز . وجعل رأسه يهتز ووجنتاه تصطليان عذاباً . وبعد ذلك فكّت آنا نفسها وأبعدته عنها مغضبة . وبنفور واشمئزاز في صوتها تساءلت بهمس بادي الإزدراء : ألا تستطيع ؟... عليل ؟ آه ، يا للشناعة!... اتركني لوحدي!

فعصر أصابعها بقوّة ترضرضت بعض الشيء من شدتها ، وحدق في العتمة الضبابية لعينيها المتسعتين الضبابيتين ، وتساءل متلعثماً ، ورأسه يهتز في حركة مفلوجة :

لماذا ؟لماذا تدينينني ؟ أجل ، أحرقت نفسي حتى صرت رماداً!... أنا لاأقوى حتى على هذا الشيء في الوقت الحاضر . أنا لست عليلاً... هل تفهمين... جربي أن تفهمي! لقد استنزفت حتى القعر...

وأطلق أنيناً خفيضاً وقفز من السرير ثم أشعل سيكارة . ووقف أمام النافذة وقتاً طويلاً مهدلاً كتفيه...

نهضت آنا وطوقته بهدوء ثم قبلته على حاجبه برفق كما تفعل الأمهات .

وبعد اسبوع ، اعترفت آنا وهي تخفي وجهها الملتهب تحت إبطه :

ــ ظننت... أنك كنت... مع غيري... ولم أدرك أن العمل قد استنزفك إلى هذا الحد .

منذ ذلك الحين ما عاد بونتشوك يشعر بتدليل امرأة محبّة فحسب ، بل بعناية دافئة دفاقة توليها إياه أم رؤوم . ولم يوفد إلى الريف . فقد أصرّ بوتيليكوف على بقائه في روستوف . وكانت لجنة الدون الثورية تفور نشاطاً ، واستعداداً لعقد مؤتمر سوفييتات اقليمي وفي كفاحها ضد ثورة الردة التي ذر قرنها في منطقة الدون .

٢١

كانت الضفادع ترسل نقيقها وراء الصفصاف النابت على شاطئ النهر... والشمس تغرب خلف تلة وطيئة ، وكانت قرية سيبيتراكوف تتلفع ببرودة المساء . وعلى الطريق الترابي امتدت الظلال المائلة للبيوت ، وكانت ماشية القرية تتهادى قادمة من السهب ، تستحثها النساء القوزاقيات ، ويتبادلن القيل والقال أثناء سيرهن . وكان الأطفال الحفاة وقد لفحتهم الشمس ، يلعبون لعبة الدباخ* في الأزقة . وجلس الشيوخ من الرجال بوقارهم على الدكات أمام البيوت .

كانت القرية قد فرغت من بذار الربيع خلا أماكن هنا وهناك كانوا يبذرونها ذرة وعباد الشمس .

كان فريق من القوزاق جالسين على كومة من جذوع البلوط قرب أحد المنازل في ضاحية القرية . وكان رب البيت ، وهو جندي مدفعي مجدور ، يروي حادثة عن الحرب الألمانية . وكان مستمعاه ، وهما جار عجوز وصهره ، قوزاقي شاب متجعد الشعر ، ينصتان اليه بصمت . وقدمت زوجة المدفعي ، وهي امرأة حسناء طويلة القامة ، مكتنزة ، هابطة الدرجات . كان كما قميصها

---

* وهي لعبة (السنبيلة) كما تسمى في بغداد ، حيث يطأطىء اللاعب فيها رأسه ليقفز من فوقه الآخرون . المترجمون

الوردي المحشور في تنورتها ، قد طويا حتى المرفقين وكشفا عن ذراعيها السمراوين الجميلتين . ومضت وهي تحمل وعاء إلى الحظيرة بخطوات طليقة جريئة رشيقة تتميز بها القوزاقيات . وكان شعرها قد أفلت من عصابتها البيضاء الضاربة إلى الزرقة ، (لقد فرغت لتوها من اعداد الموقد لتشعله في الصباح) وكان صندلها الذي انتعلته قدماها العاريتان يصطفق ، أثناء وطئها الرقيق على الحشيش الفتي الذي يغطي الفناء .

وتناهى إلى مسامع القوزاق صوت الحليب الرنّان يشخب في الوعاء . وإذا فرغت المرأة من الحلب ، انحنت إلى الأمام قليلاً ويدها اليسرى مقوسة إلى الأعلى مثل عنق أوزة وحملت الوعاء المليء بالحليب وعادت به إلى المنزل ونادت من على الدرجات :

ـ يحسن بك ياسيميون أن تذهب وتبحث عن العجل .

فأجابها زوجها :

ـ وأين هو ميتكا ؟

الشيطان يدري ، لقد انسل إلى مكان ما .

ونهض القوزاقي متباطئاً وذهب إلى منعطف الشارع . ونهض العجوز وصهره أيضاً ليذهبا إلى بيتهما . بيد أن القوزاقي ناداهما من المنعطف :

ـ انظر يا دوروفي غافرايليتش! تعال إلى هنا!

فذهب الرجلان شطر القوزاقي ، الذي أشار بصمت إلى السهب . كان ثمة طابور من المشاة ، وخيالة ، وعربات تتقدم وسط مثار من النقع الأحمر طوال الطريق .

فضيق العجوز حدقتي عينية منذهلاً ووضع كفه فوق حاجبيه الأبيضين وقال :

ـ يبدو أنهم جنود .

فقال القوزاقي وفي صوته نبرة خفيفة :

ـ من عساهم يكونون ؟

وقدمت زوجته من بوابة الفناء وقد ألقت سترتها على كتفيها . وتطلعت إلى السهب فشهقت بقلق :

- من هم ؟ رحماك يارب ، ماأكثرهم!

- مجيئهم لايبشر بخير ، . هذا أكيد...ومضى العجوز إلى الفناء ونادى صهره بصوت غاضب :

- ادخل إلى الفناء ، لاحاجة للوقوف والتطلع!

وهرعت النسوة والأطفال إلى المنعطف تتبعهم جماعات من القوزاق . وانعطف طابور الجند في الطريق عبر السهب حوالي الفرسخ من القرية وحملت الريح أصواتهم وزنخرة خيلهم ، وجلبة العربات .

قالت زوجة المدفعي لزوجها :

- إنهم ليسوا قوزاقاً ، ليسوا منا .

فهز كتفيه :

- بالطبع ليسوا قوزاقاً وربما كانوا ألماناً ؟ كلا ، إنهم روس ، انظري ، بوسعك أن تري علمهم الأحمر... هكذا إذاً... واقترب قوزاقي طويل . كان يبدو عليه أنه مصاب بالملاريا ، فقد أصفر بلون الومل ، وقد تلفع بفروة وارتدى جزمة من اللباد ، رفع قبعته الفرو الشعثاء وقال :

- هل ترون ذلك العلم ؟ إنهم بلاشفة .

- أجل إنهم لكذلك .

وانطلق عدة فرسان من الطابور يذهبون باتجاه القرية . وتبادل القوزاق النظرات وأخذوا ينحسرون بهدوء ، وتفرق الأطفال والصبابا كل إلى حال سبيله ، ولم تمض بضع دقائق حت خلا الشارع . وجرى الفرسان إلى القرية وصاروا عند البلوط حيث كان يجلس القوزاق الثلاثة قبل بضع دقائق . كان المدفعي واقفاً عند بوابة فنائه . فتقدم نحوه قائد الفرسان مرتدياً قبعة كوبانية ومتخصراً بوشاح قرمزي كبير من الحرير حول قمصلته الخاكية المحزمة وهو يمتطي فرساً فحماء .

ـ مرحباً أيها القوزاقي افتح البوابة!

فشحب القوزاقي ورفع قبعته :

ـ ومن عساك تكون ؟

فصاح الجندي

ـ افتح البوابة!...

وجعلت الفرس ترفس في السياج المصنوع من الأغصان بقادمتيها ، وهي تعضعض اللجام وقد نمّت عيناها عن نظرة خبيثة . وفتح القوزاقي فتحة البوابة ، فدخل الفرسان واحداً في إثر واحد على صهوات جيادهم وقفز قائدهم وهو الذي كانت قبعة كوبانية على رأسه من على سرجه بخفة وخطا نحو الدرجات . وجلس عليها قبل أن يترجل الآخرون ، ثم أشعل سيجارة وقدم علبته للوزاقي فرفض الرجل .

ـ ألا تدخن ؟

ـ كلا ، شكراً .

أنتم لستم من طائفة المؤمنين القدامى ؟

ـ كلا ، نحن أرثذوكس . وماعساكم تكونون ؟

ـ من نحن ؟ الحرس الأحمر التابع للجيش الاشتراكي الثاني .

وتقدم بقية الفرسان نحو الدرجات وهم يقودون جيادهم . وربطوها إلى الحظار* . ومضى أحدهم إلى زريبة الخراف ، وهو رجل طويل تدلى شعره المتسخ مثل عرف الحصان على حاجبه . وفتح البوابة كأنه رب الدار ، وانحنى إلى الأسفل وجعل يبحث في أرجاء الزريبة ، فجرّ خروفاً كبيراً من قرنيه وصاح بصوت عال مصطنع :

ـ تعال يابيوتر وساعدني .

وهرع إلى مساعدته جندي يرتدي جلداً نمساوياً . فجفل رب الدار

---

* سياج الحظيرة . المترجمون

القوزاقي يمسد لحيته ويتطلع حواليه وكأنه ليس في بيته ولم ينبس ببنت شفة ، إنما راح يحمحم ودخل المنزل صاعداً الدرجات ، فيما طوى الخروف ساقيه الرفيعتين بعد أن نحرت رقبته بسيف .

ومضى في أثره الجندي ذو القبعة الكوبانية وآخران أحدهما صيني والآخر روسي إلى المطبخ وصاح القائد بلامبالاة وهو يجتاز العتبة :

ـ لا تغضب يا مالك ، فسوف ندفع لك نقوداً كثيرة .

وصفق يده على جيب بنطاله وقهقه عالياً . ولكن قهقهته جمدت في الحال عندما وقع بصره على زوجة القوزاقي . كانت واقفة أمام الموقد ، ترمقه بعينين مرتعبتين ، وقد زمّت على أسنانها .

فالتفت إلى الصيني وقال له وعيناه تحومان حول المطبخ بقلق :

ـ اذهب أنت مع هذا الرجل ، ـ وأشار إلى القوزاقي . ـ اذهب معه ، فسوف يعطيك تبناً للجياد . اعطنا بعض التبن ، ـ والتفت إلى القوزاقي وقال : ـ سوف ندفع نقوداً كثيرة مقابل ذلك . ان الحرس الأحمر لا يستلب أحداً البتة . اذهب ، أيها القوزاقي ، اذهب! ـ قال ذلك بصوت ذي رنّة فولاذية .

وخرج القوزاقي من المنزل وهو يسترق النظر من فوق كتفه ، وبصحبته الصيني والجندي الآخر . وعندما شرع يهبط الدرجات سمع زوجته تنادي بصوت ناشج . فجرى عائداً نحو المجاز وارتمى على الباب ، وانفتح المزلاج بيسر . كان الجندي قد أمسك بذراع المرأة فوق مرفقها العاري وجعل يجرها إلى الغرفة الأمامية التي هبط منها نور الغسق . وكانت تقاومه وتدفع صدره بيديها ، وكان على وشك أن يضع ذراعيه حول خصرها ويحملها ، غير أن الباب فتح في تلك اللحظة . فهرع القوزاقي عبر المطبخ ووضع نفسه أمام زوجته . وقال بصوت جاف وخفيض :

ـ جئت إلى بيتي زائراً... فعلام تتعرض لزوجتي ؟

أتركها . أنا لا أخاف بنادقكم . خذوا أي شيء تبغون ، اسرقوا كل شيء ، ولكن لا تمسّوا زوجتي . ولن تفسق مع زوجتي وأنا على قيد الحياة .

وأنت ، يانيورا... ـ والتفت إلى زوجته ومنخراه يرتعشان : ـ اذهبي إلى بيت العم دوروفي . فلا معنى لبقائك هنا .

فابتسم الجندي ابتسامة شوهاء وهو يصلح وضع السير على قميصه :

إنك تنزعج بسرعة أيها القوزاقي ، إلى حد أنك لاتدع امرءاً يمزح قليلاً ، فأنا أحب المزاح ، وسريتي كلها تعرف مزاجي... وقد فعلت ذلك عمداً ، فقد قلت في نفسي :

« لأجالس المرأة » ، ولكنها شرعت بالعياط ، ألا تدعنا نأخذ بعض التبن ؟لايوجد ؟ حسناً . هل لدى جارك شيء منه ؟

وخرج يصفر ويلوح بسوطه بشدة . وبعد ذلك بقليل دخلت الوحدة بكاملها القرية . كان تعدادها حوالي ثمانمائة حربة وسيف . وقد أعد الحرس الأحمر العدة ليبيت الليلة خارج القرية . فقد كان جلياً أن الآمر لم يكن ليأتمن جنوده الشذاذ والمتسيبين إذا قضوا الليلة في القرية .

كانت وحدة تيراسبول التابعة للجيش الاشتراكي الثاني قد هزتها المعارك التي خاضتها ضد الهيداماك وضد جيش الاحتلال الألماني الذي كان يتحرك عبر أوكرانيا ، فشقت طريقها القهقرى إلى الدون ، وإذ تخلت عن طريق السكك الحديد ، حاولت أن تأخذ طريقها المنعطف إلى فورونيج في الشمال سيراً على الأقدام لأن الألمان قد استقروا هناك قبلهم ، وقد ازداد تهور الحرس الأحمر أثناء ذلك ، تشجعهم العناصر الاجرامية التي تكاثرت في صفوفهم .

وفي تلك الليلة ، تدفقوا زرافات على القرية ، رغم أوامر ووعيد قيادتهم ، وذبحوا الخراف ، واغتصبوا امرأتين قوزاقيتين في الضواحي ، وراحوا يطلقون النار في الساحة دونما مبرر ، فجرح أحد من جنودهم . وفي الليل شربوا من الكحول الذي كانوا يحملونه معهم ، على كل عربة .

وأثناء ذلك أرسل ثلاثة قوزاق على الخيل من أهل القرية ليستنفروا القرى المجاورة .

فأسرج القوزاق جيادهم في عتمة الليل ، وحملوا سلاحهم ، وجمعوا

بسرعة مفارز من قوزاقي خط الجبهة دون أن يستثنوا الكهول .

وهرعوا إلى سيتراكوف تحت قيادة ضباط وحتى رؤوساء عرفاء من أهالي القرى ، وأحاطوا بالحرس الأحمر مختبئين في الوهاد أو خلف المرتفعات . كما توافدات خلال الليل جماعات من الرجال من سائر أنحاء القرى المتاخمة .

وتلاشت نجوم الثريا في السماء . وفي الفجر انهدت سيول من فرسان القوزاق بزئيرها على الحرس الأحمر من كل جانب . ولعلع رشاش ، ثم تلاشى صوته ، ثم انطلق ينفث ناراً وحشية على غير ما اتفاق من جديد . ثم ما لبث أن عاد إلى هدأته ، وجرى بعد ذلك طعان عن قرب .

ولم تمض ساعة من الزمن حتى قضي الأمر ، فقد هزمت الوحدة شر هزيمة ، وقتل أكثر من مائتين ، وأسر حوالي خمسمائة .

ووقعت في أيدي القوزاق بطاريتان تتألف كل منهما من أربعة مدافع ، وستة وعشرين رشاشاً ، وآلاف البنادق وكميات كبيرة من المعدات العسكرية .

وفي اليوم التالي انطلق الرسل على خيلهم يحملون الرايات الحمر في كل مكان ، وراحت القرى تمور بالحركة ، وطردت مجالس السوفييات شر طردة ، وسرعان ما انتخب الأتمانات . ولم يحل شهر أيار حتى انفصلت المناطق العليا من اقليم الدون كلياً عن اللجنة الثورية . واختيرت فيشينسكايا الآهلة بالسكان مركزاً للمنطقة الجديدة التي سميث «بالدون الأعلى» ، . وشرعت منطقة الدون الأعلى التي تضم اثنتي عشرة منطقة قوزاقية ومنطقة أوكرانية ، تحيا حياتها المستقلة ، بمعزل عن المركز الرئيسي لاقليم الدون . وانتخب في الحال قوزاقي من منطقة يلانسكايا ، وهو جنرال يدعى زاخار أكيموفيتش ألفيوروف ، أتماناً للمنطقة . وقد قيل أنه كان قد شق طريقه من ضابط قوزاقي عسير الحال إلى مرتبة الجنرالية بفضل زوجته ليس إلا ، وهي امرأة ذكية نشطة . كما قيل أنها كانت تجر بعلها غير الموهوب من أذنيه ولم

تكن تدعه يحيا في سلام إلا عندما دخل الأكاديمية العسكرية إثر ثلاث محاولات فاشلة .

ولئن كان ألفيوروف مثار حديث ما في تلك الأيام ، فلم يجر ذلك على نطاق واسع . ذلك أن أذهان القوزاق كانت منشغلة بأشياء أخرى .

٢٢

كانت مياه الفيضان آخذة بالانحسار من الحقول . وبدت الأرض السمراء عند أسيجة الحدائق جرداء تحف بها أعواد القصب اليابس ، والأغصان ، والأوراق الميتة التي خلفها الفيضان . وأخذ الصفصاف المنفوش عند أجمات شاطئ الدون التي اكتسحها الفيضان يخضوضر ، وتتدلى الأزهار على شكل أقراط في أطراف الغصون .

وأوشكت براعم أشجار الحور أن تتفتق . وفي أفنية حقول القرية تدلت عساليج الصفصاف الأراجواني خفيضة فوق الغدران ، وبراعمها الصفر تغتسل في الماء الذي تعابثه الريح ، كالزغب الذي يعلو فراخ البط . وعند الفجر تقترب أسراب الأوز في سباحتها من الأسيجة بحثاً عن الطعام ، يبطبط الغطاس* ذو الصوت النحاسي في المياه المتخلفة . وعند الظهيرة تعابث أمواج الدون التي يدفعها الريح البط البري الأبيض .

وشهدت تلك السنة مرور أعداد غفيره من الطيور . وكان الصيادون القوزاق يشاهدون على غير ماألفوه طائر البجع البري مستريحاً في غياض الغابات ، وهم يمضون بزوارقهم إلى شباكهم في الفجر ساعة تصبغ حمرة الغسق الخمرية الماء بنجيعها . بيد أن الأخبار التي عاد بها خريسونيا وماتفي كاشولين إلى القرية كانت تفوق كل الغرائب . فقد ذهبا إلى غابة الحكومة

---

* طائر كالبط . المترجمون

بالعربة لينتقيا زوجاً من شتل البلوط لأغراض الزراعة ، وحينما كانا يشقان طريقهما خلل أجمة ، أفزعا معزى برية وجديها الصغير . فقفزت المعزى العجفاء البنية الحائلة إلى صفار من وهدة غطاها نبات الشوك والحسك* ووقفت تحدق فيهما بضع لحظات ، وأرجلها الرشيقة ترقص بارتباك ، وجديها ملتحق بها . وإذ تناهت اليها شهقة خريستونيا المستغربة ، مرقت خلل شتلات البلوط بسرعة ووجد القوزاقيان صعوبة في أن يلمحا حوافرها الزرقاء وذنبها البني بلون وبر الجمال .

فتساءل ماتفي كاشولين وقد ترك الفأس تسقط منه من شدة دهشته :

ـ ماذا كان ذلك ؟

فأطلق خريستونيا صوته في الغابة التي يلفّها سكون ساحر ، وقد تملكه سرور لايوصف :

ـ لابد أنها معزى . معزى برية! شاهدت أمثالها في جبال الكربات .

ـ إذاً لابد أن الحرب قد ساقتها إلى سهوبنا .

ولم يكن من خريستونيا إلا أن يوافقه قائلاً :

ـ لابد أن هذا هو السبب . ثم ألَمْ تر الجدي معها ؟ مشهد جميل ، اللعنة عليه! كأنه طفل مع أمه!

وظلا طوال طريقهما إلى القرية يتحدثان عن هذا الزائر العجيب الذي طرأ على المنطقة . وأخذت الوساوس تساور ذهن ماتفي العجوز :

ـ ولكن أين قرونها لوكانت معزى ؟

ـ وماحاجتك إلى القرون ؟

ـ لاحاجة إلى القرون! للسؤال فقط : إن كانت معزى فلماذا لم تبد كالمعزى ؟ هل شاهدت في حياتك معزى دونما قرون ؟ تلك هي الحكاية . لعلها كانت ضرباً من النعاج البرية .

---

* الحسك : هو نبات شائك . المترجمون

فتصدى له خريستونيا قائلاً :

- تخطيت زمانك أيها العجوز! اذهب إلى آل ميليخوف ، لفتاهم غريغوري سوط مصنوع من ساق معزى ، وحينذاك ستصدق ماأقول ؟

وعمد ماتفي العجوز بالفعل إلى زيارة آل ميليخوف في اليوم نفسه . لقد كانت عصا سوط غريغوري حقاً مغطاة بجلد ساق معزى برية ، وقد بقي حتى الحافر الدقيق في طرفها ، منعلاً بشكل حاذق بنعل نحاسي .

وفي يوم الأربعاء من الأسبوع الأخير لعيد الصيام الكبير ، خرج ميشا كوشيفوي باكراً في الصباح ليتفحص الشباك التي وضعها في النهر قرب الغابة . وقد غادر المنزل قبل الفجر . وكان زمهرير الصباح قد لسع الأرض فغطاها بقشرة رقيقة من الجمد ، راح يخشخش تحت قدميه . سار مشيا وعلى كتفه مجذاف كبير ، وقد انزاحت قبعته إلى مؤخرة رأسه ، ودس سرواله في جوربيه الصوفيين الأبيضين ، وهو يتنشق هواء الصباح المسكر وشذى الرطوبة الثقيلة . ودفع زورقه وجعل يجذف بسرعة ، ووقف يشد على المجذاف بقوة ، فنقب في شباكه ، والتقط السمك من الشبكة الأخيرة ، ثم ألقى بها إلى الماء ثانية ، وطاب له أن يدخن وهو يجذف على مهل في طريق عودته . كانت السماء تتشرب بحمرة الغسق ، فيما لاحت من ناحية الشرق بزرقتها الضبابية وكان أسفلها قد رش بالنجيع .

وطفحت الحمرة فوق الأفق واستحالت لوناً عسجدياً صدئاً ، وراقب ميشا وهو يشعل سيجارته ، طيراناً بطيئاً لطائر غطاس ، وانضفر الدخان وانعقد حول أغصان الشجر ، ثم مالبث أن انساب كتلاً كالغمام . وتفحص صيده - ثلاث سمكات صغيرة ، وشبّوطاً يزن حوالي ثمانية باونات ، وكومة من أحراش السمك - وقال في دخيلته :

« يجب أن أبيع بعضاً منه . ستبادله لوكشكا الحولاء بشيء من الكمثرى المجففة . وأمي ستطهيه » .

وجذف وهو يدخن حتى بلغ المرسى . فألفى رجلاً جالساً عند سور

البستان الذي ترك القارب أمامه . وتساءل من عساه يكون حينما كان يجذف بالقارب جذفاً قوياً متساوقاً . وحينما اقترب قليلاً ألفى أنه الولد ، جالساً القرفصاء على عجيزته ويدخن سيكارة هائلة لفت من ورق الجرائد ، والتمعت عيناه الصغيرتان الماكرتان وسناً ، ونما على وجنتيه دغل مربد من الشعر .

ناداه ميشا صائحاً : ـ ماذا تريد ؟ ـ وتواثب صوته فوق الماء مثل الكرة .

ـ اقترب .

ـ هل تريد بعض السمك ؟

ـ ماحاجتي بالسمك ؟

واهتز الولد بنوبة من السعال ، وراح يبصق بعنف ، ثم استوى واقفاً على مضض . فتهدل معطفه الذي لايناسبه مثل سترة على فزاعة* . وكانت أذناه الغضروفيتان الحادتان تغطيهما طيتا قبعته العاليتان . ولم يكن قد عاد إلى القرية الا حديثاً ، تصحبه شائعة تفيد أنه كان في الحرس الأحمر . فقد سأله القوزاق أين كان مذ سرح ، غير أن الولد كان يراوغ في اجابته ، متحاشياً الأسئلة الخطيرة . وقد اعترف لايفان اليكسييفتش وميشا كوشيفوي أنه قضى أربعة أشهر في مفرزة من الحرس الأحمر في أوكرانيا ، وقد أسرته القوات الأوكرانية القومية ، وهرب ثم التحق بالجيش الأحمر قرب روستوف ، أما الآن فقد منح نفسه إجازة ليستريح ويستعيد قواه .

رفع الولد قبعته ، ومسد شعره الخشن ، وتلفت حواليه ، ثم تقدم من الزورق ودمدم قائلاً :

ـ هناك أمور سيئة تجري في البلد... سيئة جداً! اترك صيد السمك! وإلا فسوف نظل نصيد ونصيد وننسى كل شيء آخر .

ـ ماذا عندك من أخبار ؟ قل لي! ـ تساءل ميشا وهو يشد على يد الولد

---

* الفزاعة أو الخراعة باللهجة العراقية ، أي الدمية التي توضع في الحقل لصد الطيور . المترجمون

بقبضته الزفرة ويبتسم بابتسامة حارة ، فقد كانا صديقين حميمين منذ زمن طويل .

ـ يوم أمس حُطم الحرس الأحمر قرب ميكولنسكايا . بدأ القتال شديداً ، أيها الأخ! الريش يتطاير!...

ـ أي حرس أحمر ؟ كيف بلغوا ميكولنسكايا ؟

ـ كانوا مارين بالمنطقة ، فانقض عليهم القوزاق وساقوا الأسرى الكثيرين إلى كارغين . وسرعان ماأقاموا محكمة عسكرية هناك . واليوم سيجندون كل شخص في تاتارسكي . لابدّ أنهم سيقرعون الناقوس هذا الصباح .

وربط كوشيفوي قاربه ، وأفرغ السمك في سلة ، ثم مضى يسير بخطوات واسعة ، ودرج الولد يهبع أمامه مثل مهر صغير ، وأذيال سترته تتطاير ، وذراعاه يتأرجحان .

ـ أخبرني بذلك ايفان اليكسييفيتش . أعفاني من العمل لتوه ، فقد كانت الطاحونة تعمل طوال الليل . لقد التقط الخبر من فم الرسول . جاء ضابط من فيشنسكايا وحل عند آل موخوف .

فلاحت على وجه ميشا الذي أنضجته وأذبلته سنوات الحرب ، ملامح القلق . ورمق الولد مخاوصاً عينيه :

ـ والآن ماذا سيحدث ؟

ـ يجب أن نهجر القرية .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى كامنسكايا .

ـ ولكن القوارق البيض هناك .

ـ اذن نمضي أبعدا منها يساراً .

ـ وكيف نصل إلى هناك ؟

ـ يمكن تدبير ذلك إذا أردت ، وإلا ، فابق حيث سيتشمّمك الشيطان

في كل مكان تأوي اليه! ـ ثم زمجر الولد فجأة وأردف : ـ « إلى أين »! كيف لي أن أعرف ؟ تلفت حواليك قليلاً وسوف تجد جحراً يأويك .

ـ لاتصرخ! هل تعرف ماهو قدر العصبيين مثلك ؟ ماذا يقول ايفان ؟

ـ لاتستطيع أن تزحزح صاحبك ايفان...

ـ لاتصرخ! فهناك امرأة تعاين .

وتطلعا بحذر إلى امرأة شابة تسوق بقرات خارج فناء أحد الدور . ثم استدار ميشا على عقبيه في أول ملتقى طريق . فسأله الولد مستغرباً :

ـ أين تراك ذاهباً ؟

فدمدم ميشا دون أن يلتفت إلى الوراء :

ـ إني ذاهب لأخرج شباكي

ـ لماذا ؟

ـ لاأريد أن أفقدها .

ـ فقال الولد بسرور :

ـ اذن فسوف نذهب ؟

ولوح ميشا بمجذافه وقال وهو يبتعد :

ـ اذهب إلى ايفان اليكسييفتش ، أما أنا فسوف آخذ شبكي إلى البيت ثم التحق بكم .

كان ايفان اليكسييفتش قد استطاع بالفعل أن يبلغ القوزاق الميالين إلى جانبه بالخبر . وأرسل ابنه الصغير إلى آل ميليخوف ، فعاد معه غريغوري ، وحضر خريستونيا دون أن يبلغ ، كأنما كان لديه هاجس لتكهن الأمور . والتحق بهم كوشيفوي بعد قليل ، وشرعوا يتدارسون الموقف . كانوا يتكلمون جميعاً في وقت واحد ، وبعجالة ، متوقعين كل لحظة أن يطرق سمعهم ناقوس للخطر .

فحثهم الولد قائلاً بانفعال :

ـ يجب أن نرحل في الحال . نحزم حاجياتنا ونذهب ، فحاججه

خريستونيا قائلاً :

ـ قدّم لي الأسباب .

ـ أي أسباب ؟ وإذا قاموا بالتجنيد ؟ لماذا تعتقد أنك ستنجو منه ؟

ـ لن أذهب ، وهذا كلمافي الأمر...

ـ سوف يأخذونك!

ـ فليجربوا! أنا لست ثور حراثة .

فأرسل ايفان اليكسييفتش زوجته الحولاء خارج الدار ، ثم زنخر مغضباً :

ـ سوف يأخذونك ، الولد على صواب . لكن إلى أين تذهب ؟ تلك هي المسألة .

فقال ميشا متحسراً :

ـ ذلك هو ماسبق وأن قلته له .

فنبّ الولد قائلاً :

ـ حسناً ، افعل حسبما تشاء ، هل تعتقد أن لي حاجة بكم ؟ سوف أرحل بمفردي . فأنا لا أريد جبناء معي . «نعم ، ولكن لماذا ؟!» و «نعم ، ولكن إلى أين!» . سيلقنونكم درساً حامياً ويلقون بكم في السجن بتهمة البلشفية . كيف يمكنكم أن تقضوا الوقت مازحين ، وفي مثل هذه الأوقات ؟ سيذهب كل شيء إلى الشيطان!

فقاطعه غريغوري ميليخوف قائلاً ببرودة وهو يقلب في يديه بتأمل وغضب مكتوم مسماراً صدئاً انتزعه من الحائط :

ـ على مهلك! إن وضعك مختلف ، اذ ليس لديك هنا ما يشدّك ، وتستطيع أن تذهب أنّى تشاء! أمّا نحن فعلينا أن نتبصّر في الموضوع بتروّ ، ان لدي زوجة وطفلين صغيرين . وقد شممت من البارود أكثر مما تشم أنت طوال حياتك! ـ وضيّق عينيه السوداوين الغضوبين ، وكشّر عن أسنانه القوية ، وصاح :

ـ تستطيع أن تلجم لسانك ياتافة! ذاك هو أنت كشأنك دائماً . فلست

تملك الا ما عليك من أسمال...

فصرخ الولد :

ـ على من تزمجر ؟ وتتباهى بخلق الضباط! لا تصرخ! أنت لا تساوي عندي قلامة ظفر!

واستحال وجهه البارز الصغير من شدة الغضب ، والتمعت عيناه الصغيرتان الصارمتان بحزن ، وبدا وكأن شعر خدّيه الأبلق يتحرك .

لقد صبّ عليه غريغوري الغضب الذي استبد به لدى سماعه نبأ الاصطدامات بين القوزاق والحرس الأحمر في المنطقة وأغضبته صرخة الولد إلى أقصى حد . وقفز كمن أصيب بضربة ، ووثب إلى حيث كان الولد يتململ على مقعده ، وهتف وهو يكبح رغبته في ضربه :

ـ اخرس ،أيها الثعبان الصغير! ياسافل ياحقير! يا جذمة الانسان ، على من تتأمّر ؟ اذهب حيث تسير بك عجيرتك . انقشع كيلا تبقى جيفتك هنا! واخرس وإلا فسوف ألقنك درساً تتذكرني به...

فتدخل كوشيفوي وقال وهو يدفع قبضة غريغوري عن أنف الولد :

ـ دعك من هذا يا غريغوري! فما هكذا يعالج الأمر!

ـ ينبغي أن تقلع عن هذه العادات القوزاقية! ألا تخجل ؟ عار عليك يا ميليخوف! عار عليك!

ونهض الولد ومضى صوب الباب وهو يسعل في ارتباك .

ولكنه لم يستطع أن يكبح جماع نفسه عند العتبة ، فالتفت إلى الوراء ، وسلّط لسانه على غريغوري الذي كان يبتسم بشراسة :

ـ وكان في الحرس الأحمر! أنت أيها الجندرمة! نحن أعدمنا رجالاً مثلك .

وعند ذاك لم يستطع غريغوري السيطرة على نفسه هو الآخر .

فقذف بالولد حتى سقيفة الباب وهو يسير على عقبي جزمته التالفة وصاح متوعداً :

ـ انقشع والا خلعت عنك ساقيك!

فهز ايفان اليكسييفتش رأسه استهجاناً وصوب نظرة عداء على غريغوري وقال :

ـ لا حاجة إلى كل هذا . أنتما تتصرفان كطفلين .

وظل ميشا صامتاً يعض شفتيه ، وهو ، كما يبدو ، يجاهد ليكتم الكلمات الغضوب التي كانت على طرف لسانه .

وحاول غريغوري أن يبرر تصرفه دون أن يخلو كلامه من الارتباك :

ـ لا يتكلف بما لا يعنيه... لماذا انجرف هذا الانجراف ؟ ـ فألقى خريسونيا عليه نظره ودّيه ، فاستجاب غريغوري لنظرته بابتسامة طفولية ساذجة وأضاف :

ـ كدت أن أضربه! ولكن من عساني أضرب ؟ ضربة واحدة ، ثم لا يبقى منه شيء!

ـ حسناً ، ماذا ترى ؟ يجب أن نتوصل إلى قرار .

فتململ ايفان اليكسييفتش ازاء النظرة الثابتة لميشا كوشيفوي الذي طرح السؤال ، ثم أجاب متمهلاً :

ـ حسناً ، يا ميخائيل ، ان غريغوري مصيب إلى حد ما . كيف نستطيع أن نأخذ حوائجنا ونهرب ؟ فإن لنا عوائلنا ويجب أن نفكّر بها . ولكن انتظروا لحظة ، ـ وراح يتكلم بسرعة عندما لمح ميثا يتململ : ـ من المحتمل ألا يقع شيء... من يدري ؟ فقد شتتوا الوحدة في سيتراكوف ، ولن تقدم أخريات . بوسعنا الانتظار قليلاً . لدي زوجة وطفل ، وملابسنا خلقة وليست لدينا ذرة طحين . فكيف أستطيع أن أذهب ؟ من سيعنى بهما ؟

فرفع ميشا حاجبيه وسمّر عينيه على الأرضية الترابية وقد استبد به الحنق :

ـ إذاً . فأنت لا تفكّر في الذهاب ؟

ـ الأفضل أن ننتظر . فلم يفت أوان الرحيل أبداً . ماذا ترى يا غريغوري ،

وأنت يا خريسونيا ؟

فراح غريغوري يتحدث بمزيد من الهمة ، بعد أن لمس تأييداً غير منتظر من ايفان وخريستونيا :

ـ لماذا ؟ طبعاً ، ذاك هو ما قلته بالضبط . وذاك هو ما تخاصمت مع الولد من أجله . فالأمر ليس بمثل هذه السهولة . واحد ، اثنان ثم نذهب ؟ علينا أن نتبصّر بالموضوع... أجل ، نتبصّر...

وما أن فرغ من كلامه حتى انطلقت رنّة مفاجئة من ناقوس برج الكنيسة ، وطفح الصوت فوق الساحة ، والشوارع ، والأزقة .

وتدحرج الرنين فوق سطح مياه الفيضان البني ، وفوق منحدرات التلال الكلسية الرطبة ، متناثراً شبه حبات البازلاء ليتلاشى في الغابة . ثم ما لبث أن انبعث ثانية ، كنذير مستديم هذه المرّة :

ـ دان ، دان ، دان ، دان...

فطرفت عين خريستونيا وقال :

ـ تلكم هي! أنا ذاهب إلى زورقي . لأمضي إلى الجانب الآخر ثم إلى الغابة . وليعثروا عليّ هناك!

ونهض كوشيفوي متثاقلاً مثل رجل عجوز :

ـ حسناً ، وماذا الآن ؟

فأجاب غريغوري عن الآخرين :

ـ لن نذهب الآن .

ورفع ميشا حاجبيه مرّة أخرى ، وأزاح خصلة شعره الذهبية عن ناصيته ، وقال :

ـ حسناً ، وداعاً...يبدو وكأن سبلنا مختلفة الاتجاهات .

فندّت عن ايفان اليكسييفتش ابتسامة اعتذار :

ـ أنت شاب يا ميشا ، حاد الطبع ، أوتحسب أنهم لن يفرّوا سويّة بعدئذ ؟ انهم سيفعلون ذلك! كن واثقاً من ذلك!

ثم ودّع كوشيفوي الآخرين وخرج . ويمم وجهه عبر الباحة إلى ساحة درس الحبوب . فألفى الولد مقرفصاً في الساقية ، كأنه قدر أن ميشا سيتخذ ذلك الطريق . فنهض ليقابله ، وسأله :

ـ حسناً ؟

ـ لقد رفضوا .

ـ كنت أرى أنهم سيفعلون ذلك . انهم ضعفاء... أما غريشا ، صديقك ذاك ، فهو كلب نتن! شيطان سليط ان كان هناك شياطين . لقد أهانني ، الخنزير! لا شيء الا لأنه أقوى مني . لم يكن معي سلاح ، والا قتلته ، ـ قال ذلك بصوت مدندن .

فنظر ميشا إلى شعره الدغلي والخشن وقال في نفسه وهو يحث خطوه إلى جانبه :« وكان يمكن أن يفعل ذلك هو الآخر ، ابن العرس! »

وسارا بسرعة ، تلفحهما كل ضربة من ضربات الناقوس .

اقترح كوشيفوي :

ـ لنعرج على بيتي ولنأخذ شيئاً من الطعام . سنذهب مشياً على الأقدام ، سوف أترك حصاني حيث هو . أليس لديك شيء تأخذه ؟

فقال الولد ساخراً :

ـ لا أملك شيئاً . فلم أوفر مايكفي لشراء قصر أو عقار . بل لم أتسلم أية أجور عن الأسبوعين الماضيين . فليسمن بها موخوف العجوز البطين! كم سيرقص جذلاً لعدم اضطراره إلى دفعها!

كان الناقوس قد توقّف عن الرنين . ولم يعكّر السكون الهامد شيء . كان الدجاج يبحث في الرماد على قارعة الطريق ، والعجول السمينة تسعى وراء العشب تحت الأسيجة . فالتفت ميشا إلى الخلف : كان القوزاق يهرعون إلى الاجتماع في الساحة ، وبعضهم يزرر قمصلاتهم الرسمية أثناء سيرهم . وانطلق خيال صوب الساحة وتجمّع حشد عند المدرسة : النساء بتنوراتهن وعصاباتهن البيض ، والرجال كتلة من سواد .

اعترضت سبيلهما امرأة تحمل دلوين ، وأبت العبور أمامهما تطيراً . وقالت مغضبة :

ـ هيا ، هيا! لا أريد أن أمرّ أمامكما .

فحياها ميشا ، تساءلت وقد ندّت عنها ابتسامة مشرقة :

ـ كل القوزاق ذاهبون إلى الاجتماع . فالى أين تمضيان أنتما ؟ انكما تسيران في الطريق المغاير يا ميشا .

ـ لديّ بعض الشغل في البيت .

وعرجا إلى زقاق جانبي . وصار بوسعهما أن يريا سقف منزل ميشا : قفص الزرزور وغصن الكرز المشدود اليه يهتز في الريح . وكانت أذرع الطاحونة على المرتفع تدور ببطء ، ويرفرف قماش قلوعها الخرق ، وتبعث صفيحة السقف المائل قعقعة خفيفة .

لم تكن الشمس قوية ، ولكنها دافئة . وكان نسيم فاتر يهب من الدون . وفي فناء بوغاتيريوف كانت ثمة نسوة يطلين منزلاً مستديراً كبيراً بالطين ويبيضنه استعداداً لعيد الفصح . كانت احداهن تعجن الطين بالروث ، تدور في حلقة وقد رفعت تنورتها عالياً ، وتجرجر ساقيها المكتنزتين البيضاوين من الخليط اللزج . وقد أمسكت تنورتها بأطراف أصابعها كاشفة عن ربطتي ساقيها وقد أمسكت تنورتها بأطراف أصابعها كاشفة عن ربطتي ساقيها وقد حزّتا على لحمها فوق ركبتيها . كانت تياهة بمظهرها ، فلفعت وجهها بعصابتها ، رغم أن الشمس كانت ماتزال خفيضة في الأفق . وكانت المرأتان الأخريان الشابتان ، وهما كنّتا بوغاتيريوف ، قد صعدتا على السلم تحت السقف المغطى بالقصب ، تبيضان وقد لفعت كل منهما وجهها بعصابة حتى العينين .

كانت تستعملان الفرشاتين جيئة وذهاباً وقد شمرتا أكمامهما إلى مافوق المرفقين ، ورشاش الطلاء الأبيض يتناثر عليهما . وكنّ يغنين أثناء عملهن . كانت ماريا كبراهن ، وهي أرملة أحد أبناء بوغاتيريوف ، حاطة

عينها على ميشا على المكشوف . إنها نمشاء ولكنها امرأة جميلة . انطلقت تغني بصوت خفيض ، قريب من الصوت الرجالي في قوته ، وقد ذاع صيته في القرية :

آه ، ليس هناك من يقاسي أكثر...

ورافقتهاالمرأتان الأخريات وتواشجت الأصوات الثلاثة سوية تؤدي الأغنية الساذجة الحزينة المتظلمة بإتقان :

من حبيبي في الحرب .
مدفعي هو ،
ويفكّر فيّ على الدوام .

ومر ميشا والولد على مقربة من السياج ، ينصتان إلى الأغنية التي اختلطت بصهيل الخيل القادم من المرج :

ثم وصل خطاب يقول :
ان حبيبي قد قتل .
أوه ، لقد قتل ، حبيبي قتل .
وهو يرقد الآن تحت شجيرة .

وتطلعت ماريا إلى الأسفل ورنت إلى ميشا ، وقد التمعت عيناها الرماديتان تحت عصابتها .وجعلت تغني بصوت متيم عميق ، وقد أشرق وجهها المرشوش بالطلاء بابتسامة :

وخصلاته ، خصلاته الذهبية
كانت تذروها الرياح .
وعيناه ، عيناه البنيتان الغامقتان...
نقرهما زاغ أسحم .

فابتسم ميشا لها على طريقته الرقيقة التي يستعملها مع النساء ، وقال لبيلاغيا التي كانت تعجن الطين :

ـ ارفعي تنورتك إلى الاعلى قليلاً . فلسنا نرى جيداً غير السياج!

فضيقت عينيها له وقالت :

ـ تستطيع ذلك ان شئت .

ووقفت ماريا على السلم ويداها على خاصرتها ، وسألته بنبرة مغناجة ، وهي تتلفت حواليها :

ـ ـ أين كنت ياعزيزي ؟

ـ أصطاد السمك .

ـ لا تبتعد ، فسوف نذهب إلى مخزن الحبوب ونمتع نفسينا .

ـ يا سفيهة ياقليلة الحياء! انظري ، فهناك حموك!

فطقت ماريا بلسانها ، وهزت الفرشاة المنقوعة على ميشا وهي تضحك . فتناثرت قطرات الطلاء الأبيض على سترته وقبعته .

وصاحت في أثرهما المرأة الأخرى وهي تبتسم وتكشف عن أسنان بيضاء بلون الحليب :

ـ ألا تعيرنا الولد على الأقل ؟ فهو يستطيع أن يساعدنا في تنظيف البيت ، ـ وأسرت لها ماريا بشيء فانفجرتا ضاحكتين .

فقطب الولد وقال وهو يحث خطواته :

ـ أيتها القحبة الداعرة!

بيد أن ميشا صحح كلامه بابتسامة واهنة رقيقة :

ـ ليست داعرة ، بل مرحة ـ وأضاف بكلمات الأغنية وهو يمر خلال بوابة فنائه : «سأذهب ، بيد أنني سأخلف حبيبتي ورائي ، وداعاً ، يا حبيبتي ، ياروح قلبي! »

٢٣

بعد رحيل كوشيفوي ظل الآخرون جالسين بعض الوقت دونما كلام . وظل ناقوس الخطر يتأرجح فوق القرية ويهز زجاج نوافذ المنزل . وتطلع ايفان أليكسيفتش إلى الخارج خلال النافذة . ولاح على الأرض ظل الصباح الباهت تلقيه السقيفة . واستقر الندى أشهب على الحشيش الناعم . وبدت السماء لازوردية حتى من خلال الزجاج . ونظر ايفان إلى رأس خريستونيا المطأطأ وقال :

ـ لعل هذه ستكون خاتمة الأمر ؟ فقد شتت أهالي ميكولنسكايا شمل الحمر ، ولن يتقدموا أبعد من ذلك...

فاختلج جسد غريغوري بكامله :

ـ كلا! ماهذه الا البداية ، وسوف يستمرون . حسناً ، هل نذهب إلى الساحة ؟

وتناول ايفان اليكسييفتش قبعته ، وقال ليبدد ظنونه :

ـ حسناً ، لعل الصدأ قد علانا . ميخائيل حامي الرأس ، ولكنه فتى نشيط . إنه يحرجنا .

فلم يحر أحد بجواب . ولاذوا جميعاً بالصمت ، ثم عطفوا إلى الساحة .

سار ايفان اليكسييفتش ساهماً ، يحدق في الأرض . لقد أمضّه ظنه بأنه قد اختار الطريق الخاطئ ولم يستجب لنداء ضميره .

كان الولد وميشا مصيبين ، كان ينبغي أن يذهبوا جميعهم دونما تردد . إن محاولاته في تبرير سلوكه لم تكن ذات جدوى ، فقد بددها نداء سافر لجوج في دخيلته ، كما يسحق حافر فرس الجليد الرقيق في المرج . لقد كان الشيء الوحيد الذي استقر عليه رأيه بثبات هو أن يفر إلى البلاشفة في أول سانحة . توصل إلى هذا الرأي عندما كان يسير شطر الساحة ، ولكنه لم يخبر غريغوري ولا خريستونيا ، ظناً منه بأن نوازع مغايرة تصطرع في نفسيهما ،

وبات يخشاهما في أعماق قلبه . لقد خذلوا ثلاثتهم معاً اقتراح الولد ، متذرعين بعوائلهم . بيد أن كلاً منهم كان يدري أن المسوغ لم يكن مقنعاً ولم يبرر موقفهم . وقد أحس الآن كل منهم بالحرج أمام الآخرين ، كمن قام بعمل وضيع مخزٍ . ظلوا لائذين بالصمت ، ولكن ايفان ليكسييفتش لم يعد يقوى على تحمل الصمت القاتل عندما اجتازوا منزل موخوف ، فقال مؤنباً نفسه والآخرين :

ـ لا معنى من إخفاء الأمر . لقد عدنا من الجبهة بلاشفة ، وها نحن الآن نلوذ بأنفسنا بين الأدغال . فليقاتل الآخرون من أجلنا ، ونبق نحن مع نسائنا!

فنب غريغوري قائلاً وهو يشيح بوجهه :

ـ لقد أديت نصيبي من القتال ، فليقم الآخرون بدورهم . فأضاف خريستونيا :

ـ ولكن كيف يمكن أن يكونوا هكذا ؟ شرذمة من اللصوص! أينبغي أن ننضم إلى رجال مثلهم ؟ أي ضرب من الحرس الأحمر يتصورون أنفسهم ؟ يغتصبون النساء ، ويسلبون القوزاق! ينبغي لنا أن نتبصر فيما نفعل . فالأعمى يتعثر بما يصادفه .

وتساءل ايفان بحدّة :

ـ وهل رأيت كل ذلك بأم عينيك يا خريستونيا ؟

ـ ان الناس يتحدثون عن...

ـ آه... الناس...

ـ حسناً ، حسبنا ذلك... لا نريد أن يسمعنا الآخرون .

زخرت الساحة بسراويل القوزاق ، وقبعاتهم ، وانتشرت هنا وهناك قبعات من جلد الخراف سود شعث ، كان جميع رجال القرية مجتمعين ، ولم تحضر امرأة ما ، إنّما الشيوخ ، والقوزاق الذين شهدوا الحرب ، وحتى الشبان الذين يصغرونهم سنّاً . وقف الأكبر سناً في المقدمة ، متكئين على عصيهم : القضاة المحترمون ، وأعضاء مجلس الكنيسة ،ومعلمو المدارس ،

وقيم الكنيسة ، وبحثت عينا غريغوري عن لحية أبيه السوداء المشوبة بالفضة ، فوجده واقفاً إلى جانب ميرون غريغوريفتش . وأمامهما كان غريشا العجوز متكئاً على عصاه ذات العقدة ، بقمصلته الرمادية الكاملة ونياشينه ، وكان مع بانتيلي وميرون جميع شيوخ القرية . ووقف خلفهم الرجال الأصغر سناً ، وجلهم من رفاق غريغوري في السلاح .

ولاحظ أخاه بيوتر في الطرف الآخر من الحلقة ، وقد تحلّى قميصه بأشرطة وسام غيوغوري المقدّس البرتقالية والسوداء . والى يساره كان ميتكا كورشونوف بعينيه الخضراوين يشعل سيكارته من سيكارة بروخور زيكوف . كان بروخور يجر نفساً بقوة ليساعده ، مهدلاً شفتيه وجائلاً بعينيه الشبيهتين بعيني العجل ، والى الوراء تجمع أصغر القوزاق سناً .

وفي وسط الحلقة جلس رئيس اللجنة الثورية للقرية أمام طاولة كسيحة انغرست أرجلها الأربع في التربة التي لما تزل رطبة ناعمة . والى جانبه وقف ملازم لم يعرفه غريغوري ، يرتدي قبعة خاكية عليها شارة ، وسترة جلدية على كتفيها شارات ، وبنطال فرسان خاكياً .

كان رئيس اللجنة الثورية يتحدّث معه بخجل ، وقد انحنى الضابط قليلاً لينصت وأذنه الكبيرة الناتئة قريبة من لجية الرئيس . كان الجمع يطن كخلية نحل . وكان القوزاق يتحدثون ويمزحون مع بعضهم ، غير أن إمارات القلق علت جميع الوجوه ، فصاح أحدهم بصوت فتي دون أن يحتمل المزيد :

ـ فلنبدأ! فيم انتظاركم ؟ لقد حضر كل الناس تقريباً! فانتصب الضابط ، ورفع قبعته ، وقال ببساطة كما لو كان بين عائلته :

ـ يا سادة شيوخ القرية ، واخواني قوزاق خط الجبهة! سمعتم جميعاً بما حدث في قرية سيتراكوف ، أليس كذلك ؟

فهدر خريستونيا :

ـ من هو ؟ من أي الديار ؟

ـ من فيشنسكايا . أظن أنه يدعى سولداتوف .

واستمر الملازم :

- قبل يوم أو يومين وصلت وحدة من الحرس الآحمر القرية . واحتل الالمان أوكرانيا ، وعند تقدمهم شطر اقليم الدون قذفوا بالحرس الأحمر وراء السكك الحديد . فدخل الحمر سيتراكوف وشرعوا في سلب ممتلكات القوزاق ، واغتصاب نسائهم ، وقاموا باعتقالات غير شرعية ، وما إلى ذلك . وعندما تناهى إلى القرى المجاورة ماحدث انهال القوزاق عليهم بالسلاح بأيديهم . فقضي على نصف الوحدة ، وأسر الباقون . وحظي القوزاق بغنائم طيبة . وقد قذفت منطقتا ميكولنسكايا وكازانسكايا بالحكومة البلشفية من ديارهما . لقد هب القوزاق شباباً وشيباً في الدفاع عن الدون الهادىء . وقذف باللجنة الثورية في فيشنسكايا بكاملها ، وقد انتخب أتمان للمنطقة ، وحصل الشيء ذاته في معظم القرى .

وعند هذه النقطة من الخطاب نفس الشيوخ عن صدورهم بدمدمة مكتومة .

ـ ويجري الآن تشكيل المفارز في كل مكان ، وعليكم أنتم أيضاً أن تشكلوا مفرزة من قوزاق خط الجبهة ، للدفاع عن المنطقة ضد وصول قطعات جديدة من اللصوص المتوحشين . يجب أن نقيم إدارة خاصة بنا . نحن لا نريد حكومة حمراء ، إنها لاتجلب لنا الحرية ، انما الدعارة! ولن نسمح للفلاحين بانتهاك حرمة زوجاتنا وأخواتنا ، والاستخفاف بعقيدتنا الأرثدوكسية ، وتدنيس كنائسنا المقدسة ، واستلاب أرزاقنا وممتلكاتنا... ألا توافقونني أيها الشيوخ ؟

فهدر الاجتماع بغتة بـ «نعم!» وشرع يتلو بلاغاً .

وانسل الرئيس من أمام الطاولة ناسياً أوراقه . وأصاخ حشد الشيوخ دون أن ينبسوا بكلمة . وتبادل رجال خط الجبهة وراءهم الهمهمة مع بعضهم .

وحالما شرع الضابط بالقراءة ، انسل غريغوري من الحشد وانثنى ليعود إلى البيت . فلاحظ ذلك ميرون غريغوريفتش ، ولكز بانتلاي بروكوفيتش بمرفقه :

ـ ابنك الأصغر ينسل!

فخرج بانتلاي بروكوفتش من الحلقة يعرج وصاح بنبرة آمرة :

ـ غريغوري!

فالتفت ابنه نصف التفاته وتوقف دون أن ينظر إلى الوراء .

ـ عد ياولدي!

وجاء هدير الأصوات من الحشد :

ـ فيم تراك ذاهباً ؟ عد إلى الاجتماع! ـ والتفت صوب غريغوري جدار من الوجوه :

ـ وقد كان ضابطاً!

ـ لاداعي إلى الشموخ بأنفك!

ـ كان مع البلاشفة .

ـ وأراق دم القوزاق!...

ـ الشيطان الأحمر!

تناهى الصياح إلى أذني غريغوري . كان يصغي ويصر بأسنانه ، تتصارعه الخواطر دونما ريب ، وبدا وكأنه سيذهب بعد دقيقة دونما التفاتة إلى الوراء . ولكن بنتلاي بروكوفيتش وبيوتر تنفسا الصعداء عندما تردد ثم عاد إلى الحشد مسبل العينين .

وبرز الشيوخ في كل مكان . فانتخب ميرون غريغوريفتش أتماناً بسرعة عجيبة . وسار إلى وسط الحلقة ووجهه الأنمش يلوح عليه الشيب ، وتسلم من سلفه مرتبكاً رمز سلطته ، عصا الأتمان ذات الرأس النحاسي . لم يكن أتماناً من قبل ، ولذلك تردد ورفض المنصب عندما استدعوه ، قائلاً انه لا يستحق مثل هذا الشرف ، لأنه غير مثقف . ولكن الشيوخ أصروا قائلين :

ـ خذ العصا ، يا غريغوريفتش ، ولا ترفض .

ـ انك خير مزارع في القرية .

ـ لن تبدد خيراتنا .

ـ حاذر من أن تبددها في الشراب مثل سيميون!

ـ لن يفعل ذلك!

ـ وان فعل فباستطاعتنا أن نسترده من ماله . ، فإن لديه الشيء الكثير .

ـ سنسلخه مثل الخروف .

كانت الظروف الانتخابية والحالة الشبيهه بالحرب في المنطقة غير اعتيادية إلى درجة جعلت ميرون يوافق دونما الحاح شديد . ولم تجر الانتخابات كماكانت في الأيام السابقة ، حيث كان يأتي أتمان المنطقة إلى القرية ، ويستدعي وجوه القوزاق إلى الاجتماع ، وتوزّع أوراق الانتخاب . أمّا الآن فقد جرت بهذه البساطة : «من كان إلى جانب كورشونوف يقف إلى اليمين» وماج الحشد بكامله إلى ذالك الجنب ، خلا الاسكافي الذي يضمر حقداً لكورشونوف ، فقد لبث واقفاً في مكانه كبلوطة في مهب الريح .

وقبل أن يطرف ميرون المتصبب عرقاً بعينه دست العصا في يده ، وعلا هدير من الأصوات :

ـ والآن مارأيك أن تنفحنا نخباً على حسابك ؟

ـ ارفعوا الأتمان الجديد عالياً!

فتدخل الضابط ، ووجه الاجتماع لحل المسائل المتبقية بجد . وأثار مسألة انتخاب آمر لمفرزة القرية ، ولا بد أنه كان قد سمع عن غريغوري في فيشنسكايا ، فلقد شرع يمتدحه ويمتدح القرية عن طريقه .

ـ يحسن أن يكون لدينا آمر ممن شغل رتبة ضابط . فاذا تحتم علينا أن نقاتل فسوف نقوم بدورنا بشكل أفضل وتكون خسائرنا أقل . ان في قريتكم الكثير من الأبطال . أنا لا أستطيع أن أفرض ارادتي عليكم ، ولكني من جهتي أوصي بأن تنتخبوا نائب الضابط ميليخوف .

ـ أي منهما ؟

ـ فلدينا اثنان .

فجال الضابط ببصره فوق الحشد ، ولمح رأس غريغوري المحني ، وهتف مبتسماً :

ـ غريغوري ميليخوف! ماذا تقولون أيها القوزاق ؟

ـ رجل طيب!

ـ ليكن الحظ حليفه!

ـ غريغوري ميليخوف! انه جوزة صلدة!

ـ تعال وسط الحلقة ، فالشيوخ يريدون أن يلقوا عليك نظرة .

فدفع غريغوري إلى الأمام وظهر وسط الحلقة ، وقد حال وجهه قرمزياً ، وجعل ينظر حواليه مثل حيوان مطارد .

فقرع ماتفي كاشولين الأرض بعصاه ورسم إشارة الصليب بحركة مزهوة من يده وقال :

ـ قُدْ أولادنا! قدهم وأرشدهم كيما يكونوا معك مثل الأوز مع الفحل . وكما يدافع فحل الأوز عن عائلته ويحميها من الناس والوحوش ، عليك أن تحافظ عليهم! ستحصل بعون الله على أربعة أوسمة أخرى!

ـ يا بانتلاي بروكوفيفتش ، ولدك نعم الولد!

ـ في رأسه عقل ناصح! والله ، انه شاطر!

ـ أنت أيها الشيطان الأعرج ، ماذا لو تبرعت علينا بالشراب ؟

ـ أيها الشيوخ! صمتاً! ربما نضع قائمتين أو ثلاثاً بلا تطوع ؟ قد يأتي متطوعون أولا يأتون...

ـ لثلاث سنوات!...

ـ لخمس...

ـ سنجمع متطوعين!

ـ اذهب أنت بنفسك ، ما الذي يمنعك ؟

وفي هذه الأثناء تقدم من الضابط أربعة شيوخ من طرف القرية الأعلى كانوا يتشاورون مع الأتمان الذي عين حديثاً . كان أحدهم وهو عجوز ضئيل

الجسم لا أسنان له يلقب بالـ« جعدة » . قد عرف بأنه صرم حياته بتتبع المسائل القضائية التافهة . كان يزور المحكمة مراراً حى أن مهرته الوحيدة البيضاء كانت تعرف الطريق جيداً بمجرد أن يقوى سيدها السكران على التكوّم في العربة ويصيح بصوته الناعم الصادح : « الى المحكمة! » فتنطلق دائبة في الاتجاه الصحيح . ورفع الجعدة قبعتة العتيقة عن رأسه ومضى صوب الملازم . ووقف على مقربة منهما الشيوخ الآخرون ، يدعى أحدهم غيراسيم بولديروف وهو مزارع صالح يحظى باحترام زائد في القرية .

كان الجعدة أول المتكلمين ، وهو مهذار اضافة إلى صفاته الأخرى :

ـ يا صاحب السعادة . يبدو وكأنك لا تعرف الكثير عن قريتنا ، والا لما وقع اختيارك على غريغوري ميليخوف آمراً . نحن معشر الشيوخ لدينا تحفظ على هذا الاختيار . ومن حقنا أن نحتج كما تدري . ان لدينا اعتراضاً ضده .

ـ أي اعتراض ؟ ما الخبر ؟

ـ حسناً ؟ كيف نستطيع أن نثق به وهو نفسه كان في الحرس الأحمر وواحداً من امرائه ، ولم يمض سوى شهرين على عودته من صفوفهم مصاباً بجرح .

فاحتقن وجه الضابط ، وبدت أذناه قد انتفختا من تدفق الدم .

ـ مستحيل! لم أسمع بذلك... فلم يخبرني أحد عنه أبداً .

فأكد بولديروف قائلاً بتجهم :

ـ إنه لصحيح ، لقد كان مع البلاشفة . ولهذا لا نستطيع أن نثق به!

ـ ابدله! ما قول قوزاقنا الشباب ؟ يقولون أنه سيخونهم في المعركة الأولى!

فجعل الضابط يصيح رافعاً نفسه على طرف أصابعه مخاطباً الشيوخ ، متجاهلاً رجال خط الجبهة بلباقة :

ـ أيها الشيوخ! أيها الشيوخ! لقد انتخبنا لتونا غريغوري ميليخوف آمراً ، ولكن ألا يوجد خطر في ذلك ؟ لقد علمت الآن أنه كان خلال الشتاء مع

الحرس الأحمر . فهل تستطيعون أن تطمئنوا على حياة أبنائكم وأحفادكم معه ؟ وأنتم يا اخوتي ، يا رجال خط الجبهة ، هل تستطيعون أن تنضووا تحت امرته بقلوب مطمئنة ؟

ومرت على القوازاق لحظة صمت وذهول ، ثم تعالى ضجيج وصياح متضارب ، وبات من العسير أن تفهم كلمة ، وعندما تلاشى ذلك خطا بوغاتيريوف العجوز الكث اللحية إلى الوسط ، ونزع قبعته امام الاجتماع ، وتطلّع حواليه :

- يحدثني ذهني البليد بما يلي : نحن لا نستطيع أن نمنح غريغوري بانتيلييفتش هذا المنصب . فقد سلك السبيل الخاطىء ، وقد سمعنا كلنا بذلك . فليحظ أولاً بثقتنا ، ويكفّر عما فعله ، ومن ثم فسوف نرى .اننا ندري أنه مقاتل جيد... ولكننا لا نستطيع أن نرى الشمس خلال الضباب ، لا نستطيع أن نرى خدماته السابقة ، إن عمله من أجل البلاشفة قذى في عيوننا .

فصاح اندريه كاشولين الشاب بقسوة :

- فليكن نفراً .

- اجعلوا بيوتر ميليخوف آمراً .

- ليخدم غريشا مع الآخرين!

- كدنا ننصب علينا آمراً رائعاً!

فصاح غريغوري وقد احتقن وجهه من شدة الانفعال :

- نعم ، ولست بحاجة إلى هذا المنصب ولا اليكم جميعاً! لماذا رشحتموني للقيادة بحق الشيطان ؟- وأعاد القول ملوحاً بيده : - لن أتسلم المنصب اذا أردتم لي ذلك! - ودس بيديه في أعماق جيبي بنطاله ، وابتعد محني الرأس متجهاً إلى بيته .

فتعقبته الصيحات :

- عل مهلك!

- الجيفة النتنة! هوذا دمه التركي يبين!

ـ انك تشمخ بأنفك المقوّس عالياً جداً!

ـ انه لا يمسك لسانه! ولا يغلق فمه حتى أمام ضباطه في الخنادق .

ـ عد!

ـ الحقوه! هوه! بووه!

ـ لماذا تركتموه ينصرف لحاله ؟ فلنحاكمه بأنفسنا!

ولم يمض وقت طويل حتى هدأ الاجتماع ثانية . وفي حميا النقاش لطم أحدهم شخصاً آخر ، وراح أنف آخر ينزف ، وتزيّن أحد الصبية على حين غفلة بانتفاخ تحت عينيه . وحين أعيد النظام آخر الآمر انتخبوا بيوتر ميليخوف آمراً ، فاستبد به الزهو والخيلاء .

وهنا كبا الضابط مثل حصان شديد البأس جوبه بسياج مرتفع جداً . وطلب ممن يريد التطوّع أن يتقدّم ، فلم يتقدّم أحد . لقد تردد رجال خط الجبهة ، الذين كانوا متحفظين في موقفهم أثناء الاجتماع ، ولم يرغبوا في تسجيل أنفسهم ، مصطنعين المزاح :

ـ لماذا لا تذهب يا أنيكوشكا ؟

بيد أن أنيكوشا دمدم :

ـ أنا صغير جداً... ولم ينبت عذاراي بعد .

فزعق كاشولين العجوز في أذنه :

ـ دعك من المزاح : تريد أن تجعل منّا أضحوكة ؟

فرد أنيكوشكا وهو يبتعد عنه كمن يبتعد عن دندنة البعوض :

ـ سجّل ابنك!

وتعالت صيحة من الطاولة :

ـ بروخور زيكوف! هل نسجّل اسمك ؟

فأجاب :

ـ لست أدري...

ـ سنسجل اسمك .

وتقدم ميتكا كورشونوف من الطاولة بوجه جدي ، وقال باقتضاب :

ـ سجلوني .

ـ حسناً ، ومن أيضاً ؟ ماذا عنك يا فيدوت بودو فسكوف ؟

فدمدم فيدوت مسبلاً عينيه الكالميكيتين :

ـ عندي فتق .

فهدر رجال خط الجبهة ضاحكين ، وراحوا يسخرون منه دونما رأفة :

ـ خذ زوجتك معك . فإذا أقلقك فتقك . فسوف تتدبر أمره!

ورفرفت فوق الحشد نكتة أخرى من الجانب الآخر للحلقة :

ـ سنجعلك طباخاً ، وإذا كان الحساء فاسداً فسوف نملؤك به حتى يخرج فتقك من الطرف الآخر!

ـ سوف يكون وضعك حسناً أثناء التراجع ، فلن تركض سريعاً جداً .

إلا أن الشيوخ بدا عليهم الانزعاج فشرعوا يلعنون :

ـ كفى ، كفى ، علام مزاحكم هذا ؟

ـ وقت مناسب لاظهار حماقاتكم!

ـ وصاح أحدهم :

ـ عار عليكم أيها الأولاد! فكروا بالرب . إن الرب لن يغفر هذه! الناس يموتون ، وأنتم... والرب ؟!

وجال الضابط ببصره وصاح :

ـ ايفان توميلين!

فأجاب توميلين :

ـ أنا مدفعي .

ـ هل نسجل اسمك ؟ إننا بحاجة إلى مدفعيين أيضاً .

ـ أوه ، لابأس ، سجل اسمي إذاً .

وشرع أنيكوشكا وعدد من الآخرين يمازحون توميلين :

ـ سننحت لك مدفعاً من جذع صفصافة . وسوف تطلق من فوهتك قرعاً

وبطاطا بدلاً من القنبلة العنقودية .

ووسط الدعابة والضحك سجل حوالي ستين رجلاً ، وكان خريستونيا آخرهم . تقدم من الطاولة وقال متأنياً :

ـ سجل اسمي . ولكنني أنذركم بأني لن أقاتل .

فسأله الضابط مغتاظاً :

ـ إذاً لماذا تسجل اسمك ؟

ـ سوف أرى أيها الضابط . أريد أن ألقي نظرة!

فهز الضابط كتفيه وقال :

ـ سجّله .

ولم ينته الاجتماع الا عند الظهيرة تقريباً . وفي اليوم التالي تقرر إرسال المفرزة لاسناد قرويي ميكولنسكايا .

وفي الصباح التالي ، لم يحضر في الساحة سوى حوالي أربعين من بين الستين متطوعاً . فاستعرض بيوتر القوزاق مرتدياً بدلة أنيقة ومعطفاً وحزمة طويلة . كان لمعظمهم شارات كتف عليها أرقام كتائبهم القديمة . وقد حملت أسرجتهم بحقائب فيها طعام ، وبياضات ، وخراطيش جيء بها من الجبهة . ولم يكن لدى جميعهم بنادق ، ولكن لدى الأكثرية سلاح أبيض .

وتجمع حشد من النساء والفتيات والأطفال والشيوخ في الساحة ليودعوهم ، وصفّ بيوتر وهو ممتط صهوة جواده المختال ، جماعته الذين يشكلون نصف سرية ، وتفحص مجموعة الخيل الصغيرة ، والخيالة بمعاطفهم ، وقمصلاتهم ، ومشمعاتهم* ، وأعطى إيعازاً بالرحيل ، وسار بالمفرزة صعد التل ، وتطلع القوزاق بوجوم ملتفتين إلى القرية ، وأطلق واحد من الصف الأخير اطلاقة ، وفي القمة لبس بيوتر قفازيه ، ومسد عذاريه الشقراوين ، واستدار بحصانه فأخذ يسير به مجانبة ، وأمسك قبعته بيده

* ما يرتدى اتقاء للمطر . المترجمون

اليسرى ، وهتف :

ـ سرية ، خبباً سرا!

فحث القوزاق جيادهم على الخبب ، وهم واقفون على ركائبهم يلوحون بسياطهم . وهبت الريح في وجوههم ، وعبث بأذيال الخيل وأعرافها ، ونثرت رذاذاً خفيفاً من المطر ، وشرعوا يتحدثون ويمزحون ، وكبا جواد خريستونيا الأدهم ، فلعنه وأمطره بلفحات السوط ، فقوس الحصان رقبته ، وانطلق يعدو وجنح عن الصف .

ولم يفارق القوزاق مزاجهم المرح حتى بلغوا كارغين ، ساروا وكلهم ثقة بأن حرباً لن تقع ، وأن حادثة ميكولنسكايا لم تكن سوى غارة عرضية شنها البلاشفة في أرض القوزاق .

٢٤

وصلوا كارغين في الأصيل . ولم يجدوا أحداً من رجال خط الجبهة في المنطقة : فقد ذهبوا جميعاً إلى ميكولنسكايا . وأوعز بيوتر لمفرزته بالترجل في الساحة ، وشخص إلى منزل اتمان المقاطعة .

فالتقى به ضابط أسمر طويل قوي البنية ، كان يرتدي قميصاً فضفاضاً خالياً من سير الكتف ، متمنطقاً بحزام قوزاقي ، وقد دسّ سرواله المخطط في جوربيه الصوفيين الأبيضين . وتدلى غليون من زاوية شفتيه الرفيعتين ، ولاحت على عينيه البنيتين المتألقتين نظرة يشوبها التجهم والخبث . كان واقفاً على الدرجات يدخن ويراقب بيوتر يتقدم نحوه . وكان جرم الرجل الجسيم وصدره المنتفخ القوي كالفولاذ وعضلات ذراعه التي تظهر تحت قميصه تشهد على قوته الخارقة .

ــ هل أنت أتمان المقاطعة ؟

فنفث الضابط سحابة من الدخان من تحت عذاريه المتهدلين ، وأجاب بصوت جهير عميق :

ـ نعم ، إنني أتمان المقاطعة . مع من أتشرف بالكلام ؟

ذكر بيوتر اسمه ، فأحنى الأتمان رأسه قليلاً وهو يشد على يده :

ـ اسمي فيودور دمترييفتش ليخوفيدوف .

كان فيودور دمترييفتش ليخوفيدوف ، وهو قوزاقي من قرية غوسينو ـ ليخوفيدوف ، امرءاً أبعد من أن يكون اعتيادياً . فبعد أن أنهى تحصيله في كلية عسكرية ، ظل مختفياً عن الأنظار كلياً لوقت طويل ، وبعد عدة سنوات ظهر فجأة في قريته من جديد وشرع يجند وحدة من المتطوعين من بين القوزاق الذين أنهوا خدمتهم الفعلية ، يحمل أذناً من السلطات العليا . وجمع من المنطقة التي تدعى الآن قصبة كارغين سرية من القوزاق المغاوير وقادهم إلى ايران ، حيث لبثوا هناك سنة بمثابة الحرس الخاص للشاه . وأثناء الثورة الإيرانية هرب ليخوفيدوف مع الشاه ، وظهر فجأة في كارغين من جديد بعد أن انقطعت صلته بمعظم رجاله ، وأتى ببقية مفرزته ، وثلاثة جياد عربية أصيلة من اسطبل الشاه ، وغنائم كثيرة ، وسجاد نفيس ، وحلي ثمين ، وحرير فاخر . وظل طوال شهر يمتع نفسه وينعم بالملذات ، وأفرغ جيوب سرواله من كميات وافرة من الذهب الايراني ، وراح يجوب القرية على صهوة جواده الجميل الأبيض كالثلج ذي القوائم الرشيقة ، الذي كان يرفع رأسه بمثل رشاقة البجعة ، ويمضي به صاعداً درجات حانوت ليوفوتشكين ، ويختار مايريد ويدفع ثمن مشترياته دون أن يترجل ، ثم يمضي من الباب الآخر ، ثم اختفى فيودور ليخوفيدوف ثانية بمثل السرعة التي جاء بها ، واختفى معه صاحبه الذي لايفارقه ، مراسله الراقص القوزاقي بانتيلوشكا ، وكذلك الجياد وكل ماجيء به من ايران .

وبعد ستة أشهر ظهر ليخوفيدوف في ألبانيا وصار معارفه في كارغين يتلقون بطاقات بريدية تحمل صورة جبالها الزرق ، وبأختام غريبة . ثم انتقل إلى ايطاليا ، وساح البلقان ، ورومانيا ، وأوروبا الغربية ، ونأت به أسفاره حتى أسبانيا ، وصار اسم فيودور ليخوفيدوف محاطاً بهالة من الغموض ،

ودارت في القرية كل ضروب التكهنات حوله . وغاية ماعرفه الناس صدقاً عنه هو أنه كان مقرباً من الأوساط الملكية ، وأن لديه معارف بين علية القوم في سانت بطرسبرغ ، وأنه كان عضواً دائماً في «تحالف الشعب الروسي»* ، أما طبيعة رحلاته الخارجية فلم تكن لدى أي امرئ معلومات عنها البتّة .

ولدى عودة ليخوفيدوف من الخارج ، استقر في بنزا في منزل الحاكم العام فهز معارفه في كارغين رؤوسهم وطقوا ألسنتهم مندهشين لدى رؤيتهم صورته في الصحف . «لكم تقدم فيودور دمترييفش! أنظر من من الناس يصاحب!» ، ذلك هو ليخوفيدوف ، يتناول يد زوجة الحاكم العام ليساعدها في ارتقاء عربتها ، والابتسامة تملأ وجهه الصربي ذا الأنف المقوس . ويهش له الحاكم نفسه بحنان كواحد من أفراد العائلة . ويمسك سائق العربة البدين الأعنة بطرف أصابعه ، والجوادان يشدان على اللجام ويعضعضانه ، متأهبين للوثوب . ويقف ليخوفيدوف وقد رفع يداً إلى قبعته الفرو المنفوشة ، وقور الأخرى تحت مرفق عقيلة الحاكم .

وفي نهاية ١٩١٧ ، وبعد غياب عدة سنوات ، ظهر ليخوفيدوف في كارغين وحط رحله هناك لوقت طويل كما يبدو .

وجاء معه بقرينة ربما كانت أوكرانية أو بولندية ، وطفل ، واتخذ له منزلاً صغيراً في الساحة مؤلفاً من أربع غرف ، وقضى الشتاء في وضع خطط مجهولة . كانت نوافذ بيته مفتوحة على مصاريعها طوال الشتاء (وقد كان شتاء قاسياً لم يألفه الدون» . وكان ليخوفيدوف يتشدد مع نفسه وعائلته بشكل يثير استغراباً شديداً بين القوزاق .

وفي ربيع ١٩١٨ ، بعد حادثة سيتراكوف ، انتخب أتماناً . ومن جديد ظهرت للعيان قابلية فيدور ليخوفيدوف الخارقة . لقد وقعت القصبة في يدين

* منظمة ملكية في روسيا القيصرية ينطوي نشاطها على دعاية ضد السامية وتنظيم المجازر واغتيال العناصر السياسية المناوئة . وقد بات معروفاً الآن أن التحالف كان ينال مساعدة مالية كبيرة من الحكومة القيصرية .

بلغتا من القسوة بحيث أن الشيوخ جعلوا يهزون رؤوسهم بعد مضي أسبوع واحد . وروض القوزاق إلى درجة أن الشيوخ ، بعد أن يتكلم في أي اجتماع (وكان له لسان ذرب ، وقد أسبغت عليه الطبيعة ذكاء إلى جانب القوة) كانوا يخورون مثل قطيع ثيران : « حالفك الحظ ، ياصاحب السعادة! نرجوك ونتوسل اليك من صميم قلوبنا! إنك على تمام الصواب! » .

وقد قام الاتمان الجديد بواجباته بصرامة . وكانت أولى خطواته أن أرسل كل رجل من رجال خط الجبهة في المقاطعة إلى سيتراكوف في اليوم التالي للمذبحة التي تعرض لها الحرس الأحمر ، وفي بادئ الأمر لم يرغب الغرباء الذين يؤلفون ثلث سكان المقاطعة في الذهاب ، كما عارض الجنود ، إلا أن ليخوفيدوف أصرّ على تنفيذ ماأراد ، فوقع الشيوخ على مرسومه الذي يقضي بطرد جميع الفلاحين الذين لايشتركون في الدفاع عن الدون ، من المقاطعة . ولم يحل اليوم التالي حتى تقاطرت عشرات العربات ملأى بالجنود يغنون ويعزفون على الأكورديونات شطر ميكولنسكايا . ولم يهرب من الغرباء سوى بضعة جنود التحقوا بالحرس الأحمر .

عندما اقترب بيوتر ، خمن ليخيدوف من مشيته أنه ضابط تدرج من نفر بسيط في الجيش ، فلم يدعه إلى منزله ، وخاطبه بلهجة متعالية دونما تكلف :

ـ كلا يابني ، ليس هناك ماتفعلونه في ميكولنسكايا . فقد دبروا أمرهم بدونكم ، هذا ماتفيد به البرقية التي تسلمتها مساء أمس ، انكص على أعقابك وانتظر أوامر أخرى ، استنفر القوزاق جيداً! قرية كبيرة مثل تتارسكي ، ولايزيد عددكم عن أربعين مقاتلاً ؟ هز كواهلهم ، أولئك الحثالة! إن أرواحهم هي التي في خطر ، وداعاً ، ورحلة سعيدة .

ودلف إلى منزله ، يحمل جسمه الثقيل بسهولة غير منتظرة ، وصندلاه القوزاقيان البسيطان يخطان على الدرجات الخشبية . وعاد بيوتر إلى قوزاقه في الساحة . فأمطروه بالأسئلة . فابتسم وأجاب ، دون أن يسعى إلى إخفاء ارتياحه :

ـ إلى ديارنا! لقد دبروا أمرهم بدوننا!

فكشر القوزاق عن أسنانهم ومضوا متزاحمين شطر جيادهم أما خريستونيا فقد تنفس الصعداء وكأن عبثاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهله ، وربت على كتفي توميلين :

ـ إذاً فنحن ذاهبون إلى البيت ، أيها المدفعي!

ـ قد اشتاقت زوجاتنا الينا!

ـ سنرحل لتونا!

وبعد أن تدارسوا الوضع قرروا أن لايقضوا الليلة في كارغين ، بل يعودوا في الحال ، وخرجوا من القرية زمراً مبعثرة تفتقر إلى النظام .

كانوا قد أتوا إلى كارغين على مضض منهم ، لايغيرون الا لماماً ، أما في عودتهم فقد ألحفوا على جيادهم . وأرعدت الأرض المتصدعة من قلة المطر ، تحت سنابك خيلهم ، وخلف الدون وسلسلة التلال القصية أومض بريق أزرق في الأفق .

وبلغوا تاتارسكي في منتصف الليل ، فأطلق أنيكوشكا اطلاقة من بندقيته النمساوية وهم يخبون بجيادهم حدر التل ، ورنت دفقة من الاطلاقات لتعلن عن عودتهم ، فاستجابت الكلاب في القرية بنباحها ، وزنخر أحد الجياد وصهل إذ شم رائحة موطنه ، وتفرقوا في القرية باتجاهات شتى .

زعق مارتن شامل متنفساً الصعداء وهو يودع بيوتر :

ـ لقد انتهى القتال! ذلك أمر حسن!

فتبسم بيوتر في الظلام ومضى راكباً إلى منزله . فخرج بانتلاي بروكوفتش وأخذ حصانه ، ورفع عنه السرج وقاده إلى الاسطبل ، ودخل هو وبيوتر البيت سوية .

ـ انتهت ؟

ـ آ... ها!

ـ حسناً ، حمداً لله! عسى ألا نسمع المزيد عنها!

ونهضت داريا دائقة من النوم . ومضت لتعد بعض العشاء لزوجها . وجاء غريغوري بملابسه الداخلية من غرفة النوم ، يحك صدره المشعر ، ويغمز لبيوتر هازلاً :

اذاً فقد قهرتموهم لتوكم ؟

ـ ها أنا الآن أقهر بقايا الحساء .

ـ تستطيع أن تقهر الحساء جيداً ، لا سيما اذا أسديت اليك يد العون!

***

لم تكن هناك نأمة ولا رائحة للحرب حتى عيد الفصح . وفي سبت الفصح قدم رسول يهذب إلى القرية من فيشنسكايا ، وترك حصانه الذي علاه الزبد أمام بوابة كورشونوف ، وجرى شطر سقيفة الباب . فحياه ميرون غريغوريفتش :

ـ ما الخبر ؟

ـ أريد الأتمان . أهو أنت ؟

ـ نعم .

ـ جند القوزاق في الحال ، بودتيولكوف يقود الحرس الأحمر إلى مقاطعة ناغولنسكايا . اليك الأوامر . ـ وقلب بطانة قبعته العرقة ليخرج المظروف .

وعلى صوت الحديث خرج غريشاكا العجوز مسرجاً زوجاً من النظارات على أنفه . وجاء ميشكا راكضاً وقرأوا الأمر الصادر من أتمان الاقليم سوية . وراح الرسول يمسح الغبار بكمه عن وجهه الملفوح ، وهو يتكىء على الدرابزين المزخرف .

وفي أحد عيد الفصح بعد الافطار ، ترك القوزاق المجندون قريتهم ممتطين جيادهم ، فقد كان أمر الجنرال الفيورف حازماً إذ هدد كل من يرفض الذهاب بحرمانه من لقب القوزاق . ومن ثم لم تعدالمفرزة تتألف من أربعين رجلاً ، كما في بادىء الأمر . بل من مائة وثمانية .بضمنهم عدد من رجال كهلة استبدت بهم الرغبة في ضرب البلاشفة . أما الشباب فقد ذهبوا

مكرهين ، لأن شيوخهم كانوا يستحثونهم بحمية .

وكان غريغوري في الصف الأخير وقد جرّ قلنسوة مشمعة فوق قبعتة . وكان المطر ينث من السماء الضبابية . وتتدحرج الغيوم فوق السهب المكسو بالخضرة . ويحلق النسر عالياً عند أعتاب الغيوم . ويطير أمام الرياح إلى الشرق وهو يخفق بجناحية خفقاناً متأنياً ، ثم ما يلبث أن يتلاشى في الأبعاد هباءةً بنية لامعة .

كان السهب يتألق تألقاً ندياً وترامت هنا وهناك أعشاب الذئب والأدغال من بقايا شيح السنة المنصرمة . وانتصبت قبور رمادية كالحرس فوق المرتفع .

حينما هبطوا على كارغين التقوا صبياً يسوق ثيراناً إلى المرعى .

كان ماضياً في طريقه يخط بقدمين حافيتين ، ويلوح بسوطه . ولما رأى الركب توقف وجعل يتفحصهم باهتمام هم وجيادهم الموحلة .

سأله توميلين ، من أين جئت ؟ فأجابه الصبي بشجاعة ، وهو يضحك من تحت السترة الملقاة على رأسه :

ـ من كارغين .

ـ هل رحل قوزاقكم ؟

ـ رحلوا . رحلوا ليقضوا على الحرس الأحمر . هل لديك تبغ لسيكارة أيها العم ؟

فشدّ غريغوري على عنان حصانه :

ـ تبغ لك ؟

فتقدم إليه الصبي . كان ساقا سرواله المشمران مبللين والشرائط حمراء زاهية وتطلّع إلى وجه غريغوري بشجاعة حينما كان القوزاقي يخرج كيس تبغة من جيبه ، وقال :

ـ سوف ترون بعض الجثث بعد دقيقة ، حالما تذهبون حدر التل . فقد ساق قوزاقنا الحرس الأحمر أمس وقتلوهم . كنت أرى الماشية هناك عند ذلك

الدغل ، ورأيتهم يحصدونهم . أوه ، كان شيئاً رهيباً! فعندما بدأت السيوف تصل جعلوا يصرخون ويتراكضون... ثم ذهبت لأرى . كان واحد منهم قد ضرب في كتفه ، واستطعت أن أرى قلبه ينبض في صدره ، وكبده الزرقاء... رهيب! أعاد ذلك وقد أدهشه أن القوزاق لم ترعبهم حكايته ، هكذا ، على الأقل فكر الصبي في دخيلة نفسه عندما رأى إلى وجوه غريغوري وخريستونيا وتوملين الباردة الساكنة .

وأشعل سيجارته ومسد على رقبة حصان غريغوري الندية ، وقال :

« أشكرك » وجرى نحو ثيرانه .

كان جثث الحرس الأحمر ترقد على قارعة الطريق في حفرة ضحلة غسلتها مياه الأمطار ، لم يهل عليها سوى قليل من التراب . وقد لاح وجه رصاصي أزرق ، وعلى شفتيه غشاوة من الدم . وبرزت من الحفر قدم حافية وساق سروال أزرق مبطن .

فدمدم خريستونيا :

ـ لم يتريثوا ليواروهم التراب ، يا للخنازير! ـ ولفح حصانه ، ولحق بغريغوري وذهب حدر التل .

فقال توميلين مبتسماً ، غير أن وجنته كانت تلمع :

ـ حسناً ، أريق الدم على تربة الدون أيضاً!

٢٥

كان ماكسيم غريازنوف مدفعي مفرزة بونتشوك ، وهو قوزاقي من قرية تاتارسكي . كان قد فقد حصانه في مناوشة مع مفرزة متطوعي كوتيبوف ، ومنذ ذلك الحين راح يسرف في الشراب ويلعب القمار . وعندما قتل حصانه تحته . (حصانه الذي يشبه الثور وذو الخط الفضي على امتداد ظهره) حل السر وحمله ثلاثة فراسخ أو نحوها ، ثم لما رأى أنه لن

يستطيع على هذا المعدل أن ينجو بجلده من البيض نزع عنه الرمانة المعدنية الثمينة ، وفك الشكائم وترك رجال وحدته ينهضون بأعباء القتال ومضى . وظهر في روستوف ، وقامر في الحال بسيفه ذي المقبض الفضي الذي استحوذ عليه من ضابط برتبة رئيس قتله في المعركة ، ثم قامر بعدة الحصان التي حملها معه ، وحتى سرواله وجزمته المصنوعة من جلد الماعز . وعندما التحق برماة الرشاش التابعين لبونتشوك كان عارياً تقريباً . وربما كان قد لم شتات نفسه مرة أخرى ، لولا أن طلقة أصابته في وجهه في أول معركة يخوضها ، فاندلقت عينه الزرقاء على صدره ، وتدفق الدم من قفا رأسه ، الذي تهشم مثل عيدان الكبريت ، وهكذا غاب عن الوجود مكسيم غريازنوف ، من قوزاق تاتارسكي ، سارق الخيل سابقاً والسكير مؤخراً .

فنظر بونتشوك اليه وهو يعالج سكرات الموت . ومسح الدم بعناية من سبطانة الرشاش ، الدم الذي طفر من رأس ماكسيم المثقوب . وبات التراجع ضرورياً في أعقاب ذلك ، فسحب بونتشوك الرشاش إلى الوراء تاركاً ماكسيم يموت على الأرض الحامية . كان جسده الأسمر معرضاً للشمس ذلك أن ماكسيم قد سحب قميصه فوق رأسه وهو يصارع الموت .

وتوقف في أول مفترق طرق في الضاحية فيلق من الحرس الأحمر كان قد عاد أفراده جميعاً من الجبهة التركية . وساعد جندي يرتدي قبعة فرو مهترئة بونتشوك في نصب الرشاش وبنى الآخرون متاريس مستعجلة في عرض الشارع ، وهم يمزحون ويطلقون شتائمهم باتجاه العدو . واستقلت آنا الى جانب بونتشوك . واستلقى جنود الحرس الأحمر صفوفاً متروسة وراء المتراس المؤقت .

وعلى حين غفلة تناهى اليهم وقع أقدام في الشارع من اليمين ، فهرع تسعة أو عشرة من الحرس الأحمر الى المنعطف . وصاح أحدهم :

ـ انهم قادمون! اهربوا!

ولم تمض لحظة حتى أمسى مفترق الطريق مهجوراً بلقعاً . ثم علا مثار من النقع ، واندفع الى المنعطف قوزاقي خيال على قبعته شريط أبيض ، وقد شد الى جانبه بندقية فرسان . وكبح حصانه بقوة جعلت الحيوان يقعي على ساقيه الخلفيتين . فأطلق بونتشوك اطلاقة من مسدسه . فجرى القوزاقي ناكصاً الى الوراء وقد مال بشدة على رقبة حصانه . وانتابت الجنود خلف المتراس البلبلة والتردد ، وركض اثنان منهم تحت الجدار واستلقيا عند بوابة . كان واضحاً أن الرجال سيتزعزعون ويتراجعون بعد دقيقة . فلم يكن الصمت المشحون ونظراتهم المتوجسة لينم عن الصمود...

لم يعلق في ذاكرة بونتشوك من كل ما أعقب ذلك سوى مشهد واضح لا تنمحي ذكراه . لقد اندفعت آنا وهي تجرجر بندقيتها وراءها ، شعثاء الشعر منفعلة الى درجة لا تصدق ، وقد انداحت عصابتها الى قفا رأسها ، وتلفتت حولها وأشارت الى المنزل الذي اختفى القوزاق خلفه ، وصرخت بصوت أرعش يصعب تمييزه : «اتبعوني!» . ثم ركضت شطر المنعطف بخطوات متعثرة مترددة .

فرفع بونتشوك نفسه من الأرض . وندت من فمه صيحة مبهمة ثم اختطف بندقية من أقرب جندي وجرى خلف آنا ، وهو يلهث ويحس برعشة في ساقيه لا تكبح ، وقد قتم وجهه وجرى وهو يحاول دونما طائل أن يصيح ، أن يناديها ويعود القهقرى . وسمع لهاث بضعة من الرجال يتراكضون خلفه . وأحس بكل جوارحه أن شيئاً مريعاً لا يعوض على وشك الوقوع . وأدرك حتى منذ تلك اللحظة أن الآخرين لن يتبعوها ، وأن اندفاعها كان غير ذى معنى ، وطائشاً ، وانتحارياً .

وقرب المنعطف اصطدم بكل طاقته بالقوزاق الذين انطلقوا بجيادهم نحوهم . فأطلقوا رشقة من الطلقات المتبعثرة... أزيز الرصاص . صرخة بائسة واهنة ندت عن آنا . ثم رآها تتهاوى على الطريق بيد منبسطة وعينين متوحشتين . ولم يعد يرى القوزاق ينكصون الى الوراء . ولا الجنود الحمر

يطاردونهم ، وقد ألهبهم حماس متأخر بعد اندفاع آنا الذي يستحث الهمهم . لم تعد عيناه تريان سواها فيما راحت تنازع تحت قدميه . فقلبها ليرفعها ويحملها بعيداً . بيد أنه رأى الدم يتدفق من جنبها الأيسر ، والأذيال الخلقة لبلوزتها الزرقاء تتهدل باسترخاء حول الجرح ، فأدرك أنها أصيبت برصاصة دم ـ دم وأيقن أنها كانت تحتضر : فقد أحس بالموت يحوم حول عينيها الغائمتين .

فنحّاه أحدهم جانباً وحملوها إلى باحة أحد البيوت وأرقدها في فيء سقيفة مائلة .

ودس جندي لبادات من القطن الطبي في الجرح مالبث أن رماها بعد أن تشربت بالدم . وضبط بونتشوك عواطفه ، ففك أزرار ياقة بلوزتها ، ومزق خرقة من قميصه ، وطواها على شكل اضمامة وضغطها على الجرح . غير أن الدم نزّ خلالها ، ورأى وجهها يستحيل أزرق وشفتيها ترتعشان من شدة الألم وقد حالتا داكنتين . وانفغر فمها ناشداً للهواء ، غير أن رئتيها لم تقويا على التنفس ، اذ جعل الهواء يخرج من فمها وجرحها . فخرق مزق ثوبها ، دون أن يستشعر خجلاً وسدّوا الجرح بقطعة من القطن كيفما اتفق ، فعادت إلى وعيها بعد بضع دقائق . وحدقت عيناها الغائرتان لحظة في بونتشوك من محجريهما الداكنين ، ثم ما لبث جفناها المرتعشان أن انطبقا عليهما .

وجعلت تئن وتتضور : «ماء! ياللحر الفظيع!» وانفجرت تجهش : «أريد أن أعيش! ايليا! حبيبي !...آ... آه !» .

وضع بونتشوك شفتيه المنتفختين على وجنتها الملتهبة . وصب ماء على صدرها . فملأ التجويفين تحت ترقويتها ، ولكنه ما لبث أن جف بعد هنيهة . كانت تصطلي بنار موات . وجعلت تنازع ، ثم أفلتت بنفسها من يديه .

ـ حارة... نار!...

ولما خارت قواها فترت حرارتها بعض الشيء ، وقالت بوضوح :

ـ« ولكن لماذا ياايليا ؟ حسناً ، ها أنت ترى كم الأمر بسيط..أنت شخص غريب... انه بسيط إلى حد الفظاعة..ايليا ، حبيبي ، سوف تـ... هناك أمي » . وفتحت عينيها قليلاً ، وكأنما تغضنتا من الضحك ، وشرعت تتكلم بصورة مبهمة ، وهي تجهد أن تتغلب على الألم والرعب ، وكأن شيئاً ما كان يخيفها : « كان احساسي بادىء الأمر.. ضربة لافحة... أما الآن فكل شيء يشتعل... أحس... اني أموت » . وقطبت لما لاحظت ايماءة الانكار المرة عليه : « لا!... عسير... آه . ما أشق التنفس ! » .

كان كلامها دفقات متشنجة ، وكأنها تحاول أن تخبره بكل ما كانت تعاني منه . ولاحظ بهلع أن وجهها أخذ يشحب ويستحيل أصفر عند الصدغين . فحول عينيه إلى يديها الممدودتين بلا حياة إلى جنبيها ، ورأى أظفارها تكتسي زرقة وردية مثل اجاص أسود ناضج .

ـ ماء! صدري... يا للحر الفظيع!

وهرع إلى المنزل ليأتي بالماء . وعند رجوعه لم يسمع لهاث آنا المتحشرج في فيء السقيفة . كانت الشمس الغاربة تلقي أشعتها على فمها و هو يرسم أمارة النزع الأخير ، وعلى يدها الشمعية الدافئة الجامدة المشدودة إلى الجرح . فأحاط كتفيها بذراعيه مترفقاً ، ثم رفعها ، ونظر هنيهة إلى أنفها الأقنى الأنمش بعض الشيء ، والغضون الدقيقة المعتمة بين عينيها ، وحاول أن يتلمس ألق بؤبؤيها الذاوى تحت حاجبيها السوداوين . وتهدل رأسها الواهن العاجز إلى أسفل ، ونبض العرق في جيدها الأهيف الفتي نبضته الأخيرة .

وطبع شفتيه الباردتين على جفنيها الداكنين نصف المغمضين ، وجعل يناديها : « صديقتي! عزيزتي! آنا » .

ثم استوى ، ودار بحدة على عقبه ، ومضى يسير منتصب القامة بصورة غير اعتيادية ، دون أن يحرك ذراعيه المشدودتين إلى جنبيه .

٢٦

مرت الأيام التي تلت على بونتشوك كتلك التي عاشها حين أصيب بالتيفوس . كان على عهده يتجول ، وينجز أعماله ، ويتناول طعامه ، ويخلد إلى النوم . انما كان على الدوام أشبه بمن يتناول جرعة مخدر مبلدة . كان يحدق في العالم المحيط به شارداً ، بعينين منتفختين مهووستين ، ولم يعد يميز أصدقاءه ، وبدا كمن أصيب بخدر شديد الوطأة أو كمن شرع يبل من مرض عضال .فمنذ مصرع آنا كانت تمر عليه لحظات يتبلد فيها احساسه : لم يكن يريد شيئاً ، أو يفكر في شيء« كل يا بونتشوك! » كان رفاقه يلحفون عليه ، فيأكل ، ويتحرك فكاه ببطء وتكاسل . وظل رفاقه يراقبونه ، وتشاوروا حول إرساله إلى المستشفى .

سأله أحد رماة الرشاشات في اليوم التالي :

ـ هل أنت مريض ؟

ـ كلا .

ـ ما الأمر ؟ أتراك حزيناً ؟

ـ كلا .

ـ حسناً ، فلندخن . ليس بوسعك أن تستعيدها الآن ، يا صاح . ان ذلك لن يجدي فتيلاً .

وعندما يحين وقت النوم كانوا يقولون له : « حان وقت النوم! » فيرقد .

أمضى أربعة أيام في حالة انطوائه عن دنيا الواقع هذه . وفي اليوم الخامس التقى به كريفوشليكوف في الشارع ، وأمسك بذراعه . وقال له :

ـ أها ، هوذا أنت! كنت أبحث عنك . ـ ونفح بونتشوك بضربة ودود على كتفه وهو لا يدري ما حدث له ، وابتسم قلقاً وأضاف : ـ ماذا دهاك ؟ لست سكران ، أليس كذلك ، ألم يبلغك أننا سنرسل حملة إلى منطقة الدون

الشمالية ، لتعبئة القوزاق هناك ؟ وسوف يقودها بودتيلكوف ؟.. إن رجاءنا الوحيد هو في قوزاقيي الشمال . والا فسوف نقع في الفخ هنا . هل ستذهب ؟ نحن بحاجة الى محرضين . ستذهب ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب بونتشوك باقتضاب : ـ أجل .

ـ طيب ، ذلك حسن . سنرحل غداً .

وأعد بونتشوك عدته للرحيل ، وهو على حاله تلك من الاعياء العقلي ، ومضى مع الحملة في اليوم الأول من أيار .

في هذه المرحلة كان وضع حكومة الدون السوفيتية عصيباً جداً . فقد كان جيش الاحتلال الألماني يتقدم شرقاً في أوكرانيا ، وكانت مناطق الدون الأسفل تمور بتمردات معادية للثورة . وكمن بوبوف في السهوب وراء الدون ، يهدد بالإغارة على نوفوتشيركاسك في أية لحظة . وكان مؤتمر السوفييت المحلي الذي انعقد في أواسط نيسان قد قوطع أكثر من مرة لصد المتمردين القوزاق الذين كانوا يقتربون من روستوف ويحتلون ضواحيها . في الشمال فقط كانت نيران الثورة البلشفية ماتزال في أوارها ، والى هذه النيران كان بودتيلكوف والآخرون قد انسحبوا اضطراراً بعد أن فقدوا أمل الحصول على مساندة من الدون الأسفل . فقد باءت التعبئة بالفشل . ومن ثم قرر بودتيلكوف الذي انتخب حديثاً رئيس مجلس قوميسارية الشعب في الدون ، بمبادرة من لاغوتين ، الشخوص الى الشمال لتعبئة ثلاث أو أربع كتائب من رجال خط الجبهة ، وتوجيههم ضد الألمان والثورة المعادية في المناطق السفلى .

فعينت لجنة تعبئة استثنائية مؤلفة من خمسة أعضاء ، برئاسة بودتيلكوف ، وسحب عشرة ملايين روبل من الذهب والعملة القيصرية من خزينة الدولة لسد نفقات التعبئة ، وجمعت بعجالة وحدة مؤلفة بصورة رئيسية من قوزاق من منطقة كامينسكايا لتقوم بحراسة النقود ، وفي الأول من آيار توجهت الحملة صوب الشمال ، وقد تعرّضت لنيران السلاح الجوي الألماني .

كانت السكك تمور بالحرس الأحمر المتراجعين من أوكرانيا . وكان القوزاق المتمردون ينسفون الجسور ويخربون القطارات . وكانت الطائرات الألمانية تحلّق صبيحة كل يوم فوق السكك الحديدية من نوفوتشيركاسك الى كامينسكايا ، وتنقض مثل أسراب من النسور وتفتح نيران رشاشاتهاعلى مفارز الحرس الأحمر . فيتفرق الجنود من الشاحنات ، وتدوي الإطلاقات بأزيز حاد ، وتختلط في المحطات رائحة الخبث بدخان الحرب والدمار . ثم تمضي الطائرات بعيداً في الفضاء ويفرغ رماة البنادق مشطاً اثر مشط من العتاد ، فارشين الأرض حول القطارات بالخراطيش الفارغة حتى لتبدو أشبه بأجمة بلوط في الخريف تناثرت فوقها أوراق ذهبية . وعمّت أمارات الخراب كل مكان . وتناثرت شاحنات القطارات المحطمة المحترقة ، والأسلاك المقطوعة المدلاة من أعمدة التلغراف ، والمنازل المخربة ، والأسيجة المقامة لاتقاء الثلج ، تناثرت أشلاء وكأن عاصفة اجتاحتها .

ظلت الحملة تشق طريقها بطيئة طوال خمسة أيام على امتداد الخط الحديدي باتجاه ميليروفو . وفي اليوم السادس دعا بودتيلكوف لجنة التعبئة للاجتماع في عربته .

ـ لا نستطيع المضي على هذه الشاكلة . أرى أن نترك العربات وكل حاجياتنا ونقطع بقية الطريق سيراً .

فتساءل لاغوتين :

ـ لماذا ؟ سوف يطبق البيض علينا فيما نسرح نحن على أقدامنا .

وقال مريخين غير واثق :

ـ انها مسيرة بعيدة بعض الشيء .

كان كريفوشليكوف جالساً لا يرين ، وقد تدثر بمعطفة ، وبدا أصفر بفعل الملاريا والكنين . كان متكوماً على كيس سكر ، لايسهم في النقاش . وكانت على عينيه غشاوة من أثر الحمى .

ناداه بوتيلكوف دون أن يرفع عينيه :

ـ كريفوشليكوف!

ـ ما الأمر ؟

ـ ألست تسمع ؟ يجب أن نذهب على أقدامنا ، والا فسيدركوننا ، ماذا تقول ؟ فأنت أكثرنا ثقافة .

فقال كريفوشليكوف بتؤدة وجلاء : «بوسعنا أن نسير» ، بيد أن أسنانه اصطكت على حين غفلة مثل الذئب وجعل يرتجف في نوبة من الحمى . واستطرد : «بوسعنا أن نفعل ذلك لو لم يكن لدينا الكثير مما نحمله» .

فنشر بودتيلكوف خارطة ازاء الباب ، وأمسك بها مريخين عالياً من طرفيها . فاندفعت اليها الريح التي كانت تهب من ناحية الغرب المدلهمة ، وكأنها تهم بنتشها .

ـ سنتخذ هذا الطريق ، ـ ومر بودتيلكوف بأصابعه الملطخة بالنيكوتين على الخارطة ، وأردف : ـ نقطع مائة وخمسين أو مائتي فرسخ ، بالكثير ، ها!

فوافقه لاغوتين :

ـ بلى ، يحسن بنا أن نقطعها سيراً . ولينزل العمى بأعينهم!

ـ ماذا تقول أنت ، ياميخائيل ؟

فاهتز كريفوشليكوف مغتاظاً ، وقال :

ـ لا مانع لديّ .

ـ سأخبر القوزاق بالنزول من القطار في الحال . فلاداعي لضياع الوقت . ـ قال مريخين ذلك وجال ببصره حوله يترقب ، وإذا لم يصادف معارضة ما ، قفز من الشاحنة .

وفي صباح ذلك اليوم الماطر القاتم لم يكن القطار الذي يقل حملة بودتيلكوف بعيداً من بيلايا كلتيفا . كان بونتشوك مستلقياً في شاحنة وقد غطى رأسه بمعطفه . وفي الشاحنة نفسها كان القوزاق يعدون شاياً ،

ويتضاحكون وبعضهم يجرجر سياق البعض الآخر . أبقى بونتشوك عينيه مغمضتين . كان يستعيد ذكرى حوادث الماضي ، مستشعراً آلامها . وقد مثل أمام عينيه المغشوتين السهب المغطى بالثلج تطرزه هامات الغابات البنية في الأفق . وخيل اليه أنه يستطيع أن يتحسس الريح الباردة ، وقد بدت آنا واقفة الى جانبه . كان بوسعه أن يرى عينيها السوداوين ، وتقاطيع فمها الصارمة الرقيقة في الوقت ذاته ، والنمش الخفيف فوق أنفها ، وتغضن حاجبها الذي يوحي بالاستغراق والتأمل . على أنه لم يكن بوسعه أن يميز الكلمات التي ندت عن شفتيها ، كانت غير واضحة تقاطعها أصوات غريبة وقهقهات ، ومن التماع عينيها ورفيف أهدابها حدس ماكانت تقوله .

ثم هذه آنا أخرى ، بوجه أصفر مزرق ، وعلى خديها آثار الدموع ، وأنفها معصور وشفتاها تتضوران ألماً . انحنى ليقبل محجري عينيها القائمتين . وجعل يئن ويضغط على بلعومه لحبس نشيجه . ولم تبارح آنا ذهنه أبداً . وظلت ملامحها مائلة أمام عينيه دون أن تذوي أو تضطرب . لقد التأم وجهها وقوامها ، ومشيتها ، وحركاتها ، وقوس حاجبيها ، ليؤلف منها كلاً حياً . واستعاد كلماتها وأحاديثها الشاعرية الرقيقة ، وكل الأشياء التي عاشاها معاً . فزادته هذه الذكرى الحية عذاباً على عذاب .

وأيقظوه عندما صدر الأمر بالنزول ، وجمع حاجياته دونما اكتراث ، وخرج . واشترك في تفريغ الأمتعة . وبنفس الشعور من اللامبالاة تسلق عربة خيل ومضى بها .

كان المطر يرذّ ، وكان العشب القميء على امتداد الطريق ندياً . وهناك السهب الطلق ، ، حيث تهيم الريح جوابة فوق الحزون والوهاد . وترامى وراءهم دخان القاطرات ، وأبينة المحطات بلونها الأحمر . كانت العربات الأربعون التي استؤجرت من أقرب قرية تدب متثاقلة . وكانت الخيل تسير وئيدة ، اذ كانت تعيق حركتها التربة الطينية السوداء المنقوعة بالمطر . والتصق الوحل بالعجلات كتلاً سوداً أشبه بجعد الصوف . وسارت

أمامهم ووراءهم جموع من عمال المناجم لائذين بالفرار مع زوجاتهم وأهليهم وحاجياتهم البائسة ، ميممين وجوههم صوب الشرق اتقاء شر القوزاق .

وعند مفرق الخط الحديد لحقت بهم فلول مفرزتين أخريين من مفارز الحرس الأحمر المبعثرة . كانت وجوههم ترابية كالأرض من أثر القتال ، وافتقادهم النوم ، والجوع . تقدم آمرهم شادينكو نحو بودتيلكوف ، وقد لاح الاعياء الشديد على وجهه الوسيم ذي الشاربين المقصوصين على الطريقة الانكليزية والأنف الدقيق القاسي . وإذ مرّ بونتشوك بهما سمع شادينكو يتكلم بصوت متعب غضوب ، وقد عقد حاجبيه :

ـ أتظن أني لا أعرف جماعتي ؟ كانت الأمور بالأمس سيئة بما فيه الكفاية ، وعلينا أن نحسب حساب الألمان أيضاً ، سلخ الله وجوههم . لعمري متى أستطيع أن ألم شعث قواتي ثانية ؟

بعد هذا الحديث حث بودتيلكوف خطاه ليلحق بعربته ، بادي العبوس والارتباك . فتقدم منه كريفوشيلكوف وجعل يخاطبه بانفعال . ولاحظه بونتشوك يلوح بذراعه الى الاسفل ويهدر ببضع عبارات . فدبّ الحماس في ذهن بودتيلكوف وقفز الى العربة فصرت من ثقله . ولم يكد السائق يلفح ظهور الخيل حتى تطاير الوحل من العجلات .

وصاح بودتيلكوف والريح تنفخ سترته الجلدية :

ـ أسرعوا!

٢٧

ظلت الحملة تواصل مسيرتها عدة أيام متوغلة في قلب اقليم الدون . وقد رحب بهم سكان القرى الأوكرانية وأكرموا وفادتهم ، وباعوهم المؤن عن طيبة خاطر وآووهم . ولكن ما ان أثير موضوع اكتراء خيل الرحلة الى كراسنوكوتسك حتى شرع الأوكرانيون يحكون رؤوسهم ، وأعلنوا بعد تردد يسير رفضهم البات فقال بودتيلكوف لواحد منهم :

ـ ستحصل على كمية وافرة من النقود ، فلماذا تشيح بوجهك عنا ؟
ـ هل تعتقد أنني أفضل النقود على حياتي ؟
ـ نحن لا نريد حياتك ، انما نطلب منك أن تؤجرنا بعض الخيل ، عربة واحدة ليس غير .
ـ لا أستطيع .
ـ لِمَ لا ؟
ـ أنتم ذاهبون الى القوزاق ، أليس كذلك ؟
ـ وماذا في ذلك ؟
ـ هب أن شيئاً سيقع وأفقد خيلي . ماذا تراني سأفعل آنذاك ؟ كيف سيتسنى لي أن أعيش دونما خيل ؟ كلا ، يارجل ، دعني وشأني . لن أفعل ذلك .

وعندما أخذوا يقتربون من أراضي القوزاق ، ازداد توجس بودتيلكوف وبقية القادة . فقد لاحظوا تغيراً في موقف الناس الذين طفقوا الآن يظهرون لهم الضغينة والتهيب علانية ، ويبيعونهم الطعام على مضض ، ويتملصون في الاجابة . لم تعد العربات يتكأكأ حولها حشد فرح من صبية القرى ، بل أخذت تسترق النظر اليهم وجوه عدائية من النوافذ ، ويتوارى القرويون عن الأنظار حالما يقع نظرهم عليهم .

فراح قوزاق الحملة يصرخون في وجوههم :
ـ ماذا أنتم ، ثلة كفار ؟ فيم تحملقون فينا كالبوم ؟
وألقى فانكا بولديريف بقبعته على الأرض في ساحة القرية ، وقد بعث في نفسه اليأس مما لا قوه من استقبال فاتر ، وأرعد وهو يجول ببصره خشية أن يراه أحد القواد :
ـ أأنتم أنس أم جن ؟ فيم وقوفكم صامتين ؟ ألا لعنة الله عليكم! نحن نريق دماءنا من أجل حقوقكم وأنتم لا تفعلون سوى أن تلتهمونا بنظراتكم! لقد حلت المساواة الآن أيها الرفاق . فلم يعد هناك لا قوزاقي ولا أوكراني ،

ولن يمسكم أحد بسوء من الآن فصاعداً . ايتوا لنا ببيض ودجاج في الحال ، ندفع لقاء ذلك روبلات قيصرية .

كان ستة أوكرانيين يستمعون اليه ، وقد انحنت رؤوسهم بقنوط ، وكإنهم جياد وضع عليها نير الحراثة . ولم يبد أي منهم تجاوباً مع خطابه الناري .

- لا زلتم أولئك الاوكرانيين العفنين كعهدنا بكم! ألا فلتنبعج بطونكم ، أنتم أيها البرجوازيون أصحاب الكروش المنتفخة! - ورمى بولديريف ثانية بقبعته البالية واستحال وجهه أرجوانياً من شدة الغيظ ، وأردف : - أنتم لا تجودون بحفنة من الثلج في عز الشتاء!

فلم يزد الاوكرانيون على أن يقولوا له :

- لا داعي لزعيقك! - ثم تفرقوا كل الى سبيله .

وفي القرية نفسها سألت عجوز أوكرانية أحد القوزاق :

- أصحيح أنكم ستسلبون كل شيء وتمزقوننا إرباً إرباً ؟

فأجابها القوزاقي دون أن يطرف جفناً :

- أجل ، صحيح . ولعلنا لن نفعل ذلك مع كل انسان ، ولكننا سنمزق كل الشيوخ .

- أوه ، ياالهي! ولماذا تمزقونهم ؟

- لنأكلهم مع الثريد . لقد سئمنا طعم الضأن منذ زمن . ولم يعد شهي المذاق ، ولهذا نضع الشيوخ في قدورنا ونطهو مرقاً نفيسا منهم...

- لا أخالك تمزح ، أليس كذلك ؟

فتدخل مريخين :

- انه يكذب أيتها الجدة! - والتفت الى القوزاقي الهازل وقال :

- تعلم كيف تمزح ومع من تمزح! سيقطع بودتيلكوف لك رأسك على أكاذيبك هذه . فيم تنشر هذه الحكايات ؟ سوف تذهب وتخبر كل انسان بأننا نمزق الشيوخ!

واذا استبد ببودتيلكوف القلق ، جعل يختصر من طوال الوقفات والاستراحات الليلية ، وراح يعجل في تقدم الحملة . وفي اليوم السابق لوصولهم منطقة الدون الأعلى جرى بينه وبين لاغوتين حديث طويل .

ـ ليس هناك من جدوى في ذهابنا بعيداً جداً ، ياايفان . سنشرع بالتجنيد حالما يتسنى لنا ذلك . سوف نعلن عن موعد التسجيل ونعرض أجوراً طيبة . انما يتأتى عليهم أن يأتوا جميعاً بجيادهم وعددهم ، فليس لنا أن نرمي بنقود الشعب في البالوعة . سنجمع رجالاً كلما تقدمنا . وعندما نكون قد بلغنا ميخائيلوفكا يجب أن تتكون لدينا فرقة تحت امرتنا . مارأيك ، أتظن أننا سنحقق ذلك ؟

ـ سنحقق ذلك ، شريطة أن يكون كل شيء مايزال هادئاً هناك .

ـ اذاً فأنت تعتقد أن البيض ربما بدأوا عملهم فعلاً ؟

ـ من يدري ، ـ ثم مسد لاغوتين لحيته القصيدة وأضاف بقنوط : لقد تأخرنا... وأخشى أننا لن نوفق . فقد باشر الضباط عملهم هناك . علينا أن نسرع...

فأجابه بودتيلكوف وقد تألقت عيناه بقسوة :

ـ نحن مسرعون بالفعل! واياك أن تجزع! علينا ألا نجزع ، فمن ورائنا رجال ، فلا داعي للخوف . سوف نشق طريقنا! وفي غضون أسبوعين سنكون قد اكتسحنا الألمان والبيض من الدون . ثم قال في سريرته معرباً عن شعوره الداخلي وهو ينفخ سيكارته بقوة : ـ لئن كنا قد تأخرنا كثيراً ، لسوف يقضى علينا وعلى النظام السوفييتي في الدون . يجب علينا أن لا نتأخر كثيراً . أمّا اذا كان الضباط قد دبروا عصياناً قبل أن نصل الى هناك ، فتلك هي النهاية! ـ ووشيك غروب اليوم التالي وطأوا أرض القوزاق . وحينما اقتربوا من أول قرية رأى بودتيلكوف ، وهو في إحدى العربات الأمامية مع لاغوتين وكريفوشليكوف ، قطيعاً من الماشية في السهب . فاقترح قائلاً للاغوتين : «لنذهب ونسأل ذلك الراعي» . فأيد كريفوشليكوف الفكرة .

فترجل لا غوتين وبودتيلكوف ومضيا شطر القطيع ، كان العشب المشاع الذي لفحته الشمس يومىء بلون بني . كان العشب قميئاً قد هرسته الأقدام ، ونما على حافة الطريق شيء من اللفت والشوفان البري تخشخش ذؤاباته الشعث . ومضى بودتيلكوف وهو يفرك بيده عسلوجاً من شيح متيبس ويتنشق رائحته المريرة :

ـ لك العافية ، أيها الراعي .

ـ العافية من عند الله .

ـ تسرح بقطيعك ؟

ـ أي .

وأرخى العجوز نظره من تحت حاجبيه الأشيبين الكثين .

ـ حسناً ، كيف تسير معكم الأمور هنا ؟

ـ نقضيها بمعونة الله .

ـ ماعندك من أخبار ؟

ـ لا شيء يذكر . ومن عساكم تكونون ؟

ـ نحن جنود عائدون الى أهلينا .

ـ من أية قرية أنتم ؟

ـ أوست ـ خوبر سكايا .

ـ عسى ألا يكون بودتيلكوف ذاك بينكم ، أم تراه معكم ؟

ـ نعم .

فلاح الجزع على الراعي اثر الجواب ، وشحب لونه . فسأله بودتيلكوف :

ـ مالخبر أيها الشيخ ؟

ـ يقال أنكم ستقتلون الأرثودوكس .

ـ هراء! من ينشر هذه الأكاذيب ؟

ـ الأتمان قال ذلك في اجتماع عقد قبل يومين . لعله سمع أو تسلم

رسالة من الحكومة تقول ان بودتيلكوف والكالميكيين في طريقهم الينا ليذبحونا جميعاً .

فسأله لاغوتين وهو ينظر الى بودتيلكوف الذي كان يعض نصلاً من الحشيش بأسنانه القوية الصفر : ـ إذاً فقد اصبح لديكم أتمانات من جديد ؟

ـ انتخبنا أتماناً قبل بضعة أيام . وقد ألغى مجلس السوفييتات .

وكان بود لاغوتين أن يلحف عليه بمزيد من الاسئلة ، غير انه حصل في هذه اللحظة أن ثوراً هائجاً شب على احدى البقرات على مبعدة يسيرة منهما فطرحها أرضاً . فشهق الراعي قائلاً :

ـ سيقصم ظهرها ، ذلك الشيطان!

واندفع الى قطيعه بسرعة لا تتناسب مع سنه وراح يصيح وهو يركض :

ـ انها بقرة ناستينكا... سوف يقصم ظهرها... ماذا دهاك ياأقرع!

فنشر بودتيلكوف ذراعيه وعاد الى العربة . وراح لاغوتين ، وقد كان فلاحاً جيداً ، يحدق قلقاً في البقرة الصغيرة الواهنة التي طرحها الثور أرضاً وهو يقول في ذهنه : أجل ، كاد أن يقصم ظهرها ، ذلك الشيطان!

ولم يعد الى القافلة الا بعد أن تأكد أن البقرة قد نجت بظهرها من سطوة الثور . وراح يسأل نفسه : «ماذا سنفعل ؟ عسى ألا يكون أهل الجانب الآخر من الدون قد أقاموا أتمانات جديدة ؟» بيد أن ثوراً أصيلاً كان يقف على جانب الطريق مالبث أن صرف ذهنه من جديد . كان يشتمّ بقرة جسيمة كبيرة الضرع ، دهماء ، ويهز برأسه الهائل ذي العظام الناتئة . كان صدره الكبير يتدلى حتى ركبته وجسمه القوي الطويل مشدوداً مثل وتر الكمان . وقد انغرزت سيقانه القصيرة في الأرض كالركائز ، واذا حطت عينا لاغوتين بحنو على اهاب الثور البني المرقط ، متملياً أصالته بغبطة ، شغل ذهنه بهذه الخاطرة : «ان ثوراً كهذا يصلح لقريتنا حقاً . أمّا ثيراننا فبائسة تعيسة» . لقد استأثرت الخاطرة باهتمامه هنيهة ، ثم مالبثت أن تلاشت ، وراح يقلّب في ذهنه الرأي حول الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه فيما هو

يمضي صوب العربة ويرى الى وجوه القوزاق الكئيبة .

كان كريفوشليكوف الحالم الشاعر ، الذي نالت منه الحمى ، يقول لبودتيلكوف :

ـ اننا نبذل جهدنا لنتحاشى موج الثورة المعادية ، ولكنها في سبيلها لاكتساحنا . انها لأشبه بالمد يعلو شاطئاً مستوياً . وليس بوسع المرء أن يسابقه .

وكان بودتيلكوف وحده يبدو عليه أنه يدرك خطورة الموقف ادراكاً تاماً . كان جالساً في العربة وقد انحنى جسمه الى الامام ، يهتف للسائق بين دقيقة وأخرى :

ـ أسرع!

وانطلق أحدهم ينشد أغنية من مؤخرة الطابور بيد أنها مالبثت أن تلاشت على حين فجأة . فتعالى الضحك والصخب وطغى على قرقعة العجلات .

واتضح أن المعلومات التي استقوها من الراعي كانت صحيحة . وصادفوا قوزاقياً من رجال خط الجبهة في طريقه إلى قرية سفيتشنيكوف مع زوجته . كان الرجل يرتدي شريط الكتف وشارة على قبعته . ولما سأله بودتيلكوف بضعة أسئلة ازداد وجهه اكفهراراً .

عندما تجاوزوا قرية اليكسييفسكايا ، شرع المطر يتساقط . كانت السماء غائمة . ومن الشرق فقط بدت السماء زرقاء قاتمة خلل فجوة في الغيوم . وفيما كانوا يهبطون منحدراً يؤدي الى مضرب صغير شاهدوا أناساً يهرولون ، وبضع عربات تجري منطلقة من الجانب الآخر .

فقال لا غوتين شارد البال وهو يعاين الآخرين :

ـ انهم يهربون ، انهم يخافوننا...

فهتف بودتيلكوف :

أرجعوهم . صيحوا عليهم ، الشياطين!

فوقف الجنود في عرباتهم وطفقوا يلوحون بقبعاتهم . وراح أحدهم يصيح بقوة :

ـ إلى اين أنتم متجهون ؟ قفوا!...

ومضت عربات الحملة تقعقع صوب المضرب . كانت الريح تدوم خلل الشارع الفسيح المهجور . وفي أحد الافنية كانت عجوز أوكرانية تتذمر وترمي وسائد في عربة فيما أمسك زوجها بلجام الفرس وهو حافي القدمين حاسر الرأس .

وعلموا هنا أن الرجل الذي أرسله بودتيلكوف ليدبر لهم مأوى قد أسرته دورية قوزاقية وقادته وراء المرتفع . ولا بد أن القوزاق كانوا غير بعيدين . فقرروا بعد اجتماع قصير أن يعودوا أدراجهم . على أن بودتيلكوف الذي كان في بادىء الأمر يصر على مواصلة سيرهم ، ظل متردداً .

أما كريفوشليكوف فقد لزم الصمت . كان مايزال يرتعش من الحمى .

فسأل بودتليكوف بونتشوك الذي كان حاضراً الاجتماع :

ـ ربما نستطيع المضي قدماً ؟

فهز بونتشوك كتفيه بلا اكتراث . لم يكن ليهمه سواء مضوا في مسيرتهم الى الامام أو الخلف ، ماداموا يواصلون السير ، لينأى عن أحزانه التي ظلت ترافقه . وظل بودتيلكوف يتخطى جيئة وذهاباً ، ويتكلم عن مزايا ذهابهم إلى أوست ـ مدفيديتسا . بيد أن أحد المحرضين القوزاق قاطعه بعنف :

ـ يبدو أنك فقدت صوابك! الى أين تريد أن تقودنا ؟ إلى أعداء الثورة ؟ اننا سنعود ادراجنا! فلسنا نريد أن نموت! ما ذاك! ؟ ألا ترى تلك ؟ ـ وأشار الى المرتفع في أعلى القرية .

فالتفتوا جميعاً وراحوا يحدقون صعد التل . كانت على قمته صورة لثلاثة خيالة ترتسم على صفحة السماء .

فهتف لاغوتين :

ـ تلك احدى دورياتهم!

ـ انظروا! هناك أيضاً!

وظهرت جماعات أخرى من الخيالة ، وتوارت وراء التل ، ثم ظهرت من جديد .

فأصدر بودتيلكوف أمراً بالعودة . ومضوا إلى أليكسييفسكايا ، بيد أن سكان القرية شرعوا بالاختفاء والهرب بعد أن أنذرهم القوزاق سلفاً .

وبدأ الغسق يدركهم . وبللهم المطر البارد الخفيف حتى الجلد . كان الرجال يسيرون حذاء العربات حاملين بنادقهم على هيئة استعداد . وتعرج الطريق إلى وادٍ ، وتخلله ، وارتقى المرتفع خلفه . وكانت دوريات القوزاق تظهر وتختفي بين الحين والآخر على قمم التلال . فزاد وجودها المتربص توتر أعصابهم .

وقرب احدى الوهاد التي تعترض الوادي قفز بودتيلكوف من عربته ودعا الرجال باقتضاب :

ـ استعدوا! ـ ورفع صمام الأمان في غدارته التي يستعملها الخيالة وجعل يمشي قدماً بجانب العربة . كان ماء الفيضان الربيعي يلوح أزرق في الوهدة . كان يجري الى بركة يحدها سد وكان الوحل المحيط بالبركة قد عجنته حوافر الماشية التي قصدتها لترتوي . وكان السد المتهاوي مهدباً بنبات الحلفاء التي راح المطر ينيمها ويعبث بها . وقد توجس بودتيلكوف وجود كمين في هذا الموضع ، بيد أن الدورية الأمامية لم تفلح في العثور على أحد .

وهمس كريفوشيلكوف في أذنه :

ـ ليس هناك مايدعوك الى أن تتوقع وجودهم هنا . فهم لا يشنون الهجوم الآن . إنما ينتظرون حلول الليل .

ـ وهذا ماأحسبه أنا أيضاً .

٢٨

تجمعت سحب مدلهمة في الغرب ، وخيم الظلام ، وبعيداً ، صوب الدون ، كانت السماء تومض ، وتهتز صفحة البريق البرتقالية مثل طير مهيض الجناح . وتوهج الغروب بشحوب تحت بساط غيمة . وبدا السهب وكأن الصمت قد لفّه ، وتوارى البصيص الكابي لضوء النهار المنحصر ، في أغوار الوادي . كان ذلك المساء من أيار خريفياً بأنفاسه . فحتى الأعشاب التي لمّا تزهُ بعد كانت تنبعث منها رائحة تحلّل يصعب وصفها . وكان بودتيلكوف يتنسم الشميم الثر للأعشاب المخضلة وهو ماضٍ في سيره . وكان يتوقف بين الفينة والأخرى وينحني ليزيح الوحل من جزمته ، ثم مايلبث أن يستوي من جديد ويحث خطوه ساهماً ، وسترته الجلد مفتوحة تصر بفعل الرطوبة .

بلغوا القرية التالية في الليل . فترك قوزاق الحملة عرباتهم وذهبوا ليقضوا الليل في دور القرية . وأصدر بودتيلكوف أمراً يقضي بتعيين خفراء عسكريين ، بيد أنهم وجدوا مشقة في الحصول على رجال لتلك المهمة . فقد رفض ثلاثة الامتثال للأوامر رفضاً باتاً .

فقال كريفوشليكوف مستشاط الغضب :

ـ أحيلوهم الى محكمة عسكرية حزبية في الحال! واعدموهم لرفضهم اطاعة الأوامر!

بيد أن بودتيلكوف أتى بحركة تعبة يائسة وقال :

ـ المسيرة زعزعت معنوياتهم ، ولن ينبروا للدفاع عن أنفسهم . لقد قضي علينا ياميشا!

على أن لاغوتين أفلح على نحو ما بجمع بضعة قوزاق ، وأقام مراكز حراسة خارج القرية . ودار بودتيلكوف في البيوت وتحدث الى القوزاق الذين يستطيع الاعتماد عليهم أكثر من غيرهم ، قائلاً :

ـ لا تناموا أيها الشباب! والا فسوف يطبقون علينا!

وأمضى الليلة بكاملها جالساً الى طاولة وقد أسند رأسه بيده ، يجرجر أنفاساً ثقيلة مكدودة أشبه بحيوان جريح . وقبيل الفجر بقليل أخذته سنة من النوم ، وألقى برأسه الكبير على الطاولة . ولكنه مالبث أن أوقظ في الحال استعداداً لمواصلة تراجعهم . كان ضوء النهار ينبلج . فخرج الى الفناء فلقيته ربة المنزل في سقيفة الدار وهي عائدة من الحلب .

قالت له دونما اهتمام :

ـ هناك بعض الفرسان يتحركون على التل .

فهرع الى الفناء . فتراءت خلف لفاع الضباب المخيم على القرية وعلى صفصاف المروج ، قوات كبيرة من القوزاق على التل . كانوا يقتربون من القرية في خبب سريع ويطوقونها .

وجعل القوزاق يتدفقون من الدور الأخرى الى الفناء . وتقدم أحدهم من بودتيلكوف وانتحى به جانباً وقال :

ـ أيها الرفيق بودتيلكوف... لقد جاء رسل منهم لتوهم ،ـ ولوح بيده صوب التل وأردف : ـ وأخبرونا أن نبلغك بأن علينا أن نسلم سلاحنا ونستسلم في الحال . والا فسوف يهجمون علينا .

فأمسك بودتيلكوف بتلاليب الرجل وقال له :

ـ أنت... يابن القحبة! كيف تجرؤ ان تقول لي مثل هذا الكلام ؟...

ودفعه جانباً ثم هرع إلى العربة . والتقط بندقيته من ماسورتها ، والتفت وراح يهتف الى القوزاق بصوت خشن أبح :

ـ نستسلم ؟ أي جامع يجمعنا بأعداء الثورة ؟ سنقاتلهم! اتبعوني! الى السلاح!

فاندفع عدد من القوزاق من الفناء في أثره ، وهرولوا لمة واحدة إلى طرف القرية . وعندما بلغوا آخر بيوتها أدرك مريخين بودتيلكوف . وراح يقول له :

ـ ويحك يا بودتيلكوف! أهناك داع لإراقة دماء اخوتنا ؟ تعال معي! فلابد أن نتوصل إلى إتفاق ما .

ولما وجد بودتيلكوف أنه لم يتبعه سوى شطر صغير من رجال الحملة ، واذ أدرك عن سداد أن الهزيمة أمر لا محيد عنه اذا ما نشب القتال ، انتزع الترباس من بندقيته ولوّح بقبعته بلا مبالاة قائلاً :

ـ لاجدوى من ذلك يا أولاد! لنعد الى القرية!

وعادوا أدراجهم . وتجمع رجال الحملة كلهم في ثلاثة أفنية متلاصقة . وبعد بضع دقائق دخلت القرية ثلة من أربعين فارساً قوزاقياً . أمّا قوة العدو الرئيسية فقد بقيت في مواضعها على التلال الواطئة المحيطة بالقرية . ، وبدعوة من الشيوخ ذهب بودتيلكوف الى طرف القرية ليبحث شروط الاستسلام . وفيما كان ماضياً في طريقه لحق به بونتشوك الذي كان يركض وراءه وأوقفه :

ـ هل قرّ رأيك على الاستسلام ؟

ـ ان المقاومة لا تجدي فتيلاً . فما عسانا نفعل غير الاستسلام ؟

فقال بونتشوك وهو يختض من رأسه حتى أخمص قدميه :

ـ أتريد أن تموت ؟ ـ وراح يصرخ بصوت عالي النبرة لا جرس له ، متجاهلاً الشيوخ الذين مالبثوا أن رافقوا بودتيلكوف : ـ قل لهم اننا لن نسلم أسلحتنا!

ثم استدار على عقبيه وعاد يحث الخطى ويلوح بمسدّسه . وجرّب اقناع الحرس الأحمر ليحاولوا ايجاد منفذ لهم ويشقوا طريقهم الى السكك . بيد أن الأكثرية كانت إلى جانب الاستسلام . فقد أشاح البعض بوجوههم ، أما الآخرون فقد هتفوا مغضبين :

ـ اذهب انت وقاتل . أما نحن فلن نطلق النار على اخواننا!

ـ سنضع أنفسنا تحت رحمتهم دونما حاجة إلى السلاح .

ـ اليوم عيد الفصح وتريد منا أن نريق الدماء ؟

فاستدار بونتشوك وعاد الى عربته ، ورمى معطفه تحتها ، ثم انبطح شاداً كفه على عقب مسدسه بقوة . وفي البدء فكر في محاولة للهرب . بيد أنه لم يسغ فكرة الهرب والفرار ، فلبث ينتظر عودة بودتيلكوف .

وعاد بودتيلكوف بعد نحو ثلاث ساعات ، مصطحباً معه حشداً كبيراً من القوزاق إلى القرية . كان يسير ثابت الخطى مرفوع الرأس . والى جانبه كان آمر قوات القوزاق البيض الرئيس سبيريدونوف ، الذي صادف أنه كان رفيقه في المدفعية . كان سبيريدونوف يتحدث اليه ويبتسم بدهاء . وخلفه كان قوزاقي على صهوة جواد يشد إلى صدره صارية خشبية خشنة لعلم أبيض .

كانت الشوارع والأفنية حيث تجمعت عربات الحملة قد سدت بالقوزاق القادمين . وضج هدير من الأصوات على حين غرة . كان الكثير منهم رفاق سلاح لقوزاق بودتليكوف فيما مضى ، وعندما عرف بعضهم البعض تعالى الضحك وهتافات الفرح :

ـ مرحباً ، أهذا أنت يابروخور ؟ ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

فأجاب بروخور :

ـ كنا على وشك ان نقاتلكم . أتذكر كيف طاردنا النمساويين قرب لفوف ؟

ـ وهذا ابن العم دانيلو! لقد قام المسيح ، يا ابن العم!

فأجاب دانيلو على تحية عيد الفصح :

ـ لقد قام حقاً ؟

وتعالى صوت التقبيل . ثم وقف القوزاقيان يمسدان بعواذرهما ويتمليان النظر ببعضهما البعض ، يضحكان ويضربان على ظهر بعضهما الآخر .

وقال أحد القوزاق الحمر :

ـ لم ننته من صيامنا بعد...

ـ ولكنكم بلاشفة ، وما شأنكم والإفطار ؟

ـ هم... م! قد نكون بلاشفة ، ولكننا نؤمن بالله مع ذلك .

ـ هوه! أنت تكذب!

ـ الله يشهد على ما أقول!

ـ وهل تحمل صليباً ؟

ـ بالطبع . هذا هو . ـ وفتح الجندي الأحمر ياقة قمصلته وأخرج الصليب النحاسي المحضوضر الذي كان معلقاً على صدره الأسمر المشعر .

وراح الشيوخ الذين خرجوا بمذاريهم وفؤوسهم ليظفروا بـ «بودتيلكوف المتمرد» ينظرون إلى بعضهم البعض مذهولين وقال أحدهم :

ـ ماذا ؟ لقد أخبرونا أنكم قد تخليتم عن ديانتكم المسيحية! وسمعنا أنكم كنتم تسرقون الكنائس وتقتلون القسس .

ـ وانكم تؤمنون بالشيطان!...

فراح الجندي الأحمر ذو الوجه العريض يؤكد لهم بصدق :

ـ كلها أكاذيب! انهم يروون لكم الأكاذيب . ولعلمكم ، أقول انني قبل أن أبارح روستوف ذهبت الى الكنيسة وتقرّبت .

ـ أوه ، انك تعقد الأمور عليّ!

وانبرى عجوز قميء مسلح برمح مبتور حتى النصف يصفق بيديه فرحاً .

وضجّ الشارع والأفنية بطنين صاخب . ولم تمض نصف ساعة حتى خف عدد من القوزاق إلى الشارع ينحون كتلة الرجال المتراصة ويهتفون :

ـ على أولئك الذين ينتمون إلى مفرزة بودتيلكوف أن يصطفوا استعداداً لتلاوة الأسماء!

وجاء خلفهم الرئيس سبيريدونوف . ونزع قبعته وصاح :

ـ على كل من ينتمي الى مفرزة بودتيلكوف أن يخطو إلى اليسار صوب الأسيجة . أما الآخرون فالى اليمين . ايها الأخوة ، يارجال خط الجبهة! لقد

توصلنا الى قرار بالاتفاق مع قادتكم يقضي بأن تسلموا كامل أسلحتكم ، لأن الناس يخافونكم مادمتم مسلحين . ضعوا بنادقكم وبقية أسلحتكم ، في عرباتكم . وسنحرسها سوية . وسوف نرسلكم إلى كراسنوكوتسكايا ، وهناك ستتسلمون أسلحتكم من جديد .

فتعالت همهمة تذمر عالية من قوزاق الحرس الأحمر ، وهتف أحدهم :

ـ لن نسلم أسلحتنا!

وسرت بين الحشد دمدمة ملأت الشارع والأفنية الغاصة بالناس .

وماج القوزاق التابعون لسبيريدونوف الى اليمين ، تاركين الحرس الأحمر في هرج ومرج وسط الشارع . وراح كريفوشليكوف ينظر حوله كحيوان طريد . وزم لاغوتين شفتيه . أما بونتشوك الذي كان قد أصر ألا يسلم سلاحه ، فقد خطا بسرعة نحو بودتيلكوف ، وبندقيته في يده تخط في أثره .

ـ يجب ألا نسلم أسلحتنا! هل تسمع ؟

فهمس بودتيلكوف وهو يخبط بأصابعه بعصبية قائمة تعداد المفرزة :

ـ لقد فات الأوان .

فوقعت قائمة التعداد بيد سبيريدونوف ، الذي ألقى عليها نظرة وقال متسائلاً :

ـ يجب أن يكون تعداد المفرزة مئة وثمانية وعشرين . فأين البقية ؟

ـ انسلوا عن المفرزة في الطريق .

ـ هكذا اذاً . حسناً قل لهم أن يسلموا سلاحهم .

فكان بودتيلكوف أول من بادر إلى نزع مسدسه من قرابه . ثم قال بصوت أبح وهو يسلمه :

ـ ان سيفي وبندقيتي في العربة .

وبدأ تجريدهم من السلاح . وراح القوزاق يسلمون أسلحتهم بتثاقل ، وحاول بعضم اخفاء مسدساتهم في الأسيجة والأقنية .

فهتف سبيريدونوف مبتسماً بجذل :

ـ سوف يفتش كل من لا يسلم سلاحه!

ورفض عدد منهم بتحريض من بنتشوك تسليم بنادقهم ، فانتزعوا منهم السلاح بالقوة . وذهب حامل رشاش بحصانه إلى خارج القرية حاملاً معه متراس رشاشه ، فأحدث جلبة وراءه . وفي غمرة الفوضى أفلح بضعة آخرون في إخفاء أنفسهم . فوضع سبيريدونوف في الحال حراسة على بودتيلكوف والبقية ، وفتشهم وحاول أن يقرأ تعدادهم ، غير أن الأسرى أحجموا قائلين :

ـ فيم لجؤوك الى قائمة التعداد ؟ اننا هنا جميعاً!

ـ اذهب بنا الى كراسنوكوتسكايا!

ـ ضع حداً لهذه اللعبة!

وختم صندوق المال وأرسل الى كارغنسكايا تحت الحراسة المشددة . ثم جمع سبيريدونوف الأسرى ، وأصدر أمره مغيراً في الحال لهجة صوته وتعابير وجهه :

ـ اصطفوا صفين! يساراً استدر! عادة سر! الكلام ممنوع!

فسرت بين صفوف الحرس الأحمر همهمة من التذمر . ومضوا في مسيرتهم مكرهين ، وسرعان ما خرجوا عن الصف وواصلوا سيرهم دونما انتظام .

كان بودتيلكوف حينما طلب من رجاله تسليم أسلحتهم ، لا يزال يأمل في حل أفضل للقضية . الا أنه ما ان اقتيد الأسرى خارج القرية حتى شرع القوزاق الذين كانوا في حراستهم يضايقون الرجال الذين هم في أطراف المسيرة بخيولهم . وكان بونتشوك يحث خطوه في اليسار ، ولغير ما سبب ضربه بالسوط قوزاقي شيخ ذو لحية حمراء متوهجة يتدلى من أذنه قرط اسودّ لونه بفعل القدم . فلفح طرف السوط وجنة بونتشوك . فالتفت وضم قبضته ، بيد أن ضربة ثانية أوجع من سابقتها أجبرته على أن يشق طريقه بين حشد الأسرى . لقد فعل ذلك بلا ارادة ، تدفعه غريزة بدائية في الدفاع

عن النفس ، وللمرة الأولى منذ موت آنا ارتسمت على شفتيه ابتسامة شوهاء عندما أدرك والدهشة تتملكه مدى قوة وعناد الرغبة في الحياة عند الإنسان .

وشرع الحرس القوزاق يضربون الأسرى . واندفع الشيوخ اليهم ، يستثيرهم منظر أعدائهم المستضعفين ، بخيلهم ، يميلون من فوق سروجهم ، ويضربونهم بسياطهم وبنصل سيوفهم . فراح من أصابتهم الضربات يحاولون بلا ارادة أن يشقوا طريقهم إلى الوسط وهم يتدافعون ويطلقون الصرخات وهتف أحد رجال الحرس الأحمر وهو يهز بقبضته فوق رأسه :

ـ اذا كنتم تريدون قتلنا ، فاقتلونا في الحال ، عليكم اللعنة! والا ففيم تعذبوننا ؟

وهتف كريفوشليكوف :

ـ أين هي وعودكم ؟

فخفف الشيوخ من غلواء قساوتهم . ودمدم أحد الحراس الذي حنا ، كما يبدو ، على البلاشفة جواباً على سؤال أحد الأسرى :

«الى اين تسوقوننا ؟»

ـ الأوامر التي تسلمناها تقتضي بالذهاب بكم الى بونوماريوف . لا تجزعوا أيها الأخوة ، فلن يصيبكم ما هو أسوأ من هذا .

وعندما وصلوا قرية بونوماريوف ، وقف سبيريدونوف عند باب حانوت صغير ، وأخذ يسأل الأسرى فيما هم يدخلون الواحد بعد الآخر :

ـ لقبك ؟ اسمك ؟ أين ولدت ؟

وكان يسجل أجوبتهم في مفكرته البالية المتسخة .

ولما جاء دور بونتشوك ، سأله سبيريدونوف وقلمه الرصاص حاط على الورقة استعداداً للكتابة : «لقبك ؟» . وألقى نظرة على وجه الجندي الأحمر الكثيب العريض الجبين فزاغ عنه بسرعة لما رأى شفتي الرجل قد زمتا استعداداً للبصاق وقال :

ـ تحرك أيها الخنزير! ستموت بلا اسم .

واستلهم اثنان آخران موقف بونتشوك فرفضا الادلاء باسميهما ، مؤثرين ان يموتا مجهولين . وحينما دخل آخر رجل في الحانوت أقفله سبيريدونوف بنفسه ووضع حوله الحرس .

وفيما كانت الغنائم المستلبة من عربات الحملة توزع على مقربة من الحانوت ، عقدت في بيت قريب جلسة لمحكمة عسكرية تم تشكيلها على عجل من ممثلين لكافة القرى التي أسهمت في عملية الأسر . كان رئيسها رئيساً أول في الجيش مكتنزاً أشقر الشعر يدعى فاسيلي بوبوف . جلس تحت مرآة معلقة مع المناشف المطرزة ، ومرفقاه حاطان على الطاولة ، وقد انداحت قبعته الى الوراء . وكانت عيناه النفاذتان الرضيتان الدبقتان تنتقلان بين أعضاء المحكمة متسائلتين ، ثم طرح السؤال :

ـ ماذا نفعل بهم أيها الشيوخ ؟

ومال إلى رئيس يجلس بجانبه وأسرّ له بشيء . فهز الضابط رأسه في الحال موافقاً . فضاقت عينا بوبوف ، وتلاشى الحماس فيهما وحل محلهما بصيص بارد كالحديد لم تفلح أهدابه السفلى كثيراً في اخفائه .

ـ ما الذي نفعله بهؤلاء الذين خانوا وطنهم ، وجاؤوا لنهب بيوتنا والقضاء على القوزاق ؟

فوثب عجوز على قدميه كما تنطلق دمية مشدودة إلى نابض . وقال :

ـ أعدموهم! جميعاً!

وهز رأسه كالمأخوذ وراح يجول حوله بعينين مهووستين ، ثم هتف وهو يغص بالبصاق الذي أرغى من بين شفتيه :

ـ لا رحمة بأشباه يهوذا أولاء! اقتلوهم! اصلبوهم! احرقوهم! اقتلوا اليهود منهم!

واقترح أحد الأعضاء بتردد :

ـ هل ننفيهم ؟

ـ اقتلوهم!

ـ عقوبة الموت!

ـ الاعدام علناً!

ينبغي استئصال الاعشاب الضارة!

ـ الموت لهم!

فأعلن سبيريدونوف بادي الغيظ :

ـ من البديهي أن يرموا بالرصاص . فيم نشغل أنفسنا بالنقاش ؟

كان الصباح قد أزال آخر أثر من آثار الطيبة والرقة من وجه الرئيس . فزم شفتيه بقسوة ، وأمر الكاتب :

ـ الاعدام رمياً بالرصاص! دوّن هذا القرار!

فانبرى قوزاقي كهل بدين يجلس بمحاذاة النافذة وهتف بحدة :

ـ وماذا عن بودتيلكوف وكريفوشليكوف ؟ هل سيعدمان رمياً بالرصاص أيضاً ؟ ان هذا تساهل معهما!

فأجاب الرئيس باقتضاب :

ـ أما هما فيجب ان يشنقا بصفتهما رئيسي العصابة .

والتفت الى الكاتب وأمره قائلاً :

ـ اكتب هذا : « قرار . نحن الموقعين أدناه... »

فصدع الكاتب ، كانت تربطه بالرئيس قرابة بعيدة ، وأحنى رأسه المصفف شعره بعناية ، فوق المنضدة ، وراح يخط بقلمه .

وقال أحدهم متأسياً :

ـ يبدو المصباح قد نفذ زيته .

وجعل المصباح ينازع ، والفتيلة تدخن . وخلل الصمت كان طنين ذبابة وقعت في شراك نسيج عنكبوت على السقف ، وخربشة القلم على الورقة ، والتنفس الثقيل لرجل من أعضاء المحكمة العسكرية يعاني من الربو ، يسمع بوضوح .

قرار

٢٧ نيسان (١٠أيار) ، ١٩١٨

نحن الموقعين أدناه ، ممثلي القرى التابعة لنواحي
كارغينوفسكايا ، وبوكوفسكايا وكراسنوكوتسكايا :

ستيبان ماكساييف	يمثل	قرية فاسيلييفسكي
نيكولاي كروجيلين	يمثل	قرية بوكوفسكي
فيودور كوموف	يمثل	قرية فومين
الكسندر كوختين	يمثل	فرخنى ـ يابلونوفسكي
ليف سنيف	يمثل	قرية نجنى ـ دولينسكي
سميون فولوتسكوف	يمثل	قرية ايلينسكي
ميخائيل بوبوف	يمثل	قرية كونكوفسكي
ياكوف رودين	يمثل	قرية فرخنى ـ دولنسكي
ألكسندر فرولوف	يمثل	قرية سافوستيانوف
مكسيم فيفراليوف	يمثل	قرية ناحية ميليوتنسكايا
ميخائيل غروشيف	يمثل	قرية نيكولاييف
ايليا يلانكين	يمثل	ناحية كراسنوكوتسكايا
ايفان دياتشنكو	يمثل	قرية بونوماريوف
نيكولاي كريفوف	يمثل	قرية يفلانتييف
لوقا يمييليانوف	يمثل	قرية مالاخوف
ماتفي كونوفالوف	يمثل	قرية نوفو ـ زمتزيفو
ميخائيل بوبوف	يمثل	قرية بوبوف
فاسيلي شيفولكوف	يمثل	قرية أستاخوف
فيدور تشيكونوف	يمثل	قرية أورولوف
فيودور تشوكارين	يمثل	قرية كليمو ـ فيودورفسكي

اجتمعنا هنا في السابع والعشرين من نيسان (١٠ أيار) ١٩١٨
برئاسة ف . بوبوف

قرار

١ ـ الحكم بالموت رمياً بالرصاص على خونة الشعب الكادح وسارقي قوته ، المدرجة أسماؤهم أدناه ، والذين يبلغ مجموعهم ثمانين ، باستثناء اثنين ـ هما بودتيلكوف وكريفوشليكوف ـ حيث تقرر اعدامهما شنقاً باعتبارهما رئيسين لهذه المجموعة .

٢ ـ تبرئة ساحة القوزاقي أنطوان كاليتفنتسوف من أهالي قرية ميخائيلوفسكي لعدم توفر الأدلة .

٣ ـ وتقرر اعدام قسطنطين ميلنكوف ، وغافريلا ميلنكوف ، وفاسيلي ميلنكوف ، وأكسيونوف ، وفرشنين الذين هربوا من مفرزة بودتيلكوف وألقي القبض عليهم في ناحية كراسنوكوتسكايا ، بموجب الفقرة الأولى من هذا القرار (الموت رمياً بالرصاص) .

٤ ـ ينفذ هذا الحكم غداً الثامن والعشرين من نيسان (١١ أيار) في السادسة صباحاً .

٥ ـ يكون الملازم سينين مسؤولاً عن حراسة الأسرى ، وعند الحادية عشرة بعد الظهر ينسب للحراسة تحت امرته قوزاقيان من كل قرية ، مسلحان ببندقيتهما . وسيكون أعضاء المحكمة مسؤولين عن تنفيذ هذه الفقرة . وأن ينفذ الحكم خمسة قوزاق من كل قرية ، يرسلون إلى ساحة الاعدام .

التوقيع

ف . ن ، بوبوف ،

رئيس القطاع العسكري

ا . ف بوبوف ، الكاتب

وحين انتهى الكاتب من كتابة قائمة المحكومين ، دسّ القلم بيد الرجل الجالس الى جانبه وقال :

ـ وقّع!

فأمسك الرجل القلم الملطخ بالحبر بأصابعه الصغيرة السمر وقال وقد ندت عن شفتيه ابتسامة بلهاء :

ـ لا أحسن الخط...

ووقع الآخر مرتبكاً هو أيضاً ، مقطب الجبين ، وهو يتصبب عرقاً من الاجهاد . وقام آخر بعدة محاولات فاشلة قبل التوقيع ، ثم سحب بعدها لسانه الذي ظل مدلى أثناء هذه العملية . أما بوبوف فقد ثبت توقيعه وذيّله بخط محدود ، ثم نهض وهو يمسح وجهه العرقان بمنديله .

وقال متثائباً :

ـ ارفق به القائمة

فقال أحدهم مبتسماً وهو يراقب الكاتب يلصق الورقة على الجدار :

ـ لسوف يشكرنا كاليدين من الآخرة على صنيعنا هذا .

ولم يستجب أحد للمزحة . ثم بارحوا الدار صامتين .

وفي عتمة سقيفة الباب تنهد أحدهم قائلاً : « ياعيسى المسيح... »

٢٩

لم تغمض جفون الأسرى المحتجزين في الحانوت الا لماماً ، أثناء تلك الليلة المتلألئة بالنجوم . وسرعان ما انقطع الحديث بينهم ، فقد ضاقت أنفاسهم بالهواء الخانق وبما تجيش صدورهم من قلق .

وظل واحد منهم يسأل الحارس طوال المساء :

افتح الباب أيها الرفيق ، أريد أن أخرج...

ويقف مضطرب الهندام ، حافي القدمين ، وصديريه مدلى على سرواله ، ويعيد الكلام وهو يشد على ثقب المفتاح .

ـ افتح أيها الرفيق!

وأجابه أخيراً أحد الحرس :

ـ الغول لك يارفيق!

فغّير لهجته في المخاطبة :

ـ افتح أيها الأخ!

فأنزل الحارس بندقيته ، وجر آخر نفس من سيكارته . وأعار سمعه لخفق أجنحة سرب من البط البري في طيرانه بحثاً وراء طعام الليل ، ثم وضع فمه أمام خصاص الباب وقال :

ـ بوسعك التبول على نفسك ، أيها الشيطان البائس! فلن تحتاج الى سروالك في الليل ، ولن يحل الفجر حتى يرسلوك إلى الآخرة سواء كنت مبللاً أو ناشفاً...

فصاح الجندي الأحمر قانطاً : «اننا هالكون» ، ثم ابتعد عن الباب .

كانوا جالسين كتفاً لكتف . وفي احدى الزوايا كان بودتيلكوف يسب مع نفسه ويمزق النقود التي كان يحتفظ بها في جيبه . وبعد أن فرغ من ذلك ، خلع جزمته وربّت على كتف كريفوشليكوف :

ـ لقد بات واضحاً الآن... انهم خدعونا . أجل خدعونا ، أولئك الأنذال عليهم اللعنة! ـ قال ذلك لصديقه الذي كان مستلقياً الى جانبه وأردف : ـ انه لشيء مقرف ياميخائيل . حينما كنت صبياً كنت أذهب للصيد في الغابة حاملاً غدارة أبي . كنت أسير والأشجار تبدو أشبه بسقف أخضر فوق رأسي . وكنت اذا رميت البط وأخطأته ينتابني الحنق ، حتى لأكاد أبكي لولا الخجل . أما هنا فقد خبطت خبط عشواء . فلو أنا تركنا روستوف قبل ذلك بثلاثة أيام لما كتب لنا أن نواجه الموت هنا ، ولكنا قد قلبنا عليهم ثورتهم المعادية رأساً على عقب .

واذ حاول كريفوشليكوف أن يبتسم له التوت شفتاه ألماً . وهمس قائلاً :

ـ اللعنة عليهم ، فليقتلونا! فأنا لم أعد أخشى الموت . وكل ماأخشاه

هو أننا قد لا نعرف بعضنا البعض في الآخرة ، كما تقول الأغنية . سنكون هناك ، أنا وأنت يا فيودور ، ولكننا سنلتقي مثل الغرباء... وهذا ما مأخشاه!

فهز بودتيلكوف بغضب واضعاً يديه الكبيرتين الحارتين على كتفي صديقه :

ـ دعك من هذا! ليست المشكلة هنا!

أما لاغوتين فقد كان يحدث آخر عن قريته ، وكيف كان جده يسخر منه لطول رأسه ، وكيف أنه نال جلداً بالسوط على يد جده ذاك حين أمسك به الجيران في مزرعة البطيخ العائدة لهم .

ودارت نتف الحديث حول مواضيع شتى في تلك الليلة .

وكان بونتشوك قد وجد مكاناً قرب الباب ، حيث راح يتنشق بلهفة الهواء الداخل خلل الخصاص . وعندما عاد بذاكرته إلى الماضي ، جعل يفكر في أمه . واذ أحس بوخزة حادة من الألم ، راح يجبر نفسه على تغيير مجرى أفكاره ، فعرج على ذكرى آنا والحوادث الأخيرة . فوجد في هذا عزاء وراحة بال كبيرين . ولم يعد يشعر بالرعشة التي كانت تعاوده في عموده الفقري أو بالألم الداخلي الذي يحس به عندما يتملكه شعور بأنه على وشك أن تنتزع منه الحياة . بل راح يرقب الموت ليخلد إلى راحة هامدة بعد مسيرة شاقة مريرة ، حتى أعياه الكلال ، وناء جسده بآلام مبرحة ، فلما دنت خاتمة المطاف كانت أحاسيسه ناضبة متحجرة .

وكان قربه جماعة من الأسرى يتحدثون بمرح وأسى ، عن النساء والحب ، وعن المسرات ، كبيرها وصغيرها ، التي عاشها كل منهم . تحدثوا عن عوائلهم ، وأقاربهم ، وأصدقائهم . وتطرقوا في الحديث الى جودة القمح اليانع ، فقد كانت سيقان الحنطة عامذاك عالية إلى درجة لا يستطيع المرء أن يرى الغربان السحم فيها . وتاقوا إلى الفودكا والى الحرية ، ولعنوا بودتيلكوف . ولكن النعاس خيم على الكثير منهم بجناحه الأسود . واذ هدّمهم التعب والاعياء ، خلدوا الى النوم رقوداً وجلوساً وحتى وقوفاً .

وما ان انبلج ضوء النهار حتى انفجر أحدهم باكياً في يقظته أو منامه . ولشد ماهو فظيع أن يشرع بالبكاء رجال كبار أشداء نسوا مذاق الدموع المالحة منذ الطفولة . وفي الحال مزقت السكون الوسنان عدة أصوات :

ـ اخرس ، عليك اللعنة!

ـ اخرس والا مزقت حنجرتك .

ـ ما أشبهك بالنساء!

ـ فقد كل شعور بالحياء ، في حين ينام الرجال الى جانبه!

وخنّ الرجل بأنفه ، وتمخط ، ثم خلد الى الصمت . وشعت هنا وهناك رؤوس السكاير الحمر المتلامعة ، ولكن أحداً لم يحر بكلام . كان الهواء خانقاً مفعماً برائحة العرق الذي يتصبب من أجساد الرجال القوية وقد تلاصقت مع بعضها ، وبدخان السكاير والندى الذي تجمع في الليل .

وفي القرية أنبأ ديك بشروق الشمس . وتناهى من خارج الحانوت وقع أقدام وقعقعة الحديد .

وصاح أحد الحراس :

ـ من هناك ؟

فأجاب صوت فتى متحمس :

ـ أصدقاء! اننا ذاهبون لنحفر قبراً لرجال بودتيلكوف . وفي الحانوت سرت ململة بين الأسرى .

٣٠

وصلت مفرزة قوزاق تاتارسكي بقيادة بيوتر ميليخوف قرية بونوماريوف في فجر اليوم الحادي عشر من أيار فألفوا القرية تضج بقعقعة أحذية القوزاق ، وصهيل الخيل في طريقها لورد الماء . كانت الحشود تتدفق صوب الطرف الأقصى للقرية . فأوقف بيوتر رجاله وسط القرية ، وأصدر أمره

بالترجل . فشخص اليهم عدد من القوزاق . وسأل أحدهم :

ـ من أين أنتم ؟

ـ من تاتارسكي .

ـ تأخرتم بعض الشيء . فقد أسرنا بودتيلكوف بدون مساعدتكم . وقد احتجزوا هناك مثل الدجاج في القن . ـ وضحك ولوح بيده صوب الحانوت .

فاقترب خريستونيا وغريغوري وبضعة رجال آخرين منه ، وتساءل خريستونيا :

ـ الى أين سيرسلونهم ؟

ـ ليلتحقوا بالموتى .

فأمسك غريغوري بمعطف الرجل وقال :

ـ ماذا ؟ أنت تكذب!

فرد عليه الرجل بعطف ، وخلص نفسه بحذر من أصابع غريغوري القوية :

ـ حسناً ، اخترع أنت أكذوبة أفضل منها ، ياصاحب السعادة! انظر هناك ، ها قد أعدوا المشنقتين لهما . ـ وأشار إلى حبلين مدليين من عارضة وضعت بين صفصافتين قميئتين :

فأصدر بيوتر أمره قائلاً :

ـ خذوا الجياد إلى الاسطبل .

* * *

كانت السماء غائمة . وكان مطر خفيف يتساقط . وتجمع حشد كبير من القوزاق والنساء خارج القرية . لقد خرج أهالي بونوماريوف بلهفة وكأنهم ذاهبون للفرجة على مشهد نادر مسلّ ، بعد أن أحيطوا علماً بأن الاعدام سينفذ في الساعة السادسة . كانت النسوة ترتدي ملابس العيد ؛

وقد اصطحبت الكثيرات منهن أطفالهن . وغصت أرض المرعى بالجمهور المتجمع حول المشنقتين والحفرة التي يبلغ عمقها ست أقدام . وتسلق الأطفال تلة التراب الطري المرمي الى جانب الحفرة ، في حين راح الرجال يتحدثون بحماس عن الاعدام المقبل ، والنساء يتهامسون بأسى فيما بينهن .

ووصل رئيس المحكمة العسكرية وآثار النوم مازالت بادية على وجهه الذي ارتدى سيماء الجد . ولاحت أسنانه القوية فيما كان يدخن ويعضعض بسيكارته . وبصوت أبح أمر الحرس القوزاق قائلاً :

ـ ابعدوا الناس عن الحفرة . واخبروا سبيريدونوف أن يرسل الوجبة الأولى .

وألقى نظرة إلى ساعته ووقف جانباً يرقب الحشد يدفعه الحراس وقد بدا في هيئة نصف دائرة زاخرة بالألوان .

وقاد سبيريدونوف ثلة من القوزاق بسرعة الى الحانوت . فالتقى في طريقه بيوتر ميليخوف :

ـ هل من متطوعين من قريتكم ؟

ـ متطوعين لأي شيء ؟

ـ ليقوموا بمهمة الرمي .

فأجابه بيوتر بخشونة ، وهو يجتاز سبيريدونوف الذي سد الطريق :

ـ كلا ، لا يوجد لدينا ، ولن يكون البتة!

ومع هذا فقد تطوع بعض من الرجال تاتارسكي . فلقد اندفع ميتكا كورشونوف إلى بيوتر وقال محاوصاً عينيه الخضراوين وهو يمسد شعره الظاهر من تحت رفرف قبعته :

ـ أريد أن اتطوع . ففيم تقول « كلا ؟ » سأكون واحداً منهم . اعطني بعض الخراطيش ، فلديّ ما يكفي لمشبك واحد فقط .

وانضم اليه أندريه كاشولين وعلى وجهه الشاحب أمارات شر مستطير . وفيدوت بودفسكوف .

وسرى الهمس والهمهمة بين الحشد المتراص عندما خرجت أول مجموعة من الأسرى المحكومين ، قوامها عشرة ، يحيط بهم حراس من القوزاق .

كان بودتيلكوف يسير في المقدمة ، حافي القدمين يرتدي بنطلون خيالة أسود فضفاضاً ، وكانت سترته الجلد مشرعة . كانت قدماه الكبيرتان تطآن الأرض الموحلة بثبات ، وحين حدث أن تزحلق رفع ذراعه اليسرى قليلاً ليحافظ على توازنه . والى جانبه كان كريفوشليكوف شاحباً شحوب الموتى ، يجر خطاه بمشقة . كانت عيناه تنبضان بوميض محموم ، وفمه يختلج من الألم . وفيما كان يلملم معطفه على كتفيه ، سرت في جسمه رعشة كمن يهلك من البرد . ولسبب ما ابقي على ملابس هذين الاثنين ، أما الآخرون فقد عروا إلا من ملابسهم الداخلية . وسار لاغوتين إلى جانب بونتشوك . كان كل منهما حافي القدمين ، وقد كشف سروال لا غوتين الداخلي الممزق عن جلده المصفّر المشعر ، فجعل يلمه على بعضه حياء . أما بونتشوك فراح يتطلع عبر رؤوس الحرس في بساط الغيم المترامي في الأبعاد . كانت عيناه الباردتان الحزينتان تطرفان من شدة الترقب والانفعال ، وكان يمسد براحته العريضة صدره المشعر من تحت ياقة قميصه المفتوحة . كان يوحي للرائي أنه يتطلع الى شيء بعيد المنال ، ولكن التأمل فيه شيء يسر النفس مع ذلك . أما الآخرون ، فقد نمّت أمارات بعضهم عن عدم اكتراث وتحجر ، ولوح بلشفي أشيب الشعر بيده بازدراء وبصق عند قدم الحراس القوزاق . بيد ان اثنين أوثلاثة لاح في عيونهم حنين أبكم ، وعلى وجوههم الممسوخة رعب لا حد له ، حتى أن الحرس كانوا يشيحون بوجوههم كلما التقت بهم نظراتهم .

كانو يسيرون بسرعة . وأعطى بودتيلكوف ذراعه لكريفوشليكوف الذي كان يتعثر في سيره . واقتربوا من الحشد الذي كان يمور بعصابات الرأس البيض والقبعات الحمر . وعندما رنا اليهم بودتيلكوف راح يلعنهم

بصوت عال . ثم لما ألفى لاغوتين قد سمر عينيه فيه ، سأله فجأة :

ـ ماالأمر ؟

ـ لقد شاب رأسك في الأيام الأخيرة...

ـ هذا ليس بالغريب! ـ وجر بودتيلكوف نفسه بمشقة ، ومسح العرق من حاجبيه الضيق ، وأعاد القول : ـ هذا ليس بالغريب! حتى الذئب يشيب في القفص ، فكيف بي وأنا رجل .

ولم ينبسا بكلمة أخرى . وماج الحشد الى أمام بكتلة متراصة . وامتد القبر إلى اليمين أشبه بندبة طويلة سوداء .

وأصدر سيبريدونوف أمره :

ـ قف!

فخطا بودتيلكوف في الحال خطوة الى الأمام ، وجال ببصره بقلق في الصفوف المتقدمة من الناس . كان معظمهم شيباً . وكان رجال خط الجبهة الى الوراء بعض الشيء تعذبهم ضمائرهم . واهتز شاربا بودتيلكوف المتهدلان حين راح يقول بتباطؤ وبجلاء في الوقت ذاته :

ـ أيها الشيوخ! اسمحوا لي ولكريفوشليكوف أن نرى كيف سيواجه رفاقنا الموت . اشنقونا بعدئذ ، فنحن الآن نود ان نرى أصدقاءنا ورفاقنا ، وأن نقوي عزائم الضعفاء منهم .

وخيم على الحشد سكون مطبق ، حتى ان قطرات المطر صارت تسمع وهي تتساقط على قبعاتهم .

ووقف الرئيس بوبوف في المؤخرة يبتسم ، ويكشف عن أسنانه التي صبغها التبغ ، ولكنه لم يرفض الطلب . وأعلن الشيوخ عن موافقتهم بجلبة وضجيج . فخطا كريفوشليكوف وبودتيلكوف نحو الحشد الذي انشطر وفتح فسحة ضيقة أمامهما . وتوقفا على مسافة يسيرة من الحفرة ، يحف بهما الحشد من جميع الجوانب ، ترقبهما مئات العيون . وراحا يحدقان النظر فيما جعل القوزاق يصفون الحرس الأحمر صفاً مضطرباً وظهورهم الى

الحفرة ، كان بودتيلكوف يستطيع الرؤية جيداً ، بيد أن كريفوشليكوف كان عليه أن يشرئب برقبته ويقف على أطراف أصابعه .

كان بونتشوك الأخير في أقصى اليسار ، واقفاً وقد انحنى قليلاً ، يتنفس بمشقة دون أن يرفع عينيه عن الأرض . والى جانبه وقف لا غوتين ، وهو لما يزل يغطي سرواله الداخلي الممزق بذيل قميصه . أما الرجل التالي في الصف فقد تغيرت ملامحه حتى لا يكاد المرء يميزه بسهولة . فلقد بدا عليه أنه شاخ عشرين عاماً على الأقل . واقترب آخران من الحفرة واستدار ، كان واحد منهما يبتسم بتحد وجسارة ، ويصب سيلاً حامياً من اللعنات على الحشد الصامت ويتوعدهم ملوحاً بقبضته القذرة . أما آخر الثمانية فقد تعين عليهم ان يحملوه ، اذ رمى بنفسه الى الوراء ، وراح يجرجر قدميه بوهن على الأرض ، ويتشبث بالحرس القوزاق ، ثم شخص بنظرة إلى الاعلى وهو يهز وجهه الذي علته الدموع :

ـ اتركوني ، أيها الأخوة! اتركوني بحق الرب! أيها الاخوة! أيها الاخوة! ماذا انتم فاعلون! لقد نلت أربع أوسمة في الحرب الألمانية . ولدي أطفال . رباه ، انني بريء ، آه ، فيم تفعلون هذا ؟...

فركله قوزاقي مديد القامة برجله على صدره وجره صوب الحفرة . وهنا تميزه بودتيلكوف ، فجمد قلبه : كان واحداً من أشجع رجال الحرس الأحمر ، رجلاً نال الدرجات الأربع كلها لوسام القديس غيورغي ، فتى وسيماً أشقر الشعر . ثم رفعه القوزاق وأوقفوه على قدميه ، ولكنه مالبث ان تهاوى أيضاً وراح يتشبث بأقدامهم ، ضاغطاً شفتيه على جزماتهم ـ على الجزمات التي كانت تركله على وجهه ـ ويجأر بصوت مختنق كسير :

ـ لا تقتلوني! ارحموا حالي! فلدي ثلاثة أطفال صغار ، بينهم بنت... ياإخوتي ، يا أصدقائي!

واحتضن ركبتي القوزاقي الطويل ، غير ان الرجل تخلص منه ، ووثب

الى الخلف ، وسدد له ركلة حامية على أذنه بكعبه المنعل بالحديد . فسال الدم من أذنه الأخرى وجرى حدر ياقته البيضاء .

فصرخ سبيريدونوف بغضب :

ـ اوقفوه!

ورفعوه بصورة ما ، وأوقفوه وهرولوا الى الخلف . وفي الصف المقابل رفعت ثلة المتطوعين بنادقها استعداداً . وصدر عن الحشد أنين ، ثم ران عليهم صمت لا يرين . وأعولت امرأة بصورة هستيرية .

أما بونتشوك فقد تاق مرة أخرى وأخرى إلى النظر الى بساط السماء الرمادي ، والى الأرض الحزينة التي ظل يجوبها ويعاني فيها تسعة وعشرين عاماً . ورفع عينيه ، فرأى صف القوزاق المتراص على بعد نحو خمس عشرة خطوة . رأى رجلاً طويلاً ، ذا عينين خضراوين محاوصتين ، وعلى حاجبه الأبيض الضيق خصلة الصبابة* ، وشفتاه مزمومتان ، وقد مال بجسده الى الامام ، يهدف الى صدر بونتشوك تماماً . وقبل أن يدوي الرصاص مباشرة أصمّت أذني بونتشوك صرخة مستطيلة . فالتفت فاذا بامرأة شابة نمشاء تندفع من الحشد وتولي الأدبار شطر القرية ، واحدى ذراعيها تشد رضيعاً الى صدرها ، والأخرى على عينيه .

وبعد أن أطلقت ثلة الرمي رشقتها غير المنتظمة ، على الرجال الثمانية الذين كانوا واقفين عند الحفرة وسقطوا في خط مضطرب ، هرولت الثلة الى الحفرة ، وعندما رأى ميتكا كورشونوف الجندي الأحمر الذي هدف نحوه مازال يتضور وينهش كتفه ، سدد اليه طلقة أخرى وهمس لاندريه كاشولين :

ـ انظر الى الشيطان! لقد عض كتفه حتى نزف دماً ، ومات ميتة الذئب ، دونما أنة .

---

* خصلة شعر يتزين بها شباب القوزاق الذين يسعون وراء النساء . المترجمون

وافترب عشرة محكومين آخرين من الحفرة يستحثهم الحرس بأعقاب البنادق .

وبعد الرشقة الثانية عاطت النسوة وسط الحشد وولين الأدبار ، متدافعات مجرجرات أطفالهن وراءهن ، وشرع الرجال كذلك يبتعدون عن المكان . لقد كان مشهد الاعدام الكريه ، وصراخ وأنين المحتضرين ، وصياح الذين ينتظرون دورهم ، مؤثراً للغاية ، كان ذلك المشهد الفظيع أكثر مما يحتمله المتجمهرون ، ولم يبق غير رجال خط الجبهة الذين ألفوا منظر الموت ، ومن الشيوخ أشدهم صلابة .

وجيء بوجبات جديدة من الحرس الأحمر الحفاة العراة ، فواجهتهم صفوف جديدة من المتطوعين ، وانطلقت الرشقات تتبعها اطلاقات فرادى تشق الهواء لتجهز على الجرحى . وأهيل التراب في الحال على الوجبة الأولى من الجثث في الحفرة . ومضى بودتيلكوف وكريفوشليكوف صوب الآخرين الذين ينتظرون دورهم وحاولا أن يبثا فيهم الصلابة . غير أن كلماتهما قد فقدت كل معنى : فلقد هيمنت قوة أخرى على هؤلاء الرجال الذين سيتساقطون بعد دقيقة أو اثنين كما تتساقط الأوراق الذاوية من الأغصان .

وشق غريغوري ميليخوف طريقه بين الحشد ليعود الى القرية ، فصار وجهاً لوجه أمام بودتيلكوف . فخطا قائده السابق خطوة الى الوراء وجعل يحدق فيه :

ـ حتى أنت هنا ياميليخوف ؟

فاكتست وجنتا غريغوري شحوباً أزرق ، وتوقف وقال :

ـ أنا هنا ، كما ترى...

فابتسم بودتيلكوف ابتسامة مزدرية وقال : ـ أجل ، أرى... ـ وحدق في وجه غريغوري بحقد مفاجيء وأردف : ـ حسناً ، فأنت تقتل اخوانك اذا ؟ هل قلبت بطانة سترتك ؟ يالك من... ـ وتقدم من غريغوري وهمس : ـ اذاً

فأنت حاضر لخدمتنا ، ولخدمتهم أيضاً ، أرى أنك تخدم من يدفع أكثر ؟ يا لك من!...

فأمسك غريغوري بكمه وسأله مبهور النفس :

ـ هل تذكر المعركة في غلوبوكايا ؟ هل تذكر كيف أعدموا الضباط ؟ أعدموهم حسب أوامرك ، ها ؟ والآن جاء دورك . لا تحزن! فلست الوحيد الذي يمتلك صلاحية سلخ جلود الرجال! لقد انتهى أمرك يارئيس قوميساري الدون! أيها الخنزير القذر ، لقد بعت القوزاق لليهود! أتفهم ، أم تريد سماع المزيد ؟

واحتوى خريستونيا غريغوري الهائج بذراعه ومضى به . وقال له :

ـ لنعد الى الخيل . فليس لدينا ما نفعله هنا . يا إلهي ، ماذا دهى الناس ؟...

ولكنهما توقفا لما سمعا صوت بودتيلكوف قد ارتفع بحماس . وراح يصيح ، بين شيوخ ورجال خط الجبهة :

ـ أنتم عُمي... جهلة! وهل ستعتقدون أنها ستنتهي بموتنا ؟ كلا! فاليوم أنتم الأعلون ، أما غداً فسيأتي دوركم وتعدمون . ان حكم السوفييتات سيقام في كل أنحاء روسيا . تذكروا كلماتي! انكم تريقون دماء الآخرين دونما طائل! ولستم سوى شرذمة من الحمقى .

فردّ عليه رجل عجوز :

ـ سنعالج أمر كل من يأتي الينا!

فقال بودتيلكوف باسماً :

ـ لن تقدر على قتلهم جميعاً ، أيها الجد! لن تقدر على وضع كل روسيا على المشانق! بل حافظ على رأسك أنت . وسوف تعيد النظر في الموضوع يوماً ما ، ولكن بعد فوات الأوان .

ـ لا تهددنا!

ـ لست مهدداً! إنما أريد أن أريكم السبيل السوي .

ـ انك لأعمى يابودتيلكوف . لقد أعمت موسكو بصيرتك .

ولم يلبث غريغوري ليصغي أكثر من ذلك ، فمضى مسرعاً يكاد يركض ، صوب الفناء حيث ربط حصانه ، وأحكم شد حزام سرجه ومضى هو وخريستونيا هذباً خارج القرية وجرى على التلال دون أن يلقي نظرة الى الخلف .

ولكن القوزاقي ظل يقتل أخاه القوزاقي في بونوماريوف . وامتلأت الحفرة بالجثث بعد أن أعدم جميع أفراد الحرس الأحمر . وأهيل عليهم التراب وديس بالأقدام . وقاد ضابطان يرتديان قناعين أسودين بودتيلكوف وكريفوشليكوف ، الى المشنقة . واعتلى بودتيلكوف الكرسي تحت الانشوطة ، جريئاً أبياً مرفوع الرأس ، وفك ياقته من حول عنقه الأسمر المتين ، ووضع بنفسه الحبل حول رقبته دون أن تند عنه اختلاجة . وساعد أحد الضابطين كريفوشليكوف على ارتقاء الكرسي ، ووضع الحبل حول رقبته .

فطلب بودتيلكوف قائلاً :

ـ اسمحوا لنا أن نقول كلمة أخيرة قبل موتنا .

ـ تكلم! هيا!

فبسط يديه نحو الجمع الصغير المتبقي . وشرع يقول :

ـ انظروا كيف لم يبق سوى القليل ليتفرجوا على موتنا! ان ضميرهم يعذبهم . اننا باسم الشعب الكادح ، ولمصلحته ناضلنا ضد حثالة الجنرالات ، مضحين بأرواحنا . وها نحن نموت على أيديكم! ولكننا لا نصب اللعنات عليكم! فقد غرر بكم أيما تغرير . وسوف تأتي الحكومة الثورية وستعرفون مع من كان الحق .

لقد ألقيتم بخيرة أبناء الدون الهادىء في تلك الحفرة...

فعلا هدير الأصوات ، وضاعت كلماته في الجلبة ، فاستغل أحد الضابطين هذه الفرصة ، وركل الكرسي من تحت قدميه فهوى جسم

بودتيلكوف الضخم وراح يتأرجح غير أن قدميه لامستا الأرض وخنقته العقدة المشدودة الى عنقه واضطرته إلى ان يشرئب بنفسه الى الأعلى . واستوى على أطراف أصابعه ، وراح ينشد الهواء ، وأصابع قدميه الحافيتين تحفر في الأرض الرطبة . وقال بهدوء وهو يجيل بين الحشد بعينيه الجاحظتين :

ـ حتى شنق الرجال لم تتعلموه كما ينبغي... ولو كنت أنا القائم بالمهمة ، لما جعلتك تلمس الأرض ياسبيردونوف!...

وسال اللعاب من فمه ، فرفع الضابطان المقنعان وأقرب الرجال اليهما الجسد الثقيل الذي لا حول له ووضعوه بصعوبة على الكرسي .

أما كريفوشليكوف فلم يسمح له بانهاء خطابه . فقد قذف بالكرسي من تحت قدميه فارتطم بمسحاة مهجورة . وظل جسده مشدود العضل يتأرجح الى الأمام والوراء وقتاً طويلاً ، ويتقلص إلى كتلة متكومة حتى لاصقت ركبتاه الذقن ، ثم مالبث أن انبسط ثانية وهو ينتفض في اختلاجة النزع . كان مايزال ينازع ، ولسانه الأسود الناتىء يتضور ، عندما ركل الكرسي ثانية من تحت بودتيلكوف . ومن جديد هوى جسمه بقوة ، وانقصم سلك سترته الجلد من الكتف ، لكن أطراف أصابعه بلغت الأرض ثانية .

فسرى في حشد القوزاق أنة متوجعة ، ورسم بعضهم اشارة الصليب وابتعدوا مسرعين . لقد بلغ بهم الفزع والارتباك حداً عظيماً ، حتى أنهم وقفوا جميعهم برهة وكأنهم مشدودون الى الأرض ، يحدقون برعب في وجه بودتيلكوف الذي احتقن بالسواد .

ولكنه لم يقو على الكلام ، فقد شدت العقدة عليه الخناق ، وراح يجيل بعينيه اللتين كانت تسيل منهما الدموع ، ويلوي فمه . وأخذ يجاهد للتخفيف من ألمه ، فشد جسمه بكامله الى الأعلى بصورة موجعة فظيعة .

وأخيراً فكر أحدهم في حل ، فأخذ يحفر الأرض من تحته بمسحاة . ومع كل ضربة مسحاة كان جسده يزداد توتراً ، وتستطيل رقبته أكثر فأكثر ويتدلى رأسه على كتفيه ، ولم يتحمله الحبل إلا بصعوبة ، فقد كان يتأرجح

ببطء ، ويصر عند العارضة . وراح بودتيلكوف يتأرج أيضاً متجاوباً مع حركته الايقاعية ، ويستدير الى جميع الجهات كإنه يعرض أمام قاتليه وجهه الأزرق المسود ، وصدره الذي يفيض بسيل حام من اللعاب والدموع .

٣١

ترك ميشا كوشيفوي والولد كارغين في الليلة الثانية بعد هروبهما من تاتارسكي . كان ضباب يلف السهب ، متجمعاً في الحفر ويزحف صعد سفوح الوهاد العميقة . وكانت طيور السلوى تتنادى في العشب الغض . وفي أعالي السماء طفا القمر أشبه بالزنبق المائي المتفتح في بحيرة علاها القصب والحلفاء .

ظلا يسيران حتى الغبش ، وأخذت المجرة تتلاشى في السماء ، وكان الندى يتساقط . واقتربا من احدى القرى . ولكن ستة فرسان من القوزاق أدركوهما قبل القرية ببضعة فراسخ . وحاول ميشا والولد أن يغيرا طريقهما ، غير ان الحشيش كان قصيراً ، والقمر طالعاً . فألقى القوزاق عليهما القبض وعادوا بهما نحو كارغين . وقطعوا نحو ثلاثمئة ياردة دون أن ينبس أحد ببنت شفة ، ثم علا أزيز اطلاقة . فتعثر الولد بقدميه وراح يمشي مترنحاً ، أشبه بحصان يخاف من ظله . لم يهو ، لكنه انثنى على الأرض بصورة مرتبكة ، وشد وجهه إلى نبات الشيح الرمادي .

وواصل ميشا السير خمس دقائق ، وهو يتعثر ، دون أن يشعر بشيء سوى رنين في أذنيه . ثم تساءل :

ـ لِمَ لا ترمون أيها الخنازير ؟ فيم تعذبونني ؟

فقال أحد القوزاق بنبرة عطوف :

ـ امش ، امش! وامسك لسانك! لقد قتلنا الفلاح ، ولكننا رأفنا بحالك . لقد كنت في الكتيبة الثانية أثناء الحرب الألمانية ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ حسناً ، ستؤدي الخدمة مرة أخرى في الثانية عشرة . فأنت ماتزال شاباً ، لقد شططت بعض الشيء ، ولكن ذلك ليس بالإثم الكبير . لسوف نشفيك من علتك .

وبعد ثلاثة أيام « أشفت » ميشا محكمة عسكرية عقدت في كارغين . وفي تلك الأيام كانت المحكمة توجه نوعين من العقوبة : الرمي بالرصاص ، والفلقة ، وكان المحكومون بالاعدام يساقون إلى السهب في الليل . أما أولئك الذين كان ثمة أمل في صلاحهم فيجلدون علناً في الساحة .

وفي صباح الأحد بدأ الناس يتجمهرون ، مالئين الساحة ومتسلقين على المصاطب ، والسقائف ، وسقوف البيوت والحوانيت .

كان أول من نال العقاب ابن قسيس . كان الرجل بلشفياً صلباً ، وكادوا أن يعدموه ، بيد أن أباه كان قساً صالحاً ، يحترمه الجميع ، ولذا قرروا أن ينفحوا ابنه عشرين جلدة . فشلحوه سرواله وطرحوه عارياً على مصطبة وأوثقوا يديه سوية تحتها ، وقعد قوزاقي فوق ساقيه ، ووقف الى جانبه اثنان آخران يحملان حزماً من أغصان الصفصاف المبللة . وشرعا بالضرب . وعندما انتهيا نهض الرجل ، وخض نفسه ، وسحب سرواله ، ثم انحنى باحترام لجميع الحاضرين في كل الاتجاهات الأربعة . كان في منتهى السعادة لأنه تخلص من الاعدام ، ولهذا انحنى معرباً عن امتنانه :

ـ شكراً لكم ، أيها الشيوخ!

فأجابه أحدهم :

ـ كان ذلك مبعث سرور لنا!

وهكذا غصت الساحة بهدير من الضحك حتى أن الأسرى الجالسين على مقربة يسيرة منهم داخل سقيفة علت وجوههم البسمة .

وعلى هذا المنوال ، أتحفوا ميشا عشرين من أجود الجلدات بيد أن عاره كان أعظم فكل المنطقة بشيوخها وشبابها تجمعت لتتفرج عليه وشد

ميشا سرواله وقال للقوزاقي الذي جلده وهو يكاد ينتحب :

ـ هذا اخلال!

ـ بأي شيء ؟

ـ عقلي هو الذي فكر ، وكان على عجيزتي أن تدفع الثمن . سأظل بقية حياتي أحس بالعار .

فقال له القوزاقي معزياً :

ـ «لا تقلق ، فالعار ليس كالنار ، انه لن يلتهم عينيك ، ـ وأضاف ليشجع ضحية سوطه : ـ أنت قوي ياولدي! لقد كانت ضربتان مما نفحتك قويتين حقاً . أردت أن أرى فيما اذا كنت ستبكي ، ولكنني لم أستطع أن أنتزع منك الدموع . وقبل بضعة أيام جلدوا رجلاً فلم يستطع ضبط بطنه . لابد أن أمعاءه ضعيفة .

وفي اليوم التالي أرسل ميشا الى الجبهة .

ولم يدفن الولد الا بعد يومين . لقد أرسل الأتمان قوزاقيين من أقرب قرية فحفرا له قبراً غير عميق . وجلسا يدخنان وسيقانهما مدلاة في الحفرة . قال أحدهما :

ـ ان الأرض قوية هنا .

ـ مثل الحديد . فلم يسبق لها أن حرثت طيلة حياتي ، وهكذا تصلبت على مر السنين .

ـ أجل ، ان الفتى سيرقد في أرض طيبة ، على رابية . وتأتيها هنا الريح والشمس ، انها جافة . ولن يتفسخ بسرعة .

وألقيا نظرة على جثة الولد المضغوطة في العشب ، ونهضا .

ـ هل نخلع جزمته ؟

ـ بالطبع . انها جزمة جيدة .

وأرقداه في القبر على الطريقة المسيحية ، حيث جعلا رأسه الى الغرب ، وأهالا بالمسحاة التراب الأسود الثر فوقه .

وسأل أصغرهما سناً حين بلغ التراب مستوى الحواف :

ـ هل نسويه بأقدامنا ؟

فتنهد الآخر وقال :

ـ لا حاجة ، أتركه! فحينما تنفخ الملائكة بالصور الأخير سيكون من الأيسر له النهوض على قدميه .

وفي غضون أسبوعين نما على الرابية نبات الشيح والأرقطيون ، وراحت سيقان الشوفان البري تتراقص فوقه ، وأزهر اللفت على جانبيه بصفرة بهيجة ، وارتفعت سيقان البرسيم ، وفاح الهواء بالسعتر والشبرم والندوة العسلية .

وبعد ذلك بأيام ذهب رجل عجوز الى خارج القرية ، واحتفر حفرة صغيرة عند رأس القبر ، وأقام هيكلاً صغيراً على عمود نُحِت من بلوطة خضراء . فراحت معالم العذراء الحزينة تشع برقة تحت الجملون الصغير ، وفي القاعدة تحتها نقشت كتابة باللغة السلافية القديمة :

أيها الناس ، لا تدينوا أخا لكم

في أيام الحرب والمصائب .

وعاد العجور على صهوة جواده وبقي الهيكل الصغير في السهب ليبعث الأسى في عيون عابري السبيل بمنظره الأليم أبداً ، وليثير في قلوبهم حنيناً غريباً حزيناً .

وبعد ذلك ، في أيار ، راح اثنان من طيور الحباري يتصارعان حول الهيكل . وأحدثا فسحة صغيرة جرداء في الشيح الأزرق ، وسحقا الجزء الأخضر النامي لعشب الأرائك ، وهما يتنازعان على الأنثى ، ليجددا الحياة ، والحب والخصب . وبعد ذلك بقليل وضعت أنثى الحباري تسع بيضات زرق مضببة مرقشة ، تحت رابية تقع تحت الهيكل تماماً ، في الظل المهلهل لنبات الشيح الشائخ ، ورقدت فوقها ، لتبعث الدفء فيها ، وتحميها بجناحيها الزاهيين .







ميخائيل شولوخوف

نوبل ١٩٦٥

توغلت الثورة الى الدون . وأرض قوات الدون كانت دعامة لجيش المتطوعين ، معسكر أعداء الثورة وفيها بلغ تاريخ الحرب الأهلية مأساويته الدموية أكثر من أي مكان . فكان على القوزاق جميعاً ، وليس على غريغوري ميليخوف وحده أن يتخذوا اختيارهم الحاسم : في صف مَنْ هم ؟ ولكن ليس واضحاً دائماً أين تكون الحقيقة الأصيلة . ويراق الدم في كلا المعسكرين...

عداء الرجال الدموي ـ ونزال امرأتين تحبان غريغوري : أكسينيا وناتاليا . ولا يهم أن تكون جهنّم الحرب حولهما ، والامبراطوريات تتهادى ، وتقع ثورات ، فإن حب غريغوري ، بالنسبة لهما ، أهم من نتيجة الحرب الأهلية...

ISBN => 2-84305-089-8
EAN => 9782843050893